رواية

ثورة ٢٠٥٣

(الجزء الثانى)

البداية .. مرة أخرى



محمود عثمان

ثورة ٢٠٥٣
(البداية.. مرة أخرى)
الجزء الثانى

تأليف: محمود حسن عثمان

موقع إليكترونى: www.gsenlightment.com

الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠٠٩
الغلاف : " تصميمات هانى محفوظ "

ثورة ٢٠٥٣

الجزء الثانى

(البداية.. مرة أخرى)

إهداء

إلى من نفح فيَّ نعمة الحياة ووهبنى كل شىء طمحت إليه وأنا مازلت عاجزا عن تحقيق شىء مما كلفنى به... حتى الآن!

القاهرة الكبرى القديمة ١٦ يوليو ٢٠٥٣

شكرا لكم

لا أدرى ما الذى أيقظنى الآن؟ الساعة الثالثة والنصف فجرا ووجدت نفسى أنتفض فجأة وكأن صاعقة ما مستنى. هل كنت أنام فعلا أم كنت أعانى من الأرق؟ لا أستطيع التحديد... كل ما أنا متيقن منه الآن أننى شعرت برغبة محمومة فى بدء الإرسال، وهاأنا ذا أفعل ذلك.

لماذا أفعله الآن؟... لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال ولكنه يبدو لى أمرا صائبا ... على الأقل فى هذه اللحظة.

الطبيعى أن أبدأ نشر الجزء الثانى من مذكراتى بعد الانتهاء من كتابتها، ولكننى قررت أن أفعل هذا الآن وأنا لم أنته بعد من تدوين نصف الأحداث التى مررت بها. لماذا أفعل ذلك؟... هل لأنه يراودنى إحساس قوى بأنه ليس لدى وقت طويل لأنتهى من كتابتها؟...لا أدرى... لا أدرى...

أشعر وكأننى أصارع قوة ما تريد أن تستبقنى وتكشف لى عبث ما أفعله، فقد كان الزمن دوما يعاندنى طوال حياتى ليشعرنى بأن كل أفعالى جاءت دوما متأخرة وبلا أى تأثير على مجريات الأحداث. ولكننى هذه المرة لن أتردد ولن أفكر كثيرا، وها هى نصف المذكرات تصلكم الآن وسأقوم بالإرسال المباشر للجزء المتبقى منها أثناء كتابته.

أحس بارتياح خفى وأنا أقوم بهذا، على الأقل أنا أضمن الآن أنكم تعلمون نصف ما حدث. ليس هذا فقط، بل إننى آمل أن أنتهى

من إعلامكم بالحقيقة كاملة قبل حلول "ساعة التوقف". ونظرا لعدم درايتى بميعادها الدقيق فإننى أعدكم بسرعة كتابة النصف الثانى وإرساله مباشرة دون مراجعة، مستخدما كل الوسائل الممكنة ودون التقيد بأى دواع أمنية للإبقاء على سرية هويتى. فأنا على يقين الآن من خلال متابعتى لتسارع أحداث الأسابيع الماضية بأنه لم يعد هناك جدوى من الحرص، خاصة وأن كل الأجهزة الأمنية مستنفرة، رافعة حالة التأهب القصوى لمواجهة " ثورة ٢٠٥٣". هذا طبعا إذا كان مقدرا لها الانتقال من العالم التخيلى إلى عالمنا الواقعى.

وقبل أن أترككم لاستكمال باقى مذكراتى أود أن أعلق على ردود الأفعال التى وردتنى من قرّاء الجزء الأول:

<u>أولا:</u> معظمكم، أيا كانت طريقة التواصل التى استخدمتموها، تحدثتم فى المقام الأول عن أنفسكم و ليس عما قرأتموه، مما جعلنى أتبين أعظم اكتشاف لى فى حياتى وهو **أننى لست وحيدا**. فهناك تطابق مذهل بينى وبينكم فى أحاسيسكم وأفكاركم وإيمانكم، بل إن بعض التعليقات التى وردتنى شعرت عند قراءتها وكأننى أنا من كتبتها. أشكركم جميعا على هذا الإحساس الباعث على الأمل والتفاؤل والذى لا يضاهيه إحساس آخر فى الوجود.

<u>ثانيا:</u> كلكم دون استثناء تتعرضون مثلى إلى أزمات صعبة، ولحظات اختيار فارقة فى حياتكم. كلكم تحاولون بإيجابية شديدة الخروج من المأزق الذى يحكم قبضته علينا جميعا. يباغتكم أثناء هذه المحاولات المضنية الشك في جدوى ما تفعلونه وفى إمكانية إنقاذ المركب قبل الغرق. وأنا لا أستطيع أن أجزم بأن عدم الانضمام إلى من اختاروا تركنا وسط العاصفة السوداء هو أمر

حكيم، ولا أستطيع أن أحكم على من هجرونا ليبحثوا عن طريق سعادتهم فى مكان آخر.
ولكننى على يقين من أن لكل فعل إيجابى يتم عمله بنية خالصة من أجل الآخرين، مردودا ما قد لا نكتشفه خلال حياتنا. كما أننى على ثقة بأنكم جميعا، أقصد المنتمين إلى الفئة المناضلة التى قررت البقاء، أقرب لاكتشاف الهدف الذى خلقنا جميعا من أجله. وطالما أمثالكم ما زالوا يتشبثون بالمركب فالأمل دوما موجود فى النجاة.

ثالثا: كلكم تحدثتم عن البلد والإصلاح بنفس الحماسة والقناعة الراسخة دون أن يشير أى منكم إلى أى انتماء سياسى أو حزبى أو عقائدى، وهذا يؤكد اعتقادى الراسخ بأن **الإيمان المشترك بدورنا فى جعل هذا المكان أفضل هو إيمان حقيقى منبعه إنسانيتنا الحقة التى وهبنا الله إياها. هذا الإيمان العظيم قادر على توحيدنا جميعا رغم اختلافاتنا.**

رابعا: البعض ذكر تعليقات على موت غريب تشير إلى اللغط الذى أثير حول هذا الموضوع عندما أعدت تشغيل أجزاء من موقع "إنليتمنت" فى مرحلة لاحقة، كما سيتضح من خلال هذه المذكرات. وكما تعلمون فقد ظهرت مجموعة أخذت على عاتقها استكمال أعمال غريب؛ مما جعل كثير من مرتادى الموقع يعتقدون بأنه لا يزال حيا. أما أفراد "الحركة" الذين تيقنوا من وفاته فقد بدأ يظهر بينهم خلاف فى تفسير طريقة موته. وقد تسبب التركيز على هذه الاختلافات فى كثير من الانشقاقات العبثية التى عجزت عن فهم الهدف منها أو جدواها.
وكعادتنا تم شخصنة كل الأيدولوجيات التى آمن بها البعض فى شخص غريب، ولهذا اعتبر الكثيرون تقبل موته أو طريقته مسألة

مصيرية فى الإيمان بما نادى به. وأنا أود هنا أن أشير إلى بعض الأمور:

- **الأمر الأول** هو أننى لم أختلق طريقة موته كما أشاع البعض، والأحداث كانت بنفس البساطة التى سردتها بها. أما كل من كذبنى وقال إننى لم أتأكد من وفاته فى ذلك اليوم فسوف أرد عليه بأن غريب كان بالفعل ميتا عندما قابلته فى المصحة، بعد أن توقف عن الحلم. والحقيقة الوحيدة التى تهمنى هى أنه لولاه لما كنت موجودا الآن، فقد ضحى بنفسه من أجلى أنا وأختى، وهذا أمر أنا متيقن منه.

- **الأمر الثانى** ودون الدخول فى تفاصيل الجدل الذى أثاره موت غريب- والذى سيتضح بعد ذلك من خلال قراءتكم- أننى أود أن أذكركم أن رسالة غريب كانت دوما **دعوة للإصلاح والعودة إلى إنسانيتنا المفتقدة**. وقد نجح غريب فى أداء هذه الرسالة وأثر فى كل من عرفهم وكثير ممن لم يعرفهم. وأنا واحد من هؤلاء الذين لن ينسوا أبدا ما أيقظه بداخلى من خلال حبه غير المشروط لى ولكل الناس. فبالنسبة لى وللكثيرين، غريب لا يزال حيا بداخلنا يبعث فينا الأمل فى كل لحظة نتذكره فيها.

وقبل أن أعود لكتابة النصف الثانى من المذكرات أود أن أشكر كل الذين أسعدونى وأكدوا لى من خلال تعليقاتهم أن ما أفعله له معنى. فقد أشعرونى أن البلد ما زال بخير طالما أن هناك هذا العدد الضخم الذى تشغله مثل هذه القضايا ويخاف على هذا الوطن، ويصر على التمسك بالجزء المؤمن بالخيروالعدل داخلنا. هذا الجزء الذى أصبح التمسك به يتطلب شجاعة وعزيمة بل وبطولة توازى بطولات أشد الحروب ضراوة. شكرا لكم مرة أخرى، فقد جعلتمونى متيقنا **بأنه لا يزال هناك أمل.**

أود أيضا أن أشكر كل من تأثر بهذه المذكرات ولم تواته القدرة لأى سبب من الأسباب على الكتابة لى. قد يبدو هذا غريبا إلا أننى شعرت بكم أنتم أيضا تتواصلون معى، ففى كثير من الأحيان كنت أتوقف عما أفعله مستشعرا أن هناك فى تلك اللحظة تحديدا، فى مكان ما، إنسانا يتفاعل بصدق مع ما كتبته، فتصلنى أحاسيسه لتمس وجدانى من خلال شحنة إيجابية تضفى معنى على كل ما أفعله.

ملاحظات:

١- أعتذر عن عدم الدقة فى توثيق تواريخ الجزء الثانى من المذكرات بالرغم من اعتيادى تدوين كثير من الخواطر والمذكرات منذ عام ٢٠٢٦، ويرجع هذا إلى سببين:

السبب الأول هو توقفى شبه التام عن استخدام السكرتير الإليكترونى منذ ذلك التاريخ.

السبب الثانى هو امتناعى عن تدوين أى شىء منذ تأسيس "الحركة" لدواع أمنية بحتة. فقد تجدون أجزاء كثيرة غير دقيقة وغير مرتبة ويعود ذلك لكتابتى لها مؤخرا، دون أى مرجع سوى ذاكرتى، والتى أعتذر لكم بأنها ضعيفة للغاية.

٢- تم حذف كل المواقف ذات الطابع الشخصى والتى لا ترتبط بالأحداث المعنى بها القارئ.

٣- برجاء الوضع فى الاعتبار أن الأمن لن يتوصل قط إلى هذه المذكرات بسبب تشفيرها بصورة تسمح فقط لأعضاء الحركة

الناشطين بالولوج إليها. وإمعانا فى الحيطة، فقد تم تغيير كل أسماء الأشخاص والأماكن حتى لا أتسبب فى مشكلة لأى انسان. بل إن وصف القرية التى زرتها فى هذه المذكرات يختلف كلية عن "البلينا" الحقيقية ولكنه يتطابق مع قرية أخرى قريبة من الأقصر تفاديت عمدا ذكر اسمها الحقيقى.
وبالرغم من ذلك، فحتى إذا توصل الأمن لهذه المذكرات وتمكن بمعجزة من التوصل لفك شفرتها، ففى تقديرى أنه لن يتخذ أى إجراء لأن أولوياته ومشاكله الآن أصبحت أكبر وأخطر من ذلك بكثير.

٤- طوال إدارتى لموقع "الحركة" الإليكترونى كان يرد إلىَّ يوميا حجم ضخم من المواد المكتوبة المجهولة المصدر والتى تجاهلت نشرها حينذاك، ونتيجة لسياق أحداث هذه المذكرات فقد اضطررت الآن لنشر بعض هذه المواد. بعضها نشرته أثناء سرد الأحداث لارتباطه الوثيق بها والآخر نشرته فى ملحق خاص منفصل فى نهاية المذكرات.
برجاء الأخذ فى الاعتبار بأننى لست مسئولا عن محتوى هذه المواد، ولا أحاول الترويج للأفكار الموجودة بها أو إقناعكم بها بأى شكل من الأشكال. ففى النهاية كل واحد منكم مسئول عن الحقيقة التى يرغب فى استخلاصها مما يقرأه.

محمد نصار

الأحد ٢٦ يوليو ٢٠٢٦

المسئولية

أتذكر هذا التاريخ جيدا لأننى كنت قد انتهيت فى اليوم السابق من توثيق كل ما قد حدث لى خلال الأربعة أشهر الماضية. وبالرغم من أنه قد انتابنى ارتياح ما عند انتهائى من الكتابة فإننى فقدت تماما الرؤية الواضحة التى كانت لدى يوم ٣ يوليو، آخر يوم قابلت فيه غريب فى المصحة. فقد أصبحت أكثر تشويشا من ذى قبل عندما أفكر فيما ينبغى علىَّ فعله وفى كيفية المضى قدما فى حياتى.

لا أدرى لماذا بعد أن تكشفت لى هذه الرؤية الواضحة فى ذلك اليوم، أعجز تماما الآن عن تصور إمكانية تحقيقها. وكلما حاولت عبثا تتبع طريق ما للبداية كان عقلى يضع لى ملايين من العراقيل الصغيرة التى تنسف تماما أى محاولة لإيجاد أى مخرج منطقى.

وبالرغم من اختلائى بنفسى طوال الأسابيع الثلاثة الماضية فإننى عجزت عن الوصول إلى أى قدر من السكينة الداخلية. بل إنه بمرور الوقت بدأ ينتابنى إحساس متنام بتأنيب الضمير لعجزى عن تصور شىء له معنى. حتى المذكرات التى كرّست كل ساعات يقظتى ومنامى من أجل تدوينها لم أدر ماذا أفعل بها فى ذلك اليوم، فقمت بحفظها مع الصندوق الأسود لموقع غريب فى مكان سرى فى مكتبى. وقد استغرقت يومين كاملين للوصول إلى قرار عدم نشرها بعد صراع داخلى عنيف، فكانت صورة فرح ووالدتى بل وتساؤلات كثيرة عن مستقبلى أنا شخصيا تقفز إلى ذهنى كلما بدأت التفكير فى بثها، وخاصة لعدم تيقنى من جدوى هذا العمل المتسرع الذى فى الأغلب لم يكن ليؤثر فى شىء فى

ذلك الوقت. نعم لقد استغرق اتخاذ قرار إرسال الجزء الأول من مذكراتى سبعة وعشرين عاما... ما يقرب من ثلاثة عقود من التردد... ولكن، على الأقل الآن، أنا على يقين من أن ما أفعله له معنى، ومؤثر بصورة ما، أو على الأقل هذا ما أتمناه وأرغب فى تصديقه.

أيقظنى فى ذلك اليوم رنين جرس الباب، والذى أوحى لى من سرعة دقاته أن القارع ينتظر منذ فترة طويلة. كنت قد أوقفت النظام الذكى للمنزل عن العمل منذ أن عدت إليه، ولم يتبق أجهزة تنبيه تعمل سوى هذا الجرس العتيق الذى قمت بتشغيله منذ يومين. فتحت الباب فى تثاقل وأنا لم أفق تماما فوجدت حسن يرمقنى بنظرات لهفة وجزع شديدين. هجم علىّ يحتضننى بعنف حتى كدنا نقع سويا على الأرض.

- قلقتنا عليك يا بشمهندس، كنت فين؟

- ...

- أشهر وأنا أحاول الوصول إليك دون جدوى.... يوميا أسأل عليك فى المكتب وأتصل بك فى المنزل وأجرب كل أرقامك الشخصية دون جدوى، حتى والدتك كنت أزعجها كل شوية وهى فى أمريكا حتى علمت منذ حوالى شهر أنك عدت من السفر، ومن ساعتها آتى إلى هنا كل كام يوم دون أن يفتح أحد الباب... بالرغم من أننى لاحظت وجود إضاءة بالداخل عدة مرات...

- ...

- هو إنت كنت مسافر يا بشمهندس؟

- ...

- أنا آسف، الظاهر أننى أيقظتك... يبدو إنك كنت نائم، لكن أعذرنى إحنا كنا قلقانين جدا عليك... سأتركك لتستريح الآن

وسأتصل بك لاحقا... لكن أرجوك قل لى كيف... لأنك على ما يبدو لا ترد على أية اتصالات!

- تفضل يا حسن، من غير المعقول أن نظل واقفين على الباب.

- لا...لا... سأتركك لتستريح وسأطلب تحديد ميعاد لمقابلتك لاحقا. المهم أننى اطمأنيت عليك.

- تفضل يا حسن. قلتها بإصرار وأنا أجذبه بقوة من يده.

قدته إلى بهو الاستقبال فجلس منكمشا محاولا مداراة ارتباكه. كانت هذه أول مرة يدخل فيها منزلنا فلاحظت أنه يحاول عبثا تفادى التلفت حوله فى اندهاش شديد. ظللت صامتا فترة حتى بادرنى فجأة كاسرا حاجز الحرج:

- لقد أطلت لحيتك...

ابتسمت ابتسامة باهتة وأنا أقول متجاهلا ملاحظته:

- كيف حالك وحال باقى العاملين بشركة والدى؟ ماذا حدث خلال الفترة الماضية؟

- والله يا بشمهندش لا أدرى ماذا أقول...

- تكلم بصراحة، لا تخش شيئا، فأيا كان ما ستقوله لن يكون بالسوء الذى يؤثر فىّ، لا تقلق.

صمت قيلا ثم رد بلهجة مترددة متفاديا النظر إلىّ:

- أنت تعلم يا بشمهندس إن الشركة أصلا كانت تواجه متاعب كثيرة حتى قبل... قبل وفاة الوالد. خلال الأشهر الماضية زاد الوضع سوءا لدرجة أن كثير من العاملين يفكرون فى الرحيل وخاصة فى ظل عدم وجود أى شخص لإدارة الشركة. أنت تعلم أن والدك كان يمسك بكل مقاليد الأمور.

- أتعنى أنه حتى الآن لم يترك الشركة أى مَن العاملين؟! لقد مضى حوالى أربعة أشهر وفى الأغلب لم يقبض أحد مرتبه!

- فى الواقع والدتك قامت، بمساعدة الأستاذ جلال المحامى، بتمكين المدير المالى من التصرف فى حساب الشركة البنكى وقد صرفنا حتى الآن مرتب شهر واحد... ألم تخبرك الوالدة؟
- فى الحقيقة أنا عدت منذ فترة وجيزة... ولم يتح لى حتى الآن التحدث معها... بخصوص أمور الشركة.
كنت أخجل من إخباره أن والدتى كانت تحاول الأسابيع الماضية إبلاغى تفاصيل العمل ولكننى كنت أرفض الاستماع وأرجئ الحديث لحين انتهائى من كتابة مذكراتى.
تشجع ليرفع رأسه وينظر إلىَّ مباشرة قائلا:
- حسنا... ولكن يا بشمهندس إحنا معتمدين عليك الفترة القادمة لتمسك بمقاليد الأمور وتكمل مسيرة الوالد.
- ولماذا تعتقدون أننى سأفعل هذا؟
- لا أدرى!... من الجائز أن... لا أدرى... ألن تفعل ذلك؟
- من الجائز ماذا؟ لقد كنت بصدد قول شىء. أرجوك يا حسن، إذا كنت بالفعل تريد مساعدتى، تكلم معى، منذ هذه اللحظة، بصراحة مطلقة دون تكليف...
- حسنا، حضرتك تريد الصراحة وأنا سأقولها لك حتى لو أغضبتك... أنا أعتقد أنها مسئوليتك أن تصلح الأمور ونحن نعلّق كل آمالنا عليك. فمن غير المعقول أن تترك البناء العظيم الذى تعب فيه والدك طوال حياته ينهار دون أن تحرك ساكنا لإنقاذه. لقد كانت الشركة هى حياته،... كما كان دوما يقول.
- ولكنها ليست بالضرورة حياتى، ومن الجائز أن يكون لدى مشاريع أخرى.
- والناس اللى فى الشركة؟! والبيوت المفتوحة؟! هناك أناس تعمل منذ تخرجها بهذه الشركة ولا تعرف شيئا سواها وخبرتها المتخصصة لا تقدر بثمن، كيف ستتركهم هكذا؟

- ماذا تعنى بـ "أتركهم"؟! لماذا يتعامل الناس مع أصحاب الشركة وكأنهم أهلهم الذين يرعونهم ويقررون لهم ما يفعلونه فى حياتهم؟!
- لأن الناس تعودت على ذلك. الواحد منا يلتحق بشركة ويعطيها كل ما عنده وينتظر أن تعامله الشركة بالمثل. ووالدك أثبت أنه أب حنون لنا جميعا وليس فقط رب عملنا. أى واحد منا كان يمر بمشكلة كان رحمه الله يحلها له دون تردد.
- حسنا، الظروف الآن تغيرت... وأنتم لم تقبضوا منذ ثلاثة أشهر وبالرغم من ذلك لم يترك أحد العمل، لماذا؟!
- لا أدرى، العشرة والعيش والملح. كما أن تغيير العمل قرار صعب علينا جميعا. هناك حاجز نفسى ثقيل يمنعنا من ترك الشركة.
أطرق قليلا قبل أن يستطرد:
- ... ممكن تعتبره خوف من المجهول. لقد تعودنا جميعا على الشركة، واللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش. وبصراحة أنا كنت باطمئنهم إنك أكيد راجع وحتصلح كل الأمور.
- لماذا فعلت ذلك؟ من قال لك أننى مستعد لتحمل هذه المسئولية؟
- ده قدرك يا بشمهندس، إنك تتحمل مسئوليات كبيرة...
- فى الزمن ده يا حسن، كل واحد لازم يكون لديه الشجاعة ليتحمل مسئولية نفسه، لأن هى دى الحقيقة فعلا، وهى إن كل واحد فينا مسئول عن نفسه.
- لكن يابشمهندس إحنا كان عندنا عشم كبير فيك!
- يعنى إيه عشم؟! الشغل ليس به عشم. المنطقى إنكم تكونوا بحثتم عن عمل آخر خلال الأشهر الماضية ومرتبين أحوالكم فى حال إغلاق الشركة!
- إحنا لم نتعود على أخذ قرارات مصيرية بهذه السهولة. عموما ربنا بيفرجها دايما وخصوصا إن أنا واثق إنك لن تأخذ قرار بقطع عيش أحد بهذه السهولة.

- ما هذا الكلام الذى بلا معنى؟! الشركة متعثرة منذ سنوات ومستمرة فى العمل بمعجزة، والمنطق يشير إلى أنها ستغلق فى أى وقت!
- ليه التشاؤم ده يا بشمهندس؟ الأمور كانت ماشية الحمد لله.
- ماشية دون جدوى اقتصادية وهذا أمر عبثى.
- على العموم إنت طلبت أكلمك بصراحة ولو سمحت لى أبدى رأيى؛ أنا ضد قطع عيش أى إنسان مهما كانت الظروف، فالرازق هو الله سبحانه وتعالى. أنا آسف إنى تدخلت فى اللى ماليش فيه، وعموما حضرتك حر تتصرف كما تشاء... ولكن فى النهاية من حق الموظفين عليك إنك تواجههم وتخبرهم بما تريد فعله... وأظن إن هذا يجب أن يتم فى أسرع وقت لأن حالتنا صعبة جدا وكلنا مدينون لطوب الأرض فى انتظار عودتك.

شعرت بحجر ثقيل يجثم على صدرى وإحساس مقبض بالذنب. وقفت لأصرخ فى وجهه بأشياء كثيرة لأفسر موقفى وبأن آخر شىء ينقصنى الآن هو حمل هم الموظفين الذين لن يهمهم معرفة أى شىء عن معاناتى. وجدت العبارات المتدافعة يخنقها عقلى فتحتبس فى حلقى وأشعر بمرارة شديدة تحرق جوفى.
وقف حسن مرتبكا وقد استشعر شحنة انفعالى المكتوم. بادرنى متلعثما وكأنه يندم على مصارحتى بهذه اللهجة الجريئة:
- أنا آسف يا بشمهندس أننى أثقلت عليك،... أنا مدرك للظروف الصعبة اللى حضرتك فيها وإن شاء الله ربنا هيفرجها... أتركك لتستريح فأنت تبدو منهكا تحتاج للراحة.
- ...
- مع السلامة، وأشوفك على خير قريبا إن شاء الله.
عند الباب شد قبضته على يدى وهو يهمس لى فى تردد شديد:
- على فكرة مراتى حامل...

لا أدرى لماذا فى هذا اليوم أثارنى هذا الخبر العارض وجعلنى أشعر باضطراب لم أستطع تفسيره. ولكننى كما لو كنت متيقنا، حتى فى تلك اللحظة وبدون سبب منطقى، بأن هذا المولود المنتظر سيؤثر على حياتى بصورة أو بأخرى. وهو ما سأكتشفه بالفعل بعد سنوات عدة من تاريخ هذه المقابلة.
وقفت أنتظر فى شرود حتى يهبط السلالم الخارجية ثم بادرته قبل أن يذهب وقد تذكرت فجأة أننى لم أعلّق على جملته الأخيرة:
- ألف مبروك، متى علمت بهذا الخبر السعيد؟!
استدار دون أن يتوقف ليرد، محاولا رسم ابتسامة مصطنعة:
- منذ بضعة أشهر... الدكتور قال إن الحمل كان ليلة الدخلة، يوم ما حضرتك وصلتنا للفندق.
ثم لوح لى بالسلام واستدار مبتعدا وأنا أراقبه حتى اختفى عن نظرى.

عدت لأحاول معاودة النوم مرة أخرى دون جدوى. كان عقلى، رغما عنى، يقذف لى بآلاف التفاصيل الملحة المرتبطة بشركة والدى وبشركتى. ولأول مرة، منذ فترة طويلة، يتعاظم إحساسى بالذنب وبمسئوليتى تجاه العاملين ويجعلنى أعجز عن السيطرة على ذهنى الذى كان يحاول باستماتة البدء فى التفكير فى عدة سيناريوهات لإنقاذ الشركتين.

أغسطس ٢٠٢٦

حتى لا تموت

فى اليوم السابق أرسلت رسالة لتنسيق اجتماع هام يضم كل العاملين لدى. تخيلت أننى بذلك سأجبر نفسى على ترتيب العودة للعمل أو على الأقل إعادة تنظيمه، حيث إننى انقطعت عنه تماما منذ الثانى من إبريل وحتى البارحة. أتخيَّل الصدمة التى أصابت الموظفين عندما تلقوا منى رسالة بعد اختفاء دام حوالى أربعة أشهر ونصف. أتصور أيضا حجم الإشاعات خلال الفترة الماضية وخاصة مع وفاة والدى وعدم حضورى الجنازة لا أنا ولا أختى ولا والدتى.

ولكن للأسف، فها أنا ذا أصل إلى المكتب وقد عجزت عن التفكير فى أى شىء له معنى. عقلى خال تماما... ولأول مرة فى حياتى أذهب إلى اجتماع وذهنى مثل صفحة بيضاء يرفض أن يُسطر به أى شىء له علاقة بحياتى السابقة.

ركنت السيارة ببطء وظللت جالسا عاجزا عن اتخاذ قرار الترجل منها، أحدق فى أحد عقارب التابلوه الرقمى الذى كان يدور ببطء شديد وقد نسيت تماما فائدته. شعرت بنظرات تلسعنى من اليمين فاستدرت بغتة لأجد ثلاثة موظفين مرتبكين يحدقون بى فى دهشة ممزوجة بشفقة. قطعا ظهورى اليوم وأنا بهذه الحالة جعلهم متيقنين بحلول مصيبة كارثية. حاولت عبثا أن أبتسم لهم ابتسامة باهتة مما زاد من ارتباكهم. عدت لأتفحص العقرب أمامى الذى بدا لى أبطأ من ذى قبل. قررت إبطال المحرك وأحسست بقلبى يدق بسرعة وأنا أهم بالنزول. شعرت فجأة بهبوط حاد، فعدلت عن فكرة الترجل من السيارة. نظرت تجاه الموظفين فوجدت اثنين

منهم وقد توجهوا ناحية الباب وهما يناديان على الثالث الذى كان مترددا فى القدوم لتحيتى. وجدت نفسى لا شعوريا أعطى أمرا صوتيا للسكرتير الإليكترونى بإلغاء الاجتماع. تنفست الصعداء وأنا أتأمل دهشتهم وهم يتفحصون أجهزتهم ليقرأوا رسالتى وأنا على بعد خطوات منهم.

لسعنى قيظ أغسطس الشديد وأنا جالس دون تكييف. خلعت السترة وربطة العنق وأنا أتصبب عرقا. تركت كل متعلقاتى فى خزينة السيارة وترجلت شاعرا بحريتى وأنا أسير موليا ظهرى للمبنى. أحسست بلذة فائقة وأنا أتذوق ملوحة العرق الذى بدأ ينسال على وجهى بغزارة. استسلمت لهذا المذاق اللاذع وهو يبعث من العدم أحداثا متناثرة من طفولتى لم أدرك أن ذاكرتى لا زالت تحتفظ بها. لقد كنت دوما طفلا غزير العرق، بل أعتقد أننى كنت أتصبب عرقا طوال الوقت حتى وأنا لا أبذل مجهودا. لقد كنت أكره بشدة الهواء المكيف... ترى، متى توقفت عن العرق؟! حتما عندما بدأت أخشى على هندامى وأصبحت أخاف من أن أبلل القميص والسترة. ولكن متى تحديدا بدأت أدمن التكييف؟! حاولت عبثا التذكر واستنتجت أنه بالقطع عندما بدأت العمل المكتبى بعد استقالتى من الشركة الفرنسية.

وبينما كنت شاردا أسترجع ذكرياتى القديمة المتناثرة وجدت نفسى أسير مدفوعا بتوجيه داخلى لا أدرى كنهه... توجيه غامض ومنطقى فى نفس الوقت. تدريجيا بدأت أنتبه لما يدور حولى، ولأول مرة فى حياتى أستكشف الشارع الذى قطعته بالسيارة آلاف المرات دون أن أراه. توقفت عند تفاصيل عديدة لم ألحظها من قبل. بعد مدة طويلة، لم أستطع تحديدها لعدم ارتدائى ساعة، أحسست بأن قميصى مبلل تماما ووجدتنى أتوقف لا إراديا أتطلع إلى واجهة بعض المبانى الشاهقة. تذكرت فى ذهول أن هذه هى

نفس العمارات التى وصف مستقبلها غريب فى أولى لقاءاتى به. حاولت عبثا تبين أى زجاج مكسور أو أى شىء مختلف فلم أجد. التفت نحو المحال المقابلة فوجدت جميع واجهاتها نظيفة لامعة.

اخترت دون سبب وجهة عمودية على الشارع فوجدت نفسى أسير على رصيف طريق سريع نسبيا بجوار سور شاهق الارتفاع. بدأت ألحظ تصاعد بعض الأبخرة من الناحية الأخرى مغلفة برائحة كريهة تزكم الأنوف. روائح عطنة وكأنها تنبعث من حرق أطنان من مختلف أنواع المخلفات الفاسدة التى بدت وكأن سخونة الجو تزيدها عطانة. تفاقمت الرائحة بصورة خانقة، وندمت على تركى القناع الواقى فى السيارة. يا ترى هل كان غريب سيرفض ارتداء القناع إذا كان معى الآن؟! ورغما عن ذلك فقد واصلت طريقى مدفوعا برغبة محمومة فى اكتشاف مصدر هذه العفونة، أكاد أفقد وعيى لعجزى عن التنفس. لمحت جزءا صغيرا مهدما من السور، غالبا قام بتكسيره قاطنو **الناحية الأخرى** لكى يستطيعوا الوصول إلى العمران. قررت أن أتوجه إليه مباشرة لأكتشف ما يوجد بالداخل.

فور ولوجى من الفتحة اكتشفت أطنانا من القمامة تم تجميعها فى أكوام تحيط بثلاثة جوانب منها ألواح متهالكة من الصاج. لاحظت فى دهشة مجموعات منظمة من الأطفال، حفاة، شديدو الاتساخ، يتحركون وسط هذه التلال الصغيرة وينبشون فيها بانهماك كجزء من خطة محكمة للفرز الدقيق. وقد تأكدت من هذا الاستنتاج عندما وجدت مجموعات أخرى تقوم بنقل ناتج التنقيب وتصنيفه فى تلال أصغر على مسافات قريبة. أحسست بدوار فاستندت على سور صاج بجوارى لمدة دقيقة إلى أن أحسست بسائل مخاطى يغطى يدى فجأة فسحبتها فزعا. نظرت فى هلعٍ فوجدت أعين ترقبنى من فتحة ضيقة فى السور يبرز منها منخار

طويل وردى يسيل منه اللعاب. أمعنت النظر فوجدته خنزيرا قد وقف على قدميه الخلفيتين يطل من هذه الفتحة الضيقة. حاولت أن أمسح يدى بسرعة وقد غالبنى الاشمئزاز وأنا أتجه إلى فتحة أخرى من السور كى أخرج مكتفيا بما رأيت.

مررت ببعض المساكن فأدركت لأول مرة فى حياتى كيف كنت أتمكن من رؤية الإعلانات الضخمة فى نفس مستوى الكوبرى الذى أسير عليه يوميا أثناء ذهابى للعمل. فقد كانت اللوحات الضخمة تعلو عددا لا نهائيا من العشش التى انقسمت إلى قسمين. القسم الأول المتهالك كان بارتفاع طابقين تسنده بعض الدعامات حتى لا يقع من جراء الوزن الثقيل للإعلان الذى يطبق على سطحه بأرجل حديدية ضخمة. القسم الثانى كان بارتفاع أربعة أدوار ومشيدا بصورة أكثر متانة وبدون فتحات فى الواجهة المقابلة للكوبرى؛ مما سمح بتعليق لافتات إعلانية بكامل ارتفاع المبنى. كنت أكتم أنفاسى محاولا الهروب من الرائحة التى كانت تتسلل إلى جوفى من خلال أنفى وفمى معا. لفت نظرى الإعلان المثبت فوق المبنى المقابل والذى يحمل صورة رجل يلعب الجولف وسط مسطحات لا نهائية من الخضرة والبحيرات الصناعية التى تطل عليها بعض القصور الملكية التى تتقدم خلفية سماء زرقاء. ابتسمت رغما عنى وأنا أقرأ العبارة المكتوبة بالإنجليزية:

"Life as it should be!"

"الحياة كما ينبغى أن تكون!"

تعجبت من وجود مولد كهربائى صغير بجوار المنزل أسفل مظلة صغيرة ومحمى بعناية فائقة. تتبعت بنظرى الكابلات الواصلة به

فأدركت أنها لا تغذى المنزل، الذى كان بلا كهرباء طبعا، ولكنها تغذى اللوحة الإعلانية الجاثمة فوق سطح المبنى.

وأثناء نظرى لأعلى، لمحت فى ذهول سيدة تخرج إلى الشرفة الآيلة للسقوط وتنحنى باهتمام شديد على علبة صفيح مثبتة فوق السور. بدأت تصب المياه من جردل صغير فوق نبتة تصارع من أجل البقاء وسط كل هذا التلوث الخانق الذى يحجب أشعة الشمس. انتابنى الفضول الشديد لألقى عليها سؤالا، وقد شجعنى منظر الفتحة التى ظهرت منها، والتى لم تكن مزودة بأى ساتر، تماما مثل كل فتحات المنزل. أوحى لى ذلك بانعدام تام للخصوصية، وخاصة بعد سماعى أصواتا عالية تصدر من الداخل، مما أشار إلى ضخامة عدد الناس الذين يقطنون نفس الحجرة.
صحت من أسفل بلهجة مترددة:
- لماذا تفعلين ذلك؟
أجابت وقد أشرق وجهها بابتسامة رقيقة:

- **حتى لا تموت...**

وقفت دقيقة مرتبكا أبحث عن كلمات لأعقب دون جدوى. استدارت السيدة بعد أن انتهت من مهمتها، وعادت للداخل دون أن يبدو عليها أنها كانت تنتظر تعليقى.

توجهت مباشرة إلى فتحة السور عائدا إلى السيارة وسالكا نفس مسارى السابق. تعجبت، عاجزا عن إيجاد تفسير منطقى، كيف صار طريق العودة أقصر بكثير مما كان عليه أثناء الذهاب؟!

المضى قدما؟!

أعجز عن النوم وقد تحولت إلى كائن ليلى ينهار من الإرهاق وشدة الأرق ولا ينام إلا بضع ساعات متفرقة صباحا. وبالرغم من ذلك كنت أحاول تنظيم مواعيد استيقاظى لتتلاءم مع مواعيد عودة المياه التى أصبحت- لدهشتى الشديدة- منقطعة معظم اليوم. ولم أكتشف إلا لاحقا أنه خلال فترة اعتقالى وانعزالى عن العالم الخارجى تم إعلان انتقال مصر من مرحلة فقر المياه إلى مرحلة ندرة المياه.

وخلال تلك الفترة كان عقلى يجبرنى على التفكير فى وسيلة لإعادة التنظيم ولملمة الأشلاء المبعثرة، لاسترجاع ما تبقى من حياتى السابقة. وبالرغم من ذلك كان هناك جزء مجهول داخلى يعوق تلك المحاولات ويرفض فى استماتة المضى قدما وكأن شيئا لم يكن.

كنت أخشى الانجذاب غير الواعى إلى الدوامة الجهنمية، والتى ما إن تبدأ فى الاستسلام إليها حتى تفقد القدرة نهائيا على السباحة سالما خارجها، بل إنه كلما اشتدت مقاومتك وأنت وسطها خارت قواك فيتم ابتلاعك إلى عمق الفراغ المألوف.

كنت خلال تلك الفترة لا أخشى الموت وإنما أخشى العودة إلى **تلك الحياة**. أبحث عن معنى لما حدث لى وعن الحكمة وراء المصائب التى حاقت بكل المقربين إلىَّ. موت والدى وغريب، مرض أختى التى ترفض التحدث إلىَّ، أزمة والدتى النفسية، حتى صلاح حربى كنت أتذكره وأتساءل عما جرى له. كنت على يقين من أن هناك شيئا جيدا سينتج عن هذه المأساة، بل واعتقدت للحظة أننى قد توصلت إلى تفسير هذا الطلسم يوم أفرجوا عنى، ولكننى

الآن لم أعد متأكدا من شيء... يساورني الشك في كل الحقائق المطلقة...

من الجائز أن يكون كل ما حدث هو جزء من عبث مطلق يسيطر على الإنسانية منذ آلاف السنين؟! ولكن شيئا قويا بداخلي كان يرفض الاستسلام إلى هذه الفكرة المحبطة ويصارع من أجل إيجاد مخرج من تلك الأزمة...

الشيء الوحيد الذي حافظ على سلامة قواي العقلية طوال هذه الفترة هو أنني كنت أواظب على الصلاة بانتظام، بل وختمت القرآن عدة مرات بالرغم من قراءتي له ببطء شديد. وكنت أدعو الله في كل صلاة أن يلهمني بداية الطريق أو أية إشارة لأتبعها.

وفي هذه الليلة كنت قد وصلت إلى قمة سأمي، وكنت أحاول فعل أي شيء للتخلص من هذه الحالة العبثية. ذهبت إلى مكتبي وبحركة لاإرادية قمت بتشغيل أحد أجهزة الحاسب الآلي دون هدف محدد. لا شعوريا فتحت أحد أدراج المكتب حيث المذكرات والصندوق الأسود لموقع غريب. أخرجته بعد تردد شديد ثم أوصلته بحاسبي لأتفحص محتوياته. نقرت لأستعرض فهرسة التقسيمات الداخلية فوجدتها في غاية التعقيد. فبخلاف ملفات بناء الموقع نفسه كان هناك كثير من التقسيمات الأخرى لأعمال غريب التي لم ينشرها على الموقع.

كانت هناك أربع حوافظ منفصلة للأماكن والمواضيع والأشخاص والتواريخ. لا أدري لماذا بدأت بتفحص حافظة الأشخاص التي كانت مرتبة أبجديا وبها آلاف الأسماء! لاإراديا نقرت بحثا عن اسمي فوجدت حافظة فرعية ضخمة. ولجت بداخلها لأجدها مقسمة هي الأخرى إلى أماكن ومواضيع وتواريخ

بعضها صور وبعضها أفلام تخيلية. بدأت بفتح ملفات التواريخ فالتقطت عيني فور ولوجي تاريخا محددا وسط قائمة ضخمة. كان تاريخ يوليو ٢٠٢٦. دق قلبي بعنف وتدافعت آلاف الأسئلة في وحشية. لو لم أكن أنا من أخذ الصندوق الأسود ذلك اليوم لشككت في كل شيء. لو لم أكن متأكدا من تعرض غريب للسجن ومنعه عن العمل شهورا قبل هذا التاريخ لقلت إن في الأمر خدعة ما. ولكن كيف؟! أنا الذي فككت الشفرة بنفسي وأخذت الصندوق في ذلك اليوم... رفض عقلي التصديق... بدأت أشعر بقطرات العرق تنبثق من كل مكان. وفي بطء شديد كانت نقاط صغيرة تسيل من جبيني فتنحدر على وجهي لتلتقي عند نقاط محددة مكونة قطرات ثقيلة. وكانت هذه القطرات ترفض الالتصاق بوجهي مستسلمة للجاذبية فتسقط بقوة إلى أسفل، في إيقاع منتظم، فتتفتت إلى ملايين من الجزيئات الصغيرة وتتناثر على المكتب ولوحة التشغيل. لم أدر ماذا أفعل... لبثت دهرا أتطلع إلى التاريخ الذي أصبحت لا أرى سواه على الشاشة وأنا أخشى تشغيل الملف. تفحصت التواريخ مرة أخرى محاولا تبين خطأ ما فوجدت مجموعة تواريخ تلي هذا الشهر وتمتد عشرات السنوات المستقبلية. لم يسترع انتباهي هذا اليوم آخر ملف بتاريخ "عام ٢٠٥٣". ففي تلك المرحلة لم يكن هذا التاريخ يعني لي أي شيء.

تسارعت نبضاتي في عنف وأنا أضغط زر التشغيل لأشاهد في ذهول تتابع مشاهد سيريالية تصور شخصا مألوفا لا يظهر وجهه، يحمل على ظهره شيئا ثقيلا وينظر لأسفل هضبة الهرم فتظهر القاهرة تماما كما أحسست بها في ذلك اليوم. ثم تبدأ الرياح في الهبوب على هذا المشهد فتنقشع السحابة السوداء تدريجيا ويطير الشخص الذي لا أتبين سوى ظهره محلقا تجاه السماء، مباعدا بين يديه وهو ينظر لأعلى. أخذت أعيد تشغيل هذا المشهد مرارا وتكرارا غير مصدق محاولا فك لغز العلاقة بين هذا

المشهد الذى يحمل اسمى فى هذا التاريخ المحدد وما حدث لى يوم وفاة غريب فعجزت.

عدت مرة أخرى لتفحص أسماء الملفات فاكتشفت مجموعة ضخمة بتواريخ سابقة وأخرى لاحقة، لها علاقة بى وبفرح وبصلاح حربى وبالفترة التى سجنا فيها جميعا. قمت بفصل هذه الملفات وتجميعها فى حافظة مستقلة.

تدافعت فى ذهنى ملايين من الأسئلة تبحث عن إجابة وأنا أظن أننى سأحظى بكل الإجابات دفعة واحدة فور تشغيلى كل هذه الملفات. وعوضا عن ذلك اجتاحنى خوف عظيم ثم أنبأنى هاتف داخلى بأننى على وشك الإقدام على كارثة مروعة. فى عصبية شديدة بدأت فى تشغيل ملف خمنت من تاريخه أن له علاقة بانفجار الوزارة فوجدته مشفرا يحتاج إلى كلمة سر لتشغيله. جربت ملفا آخر ففشلت. أخذت أجرب فى عصبية كل الملفات التى ظننت أن لها علاقة بى فعجزت عن الولوج إلى أى منها. وبالرغم من الصراع الداخلى الذى عصف بى طوال الشهور الماضية للبحث عن أجوبة فإننى أحسست أن الحكمة تقتضى أن أتروى قبل أن أحاول فى عصبية فك هذه الحماية المشفرة. ليس فقط لأنها كانت شديدة التعقيد بل أيضا لأنه قد ينتج عن تكرار محاولات فكها الفاشلة تدمير الملفات نفسها. تغلب شعور الحذر الشديد أو الخوف العظيم على اندفاعى الجارف لمحاولة معرفة كل شىء دفعة واحدة، فقمت بإغلاق الجهاز وفصل الصندوق وإعادته بهدوء إلى مخبئه السرى.

أحسست حينذاك بأن هناك إرادة عليا تحول دون اكتشافى فحوى هذه الملفات فى هذا التوقيت فبدأت أهدأ قليلا. ولكن هذا لم يمنعنى من التعجب من مقدار الخوف والقلق الذى كنت أحمله

بداخلى. كنت قد ظننت أننى تخلصت منهما للأبد ولكنى الآن لا أستطيع تحديد كنه ما أشعر به بالضبط!

وفى النهاية خلصت إلى أن الوقت سيتيح لى دوما التفكير بحكمة فيما ينبغى علىَّ فعله بخصوص هذا الصندوق الملىء بالغموض وما يثيره من أحاسيس متناقضة عجزت دوما عن فهمها.

ودون سبب منطقى وجدت نفسى أهرب من هذه الحيرة لأتصفح ملفات والدى الخاصة بالعمل. لا أدرى كم مر على من الوقت وأنا جالس أمام الشاشة ولكننى كنت أقرأ بنهم مراجعا كل التفاصيل المالية والإدارية والفنية، وأدون ملاحظات عديدة، وأكتشف أشياء كثيرة لم أدر عنها شيئا من قبل، غالبا بسبب عدم اهتمامى بتفاصيل عمله.

توقفت كثيرا أمام **"القائمة السوداء"** وعجبت أن يكون لمثل هذا الملف وجود. ولكن يبدو أننى لم أكن أعرف والدى جيدا، حيث تبين لى مقدار المرارة التى كان يشعر بها وهو يتعامل بكل هذه المودة والإخلاص مع كل هؤلاء الذين خانوه وطعنوه فى ظهره. ربما هذا يفسر بعض انفجاراته العصبية أحيانا كثيرة. هو أيضا كان يخفى ما يشعر به بالرغم من هذا المظهر الذى يوحى بالوضوح والصراحة... يبدو أننا متشابهان فى بعض الأشياء بالرغم من كل شىء... دهشت كثيرا من هذه الفكرة الأخيرة وخاصة أننى طوال حياتى كنت أعتقد أننى عكس والدى فى كل شىء.

مضت ساعات وأنا أعمل دون توقف حتى أحسست بالإجهاد يقهرنى. توجهت للنوم وأنا أعصر ذهنى لإيجاد مدخل لإنقاذ شركة

والدى من الانهيار، شىء عكس كل ما كنت أمر به، له معنى واضح وملموس. وبدأت تراودنى لأول مره قناعة خفية بأنه قد يكون ذلك فى النهاية شيئا صائبا. أمن الجائز أن هذا هو ما يفترض بى أن أفعله فى هذه المرحلة؟! ففى جميع الأحوال لن أخسر شيئا وهو بالتأكيد سيفيد أناسا آخرين أو على الأقل لن يضر أحدا.

ولأول مرة قبل أن أغفو أشعر بالارتياح لوصولى إلى هذه النتيجة التى ستتيح لى أخيرا إنجاز شىء ما واقعى بدلا من هذا اللاشىء المميت.

سبتمبر ٢٠٢٦

الذنب

- أمي، كيف حالك؟
ردت في فتور شديد.
- الحمد لله.
- لا أعرف من أين أبدأ... أنا أشعر بالتقصير الشديد تجاهكم الفترة الماضية.
- تقصير؟! تقصير! لماذا؟! أختك حالتها من سيئ إلى أسوأ وأنا أشعر بعجز شديد، تعصف بي الكوارث الواحدة تلو الأخرى. أشعر أنني وحيدة لا سند لي بعد موت والدك. منذ عودتك وأنت تقول لي إنك لا تستطيع المجيء، ونحن لا نستطيع العودة. ووسط كل هذا كلما حاولت التحدث معك في أي مشاكل مادية لأوضح لك أن شركة والدك تنهار ولا يوجد مصدر دخل لنا بعد توقفنا جميعا عن العمل، تقول لي إن هذا ليس وقته وأنك تحتاج إلى فترة قبل أن تبدأ في التفكير في تلك المواضيع. خالك ينفق علينا منذ أشهر بعد أن أتينا على كل أرصدتنا بالبنوك؛ وأنا قبلت هذا على أساس أنها نقود نقترضها لحين عودتك. انبحّ صوتي الأسابيع الماضية منذ عودتك لأتذلل إليك أن تساعدنا دون جدوى.
- يا أمي... أرجوك... دعيني أشرح لـ...
- وأنا التي كنت أتصور بعد عودتك أنني سأجد معينا لي في هذه الأزمة... رجل أعتمد عليه... وجدتك أكثر ضعفا مني، لا تفعل شيئا سوى الاكتئاب والنوم حتى أصبح مظهرك مثيرا للشفقة. ولكنني لن أرثي لحالك، على الرغم من أنك ابني ففي النهاية أنت رجل مفترض أن يتحمل مسئولية نفسه. ولكنك بالقطع تتهرب من واجبك تجاهنا بعد وفاة والدك، علما بأننا أصبحنا أمانة في عنقك سواء أردت أم لم ترد... على الأقل أختك، فأنا لا أحتاج شيئا من

أحد وسأتصرف وحدى... لماذا لا ترد؟ تكلم... هل تظن أن والدك سعيد بك الآن...؟! وأنا الذى كنت أتصور أننى أنجبت رجلا... تكلم لماذا تنظر لى هكذا دون تعبير...
- لا أدرى ماذا أقول...
- قل أى شىء... لا تتركنى أنفجر هكذا دون تعليق، فكلما صمت قلبت على المواجع وازددت حنقا عليك...
- سأحاول أن أفعل ما أستطيعه لأصلح الأمور الفترة القادمة.
- أتمنى أن يكون ما تدعيه صحيحا... أتمنى... وإن كنت أشك فى قدرتك على مساعدة نفسك كلما نظرت إليك...
- أعدك بأن أفعل كل ما أستطيعه لإخراجنا جميعا من هذه الأزمة.
- أرجو هذا... قبل فوات الأوان...
- ...
- أهناك شىء آخر؟!
- نعم، لقد كنت تريدين إعلامى من قبل بما دار بينك وبين المحامى، ما الذى كنت تريدين إبلاغى به؟
- لقد أرسلت لك كل التفاصيل والمراسلات الخاصة بهذا الشان على بريدك الإليكترونى. ألم تصلك؟
- ...
- ماذا؟ رد، لا تنظر إلى هكذا...
- فى الواقع كنت مشغولا بمراجعة ملفات والدى... ولذلك لم أتفقده حتى اليوم...
- افتح رسائلى واقرأها ثم دعنا نتحدث بعد ذلك،... تبدو مترددا وكأنك تود قول شىء ما؟
- نعم فرح...، أمازالت ترفض الحديث معى؟!
- نعم، هى منغلقة تماما على نفسها، تعتزل كل الناس وترفض التحدث مع أى مخلوق. ولاتزال هذه الكوابيس اللعينة تنتابها يوميا. لا أشعر أن علاجها هنا كان مفيدا بالمرة، كما أنها مؤخرا ترفض بتعنت تلقى أية مساعدة طبية، وهنا لا يمكن إجبار مخلوق على

شيء ضد إرادته. أنا مرعوبة عليها وأشعر أنها تضيع منى.... كما أنها فى الفترة الماضية بدأت تفعل أشياء... تخيفنى للغاية.
- ماذا تعنين؟ مثل ماذا؟
- تحبس نفسها فى حجرتها وتظل أياما تتحدث بصوت منخفض مع أشخاص على شبكة المعلومات. ومنذ أن تعرفت عليهم وهى لا تتحدث مع أحد سواهم.
- من هم هؤلاء الأشخاص؟
- ترفض الإفصاح عن أى شيء وتصرخ فيّ دوما:
"لا أحد منكم يستطيع مساعدتى فدعونى لشأنى لأحاول مساعدة نفسى".
- ممكن تقولى لها أننى أريد رؤيتها؟
- لا فائدة من ذلك، هى حتى لن ترد عليَّ إذا طرقت بابها، فهى تتحدث الآن مع أحد الأشخاص. وأنا أحاول أن أتفادى إغضابها لأن عصبيتها الهيستيرية تقتلنى... كما لو كنت المسئولة عما حدث لها، كما لو أن هذا ما كان ينقصنى،أن تنهرنى ابنتى بسبب وبدون سبب.
- حسنا، إذا أتت الفرصة قولى لها إننى أحاول يوميا رؤيتها دون جدوى، وإننى لن أرغمها على التحدث معى،... أنا فقط أريد... رؤيتها.
- حسنا، سأخبرها إذا سمحت الظروف.
- ...
- مع السلامة.
- قبل أن تذهبى، من فضلك أرسلى لى كل مصاريف الفترة الماضية أثناء إقامتكم فى أمريكا وكل النقود التى اقترضناها من خالى، أيضا تكاليف علاج فرح السابقة والمتوقعة وأية مبالغ أخرى قد تحتاجونها الفترة القادمة.
- لماذا تريد ذلك؟ لا أحد منا يملك نقودا سائلة الآن.

- فى الواقع لقد كنت أفكر فى هذا الموضوع... أنا أيضا أحتاج مبلغا ما كرأس مال عامل لإنقاذ الشركة وكنت أفكر،... مجرد تفكير ليس أكثر فى بيع فيلتى... طبعا عندما أصل إلى فكرة متكاملة سأعرضها عليكم للموافقة.
- يا نهار اسود، ستبدأ ببيع البيت الذى شقينا أنا ووالدك لنوفره لك. لو فعلت هذا لا انت ابنى ولا انا اعرفك. وانا اللى منتظراك حتى تأتى لنا بالحلول... فور عودتك حتبيع كل حاجة. لعلمك الحاجة الوحيدة التى كانت دوما تريح والدك إنه أمّن لك مستقبلك. هذا المنزل إذا بعته الآن، فى هذه الظروف، لن تستطيع أن تأتى بمثله أبدا. ستنفق النقود ونعود إلى نقطة الصفر.
- يا أمى هذا مجرد تفكير، وأنا لن أتسرع فى شىء. صدقينى أنا أعكف على دراسة كل شىء الآن.
- دراسة؟! يبدو أنكم لن ترتاحوا إلا إذا أفقدتمونى صوابى... أنتم الاثنان، أنت وأختك. من يدرى، جائز هذا أفضل، على الأقل أرتاح من هم المسئوليات التى لا أقوى على حملها أكثر من ذلك. لو كان جبل كان إتهد... أنا تعبت... تعبت... مالك لا ترد وتنظر إلى هكذا؟! رد...
- حسنا، فقط اهدئى واعتبرى أننى لم أقل شيئا، سأفكر فى حلول أخرى، اهدئى...
- أهدأ؟ كيف أهدأ وأنت تريد أن تتسبب فى جنونى منذ عدت. أفق من غيبوبتك فأنا لن أستطيع أن أتحمل طويلا وأختك تحتاج إلىَّ فى مصيبتها.
- أرجوك يا أمى، اهدئى وسأتصرف إن شاء الله...
- حسنا، اذهب الآن، فكلما استمريت فى مشاهدتك وأنت بهذا الضعف كلما زاد حنقى منك. اذهب. مع السلامة.
- ...
- مع السلامة.

ودون انتظار ردى عليها كررت السلام مرة ثانية بنبرة حادة وهى تنهض فبادرتها سريعا بصوت خفيض لم تسمعه وهى تغلق الشاشة:

- أمى، هل تصلين...؟

فى هذا اليوم شعرت بالعجز والضعف الشديدين. كانت هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أراها فى مثل هذه الحالة. وبالرغم من أننى لم أتصور يوما قط أنها قادرة على مثل هذا الغضب، فإننى بدأت بمرور الوقت أتفهمه.

لو أستطيع فقط أن أخبرها أنها فى كل مرة جلست وحيدة فى غرفتها تحدق أمامها كنت أنا فى الناحية الأخرى أستقبل شحنات الأسى والمرارة التى كانت تخترق الحائط الصلد فى سهولة ويسر فتصلنى مجسمة على بعد آلاف الأميال. لو أستطيع أن أبوح لها أن كل مرة تقلبت فى فراشها وهى تشعر بالجفاء كنت أنتفض من جراء الثقل الذى كان يطبق على صدرى وأعجز عن النوم. لو فقط أستطيع أن أحضنها الآن لأطمئنها أنها ليست وحيدة لا يهتم بها أحد، وأننى أشعر بكل ما تشعر به وأكثر. لو أستطيع أن أشرح لها أننى أحمل همها هى وأختى فى هذه المحنة أكثر من أى مخلوق ولكننى للأسف عاجز، ليس فقط لأن هناك مسافات مادية بيننا أعجز عن اجتيازها بسبب حظر السفر اللعين وليس فقط لأن أختى المريضة تزيد من إحساسها بالوحدة بالرغم من وجودها بجوارها، بل كانت هناك أسباب أخرى غامضة تعجزنى عن جعلها تعى ما أريد فعلا أن أبوح به. هل لأننى أنا نفسى أشعر بأننى ضعيف، تائه ووحيد وسط كل هذه الدوامات النفسية التى لا أستطيع الفكاك منها؟ هل لأنه لا يوجد سوى قوى إلهية جبارة، لا أملكها، تستطيع انتزاع الإنسان من وحدته؟ لا أدرى... أحسست باليأس والعجز

يتملكان منى وبدأ يتسرب إلىَّ إحساس متنام بالذنب تجاهها هى وأختى.

أخذت أفكر فيما يجب فعله للتخلص من هذا الإحساس فلم يتبادر إلى ذهنى سوى البدء بأبسط معضلة وهى إيجاد حل مناسب لمشاكلنا المادية. عكفت مرة أخرى فى ضجر على الحسابات بعد أن اطلعت على رسائل المحامى، وبدأت أضع أكثر السيناريوهات تفاؤلا للتدفقات النقدية لأصل دوما إلى نفس النتيجة الحتمية: يجب بيع أحد الأصول.

الرؤيا

خلال تلك الفترة كنت على اتصال مباشر بكل الموظفين لتزويدى بكل البيانات اللازمة. اثنان فقط كنت أقابلهما بصورة دورية وفى تكتم شديد فى مكتب منزلى. الأول هو مدير الموارد البشرية الذى حصلت منه على ملفات العاملين وكل تقارير التقييم ومفردات الرواتب. الثانى كان حسن لأستكمل منه المعلومات الناقصة بصورة غير رسمية، مع وضعى فى الاعتبار أن ما ينقله لى هو رأيه الشخصى الذى قد أختلف معه بعدئذ عند احتكاكى المباشر بالعمل.

وكنت كلما اطلعت على كم أكبر من التفاصيل رجحت كفة عدم جدوى استمرار الشركة. ورغم ذلك فعقلى كان لا يكل ولا يمل من وضع تصورات مختلفة للحلول. وبعد فترة طويلة من التحليل والدراسة خلصت فى النهاية إلى عدم جدوى أى من الحلول التقليدية.

وفى إحدى الليالى وأنا مستغرق تماما فى النوم، بعد عدة أيام من التركيز الذهنى المتصل، حلمت حلما غريبا. وجدت نفسى فى غرفة الاجتماعات وسط كل موظفى الشركة. ثم بدأت كل مشاكل الشركة تتشكل بصورة جديدة ويتم خلق علاقات بينها لم أكتشفها من قبل لأراها فى مستوى واحد بسيط بالرغم من أن كل المفردات تأتى من مستويات متعددة شديدة التباين. وعندئذ تجلى لى، بوضوح شديد، طريق جديد لم ألحظه ولم أفكر فيه من قبل. تشبثت بهذه الفكرة الواضحة المقنعة وبدأت أحللها وأتتبع كل السبل الجديدة التى تتيحها لأقوم بإيجاد تصور ما لكل درب جديد أطرقه. وبالرغم من التعقيد الشديد الذى انتهيت إليه فى نهاية كل مسار

فإننى ظللت محتفظا بإطار الفكرة البسيطة الواضحة التى بدأت منها.

وفى لحظة محددة وجدت نفسى أفيق من الحلم لأترك الفراش وأهرع ناحية المكتب، لأبدأ فى التدوين المحموم لكل الأفكار التى وردتنى بنفس الترتيب وفى نفس السياق المنظم. وبعد عدة ساعات انتهيت من الكتابة وأنا أنهج بشدة. قررت أن أستخدم هذه المسودة لأقوم بكتابة كل شىء بصورة أكثر تنظيما وتنميقا ولكن لدهشتى البالغة لم أستطع تعديل كلمة واحدة مما كتبت. سعدت سعادة بالغة؛ فلأول مرة، منذ فترة طويلة، أشعر بأننى أنجزت شيئا له معنى. عجبت من نفسى لأن ما توصلت إليه لم يكن نتيجة للمجهود العقلى ولكنه نتيجة لحلم. صحيح أن ذلك جاء بعد أشهر من التفكير المضنى ولكنه بالتأكيد لم يكن نتيجة مباشرة له، بل ظهر من العدم فى فترة توقف فيها النشاط العقلى الواعى، أو هكذا ظننت.

ومن فرط سعادتى بهذه النتيجة قررت فى هذه الساعة المتأخرة أن أبدأ فى تنسيق اجتماع عام مع كل العاملين بالشركة. بدأت فى إرسال رسائل إليكترونية لكل الأفراد الذين اخترتهم لمساعدتى فى تنسيق هذا الحدث مع توزيع المهام من خلال برنامج زمنى مبدئى. واخترت يوم السبت العاشر من أكتوبر ثانى أيام الأجازة الإسبوعية للشركة ليكون أول لقاء لى مع العاملين.

السبت ١٠ أكتوبر ٢٠٢٦

"تعامل مع الناس كما لو أنهم ما ينبغى أن يكونوه"

خلال الإسبوع السابق انتهينا، أنا ومجموعة العمل التى اخترتها، من التجهيز للاجتماع العام المرتقب. تم عقد انتخابات مصغرة لاختيار ممثلين للإدارات والأقسام المختلفة لتكوين الـ "Pilot Group" (المجموعة الرائدة) والتى لم يكن أحد سواى يدرك بالضبط طبيعة المهام التى ستوكل إليها. تم تجهيز قاعة الاجتماعات بحيث يتاح الـ" فيديو كونفرنس" لكل أقسام وإدارات الشركة. تجمع معظم العاملين فى ثلاث قاعات مزودة بشاشات وكاميرات وأجهزة اتصال تسمح بالتفاعل عند الضرورة أثناء الاجتماع.

حييت هالة، سكرتيرة والدى، والتى أصبحت مديرة مكتبى الآن ثم سلمتها ورقة مكتوبة بها بعض التعليمات والطلبات. صممت على عدم الجلوس على رأس المائدة وجلست فى المنتصف متوترا يحيط بى العاملون المنتخبون. كان هناك اثنان من المهندسين وثلاثة من الفنيين المتخصصين أحدهم حسن محاسب. بالإضافة إلى هؤلاء حضر كل مديرى الأقسام والإدارات المختلفة وجلسوا قبالة منضدة الاجتماعات.

- كيف حالكم؟
- الحمد لله.

تعالت أصوات الجمع الغفير من القاعة ومن الميكروفونات المختلفة فى تنهيدة نمت عن توتر شديد.

تجولت بنظرى بين المجموعة حولى وبين الشاشات لأجد الكل ينظر إلىَّ بإمعان وترقب كأشخاص حكم عليهم بالإعدام ينتظرون معجزة قبل النطق بالحكم المتوقع. أحسست بشحنة يأس تجتاحنى وعبء ثقيل ضاعف من شعورى به عدم اعتيادى على مواجهة هذا العدد الضخم. فقد كان عدد العاملين فى شركتى أنا شخصيا لا يتجاوز أصابع اليد بسبب اعتمادى الرئيسى على مقاولى الباطن والمهندسين المؤقتين المعينين على قوة المشاريع.

حاولت تفادى شحنة النظرات الحارقة المقبضة وشعرت بقلبى يخفق. تنهدت قليلا ووجدت نفسى عاجزا عن الكلام وقد تاهت منى كل خيوط ما أعددته لهذا اليوم. نظرت إلى الشاشة أمامى حيث دونت نقاط مواضيع الاجتماع وترتيبها فبدأت الحديث متلعثما وأنا أهرب من شحنتهم السلبية، وقد سيطر على صوتى نبرة مرتعشة لم أتعرف عليها وكأنها تخص شخصا آخر.

" الهدف من اجتماع اليوم هو تحديد العوامل والمتغيرات التى على أساسها سيتم تحديد مصير الشركة... أود أن أطمئنكم جميعا أن هذا قرار هام ومؤثر على حياتنا جميعا، ولذلك لن أتعجل فى البت فيه قبل دراسة متأنية."
التفت إليهم لأجد النظرات وقد بدأ يشوبها مسحة تهكمية وكأنهم يقولون لى:
"هذا شيء بسيط بالنسبة إليك أيها المرفه، فأنت سواء استمرت الشركة أم لا ستجد دوما ما يكفي احتياجاتك الأساسية، ولن تشعر بالكارثة التى ستحيق بنا إذا انضممنا لطابور البطالة."

استطردت وقد أشحت بوجهى عنهم فاصطدمت بوجه حسن الذى كان يرمقنى بنظرة غريبة مليئة بالإشفاق زادت من ارتباكى.

" وأؤكد لكم أننى لن أتخذ أى قرار نهائى قبل مشاورتكم جميعا... ففى النهاية هذه شركتنا كلنا ونحن جميعا فى مركب واحدة".
لمحت المزيد من النظرات المتشككة ترسل لى رسالة:
" وفر كل هذه الترهات، هل ستغلق الشركة أم لا؟"
قلت بصوت خفيض فى شرود:
"...لا...أدرى..."
رفعت رأسى بسرعة لأجدهم مقطبين عاجزين عن تفسير عبارتى الأخيرة.
فاستطردت بنبرة عالية واثقة، لا مباليا بشىء، كمن يقفز من فوق جرف عال ليس لديه ما يخسره:
" نعم لقد سمعتمونى جيدا، أقول لا أدرى."
توقفت للحظات وأنا أنظر فى أعينهم المدهوشة بثبات قبل أن أكمل:
" لقد لاحظت أنكم تطلعون إلىَّ متبرمين مما أقوله وكأنكم تودون القول: " قصّر الكلام، هل ستغلق الشركة أم لا؟" وأنا أرد على السؤال الذى لم تسألوه: " لا أدرى!" فبعكس ما تتصورون أنا أتفهم ما تشعرون به. الشركة التى تمثل مصدر رزقكم مهددة بالانهيار منذ أشهر وكنتم تنتظرون عودتى من السفر حتى يعرف كل منكم مصيره. وبعد أن عدت لم أهرع لأطمئنكم كما توقعتم بل اختفيت فى ظروف غامضة طوال الأسابيع الماضية أتركم والقلق يعتصركم تستدينون من طوب الأرض محاولين عبور الأزمة. ثم ها أنا ذا آتى إليكم بأفكار غريبة وبدلا من أشياء ملموسة مفهومة أكلفكم بها الأسابيع الماضية اقترحت انتخابات لا معنى لها بالنسبة إليكم ولا تهمكم البتة. أكيد تتصورون أننى إنسان مستهتر لا يدرى ما يفعله وبدأ التعارف بكم من خلال أشياء عبثية لا معنى لها."
تغيرت نظراتهم دون أن يزول تعجبهم مما زاد من إصرارى على المضى قدما حتى النهاية:

- جائز لديكم كل الحق فى ظنكم هذا، ولعلمكم أنا كنت أعلم أنكم لن تأخذوا ما أفعله بجدية ولذلك أصررت على تسمية المنتخبين اليوم (ممثلين مؤقتين)."
وهنا تدخل حسن مقاطعا بنبرة انفعالية:
- كيف تقول هذا يا بشمهندس. نحن نأخذ ما تفعله بجدية شديدة. لقد فعلنا ما كلفتنا به وأجرينا انتخابات، تماما كما اقترحت، وها نحن ذا أمامك. لا أحد يحاول الاستخفاف بك. هذا غير...
- حسن أرجوك،... انتظر حتى أنتهى من كلامى. أنا أريد أن أسمع رأى الآخرين. ليشرح لى أحد الفنيين مثلا لماذا اختاروك لتمثيلهم؟!... لماذا اخترتم حسن؟!
قلتها وأنا أتوجه بالنظر إلى الشاشة التى تحوى الفنيين الذين علت قسماتهم الوجوم غير متوقعين أن يكونوا أول من يشترك فى الحديث.
- أنا ما زلت مصرا على سماع إجابة... لن أنتقل إلى نقطة أخرى قبل أن أسمع رأيكم.
خيم على الجميع الرهبة والتردد ولم يقدم أحد على المبادرة. بدأوا يتلفتون أحدهم للآخر والأعين تتجه صوب أفراد محددين أحسست من نظراتهم أنهم أجرأ من أقرانهم. وفجأة بادر أحدهم بالكلام بنبرة مترددة:
- بشمهندس محمد. معظمنا اختار حسن من أجل علاقته الشخصية بوالدك وبك. ظننا أنك ستستمع إليه أفضل منا وأنه سيكون أكثر قدرة على إقناعك بعدم غلق الشركة.
- ولكننى أعلمتكم الإسبوع الماضى أن هذا القرار ليس بيدى فقط ولكنه بأيديكم أيضا. كان المفروض أن تختاروا الأفضل بينكم والذى يستطيع تفهم مشاكلكم وليس فقط من يستطيع التفاهم معى.
صاح آخر متشجعا فى تهكم:
- ومنذ متى يا بشمهندس حد بيستمع لينا؟! سنوات طوال والشركة تكلفنا بأعمال محددة. عمر ما حد أخد رأينا فى حاجة. حضرتك

تيجى النهارده بعد ما كل حاجة خربت تسألنا نغلق الشركة أم لا؟ وإحنا مالنا! الشركة شركتكم والقرار ده لا علاقة لنا به.
- وموضوع اختيار ممثلين لكم! ألم يعطكم هذا انطباعا بأن رأيكم يهمنى؟!
رد أحدهم متحديا:
- ده تحصيل حاصل، لن يقدم ولن يؤخر شيئا. معظمنا متأكد إنك أخذت القرار بالفعل وهذه محاولات لعدم مواجهتنا بالحقيقة حتى لا نثير مشاكل. هذه انتخابات صورية تمت فقط لأنك طلبتها.
ثم صاح شخص آخر:
- بصراحة يا بشمهندس نحن لا نعتقد أن لديك النية لإصلاح الأمور... إشراكنا اليوم بعد كل هذه الفترة شيء لا معنى له. ولكى أكون أكثر صراحة كل اللى موجودين أمامك يبحثون عن عمل منذ أشهر دون جدوى. هذا هو التفسير الوحيد لبقائهم كل هذه الفترة بدون مرتبات. واعذرنا على لهجتنا الحادة، ولكن لم يتبق لنا الآن ما نخشى فقدانه.
سرت همهمة استنكار وصاح البعض:
- ماذا تقول يا عصام؟ لا أحد منا سيبدأ بالبحث عن عمل قبل ما الشركة تقول لنا أنه لم يعد لنا مكان بها. إحنا نشأنا وكبرنا فى هذا المكان.
- كما تشاءون... تريدون المضى قدما فى هذه الأكاذيب، حسنا، أنا أتحدث بالنيابة عن نفسى.
- حسنا، حسنا دعونا لا نتشاجر. ولنبدأ من هذه النقطة، وهى عدم خداع أنفسنا. لقد اخترت لكى نبدأ كلنا من نفس النقطة أن أكشف لكم الحقائق كاملة. الكل متأكد من تعثر الشركة، على الأقل الفترة الأخيرة بعد وفاة والدى وانقطاع صرف المرتبات المنتظم. وأنا أود أن أبدأ ببعض الحقائق والأرقام لتحليل الوضع المالى لتوضيح موقف الشركة الفعلى. برجاء إذا عجز أحدكم عن فهم أى شىء أن

يسأل بعد كل نقطة أنتهى منها. أنا أعلم أن معظمكم ليست لديه خلفية محاسبية ولكننى سأحاول أن أبسط الأمور بقدر الإمكان.
نهض المدير المالى من مكانه واقترب من أذنى ليسر إلىَّ بشيء. أشحت بوجهى بعيدا وأنا أقول له محذرا:
- أنا أعنى ما أقول، لن أخفى عليهم شيئا، قل ما تريد بصوت عال.
- أنا لا أعتقد أنه من الحكمة أن تطلع الجميع على ميزانيات الشركة. فوالدك كان يعتبر هذا من أسرار الشركة الداخلية.
- للأسف أنا أختلف معه فى الرأى وهو ليس بيننا الآن ليمنعنى.
- أيضا، هناك عائق آخر...
- ما هو؟ لا تخش شيئا.
- حسنا،... ثم قدم إلى ورقة كان يكتبها لأقرأها، قبل أن يستعيدها ليمزقها:
" هناك أكثر من ميزانية. واحدة حقيقية داخلية وأخرى للبنوك وثالثة للضرائب. إذا قلت شيئا مخالفا لميزانية الضرائب فستوقعنا فى مصيبة قد نسجن بسببها."
- من الآن فصاعدا لن يكون هناك سوى حقيقة واحدة معلومة للجميع وموثقة بميزانية واحدة معلنة. واليوم أنا سأشرح المواضيع بصورة مبسطة دون الدخول فى أية تفصيلات قد توقعنا فى مشاكل مع أى جهة. لا تقلق من هذه الناحية.
ثم بدأت بعرض التحليل المالى ببطء شديد حتى يتثنى للجميع فهمه. وقد تبينت من التجهم المتصاعد من حولى أننى أجدت التبسيط بحيث بدأ الجميع يدركون حجم المصيبة التى نحن غارقون فيها. وفجأة قاطعنى أحد المهندسين منفعلا انفعالا شديدا يحاول مداراة غضب مكتوم:
- يا بشمهندس محمد، نحن لا نريد سماع هذا الكلام. من المفترض أن تبث فينا الأمل لا أن تحبطنا. ما الذى سنستفيده من معرفة كل هذه المصائب. المفروض...

رددت بحدة مقاطعا بصوت عال:
- أرجوك لا تقاطعنى، قل كل ما تريد بعد أن أنتهى.
تعالت الأصوات من الشاشات تأييدا للمهندس:
- نعم، نحن لا نريد معرفة هذه الحقائق...
- ماذا سنستفيد عندما نعلم أن عوائد الشركة لا تغطى مرتباتنا منذ ما يقرب من عامين؟! وهل هذا ذنبنا أن الإدارة لم تستطع توفير حجم عمل مناسب لنا؟!
- هذا صحيح، إذا كنتم تريدون تصفية الشركة قولوا لنا ببساطة ولا داعى لمحاولة إشعارنا بالذنب لأن والدك، رحمه الله، كان ينفق من ماله الخاص ليكمل لنا مرتباتنا.
- أنتم لا تريدون سماع الحقيقة إذن؟!
- لا، لا تهمنا الحقيقة. كل ما يهمنا أن تكلفنا بأشياء لنفعلها وممكن نموت نفسنا لننجزها حتى نخرج جميعا من هذا المأزق.
- وما هى هذه الأشياء التى سأكلفكم بها؟!
- لا ندرى!، هذه مسئوليتك أنت. أنت صاحب الشركة، أنت الإدارة العليا!
- إذا كان هذا ما تظنونه جميعا فلا داعى لاستكمال هذا الاجتماع حتى لا أضيع وقتكم ووقتى.
نظرت إلى الجمع الواجم أمامى متفحصا حتى بدأت بعض الصيحات تتعالى:
- اتركوه يكمل كلامه... لقد شارف على الانتهاء.
- نعم، تفضل يا بشمهندس، أكمل...
حاولت الاختصار حتى انتهيت. التفت إلى الجمع وأنا أقول بهدوء مشددا على كل كلمة:
- هذه هى الحقيقة كاملة، أنتم تعرفونها الآن تماما كما أعرفها. السؤال الآن هو" هل نغلق أم نستمر؟" أنا أزعم أن هناك احتمال وجود أمل إذا تكاتفنا جميعا وبدأنا نفكر سويا. هناك استحالة عملية فى قدرتى على تصور الحلول منفردا؛ ولذلك طلبت منكم البدء

بعمل انتخابات لاختيار ممثلين لكم لديهم قدرة على التفكير المنظم ويدركون مشاكلكم وقادرون على ترتيب الأولويات. ففى النهاية أصول هذه الشركة الأساسية هى الخبرات التى اكتسبتموها. وبهذه المناسبة أود أن أعلمكم أن أى شخص لا يؤمن بجدوى ما نفعله فليتفضل بترك الشركة بعد تسليم عمله إلى أى شخص آخر؛ وأعده بصرف مستحقاته كاملة. أما من سيظل معنا فهو قد قبل أن يلتزم التزاما تاما بأخلاقيات العمل.

تغيرت نبرة صوتى تماما وأنا أتوجه إليهم بحدة:

- أقول هذا لأننى أثناء تفحص ملفات والدى وجدت هذه القائمة المسماة بـ"القائمة السوداء". وهى قائمة بكل من ثبت تورطه فى بيع أجزاء من الأنظمة والتصميمات التى تقوم بها الشركة إلى شركات منافسة أو أخذ عمولات من موردين لتفضيلهم عن غيرهم أو عمولات من أية جهة تقدم لنا خدمة لقصر التعامل عليها. وقد قمت بمسح كل الملفات التى تحوى هذه القائمة السوداء ولم يتبق منها سوى هذه الورقة المطبوعة والتى سأقوم بتمزيقها أمامكم الآن.

صاح المدير الإدارى محتجا وأنا أمزق الورقة:

-لا تفعل هذا يا بشمهندس، هذا اتهام خطير ولا يجوز تعميمه بهذه الصورة المجحفة.

رددت فى حدة بالغة وأنا أرمقه شذرا:

- أنا لا أعمم شيئا، أنا أفتح صفحة بيضاء مع الجميع. ولمعلوماتكم أنا لن أقبل استمرار الشركة دون تحقيق الحد الأدنى للأجور، وأفضل أن أغلقها عن الاستمرار فى هذا العبث الذى لا يفيد بشىء سوى دفع الناس دفعا للتخلى عن مبادئها. قبل أن نغلق هذا الموضوع أحب أن أوضح لكم أننى لا أعترف بـ"القوائم السوداء". بدءا من هذا اليوم من سيرتكب أى شىء يمس الأخلاقيات سيتم فصله فورا ورفع قضية عليه لاسترداد حق الشركة منه حتى لو كان حقا معنويا. صدقونى من يشك فى عدم

قدرته على تحمل الصعاب التى سنواجهها الفترة القادمة فليتركنا الآن ويحظى بالمكافأة بدلا من أن يخسر كل شيء بعد ذلك بما فى ذلك سمعته...
توقفت قليلا لأخفف من حدة توترى ثم أكملت وقد خيم الوجوم على الجميع بلهجة أقل حدة:
- حسنا الفترة القادمة ستشهد إعادة تخطيط لاستكمال كل المشروعات المعلقة. أيضا سيكون هناك عمل منظم لمجموعات صغيرة سيشارك فيها الجميع من أجل إيجاد حل للخروج من الأزمة. الانتخابات سيتم إعادتها مرة أخرى ليكوّن المنتخبون نواة "المجموعة الرائدة" (Pilot Group)، وأتوقع من الجميع أن يتعاملوا معها بجدية أكثر. أنا أعلم أن ما أنا بصدد طلبه منكم صعب ولكننى بعد مراجعة الجداول الزمنية للمشروعات المختلفة تبين لى أن هناك استحالة عملية أن يكون عمل المجموعات أثناء ساعات العمل الاعتيادية ولذلك فالعمل سيكون إما بعد ساعات العمل الرسمية وإما خلال الأجازات.
سرت همهمة عالية فاستطردت بسرعة:
- عمل هذه المجموعات سيكون غير مدفوع الأجر، ولذلك فهو عمل تطوعى لمن يؤمن بوجود أمل فى إنقاذ الشركة ومستعد للتضحية بوقت راحته من أجل ذلك. الأمر بين أيديكم الآن وأنا أنتظر قائمة بالمتطوعين إن وجدوا. هذا كل شيء، ليس لدى ما أضيفه.
سرى توتر حاد بين الجمع وبدأت أميز كلمات مثل " القبض" و"المرتبات" مما دفعنى إلى السؤال بحدة:
- ماذا؟ ليتكلم واحد فقط بصورة واضحة حتى أفهم.
ساد الصمت الثقيل إلى أن بادرنى مدير المشروعات بلهجة رصينة تعبر عن وقار سنه:
- الناس تسأل عن ميعاد قبض مرتباتهم المتأخرة.
صحت فى انفعال بالغ غير مصدق رد الفعل:

- بعد كل ما شرحته وأنتم تسألوننى عن هذا! الموقف المالى عرضته عليكم بالتفصيل وقلت لكم أثناء الحديث إننى سأولى موضوع صرف المرتبات أولوية قصوى ووعدتكم بحله فى أسرع وقت.
تعالت الأصوات المحتجة حتى استطرد بلهجة رزينة وهو يشير إلى الشاشات أمامه ليستمهلهم:
- الناس تريد أن تعرف ميعادا محددا لأنهم يا بشمهندس عاجزون عن الاستمرار هكذا فى المجهول. كل ما قلته يا بشمهندس جميل ولكنه لا ينفى أن لدى الكل احتياجات أسرية لا تقبل الانتظار أكثر من ذلك.
- ولكننى لا أستطيع أن أعدكم بشىء أنا غير قادر على تنفيذه، عندما أصل لحل ما سأعلمكم فورا، وأتوقع أن يكون هذا فى ميعاد قريب.
- ولكن الناس تريد أن تعرف ميعادا تقريبيا.
سرت صيحات احتجاج عديدة ميزت بضعة عبارات من بينها: "تقريبى إيه، عايزين القبض"، "إحنا جبنا آخرنا، الكلام ده مش نافع".
أحسست بإحباط شديد وشعرت أن كل ما قلته لم يؤثر فيهم البتة. بدأ عقلى يعمل بسرعة جهنمية للخروج من هذا المأزق الذى لم أتوقعه؛ ولكن للأسف فقد كنت دوما أفكر ببطء شديد وأعجز عن إيجاد حلول سريعة. ودون أن أفكر صحت وأنا أراجع سريعا على الشاشة المبالغ المطلوبة:
- حسنا، ستعود المرتبات المنتظمة فى نهاية هذا الشهر وسأوافيكم الأسبوع القادم بميعاد تقريبى لصرف المرتبات المتأخرة. ولكننا إذا لم نجد حلولا سريعة للخروج من الأزمة فلن تستمر الشركة أكثر من بضعة أشهر أخرى على أقصى تقدير.

أحسست بانقباض شديد يجتاحنى وأنا أعد هذا الوعد مستجيبا لضغوطهم، فقد كانت المرة الأولى فى حياتى التى أعد فيها بصرف نقود غير موجودة فى حسابى البنكى.

وقفت معلنا انتهاء الاجتماع وطلبت من المدير المالى أن يأتى لى ببعض الملفات قبل أن أنصرف. جذب انتباهى العبوس الشديد للمهندس الذى نهرته فى بداية الاجتماع عندما قاطعنى فبادرته قبل أن يغادر الغرفة:

- أنا آسف إذا كنت احتديت عليك، أرجوك لا تعبس هكذا.

تردد قليلا ثم أجاب مطرقا وعلى وجهه هذا التعبير الكئيب:

- لقد أقحمت الناس جميعا فى مشاكل لا قبل لهم بها... لن يؤدى ما تفعله إلى أى شىء إيجابى... الناس الآن أكثر ارتباكا من ذى قبل. ولعلمك سيترك الكثيرون الشركة بعد هذا الاجتماع.

- أتمنى أن يرحل كل من لا يؤمن بإمكانية تحسن الأوضاع ولا يتبقى سوى من سيحاولون بكل طاقتهم لأن هذه هى البداية... الضغوط والتحديات الحقيقية لم تبدأ بعد.

- أنت تتوقع الكثير من الناس وهم لم يتعودوا على المشاركة التى تتوقعها، هذا أكبر بكثير منهم، بل أكبر منا جميعا.

- هناك مقولة للفيلسوف "جوتة" تعتبر مدخلا لمنظومة الجودة الشاملة وترجمتها كالآتى:

" عامل الناس كما لو أنهم ما ينبغى أن يكونوه، وستساعدهم على أن يصبحوا ما هم قادرون على أن يكونوه."

قطب جبينه كدليل على عدم الفهم قبل أن يرد:

- عموما هذه شركتك وأنت حر تفعل فيها ما تشاء.

- أرجوك، هذه شركتنا جميعا.

- كما تريد.

ثم غادر الغرفة واجما أمام حسن الذى تأخر ليكون آخر شخص يغادر. أحسست بتردده فبادرته وأنا ألملم حاجياتى:
- خيريا حسن، أتريد شيئا؟!
- خير إن شاء الله، لا أدرى كيف أفاتحك فى الموضوع. أنا فقط أريد، عندما يسمح وقتك، أن أحدثك فى موضوع شخصى.
- قل لى الآن يا حسن، أقلقتنى.
وعندما كان يهم بالإجابة طرق الباب المفتوح المدير المالى فأشرت تلقائيا لكى يدخل مما دفع حسن إلى الانصراف مسرعا:
- سوف أترك حضرتك الآن وآتى فى وقت آخر.
حاولت منعه ولكنه أبى بشدة وغادر المكتب فى وجوم.

الخميس ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٦

وحيدان وسط الناس

خلال ذلك الصباح كنت عاكفا، لليوم الرابع على التوالى، على دراسة مشروع "ناطحة سحاب الكورنيش". كنت أحاول إيجاد حلول لتعويض تأخير الشركة فى أعمالها والذى قد يتسبب فى تأخير البرنامج الزمنى للمشروع ككل وليس فقط الجزء الخاص بنا مما يعنى كارثة بكل المقاييس. وفى لحظة من اللحظات وأنا أقارن بين الخطة الفعلية والخطة المستهدفة توقفت فى بلاهة شديدة أمام أحد الأنشطة وأنا عاجز عن تبين إلى أى من الدياجرامات أتطلع. أدركت فى هذه اللحظة أننى لم أوقف المجهود الذهنى منذ أشهر عدة إلا وأنا نائم، وحتى هذا كنت أشك كثيرا فى تحققه. أحسست بعقلى يرغمنى فى هذه اللحظة على التوقف. قررت أن أنتهى من تفحص هذا الجزء فعجزت تماما. أغلقت الشاشة فى استسلام وقد تيقنت من عدم جدوى المحاولة.

مر علىَّ وقت طويل وأنا جالس إلى المكتب لا أستطيع تصور قضائى الوقت بصورة مختلفة. كانت هذه هى أول مرة منذ زمن طويل أشعر بالرغبة فى عمل شىء مريح للأعصاب. ولولا الصلوات المنتظمة التى كنت أمارسها ببطء وتركيز منفصلا عن كل ما حولى لكنت انهرت منذ فترة طويلة. ولكن هذه المرة كان عقلى يحتاج إلى شىء مختلف ليعاود النشاط، شىء تافه يلهو خلاله دون تفكير.

أمرت بتشغيل الحاسب لأتفحص بريدى الشخصى الذى لم أتفقده منذ عدة أشهر. وجدت رسائل تافهة لا معنى لها من أناس ربطتنى بهم معرفة سطحية فى وقت ما، ولكن استوقفتنى رسالة

لحضور لقاء ينظمه مجموعة من أصدقاء الكلية. تملكنى الفضول لرؤيتهم بعد كل هذه السنوات، وخاصة لعدم سماعى أخبارهم منذ فترة طويلة. بعد تردد شديد أرسلت رسالة لتأكيد الحضور الذى كان فى نفس الليلة فى إحدى مقاهى المهندسين.

ارتديت ملابس رياضية خفيفة تلائم قيظ موجة الصيف التى أصبحت تستمر حتى شهر نوفمبر. ولأول مرة منذ زمن طويل اتأمل هندامى فى المرآة قبل أن أترك المنزل. لسبب خفى، وفى الأغلب تافه، وددت لو أقابلهم بمظهر معتنى به.

عند وصولى إلى منطقة المهندسين ركنت بعيدا فى شارع جانبى وتوجهت للمقهى سيرا على الأقدام مرورا بشارع جامعة الدول العربية (فلم يكن قد تم شطب كلمة جامعة منه بعد). كانت الجزيرة الوسطى تموج بالحركة داخل الأسوار التى تتناثر فيها مجموعة من الحمير والبغال يتم تأجيرها لركوب الأطفال. وقد يتذكر القراء الذين عاصروا فترة ما قبل "مرحلة الفصل الكبرى" كيف كانت الأمور حينذاك. لقد كانت بعض المناطق المحددة فى إطار هذه الأحياء يصرح بالتواجد داخلها دون تصريح، تماما مثل هذه الجزيرة المسيّجة.

كانت هذه هى أول مرة أسير فى هذا الشارع ليلا يوم الخميس. ولذلك فلكم أن تتخيلوا دهشتى الشديدة مما كنت ألاقيه أثناء السير الذى طالت مدته بسبب الزحام الشديد. كانت هناك جحافل من الناس، من جنسيات مختلفة، تسير فى تلكؤ شديد وكأنه ليس لديها هدف سوى التريض والتوقف كل متر لأسباب مختلفة وثانوية. مررت أولا بجموع العائلات التى كانت تسير بجوار مطاعم الأكلات السريعة وبعض المحال التى انتشر أمامها باعة افترشوا الأرض بأعجب أنواع البضائع الصينية. منتجات عجيبة

لا يمكن أن يخطر على بال إنسان أنها موجوده أو أن مخلوقا قد يحتاجها لأى سبب.

بدأت أصادف عددا من المتسولين المنتشرين فى المنطقة. فى البداية تصورت أنهم يتحركون بصورة عشوائية ثم تبينت بعد ملاحظة دقيقة أنهم يشكلون مجموعات منتظمة تحوى أنماطا بينها تباين شاسع. لقد كان هناك تنظيم محكم وإن كان مستترا ليعطى انطباعا بالعشوائية، فتظن مثلا أنها صدفة أنك تصطدم بنصف جسم إنسان على عجل لا تراه من الزحام، لتعتقد أنك الوحيد الذى يتعرض لهذا الموقف القدرى، علما بأن هناك واحدا منهم كل عشرة أمتار ولكن ليس على نفس الخط.

فلكى تصل إلى وجهتك فسوف تتعرض فى البداية إلي صبية صغار لا يتركونك إلا وتكون قد اشتريت منهم ما يعرضونه عليك دون أن تأخذه، مما فسر لى استمرار بيعهم لحزمة خضروات أو علبة واحدة من المناديل الورقية الصغيرة للأبد. فإذا أبديت أى ممانعة فسوف تتعرض غالبا لتلطيخ ملابسك، دون قصد أو عن عمد أثناء إلحاحهم، بأيديهم التى بدت وكأنها غمست عمدا فى نوع من الزفت الذى ما إن يلمسك حتى يعلق بك. أما اذا كنت من المسرعين الذين يزيحون من طريقهم هؤلاء الصغار أثناء هرولتهم فستجد نفسك مضطرا للرضوخ أمام متاريس الكراسى المتحركة التى ستعيقك للأبد إذا لم تدفع رسم المرور. وإذا نجحت بمعجزة فى الهروب من الرجال على الكراسى المتحركة التى تدفعها السيدات، فلن تفلت من المرضى بكافة أنواع العاهات المترجلين منهم والمتكئين على عكازات، لتلتقى مرة أخرى بالكراسى المتحركة ولكنها تحمل هذه المرة المعاقين ذهنيا. أما ذوو الأوجه السمحة، وخاصة العرب، فهم حتى إذا دفعوا لكل من قابلوهم لن يستطيعوا تجاهل نصف إنسان يتحرك مستخدما محفة

بعجل أو قالبين طوب، ينظر إليهم من أسفل وعلى وجهه دمعة متحجرة بعد أن وطئوه بأحذيتهم.

وبالرغم من سخريتى الداخلية المريرية من هذه الكوميديا السوداء فإننى كلما مررت بأحد الأطفال الرضع المحمولين أو المثبتين فى أوضاع شاذة توحى بالإعاقة أشعر وكأن خنجرا حادا يخترق قلبى بطعنة نافذة لا أستريح من ألمها سوى بعد أن يغيب المسكين عن نظرى بفترة. أحسست بهبوط شديد من وطأة الألم ودمعة تنسال ببطء؛ مما دفعنى للتباطوء والهروب للسير فى حرم الشارع بجوار حارة التوكتوك مبتعدا بقدر الإمكان عن هؤلاء الأطفال.

حاولت تفسير شحنة الألم هذه فعجزت، فحتى هذه اللحظة كانت هناك بعض الأمور المشوشة فى ذهنى تعوقنى عن الرؤية بوضوح. وكما سيتضح فيما بعد، فقد استغرقنى الأمر حوالى العام حتى أتوصل لكنه كثير من المشاعر التى كانت تجتاحنى فجأة دون سبب واضح مثل الذى حدث لى فى ذلك اليوم.

عند نهاية ممشى العائلات على ناصية الشارع الذى يقبع فى نهايته المقهى بدأت ألمح مجموعة من الفتيات من مختلف الأعمار يرتدين ملابس ساخنة ومتبرجات بصورة ملفتة. فور اقترابى منهن أخذ بعضهن يضغطن على أزرار الموبايل ثم ينظرن إلىَّ بدهشة فائقة. فهمت عندما مررت بإحداهن وهى تصيح بى مستهزئة: "إنت ماشى كده بدون أجهزة استقبال." أدركت أنها تعلق على كونى لا أحمل أى وسيلة اتصال وتأكدت أنهن مومسات يحاولن إرسال رسالة أو تلقيها. بدأت أرقبهن وقد تمهلت فى السير والدم يتدفق فى عروقى من هذه الفجاجة. يبدو أننى كنت أعمل أكثر مما ينبغى طوال الأعوام الماضية ولم ألتفت إلى التغيرات الصارخة

فى شوارع القاهرة، لأن هذا الكيان الراسخ لابد وأن يكون قد تشكل فى سنوات عدة. تذكرت صلاح حربى وهو يتحدث عن الموسسات اللاتى يعلن عائلات ممتدة. لاحظت أثناء سيرى أنهن أيضا كن منظمات، لا تتقاطع أماكن وقوفهن أو سيرهن بعضها مع البعض الآخر، وكن أيضا يحوين أنماطا مختلفة متكاملة للحد من المنافسة المباشرة. ذهلت عندما وجدت مجموعة من الفتيات يرتدين أغطية للرأس، وقد توقفن بعد نداء مجموعة من الشباب للتفاوض معهن. أما الشىء المشترك الذى عجزت عن فهمه فى البداية ثم فهمته فى نهاية الشارع أن معظمهن يمسكن بخلاف حقيبة اليد، إن وجدت، شنطة بلاستيكية صغيرة خمنت فى النهاية أنها تحوى غيارا للملابس. الشىء الوحيد الجيد أن حالة من الدهشة وفوران حار حلا محل الاختناق وخفقان القلب الذى أصابنى منذ قليل، وإن كنت لم أستطع تجاهل إحساسا مقبضا خيم على الأجواء مشترك بين الحالتين.

وصلت بصعوبة إلى المقهى الفاخر التابع لسلسلة عالمية، والذى ما إن تعبر بابه العازل للصوت حتى تشعر وكأنك انتقلت إلى بلد آخر يتحدث الإنجليزية. مرقت بنظرى بين جموع الشباب الجالسين على أثاث غريب، بعضه يكاد يلامس الأرض ليتمدد عليه البعض وخاصة الفتيات فى أوضاع غريبة. لمحت وجوها تبدو مألوفة فتبينت ضالتى. نهض الجميع وتبادلنا العناق والقبلات. كانت هذه هى أول مرة أقابل فيها فريدة، عرفتنى بها إحدى الزميلات القدامى كابنة خالة لها. استمر الحديث الذى انقطع بقدومى وكان أحدهم يسترجع أحد المواقف الطريفة التى تعرضنا لها أيام الجامعة فانفجر الجميع بالضحك ووجدت نفسى أبتسم رغما عنى. بدأ آخر يتذكر مشهدا أكثر طرافة ليسرده فيقاطعه أحدهم ضاحكا ليذكر تفصيلة نسيها حتى بدأ الجميع يشتركون فى ضحك هيستيرى ذكرنى بجلساتنا التافهة أيام الدراسة. شيئا فشيئا

كلما زادت نبرة الضحك زاد ابتعادى عنهم حتى بت عاجزا عن التفاعل معهم وإطلاق العنان للضحكات. أخذت أتأملهم فوجدتهم جميعا وكأنهم لم يتغيروا البتة، فهم كما تركتهم وكأننى كنت معهم البارحة. لوهلة أحسست بالغربة لعجزى عن العودة للماضى، فقد كان حاضرى مثقلا بالهموم التى تثبتنى وتعجزنى عن المضى قدما فى أى من الاتجاهين. وبالرغم من ذلك فقد كان جزء منى، ظننته قد تلاشى، مستمتعا بما يذكروننى به. فقد أتاح هذا التجمع لمجموعة من الذكريات التى تعبر عن مرحلة جميلة تتسم بالبراءة والصدق والعفوية أن تطفو على السطح. أدركت من ضحكهم الانفعالى مدى تشبثهم بهذه المرحلة وافتقادهم لهذه الذكريات. تيقنت عندئذ من خطأ تصورى، فهم بالقطع قد تغيروا كثيرا ولكننى أعجز عن رؤية هذا الآن. يعضد هذا الاستنتاج محاولاتهم اليائسة لإحياء ذكريات هذا الطفل بداخلهم. هذا الطفل الذى يصارع من أجل البقاء حيا فى غابة الكبار الناضجين... فى الأغلب هم لم يضحكوا هكذا منذ سنوات... هى الوحيدة التى لم تكن تضحك.

من الجائز أنها لا تفهم ما الذى يثير الضحك فى هذه القفشات الصبيانية والتى لم تعشها معنا من قبل. وبالرغم من فارق السن بيننا كانت تبدو لى فى تلك اللحظة أنضج بكثير من الآخرين. كانت تحيرنى هذه النظرة الحزينة التى حاولت إخفاءها برسم ابتسامة بدت وكأنها تنتزعها عنوة. التقت نظراتنا لتطفو شحنة شجن مشتركة على السطح. تجهمت وكأنها تذكرت شيئا ما فأشاحت بوجهها بعيدا وقد اختفت الابتسامة. أردت أن أعتذر لها دون أن أدرى لماذا، فنظرت لها مبتسما، مشجعا، ولكنها كانت قد أشاحت بوجهها بعيدا. أدركت عندئذ أننى فقدتها. نهضت فجأة وأنا أسألهم:
- كم الساعة الآن؟

- لقد قاربت الثامنة. ردوا وهم ينظرون باستغراب إلى يدى التى كانت تخلو من الساعة.
- أنا آسف، لكن لدى ميعاد هام يجب أن ألحق به، لقد حضرت خصيصا اليوم لأراكم لأننى بالفعل افتقدتكم. سأترك بريدى الشخصى وأرقامى على هذا الهاتف، وأرجو منكم أن ترسلوا لى جميعا وسائل الاتصال الخاصة بكم.
- ألا تملك أية وسيلة اتصال لترسل لنا تعريفك على هواتفنا الآن؟
- فى الواقع لا أحمله معظم الوقت. قلتها وأنا أنقر على هاتفها المحمول سريعا ثم أكتب بريدى الإليكترونى وأقوم ببثه للجميع. أحسست بنظراتها المندهشة تلسعنى فتفاديت النظر إليها وغادرت سريعا وأنا ألوح لهم بالتحية. فور خروجى من الباب الزجاجى التفت خلفى لأجد، دون أن يساورنى أدنى شك، نظراتها تتعقبنى. أخذت تتأملنى فى دهشة وأنا أحاول استجداء كل من يمر أمام المحل حتى عطف علىَّ أحدهم فأعطانى هاتفه الخاص. كنت أنظر إليها من خلف الزجاج وأنا على يقين أنها ترانى حتى أعطاها هاتفها إشارة.

- أرجوك لا تغضبى منى، أريد أن أعتذر لك.
- على ماذا؟ أنت لم تفعل شيئا. كانت تهمس بصوت خفيض وقد نهضت مبتعدة عن الجمع.
- بلى، لقد فعلت، إذا لحقت بى الآن سأشرح لك لأننى يجب أن أنهى المكالمة فورا. أرجوك أنا لم أفعل ذلك فى حياتى من قبل. قلتها وأنا أعيد الهاتف معتذرا للشخص الذى بدأ يلوح لى بيديه متبرما.
عادت إلى المجموعة دون أن يبدو عليها أدنى تأثر والتفتت لى مرة أخيرة قبل أن تدير لى ظهرها، فيما ظننته، للأبد...
انتظرت فى يأس مدة طويلة قبل أن أغادر فى تباطؤ مكانى وأعود أدراجى حيث استقبلتنى أعداد من المومسات اللاتى تزايدن فجأة

بسرعة غير مفهومة. بعد فترة سمعت صوتا ينهج من خلفى وينادى:
- انتظر...، انتظر...، أنا لا أستطيع أن أسير وحدى فى هذا الشارع.
التفت خلفى لأجدها تحاول اللحاق بى وهى تسرع من خطاها إلى حد الركض فى ذعر شديد، يلتهمها بعض الفتية بنظراتهم النارية. توجهت ناحيتها وقد أشرق وجهى مرة أخرى ووقفت أتأملها فى صمت حتى بادرتنى بلهجة عتاب:
- لماذا غادرت بعد أن طلبت منى اللحاق بك؟
- لقد انتظرتك مدة طويلة حتى يئست.
- ماذا تعنى بمدة طويلة؟ أنا غادرت بعد خمس دقائق فقط. كان يجب أن أعتذر لابنة خالتى وأؤكد لها أننى طلبت تاكسيا ليقلنى من أمام الباب حتى لا أسير فى هذا الشارع خطوة واحدة بمفردى.
- ولماذا لم تقولى لى أنك ستلحقين بى؟
- كيف وأنت أغلقت الهاتف ولا تملك واحدا!
- لقد أغلقته دون أن أنتظر الرد لأننى كنت أشعر بأنك ستلبين دعوتى.
- لماذا أنت واثق هكذا؟
- لا أدرى.
- حسنا، ماذا تريد أن نفعل الآن؟
- دعينا أولا نعبر الشارع إلى الجهة الأخرى، حيث الزحام أقل والسير أكثر أمانا.
حاولت أن أمسك بيدها فتفادتنى حتى وصلنا إلى الرصيف المقابل.
- نستطيع أن نذهب إلى سيارتى ونتحدث قليلا وأنا أقلك إلى منزلك.
كنا نسير صامتين حتى باغتتنى:
- حسنا، لماذا تريد الاعتذار؟ ولماذا تظن أنك أغضبتنى؟
- ...

- أنا أنتظر الرد.
- لا أدرى... عندما التقت نظراتنا شعرت بأنك مثلى تشعرين بأن... لا أدرى... لقد كنا جميعا نضحك على أشياء تافهة لا علاقة لها بك... وكأننا لا نراعى... شحنة الشجن التى كانت تملؤك... والتى يبدو أننى ذكرتك بها بصورة ما... عندما نظرت إليك.
- ماذا تعنى؟ لماذا تقول ذلك؟
- أنت تعلمين.
- لا، لا أعلم.
- لا أستطيع أن أفسر كل شىء بالكلام، فأنا دوما ما تخوننى العبارات ولكن أقسم لك أن هذا ما شعرت به.
- ولماذا شعرت بذلك؟
- لا أستطيع هذا الآن.
- لا تستطيع ماذا؟
- لا أستطيع أن أفسر شعورى بكلام منطقى، ألا يكفى أن هذا ما كنت أشعر به حينها؟ ألا تصدقيننى؟
أطرقت قليلا قبل أن تجيب وهى تتفرس وجهى وأنا أحاول الهروب من نظراتها:
- حسنا، أنا أصدقك.
- ...
سرنا مدة طويلة لا أجد ما أقوله لكسر هذا الصمت الثقيل، وقد بدا من قسمات وجهها أنها لن تتفوه بشىء. بدأت أشعر بالندم. ما الذى كنت أفكر فيه عندما تصرفت هذا التصرف الأهوج؟...لماذا لم أفكر قليلا قبل هذا الاندفاع الغير مبرر؟... لماذا وضعت نفسى فى هذا الموقف السخيف؟

وصلنا إلى السيارة فسألتها عن عنوان منزلها فوجدته قريبا فى الزمالك على النيل. طوال الطريق جلسنا صامتين وأنا حانق على

نفسى، تخترقنى شحنة خيبة أملها المستترة خلف تعبيرها اللامبالى المغلف بابتسامة باهتة.

قبل أن نصل إلى منزلها فى بداية الشارع المنزوى وجدت بمعجزة مكانا خاليا لركن السيارة عموديا على رصيف يفصلنا عن النيل بضعة أمتار قليلة. كان الظلام دامسا دون أية أعمدة إنارة، فقط النيل العميق والقمر يضيئه. ذهلت من هذا المشهد الساحر الذى لم أكن أتصور وجوده. فقد كنت أظن أن جوانب النيل بالكامل فى القاهرة قد تم احتلالها وتسييجها. ولكن لسبب ما كان هناك فى هذا الشارع أكثر من مائتى متر دون أسوار أو حواجز. رجحت أن يكون السبب وجود أشخاص مهمين يقطنون هذه البنايات الفارهة.
أوقفت محرك السيارة وقبل أن أضغط زر فتح بابها استدرت فجأة لأنظر فى عينيها العميقتين فتدافعت كلماتى متلعثمة كالشلال دون أى سبب منطقى:
- أنا آسف ولكننى حين رأيتك فى المقهى أحسست لوهلة أنك... تجلسين مثلى... وحيدة وسط الناس. شعرت بأنه ربما... ربما هى فرصة لنتبادل أحاديث حقيقية تعبر عما بداخلنا، وهو شىء أعتقد أننا نشترك فى أننا نجيد إخفاءه. خلف هذا المظهر البسيط يوجد شىء عميق مسّنى لا أدرى عنه شيئا سوى أنه مثلى... حزين، نعم حزين ولكن فى نفس الوقت قوى يرفض الاستسلام. ما تشعرين به أعتقد أننى أفهمه ولهذا تجرأت على دعوتك اليوم. قد أكون مخطئا، لا أدرى... أعتذر مرة أخرى.
- لا تعتذر، أنا أفهم تماما ما تعنيه. نعم أنت محق فيما قلته ولكن قل لى أنت... ما سبب حزنك؟
- لا أدرى. هناك مئات من الأسباب التى قد تبدو لأى إنسان كفيلة بتحقيق التعاسة ولكننى لدهشتى لا أعتقد أنها الأسباب الحقيقية. أتدرين أنها أول مرة أدرك هذا الآن وأنا أحدثك.
- حدثنى عن أى من هذه الأسباب؟

- أنا مثلا والدى توفى منذ بضعة أشهر. فى الواقع لقد كنت سببا مباشرا فى حادثة تعرض لها. أختى تعرضت فى نفس الفترة لأزمة نفسية حادة لم تشف منها بعد وليس فقط بسبب الوفاة، ولكن بسبب مصيبة أنا أقحمتها فيها دون قصد. والدتى تمر بمحنة عنيفة وأنا بعيد عنها أميال ولا أستطيع لها شيئا سوى تركها حانقة وحيدة مع أختى. شخص آخر تعرفت عليه خلال نفس الفترة توفى وهو يحاول إنقاذى. وحاليا هذه الفترة نمر بضائقة مالية تقوض تماما الاستقرار المادى الذى كنا نتمتع به والذى بالرغم من تفاهته مقارنة بما حدث فإنه يؤثر بشكل مباشر فى كافة أوجه الحياة بما فيها مصروفات علاج أختى. أتدرين؟! الطبيعى أن أنتحر بسبب الشعور القاتل بالذنب والخسارة التى حاقت بى أنا وبكل من أعرفهم بسببى، ولكن بالرغم من ذلك فأنا لا يساورنى أدنى إحساس بالندم على كل ما حدث، بل على العكس تماما جزء منى سعيد بصورة ما.

- ماذا تعنى؟ كيف تكون سعيدا ووالدك قد توفى فى حادثة أنت السبب فيها؟

- أولا أنا بالقطع بالرغم من حزنى الآن فإننى أقل حزنا عن ذى قبل عندما كانت حياتى فى استقرار تام... أعتقد أننى كنت أعانى من اكتئاب حاد دون أن أدرى. وقد تسببت التجربة المؤلمة التى عشتها فى إفاقتى وتخلصى من الاكتئاب للأبد. كذلك فعندما تصلى إلى حد تتيقنين فيه من أن كل هذه الحياة ما هى إلا مرحلة من وجودنا فلن تشعرى بالحزن لفقد أشخاص أعزاء عليك. ففى هذه اللحظة بالذات ستؤمنين باستمرار وجودهم فى مكان آخر، وهو بالقطع أفضل، كذلك ستتيقنين من إمكانية الالتقاء بهم بعد مدة قصيرة. فسنوات العمر تمضى فى هذا الزمن كالثوانى. أما المصائب التى تعرضت لها والدتى وأختى فهى تجعل لحياتى معنى وتشعرنى بأهمية وجودى، فأنا أكرس نفسى تماما لحلها فلا معنى للاكتئاب الآن... ولا مساحة له.

- إذن لماذا- إذا كنت مقتنعا بما تقول- لا تزال حزينا؟

- ... لا أدرى؟ لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال... من الجائز أنه يساورنى الشك فى إمكانية إصلاح الأمور، وخاصة أن أسرتى تقيم بالخارج وأنا عاجز عن زيارتها... من الجائز أن المشاكل تبدو لى، فى بعض الأحيان، أكبر منى...لا أدرى... من الجائز أن هناك إحساسا بالذنب تجاه أحد الأشخاص الذين فقدتهم... أتدرين، إنه ليس إحساسا بالذنب ولكنه أقرب لدين ثقيل معلق فى رقبتى تجاه إنسان أدين له بحياتى.

- وكيف ترد الدين لشخص توفى؟

- لا أدرى؟ المشكلة أننى أبحث عن سبب منطقى لكل ما حدث فلا أجد. لكى يكون للأشياء معنى يجب أن أفعل أمورا ملموسة، لا أدرى ما هى، لمنع تكرار ما حدث لأى مخلوق. لقد كان هذا الشخص يحلم بعالم أفضل، وأنا أعنى أنه كان لديه القدرة على الحلم الحقيقى.

- ولكن ما علاقة هذا برد الدين؟

- لأول مرة أرى هذا بوضوح وأنا أحدثك. **أعتقد أنه ضحى بنفسه من أجلى لأنه يتوقع منى أن أجعل هذا العالم أفضل.**

- ماذا تعنى؟ كيف يمكن لأى مخلوق فى هذا الزمن أن يجعل العالم أفضل؟ نحن نحيا بالكاد فما بالك بتغيير الكون.

- أتدرين، لأول مرة أدرك سبب حزنى أو بالأحرى همومى. بصورة ما أنا مقتنع بوجوب ردى الدين بهذه الطريقة ولكننى لا أدرى من أين أبدأ، فكل ما حولنا زائف ومنهار ولا يوجد شىء حقيقى أتشبث به لأبدأ. الوحيد الذى آمن بى كان صديقى الذى فقدته. أما الآن فأنا وحدى تماما وهذا الإحساس القاتل بالوحدة يشعرنى بالعجز...

انتبهت على دمعة تنسال ببطء على وجنتيها وهى تقول بصوت مخنوق:

- نعم، أنا أشعر بما تقول... إحساس الوحدة قاتل.

- أنا آسف،... أنا لا أقصد... يا لغبائى الشديد... أنا لا أقصد... يبدو أننى قلت أشياء أغضبتك.
- بالعكس، بالعكس تماما.
ولأول مرة ألمح ابتسامتها الصافية على شفتين قد بدأتا فى الاكتناز بسبب البكاء.
ودون أن أشعر وجدت نفسى أحوط كتفها بذراعى وأضمها إلى صدرى ودمعة لانهائية بدأت تنسال على وجنتى.
أحسست بدفء رأسها ودموعها تغمرنى لتغسل كل ما بى من شوائب. لا أدرى كم لبثنا فى هذا الوضع ولكننى فى لحظة ما رفعت وجهها بإصبعى، بعد أن زال الساتر تماما، لأكتشفها من الداخل. شعرت بشحنة عميقة تهز وجدانى ليختلط ما بداخلنا منصهرا فى كيان واحد، ووجدت نفسى أقول دون وعى:
- يا إلهى، ما الذى مررت به وأنت ما زلت فى هذا السن؟
- ... أرجوك أعفينى من الإجابة الآن، لا أستطيع ذلك الآن... أرجوك.
- حسنا... كما تريدين.
دون أن أنتظر ردا ضممتها إلىَّ مرة أخرى وانفصلنا تماما عن كل ما حولنا حتى ظننت أننا غفونا قليلا وكأننا نستريح من إنهاك ركض متصل لعشرات السنين.

أفقنا بعد فترة، ودون أن نتبادل الحديث غادرت السيارة وهى ترمقنى بنظرة وداع، وظللت أتابعها من ظهرها حتى دخلت المبنى على بعد مئة متر منى.

فى هذه الليلة نمت نوما عميقا هادئا وعجزت عن تذكر أى من أحلامى عندما أفقت فى اليوم التالى.

"وداعا جيرار"

(النسخة العربية لرسالتى إلى جيرار بعد حرق النسخة الفرنسية)

٢٠٢٦/١١/٣

عزيزى جيرار،

أعلم كم ستصيبك الدهشة عندما تصلك هذه الرسالة بعد كل هذه السنوات من الانقطاع. أدرك أيضا أنه من غير اللائق أن أرسل إليك مثل هذه الرسالة وأنت تمر بهذه المحنة القاسية. لا أدرى حتى ما إذا كنت ستتذكرنى أم لا؟ وخاصة أننى لن أستطيع ذكر اسمى.

أتذكر المخيمات الصيفية التى قضيناها سويا أثناء برنامج التبادل الطلابى لجامعاتنا؟ أتذكر ونحن مستلقون على رمال الواحات الباردة نتلفح بسماء مرصعة بعددلانهائى من النجوم؟ أتذكر حديثنا عن الكون وبداية الخلق ومعنى الوجود؟ أتذكر مفهومنا المشترك لكثير من الأمور برغم اختلاف ثقافتنا؟ أتذكر اكتشافك، وأنت تتنفس الهواء النقى مستنشقا شحنة إلهية صافية، بأن الصحراء العظيمة - التى نعتبرها نحن نقمة- هى بالتأكيد مكان موح لكل الرسل والأنبياء.

أتذكر عندما حدثتك عن رواية "Les possédés" لدوستويفسكى (ترجمت إلى العربية بعنوان "الممسوسون")؟ أتذكر رواية أندريه مالرو "La condition humaine" (ترجمت إلى العربية بعنوان " قدر الإنسان")التى غيّرت رؤيتك للحياة حينها؟ أتذكر تلك الأيام... عندما كنا لا نزال نقرأ الأدب؟

أتذكر الأشياء الصغيرة التى اكتشفناها سويا آنذاك وفسرنا بها عظمة المصريين؟ أتذكر الفلاح فى القرية الصغيرة حيث استرحنا من إعياء السير بجوار عشته الطينية المتهالكة وأصر على استضافتنا؟! أتذكر الأكل القليل الذى لا يشبع فردا والذى شاركناه إياه والطاقة العظيمة التى انتابتنا عندئذ؟!

أتذكر الحادثة التى مررنا بها وفوجئت بالعربات جميعها تقف لتخلص الراكبين قبل احتراق عربتهم؟ يومها سألتنى عما إذا كان عدم انتظارهم لعربات الإسعاف مخالفا للقانون أم لا وأنا رددت بأن هذا لا يهم لأن المصريين لن يستطيعوا منع أنفسهم من تخليص المصابين حتى لو جرّمهم القانون؟!

أتذكر سعادتك باستضافة عائلتى الكبيرة لك على الغذاء وذكرك أنك لم تر أحدا من أسرتك منذ زمن طويل إلا على شاشة الكومبيوتر؟ أتذكر إعجابك الشديد بمفهوم "الطبيخ المنزلى" الذى انقرض من ثقافتك؟!

أتذكر نشوتك البالغة وأنت ترقب جموع الأسر الغفيرة التى تسهر حتى الفجر فوق الكبارى المطلة على النيل وهى تتسامر؟ حينها قلت لى إنهم بالتأكيد لن يركزوا فى اليوم اللاحق فى عملهم ولكنهم بالقطع سينامون سعداء هذه الليلة؟! أتذكر حجم التحيات التى كنا نلقيها على أناس لا نعرفهم والإجابة المعتادة: "إتفضلوا معانا!"

أتذكر القاهرة القديمة ونحن نكتشف قبل كل منعطف فى شارع المعز مئذنة جديدة؟! أتذكر كل هذا يا جيرار؟!

حسنا، أنا نفسى كنت قد نسيت كل هذا. ولا أدرى ما إذا كانت الأمور تغيرت بالفعل أم أننى أنا الذى أصبحت أرى الأمور بصورة مشوشة. فالفلاح أراه الآن يستجدى، ومن كان يملك قيراطا باعه منذ زمن. المصابون المحتجزون فى العربات المقلوبة يراقبون بالساعات العربات المسرعة التى تتفاداهم حتى يلفظوا أنفاسهم. الفساد يقتل الملايين دون أن يحرك أحد ساكنا أو يشعر مسئول بالذنب. المستمرون فى تبنى مفهوم "الطبيخ المنزلى" يستعينون بجيش من الخدم الذى يعمل بالسخرة ولا يدعون أحدا على مأدبهم. الناس واجمة مهمومة ذاهلة وتوقفت عن الاستماع إلى التحيات التى تلقى عليهم. قاهرة المعز بعد خصخصتها أصبحت لا ترى مآذنها. تضاعف عدد المنتحرين من فوق الكبارى النيلية. سحابة التلوث السوداء امتدت لتحجب النجوم المتلألئة فى الصحراء. أما أنا فقد توقفت تماما عن قراءة الأدب. تحولت إلى إنسان واقعى لا يذكر آخر حلم له.

نعم يا جيرار.. لقد توقفت عن الحلم ونسيت كل ذكريات الصبا البعيدة.

هذه الذكريات التى تدافعت إلى ذهنى كلها لحظة واحدة عندما وصلتنى أخبارك. أتذكر عندما تحدثنا، فى سذاجة شديدة، عن حقوق الإنسان التى كنت أنت مغرما بدراستها؟ أتذكر كل ما قلته لى يومها ورد فعلى الصامت. فى ذلك اليوم كنت حائرا أعجز عن الرد.

حسنا، منذ بضعة أشهر واتتنى رؤية ظننت منها أننى عرفت ما يريد الله منى أن أفعله فى هذه الدنيا. حدث هذا بعد تجربة مؤلمة نجوت منها بمعجزة. وفى يوم عودتى للحياة صعدت إلى هضبة الهرم، المكان الذى كنت تفضله. وفى هذا المكان رأيت نفسى وأنا لدى قوى خارقة تستطيع أن تغير الدنيا من حولى وعرفت عندئذ

بجلاء شديد طريق البداية: "القضاء على **الخوف والفقر**." يومها شعرت بقوة عاتية تجتاحنى وتمكننى من تحقيق هذا الفعل.

أقضى على **الخوف بداخلنا**، هذا الخوف الذى يجعلنا نخشى مواجهة أنفسنا لنرى حقيقتنا فى المرآة، لأننا قد نكره ما نراه.

الخوف من إظهار إنسانيتنا لأنها قد تكون بالضعف الذى يسمح للجميع بأن يدهسوها.

الخوف من التوقف عن تقديم التنازلات فقد نفقد هويتنا المادية التى أكسبنا المجتمع إياها عندما قبلنا أن نكون واقعيين.

الخوف من أن نكون مثاليين مؤمنين بالخير والعدل فنظلم ونقهر من قبل جميع الباطشين.

الخوف من فعل الصواب فيقضى علينا كل الخطائين.

الخوف من أن نفقد كل ما نلهث وراءه من ماديات.

الخوف من أن نتقن عملنا بنية خالصة فتعزلنا المنظومة.

الخوف من الحلم بعالم أفضل فقد يشتت هذا تركيزنا عن الواقع.

الخوف من التغيير لأنه يحمل مجهولا.

الخوف من مواجهة الله فننفيه من داخل وجداننا ونكتفى بشعائر مظهرية.

الخوف من... الحياة.

تخيلت نفسى أغتال الفقر، عدو البشرية الأول. هذا الوحش الذى يغتال الطفولة فى مهدها ويقوض الإنسان قبل أن يحبو خطواته الأولى. هذا الظالم الذى يفتك بأعداد هائلة من البشر فيدفع بهم إلى ظلمات الجهل والمرض منتزعا حقهم الطبيعى فى التعليم والمشاعر السوية. الفقر الذى بالرغم من انتشاره مثل النار فى الهشيم فانه لم ينجح بعد فى القضاء علينا. **هذه النار المستعرة التى وقودها ونتيجتها الفساد فتختلط العلاقة بين السبب والنتيجة وتتحول إلى دوامة متصلة يتعاظم حجم ما تنتجه من فساد فيؤدى إلى مزيد من الإفقار الذى يؤدى إلى مزيد من الفساد إلى ما لانهاية.** الفقر الذى أصبح سمة عالمية تلتهم كل أمل فى إنقاذ البشرية. الفقر الذى رأيته أنت فى كثير من الدول ولم أره أنا سوى فى بلدى.

ولكننى للأسف ضعفت و لم أتمسك، كما كان يجدر بى، بهذه الرؤيا فى ذلك اليوم وتاهت منى سبل محاربة هاتين المصيبتين: الخوف والفقر. وقف عقلى عاجزا أمام هذه المعضلة يقر باستحالة تصور إمكانية تحقيق هدفى إلى أن جاء ذلك اليوم.

فى هذا اليوم وأثناء نومى رأيتك منتظرا بشجاعة وكفاح ترفض الاستسلام. لقد بدوت لى منهكا للغاية يغطى عظامك طبقة رفيعة من الجلد المشدود، ولكننى لم أبدأ فى البكاء إلا عندما رأيتك تعود شابا صغيرا أستطيع لمسه فى منامى. كان هناك كثيرون ينادونك ولكنك رفضت المضى معهم وتشبثت فى عناد بمكانك منتظرا. هل كنت أنت يا جيرار من رأيتك؟ ماذا كنت تنتظر؟ هل كنت تنتظر هذا الطرد الذى بين يديك الآن؟ لا أستطيع الإجابة ولكن فى نفس هذه اللحظة بالذات حدثت معجزة وتكشفت لى بداية لحل معضلتى.

المشكلة كانت فى عقلى القاصر ومحدد الزمن اللعين. فلا يعقل أن علاج أوبئة استفحلت آلاف السنين يتطلب مدة زمنية أقل من سنوات عمرى. هذه كانت المعضلة، فعقلى اللعين كان يدفعنى فى اتجاه حلول لا يتعدى طولها الزمنى مدة حياتى وكأنه لابد وأن أعيش لأشهد الأمور وهى تستقيم. وعندما أدركت العبث الذى كنت أعيشه قررت أن أنحى السيناريوهات المعتمدة على مدد زمنية قابلة للقياس وأبدأ بفعل شيء إيجابى بسيط جدا قد يؤثر، ولو بقدر ضئيل للغاية، بمقدار لا يهمنى قياسه فى فترة زمنية محددة.

المهم أنه فى هذه اللحظة الراهنة ظهر لى هذا العمل الإيجابى البسيط عظيما للغاية. وسخرية الأقدار تدفعنى فى أول عمل له معنى فى حياتى أن ألجأ إليك أنت يا جيرار، أنت بالذات من دون كل الناس. أنت الذى تحتاج الآن إلى المساعدة أكثر من كل البشر لتعينك على مواجهة مرضك القاتل وحيدا شجاعا بعد أن تركك الأطباء. أنا آسف يا جيرار أننى أحملك هما فوق طاقة البشر ولكننى لا أشعر أنها المصادفة التى قادتنى لتذكرك فى ذلك اليوم.

الطرد الذى بين يديك الآن يحوى رسالة إنسان عاش طوال حياته يحلم. هو مناضل حرب المدونات. إنسان كنت أود أن تقابله عندما كنت تستقيل من منظمة حقوقية تلو الأخرى لعجزها عن تبنى أحلامك المثالية. هذا الإنسان توقف عن الوجود عندما أجبروه على التوقف عن الحلم ولكنه ما زال يحيا فى قلوب الكثيرين. إنسان صاحب رسالة نبيلة أدين له بحياتى ولذلك لا أملك سوى استكمال كفاحه حتى يكون لإنقاذه لى معنى ما.

أتذكر يا جيرار عندما تناقشنا حول عبارة دوستويفسكى الشهيرة : " الجمال سينقذ البشرية"؟ أتذكر هذا يا جيرار؟، هأنذا أقول لك الآن بعد كل هذه السنوات أن " الإبداع سينقذ البشرية".

نعم، أى إبداع حقيقى يجب أن يؤثر فى إنسانية البشر جميعهم لأن مصدره مشترك بين الناس جميعا، هذه الروح المشتركة التى تنتمى لنفس المصدر. الإبداع سيحرك الناس ويغيرهم ليعودوا إلى أصلهم ويكتشفوا إبداعهم الخاص الذى تناسوه والذى خلقوا من أجله. الطرد الذى بين يديك يحوى إبداعا مؤثرا فى البشرية جمعاء، برجاء أن تهديه لها مرة ثانية. أنا لا أملك سوى غيرك لأطلب منه مثل هذا الطلب الخيالى، ولكننى كما قلت أصبحت لا أؤمن بالصدف وأصبحت أؤمن بالإشارات التى ساقتنا لتتقاطع مصائرنا فى هذه اللحظة بالذات... جيرار، أنا أؤمن بك.

الملفات الموجودة بالطرد مصممة لكى تنشئ موقع "إنليتمنت" أتوماتيكيا بمجرد تحميلها. هذا الموقع يحوى الكثير من الأحلام التى يريد البعض القضاء عليها. فالباطش الضعيف، العاجز عن الحلم، لا يملك سوى انتزاع الأحلام من الآخرين ودفنها. أريدك أنت يا جيرار، ولا أحد غيرك، أن تتبع التعليمات المرفقة وتعيد تشغيل الموقع بنفس الطريقة المدونة والتى لن تتيح لأى سلطة خارج فرنسا التدخل ومنع البث. كذلك إذا اتبعت تعليماتى بدقة فلن يستطيع مخلوق معرفة بيانات منشئ الموقع الذى سيكون أنت فى هذه الحالة. ولعلمك فأنت إذا ما تصفحت الموقع ستكتشف كما قلت لك أنه يحوى إبداعا خالصا. ورأيى الشخصى – دون مراجعة دقيقة- أن هذا المحتوى لا يخالف القوانين الفرنسية والاتفاقات الدولية، وأظن أنه قد لا يسبب لك مشكلات فى حال اكتشاف صلتك به. وعلى الرغم من ذلك فإن من واجبى أن أحذرك من أن بعض الجهات لا تعترف بالقوانين وقد تذهب إلى أبعد مدى من أجل منعنا من الحلم. جيرار قد يكلفك هذا حياتك.

إذا اتبعت التعليمات بدقة فسيجدد اشتراك هذا الموقع بصورة سرية تلقائيا للأبد من خلال مرتاديه. ولذلك فأرجوك بعد التأكد من تشغيل الموقع أن تحرق هذه الرسالة التى تقرأها الآن هى ومحتويات الطرد حتى لا تترك أثرا يقود إليك.

وقبل أن أتركك أطلب منك ألا تتصل مطلقا بالدبلوماسى الذى أحضر لك - على مسئوليته الشخصية- هذا الطرد. فهو بالرغم من عدم تعرفى عليه فإنه صديق صديقى الذى تلقيت منه خبر صراعك مع المرض. برجاء محو بياناته من كل وسائل الاتصال الخاصة بك حتى إذا ما تم الوصول إلى علاقتك بالموقع فى يوم من الأيام لا يتم ربطك به بأية صورة من الصور.

وفى النهاية أشكرك يا جيرار على كل شيء وإلى أن نلتقى...

__*ملحوظة:*__

برجاء المعذرة على ركاكة الإسلوب، فقد كتبت هذه الرسالة بالعربية أولا ثم قمت بترجمتها إلى الفرنسية. أتذكر عندما كنت أقول لك إن هناك أشياء أعجز عن شرحها لك لأننى عندما أحدثك بالفرنسية فإننى أفكر بها. حسنا، لقد حاولت تفادى هذا الآن.

الجيزة فى ١٧ نوفمبر ٢٠٢٦

أثناء تصفحى لأول مرة الموقع بعد إعادة تشغيله اكتشفت عبارة جديدة بالفرنسية تمت إضافتها على شريط متتابع أعلى صفحة الولوج. العبارة كانت تقول:

" ادعوا لى فقد حاولت"

تلقيت فى نفس اليوم خبر وفاة جيرار الغريب. فقد غادر منذ أيام وفى عناد شديد المستشفى الذى كان يرقد به، متحديا كل الاحتمالات الطبية المنطقية التى أجمعت على استحالة امتلاكه قوة تسمح له بمغادرة الفراش. كان يتشبث بطرد تحمله عضلاته الواهنة رافضا المساعدة، وغادر وحيدا فى إحدى السيارات الآلية دون سائق. عاد جيرار البارحة إلى المستشفى تماما كما غادر ولكن دون طرد أو متاع. و فى هذه الليلة فى هدوء وسكينة ولأول مرة منذ شهور توقف عن الصراخ ليلا من الألم وعلى وجهه تعبير صاف خال من تجاعيد المرض والهم وكأنه عاد طفلا كما كان، للأبد.

فى هذا اليوم كنت أظن بسذاجتى أن هذه هى نهاية علاقتى بموقع غريب الإليكترونى. أقنعت نفسى بأن هذا العمل التافه الغير مخطط والغير محسوبه نتائجه وعديم التأثير، قد يكون الشىء الوحيد الذى أستطيعه فى هذه اللحظة لرد جزء من دينى لغريب. ولكن السنوات التالية ستثبت لى خطأ تصورى الفادح وقصور تخيلى لمدى قدرة هذا العمل التافه على تغيير مصائر ملايين من البشر. فقد كانت هذه مجرد بداية.

نوفمبر ٢٠٢٦

العودة

- أرجوك هدئ من السرعة قليلا.

- حضرتك اللى طلبت سيارة "الحارة السريعة" وستدفع خمسة أضعاف الأجرة العادية للسير بهذه السرعة. إذا أبطأت الآن ستدفع هذه التكلفة الباهظة دون جدوى. ففى خلال نصف ساعة سنصل إلى منطقة الزحام حيث لا توجد حارات سريعة.

- لا يهم. فقط أبطئ قليلا فقلبى يخفق وخاصة أننى لست ممسكا بالمقود.

- لا تخش شيئا حضرتك. الأعمار بيد الله، وهذه السيارة من أأمن ما تكون. كما ترى، فأنا ممسك بالمقود بالإضافة إلى تشغيل المقود الآلى (Auto Pilot). فقط ثق بى.

- أنا أثق بك ولا أخشى الموت ولكننى لا أستطيع منع قلبى من الخفقان بشدة. أرجوك خفف السرعة!

- المشكلة حضرتك أننى إذا فعلت ذلك فسيظهر هذا على شبكة التعقب فى الشركة وسيحرموننى من الحوافز بسبب إضاعة الوقت. هم لن يقتنعوا بأن العميل الذى سيدفع كل هذا المبلغ يريد سيارة تسير بسرعة عادية.

- حسنا، عليك أن تختار. إما أن تنزلنى هنا دون أن أدفع شيئا وتخسر كل الحافز وإما أن تبطئ.

لم يجب ولكنه خفض سرعة السيارة وهو يجز على أسنانه متفوها بكلمات غير مفهومة.

كان الطريق إلى المطار طويلا للغاية فقررت أن أحاول تخفيف حدة التوتر بيننا، وخاصة أننى كنت ألمح نظراته النارية بين حين وآخر فى مرآة السائق.

- واضح إن الحافز بيفرق جامد فى المرتب، لا تخش شيئا سأتفاهم مع الشركة ولن يخصموا منك شيئا، أعدك بهذا.
- يا بيه، هم حيقولوا لك أنه لا توجد مشكلة وجائز يطلبوا منك فرق نقود لتعطيل السيارة ولكنهم سيخصموا برضه من حافزى.
- لماذا؟
- حكم القوى على الضعيف وأنا، بالرغم من كل شىء، محتاج للعمل وإذا اعترضت فهناك الآلاف الذين يتمنون العمل مكانى.
- ولكن هذا ليس عدلا.
- عدل إيه يا بيه؟!، العدل ده للى معاه، إنما اللى مامعهوش ياخد بالجزمة. هى الحكومة بتاعتنا اللى وصلتنا لكده.
- ده أنت شايف الدنيا سوده قوى!
- يا بيه، إحنا عاملين زى ما يكون فيه بلطجى بيسرقنا وهو حاطط نصل السكين على رقبتنا وكل ما يحس إننا حنعترض يدوس على نصل السكين أكثر. المشكلة إنه مش واخد باله إنه بيجز فى رقبتنا وإن دمنا بيتصفى بقى لنا فترة. وعند حد معين روحنا حتطلع وساعتها وقبل ما نموت حنبطل نخاف منه لأننا كده كده ميتين فى الحالتين، ومافيش حاجة أكثر من كده ممكن تحصل لنا نخاف منها. وساعتها صدقنى الشعب الصبور الطيب ده حينقلب هو نفسه بلطجى مش هيشوف حاجة قدامه غير إنه يطلع على جتة كل اللى ساكنين الفيلات اللى فى الإعلانات ديه كل العذاب والظلم اللى شافه طول السنين ديه. صدقنى يا بيه حيشوفوا حاجات عمرهم ما تخيلوا إنها موجودة أصلا!
- لكن فيه بعض الناس اللى ساكنين الفيلات كويسين ومش بلطجية، بالعكس بيحاولوا يصلحوا على قد ما بيقدروا. ده حتى فيه منهم ضد النظام والحكومة أصلا.
- يصلحوا إيه يا باشا، هو انت تقف تتفرج عليا وأنا بجيب دم قدامك وانت بتنام شبعان مرتاح فى سريرك متضايق من البلطجى واللى بيعمله فى الغلابة وتقوللى بتحاول تصلح، بقولك بنجيب دم

ودول بيتفرجوا. عايزين يصلحوا حقيقى ييجوا يقفوا معانا جنبنا يحموا الغلابة بجسمهم مش يتفرجوا علينا من بعيد، ده حتى الدين ما بيقولش كده. صدقنى اللى واقف يتفرج ده، متضايق من المنظر، شريك فى الجريمة حتى لو هو بيعيط على الغلبان.
- عندك حق.
قاطعنا أزيز قناة الطوارئ ليعلن عن طريق جديد تم قطعه بواسطة الأهالى اعتراضا منهم على رفع مقاولى المياه لسعر الجراكن بعد انقطاع المياه التام عنهم لأكثر من عامين. تشاغلت فى الهاتف لأراجع مواعيد وصول الطائرات النهائية وأغلقت فاهى تماما حتى وصلنا. ولدهشتى البالغة عند وصولنا، وجدت نفسى أشير بهاتفى تجاه العداد لأحول له قيمة الأجرة دون ترك إكرامية ودون إثارة موضوع التعطيل كما وعدته من قبل. شعرت بالنفور من مساعدته بأى صورة من الصور بدافع الرهبة من حديثه، إحساس كان يفسد لى فى الآونة الأخيرة نية أى عمل إيجابى أقوم به.

خارج الحاجز الزجاجى لصالة وصول المسافرين لبثت واقفا عاجزا لأكثر من ثلاث ساعات. طلبت أمى للمرة العاشرة فى قلق بالغ.
- ما الأخبار؟ هل أتى أحد ليشرح لك ماذا يحدث؟!
- لا، ... لا أحد يريد الحديث إلىَّ. إنهم يشيرون لى لأبقى فى مكانى وأهدأ. ولكن كيف أهدأ وأختك يحتجزونها منذ ساعات فى هذه الغرفة بعد أن أسدلوا الستائر... وكلما اقتربت من الغرفة يشير لى هذا الضابط بقرف شديد ليهشنى بعيدا وكأننى...
- إهدئى يا أمى ولا تبكى. أرجوكى كفى عن البكاء والصراخ... هذه إجراءات أمنية.
- أنت الذى قلت لنا أن نأتى وبأنه لن تكون هناك مشاكل. تصرف الآن... إفعل شيئا. أنا لا أقوى على الوقوف، أشعر أننى سأموت...
- لا تقلقى،... لا توجد مشكلة، هى إجراءات طبيعية و...

- طبيعية؟! ماذا تعني؟! يتم نقلنا من مكان إلى مكان ويتم استجوابنا أكثر من ثلاث مرات وكل مرة نفس الأسئلة ثم يأخذوا أختك ويغلقوا عليها غرفة لا أرى من بداخلها وتقول لى إجراءات طبيعية! هل تريد أن تفقدني عقلي؟! قل لي... رد.

- إهدئي فقط، لا تقلقي و...

- إسكت... إسكت... لا تكرر هذه الكلمة بغباء شديد.. اتركني الآن سأغلق الخط.

- انتظري يا أمـ...

دفعني أحدهم من الخلف وهو يلوح بصورة هيستيرية لشخص يخرج من الباب فوجدت نفسي، في غيظ مكتوم، أقوم بإزاحته في عنف شديد للخلف وأنا أضربه بكوعي في كتفه. أمسك الشخص بكتفه في ألم دون أن يلتفت وهو يهرول تجاه الشخص المبتسم لاحتضانه. مرت فترة طويلة والقلق المميت يلتهمني وعقلي يصور لي كل السيناريوهات المأساوية تتكرر من جديد، وقد ضخَّم من جسامتها شعور بالذنب لا حدود له من جراء تشجيعي لهما على العودة بالرغم من معارضة فرح الشديدة.

وفجأة لمحت والدتي وهي تعبر نهاية الصالة وحدها باتجاه سير الحقائب. أخذت ألوح لها حتى أجذب انتباهها ولكن المسافة البعيدة حالت دون ذلك. انقبض قلبي بشدة لعجزي عن رؤية فرح وإن كنت قد بدأت أطمئن بعض الشيء عندما لمحت أمي وهي تبحث عن حقيبتها. لا يعقل أن تفعل والدتي ذلك إذا كانت فرح لا تزال محتجزة. ثم عاودني القلق عندما لمحتهم يخرجونها مع سيدة أخرى منقبة من الطابور الطويل الخاص بالطائرات التي وصلت بعد طائرة أمريكا بمدة طويلة. انزعجت بشدة عندما وجدتهم يخضعون الحقائب لتفتيش دقيق يشمل المسح بمواد كيميائية وأجهزة اكتشاف خاصة وجهاز نسخ المعلومات الآلي الذي تم تمرير كل الأجهزة الكهربائية به. أثناء الانتظار الطويل أخذت

أبحث عن فرح دون جدوى، ثم دق قلبى بعنف عندما وجدت والدتى تقترب من الحاجز وأنا عاجز عن رؤية فرح. رأتنى وأنا ألوح لها فتوجهت ناحيتى وهى بحالة مذرية وتعبير ينم عن ألم ممزوج بغضب شديد. احتضنتها منقبضا من عينها التى تحيطها هالات سوداء غائرة، ثم تذكرت أنه بالإضافة إلى فرق التوقيت فهى وفرح قد أمضيتا أكثر من يوم ونصف فى هذه الرحلة لأنهما لم يلحقا بالطائرة بسبب الإجراءات الأمنية المعقدة الخاصة بحالتهما. بعد لحظات تركت حضنها الذى أشعرنى بشحنة غضب مكتوم لأسألها عن فرح فأفاجأ بصوت بارد يجيب:

- أنا هنا يا محمد، كيف حالك؟

صعقت وأنا أصافح قفاز المرأة المنقبة. بعد إفاقتى من الذهول حضنتها بقوة لأجدها باردة مثل تمثال من الثلج.

- أنا أسف ولكن لم لم يخبرنى أحد؟

- أنا صممت ألا تقول لك أمى شيئا.

- ...

- أنستطيع الذهاب سريعا؟ فأمى منهكة للغاية وكادت تفقد الوعى أكثر من مرة.

لم نتبادل سوى بضع كلمات فى السيارة قبل أن تنهار أمى مستسلمة لنوم عميق أقرب إلى الإغماءة. بعد وصولنا بدقائق وبعد بكاء أمى عند دخولها المنزل المظلم ذهبت كل واحدة منهما إلى غرفتها حيث نامتا. كانت هذه الليلة هى أول مرة أسمع فيها صراخ فرح الحاد مختلطا ببكاء هيستيرى شعرت به مضخما يصم الآذان لدرجة جعلتنى أصم أذنى بيدى وأنا أميز بصعوبة صوت أمى التى تحاول تهدئتها.

٢٣ ديسمبر ٢٠٢٦

المولود

- حسنا، حسنا... لا تجزع هكذا يا حسن. فقط اجعلنى أتحدث إلى المسئول عن الحسابات فى الاستقبال.
- معذرة على الإزعاج ولكن الأستاذ حسن أبلغنا أنك ستتولى أمر الفاتورة، وحضرتك تعلم أن النظام المحاسبى لدينا يحتم علينا ألا نستقبل أى حالة بدون دفعة مقدمة تحت الحساب لحين التسوية النهائية ولذلك...
- حسنا، لا مشكلة أنا أتفهم ذلك جيدا وأعتذر عن أى شىء صدر من حسن فحضرتك تعلم ضغط الظرف الذى هو فيه. فقط أرسل لى بيانات تعريف حسابكم على الشبكة وسيصلك المبلغ خلال خمس دقائق مع بيانات الكارت الذى سأسوى به الدفعة النهائية. فقط اسمح له بالدخول الآن لأننى فهمت أن زوجته حالتها حرجة فى السيارة أسفل المستشفى.
- أنا أعتذر يا فندم ولكننا فقط نتبع التعليمات. فإجراءات دخولها تستلزم أوراقا معتمدة لن تصدر سوى بعد الدفع...
أدركت أنه بالرغم من كلامه المعسول فإنه لن يتحرك قيد أنملة بدون أن أحول له النقود فبادرته سريعا:
- حسنا، حسنا، أرسل لى فورا حسابكم على هذا الخط، انتظر لا تقطع الاتصال سأرسل لك النقود وأنت معى... حسنا وصلتنى رسالتك... افتح الآن شاشة الحسابات و... انتظر ثوان... حسنا... لقد انتهيت... راجع الآن كشف حساب باسم حسن إبراهيم على... هل وجدته؟ ستجد المبلغ قد تم تحويله.
- ... ثوان يا فندم حتى أتأكد... ثوان... حسنا، لقد استلمت التحويل... أستاذ حسن... أستاذ حسن... تستطيع أن تنزل الآن لتحضر زوجتك... بسرعة، بسرعة... لا لن تحتاج إلى أوراق، أنا

سأبلغهم فورا بأسفل وسأجهز كل شيء. ستقابل فريق الطوارئ عند السيارة. لا تقلق، غرفة العمليات جاهزة وطبيب التخدير والدكتور بسام والمساعدون ينتظرون بأعلى.
التفت إلى حسن وقد بدأت عصبيته تهدأ قليلا فوعدته بأن أوافيه خلال نصف ساعة.
تفاديت النظر إلى عينه المرقرقة بالدموع قبل أن أغلق الشاشة. أثناء قيامي بتغيير ملابسي قمت بطلب سيارة أجرة فقد كنت متيقنا من استحالة إيجاد مكان لركن السيارة عند المستشفى. كذلك أصبحت أفضل عدم استخدام سيارتي بسبب إحساس غير مريح يقابلني أثناء قيادتها... إحساس غريب عجزت عن تفسيره خلال تلك الفترة.

استقبلني حسن وحيدا في الغرفة وعلى وجهه علامات الجزع وقد اختلفت العبارات في حلقه:
- أنا أسف ولكن لم يكن لدى حل آخر. دكتور بسام الذي كان يتابع الحمل قال لي إنه يفضل أن يخدرها " إبيديورال" لأنه يريدها مستيقظة وهو يجرى العملية. ولأن الحالة حرجة وبها مشاكل قد ينتج عنها مضاعفات، فقد فضّل مستشفى بها عناية مركزة مجهزة جيدا. وعندما استشعر تخوفي من المصروفات اقترح أن نجرى تخديرا عاديا في مستشفى متواضع ولكنه ظل يذكرني في كل مرة أقابله بأن فرصتها هي والمولود أقل في مثل هذه الظروف. وأنا، بصراحة، اليأس جعلني أتشبث بأمل صرف المرتبات المتأخرة وهو ما لم يحدث. وعندما صرخت كريمة فجأة اليوم شعرت أن الأمور لن تسير على ما يرام ولم أدر بنفسي إلا وأنا، دون تفكير، أتصل بالدكتور وأبلغه برغبتي في الذهاب إلى مستشفى خاص وإجراء التخدير الذي يفضله. أنا آسف...
- يا حسن لا تعتذر. أنا اللي وضعتك في هذا الموقف... أنا لم أكن أدرى أن الظروف بهذا الحرج...

قطع حديثنا رنين الهاتف فنظر إلى الرقم ثم رد بسرعة:
- أيوه يا حاجة. لا خلاص ماتحاوليش تانى، إحنا مش محتاجين حاجة، البشمهندس محمد ربنا يبارك له إتصرف وأنقذنا. تعالى على المستشفى أنت وشوشو... لأ، شكرا مش حيدخلوكوا بحاجة هنا ولا حتى عيش حاف. التفتيش هنا ولا القسم... تعالوا الأول وبعدين نشوف حنتصرف إزاى فى الموضوع ده... أنا مش جعان... تعالوا بس الأول.
أغلق الخط وهو يحدثنى:
- دى والدتى وأختى... لم يأتوا معنا... كانوا بيحاولوا يتصرفوا فى فلوس... أنا خجلان منك يا بشمهندس...
- المهم الآن نطمئن على كريمة وبإذن الله ربنا يقف معاها وتقوم بالسلامة.
أمسك حسن بجزء من القرآن وأخذت أنا جزءا آخر واستغرقنا فى القراءة مدة طويلة حتى أتت والدة حسن وأخته لتنضما إلينا. وكان حسن يذهب كل ربع ساعة ليطمئن دون جدوى فيدخل علينا مطأطئ الرأس أكاد أسمع دقات قلبه المضطربة. وبعد عدة ساعات دخلت فجأة ممرضة مبتسمة وهى تنادى عليه بسرعة:
- الحمد لله، مبروك. المولود شرف بعد ما أتعبنا جميعا وزوجتك الحمدلله زى الفل.
تنفس حسن الصعداء وانخرط فى البكاء وهو يحمد ربه.
أخذت والدته وأخته تربتان عليه ودموعهم تنسال بغزارة دون صوت.
أخرجت نقودا وأعطيتها للمرضة لكى تتركنا بالرغم من تأكدى من أنه لم يكن لها أى علاقة بالعملية.
- شكرا، شكرا. المدام ستعود للغرفة خلال نصف ساعة وإذا أردت أن ترى المولود تستطيع أن تصعد إلى الدور الرابع بعد عشرة دقائق.

اصطحبت حسن بعد قليل ووقفنا ننظر من خلف الزجاج أثناء استحمام المولود الذى لم يتعد عمره الساعة. فسرنا حركة شفاه الممرضة بالداخل وهى تهمس " كريمة". أومأ حسن بالإيجاب ونظراته تؤكد أنه تعرّف على طفله قبل أن تشير إليه الممرضة. بإشارة من يدها طلبت منا الانتظار خمس دقائق حتى تنتهى.
انهمرت دموع حسن فى انفعال بالغ وهو يشاهد ابنه يصرخ مثل القطط بحدة بدت لى، بالرغم من عدم خبرتى، أعلى من صوت كل الأطفال الآخرين. راقبته متأثرا من عدم قدرته على أخذ أنفاسه خلال هذا العويل المستمر فكان جسمه ينتفض بين حين وآخر ليجبره على التقاط أنفاسه وهو يتشنج مرتعشا. انتقلت الممرضة وهى تحمله إلى الغرفة الزجاجية المجاورة وأشارت لنا بالدخول. دخل حسن ويده ترتعش ليحمل عنها ابنه المنهار من البكاء، والذى أخذ ينتفض بين يديه الكبيرتين حتى جاء صوت الممرضة التى لم تتوقف عن الكلام:
- ما شاء الله، صحته جامدة. أول ما نزل رفس برجله كل المهمات الموضوعة على منضدة الجراحة فأطاح بها لتسقط على الأرض. لم يسبق لنا أن شاهدنا طفلا بهذه القوة من قبل. أيضا صراخه أيقظ كل الأطفال الآخرين. هو بلا شك يمتلك حنجرة قوية. عندما يكبر أكيد سيصير مغنيا مشهورا. أذّن له حتى يهدأ.
قام حسن بالتكبير فى أذنه بصوت خفيض وهو مستمر فى الصراخ لتنضم إليه جوقة من الأطفال سمعناهم بالرغم من وجود لوح زجاجى يعزلنا عنهم. توجه إلى الممرضة يسألها قاطبا جبينه:
- هل يتألم؟ ماذا به؟ لماذا يبكى هكذا بصورة هيستيرية؟
- لا تخش شيئا، حضرتك. هو والحمد لله طبيعى مائة بالمائة. كل الأطفال هكذا عندما يولدون. هم يدركون بفطرتهم المصائب التى تنتظرهم فى هذه الدنيا... لا تنظر لى هكذا أنا أداعبك فقط. هو فقط صوته عال قليلا. ماذا ستسميه؟!
- عمرو. لقد اتفقت مع والدته على عمرو...

- عاشت الأسماء يا سى عمرو.
أخذت أتأمله، وهو يصارع بين يدى حسن، تجتاحنى مشاعر متدفقة تفسر لى، دون شرح منطقى، لغز الحياة والوجود بل ومسيرة الإنسانية كلها إلى يوم القيامة. وبتلقائية شديدة، قمت بلمس وجهه بإصبعى وأنا أهمس له بصوت خفيض لا يكاد يسمع من حدة بكائه:
- عمرو... مرحبا بك فى الدنيا.
ووسط ذهولنا توقف فجأة عن الصراخ وظل ثوانى يحاول التقاط أنفاسه حتى هدأ تماما ثم التفت إلى مصدر الصوت وبدأ يفتح عينيه اللتين لا تحويان سوى سواد حالك لينظر إلىَّ. ارتجفت بشدة وأنا أشعر بنظراته تخترقنى بسهولة وكأنها تدرك كل ما يجول فى خاطرى فأتحول أمامه إلى طفل صغير يتفحصه رجل حكيم عمره مائة عام. ظللنا دقيقة فى هذا السكون حتى همست:
- إنه يرانى...
- هاها... لا يمكن حضرتك، ده لسه مولود. هو لا يرى شيئا البتة، هو بالكاد يميز الضوء من الظلام.
قالتها وهى تحرك يدها أمام عينه لتثبت لنا نظريتها. عندها طرف بعينه ثم أشاح بوجهه بعيدا وعاد للصراخ مرة أخرى.
- الظاهر بيحبك يا بشمهندس، أحس إنك طيب.
حاولت الابتسام وأنا فى اضطراب بالغ وقد تيقنت فى هذه اللحظة أن الإحساس الذى انتابنى عند سماعى أول مرة بخبر حمل كريمة له تفسير ما، ولكن الوقت لم يحن بعد لاكتشافه.

عدت مع حسن إلى الغرفة لنجد كريمة تغفو منهكة بينما والدة حسن وأخته تحاولان عبثا ضبط وضع السرير المبرمج. اقترب حسن من كريمة يميل عليها ليمسك بيدها ويقبلها على جبينها. فتحت عينيها نصف فتحة تسأل فى عناء بالغ:
- أين هو؟ هل هو بخير؟

- الحمد لله، زى الفل. أخبرتنى الممرضة أنها ستحضره بعد قليل لإرضاعه. هو عموما يمنع كل الأطفال بجواره من النوم... ليس الأطفال فقط بل المستشفى كلها. أعتقد أنهم سيأتون بـه سريعا ليتخلصوا من إزعاجه.
كنت أقف عند الباب الموارب عندما التفتت إلىَّ كريمة تهمس منهكة:
- تعبينك معنا يا بشمهندس.
رددت فى ارتباك:
- لا،... أبدا... سأترككم الآن حتى تستريحوا وتأخذوا راحتكم. سأطمئن عليكم لاحقا وإذا احتجت يا حسن أى شىء أرجوك أطلبنى فى أى وقت.

صافحنى حسن مضطربا ولم يترك يدى وهو يصطحبنى للخارج هامسا فى ساحة الانتظار أمام الغرف:
- أتذكر يا بشمهندس عندما كنت أحاول التحدث إليك ولم نكن نجد الفرصة؟
- يا حسن، أنا كل مرة كنت أسألك تقول لى الوقت غير مناسب.
- حسنا، لا أدرى لماذا أريد أن أقول لك هذا الآن ولكننى أحتاج لأن أقوله لك. منذ سنوات قدم والدك إلى منزلنا بعد وفاة والدى ببضعة أشهر. كان قد سمع بالظروف التى نعانى منها. أبلغنا حينها أنه بخلاف معاش والدى الهزيل سيقوم بصرف راتبه كاملا وكأنه ما زال يعمل لديه.
وعندما ردت والدتى بأنه غير مضطر لفعل ذلك، أبلغها أنه لم يكتشف قيمة هذا الرجل الشريف إلا بعد وفاته حيث إن معظم العاملين لديه قاموا بخيانته بصورة أو بأخرى. والدى كان الوحيد الذى عمل معه وظل شريفا حتى نهاية حياته. وقد طلب منا عندئذ ألا نذكر هذا الموضوع لمخلوق علما بأن الصرف كان يتم من حسابه الشخصى دون أية مستندات.

وبعد ذلك بفترة عندما بدأت العمل لديه كنت أتعرض فى بعض الأحيان لإغراءات الاشتراك فى بعض الأعمال اللاأخلاقية مثل صرف البدلات وساعات العمل الإضافى التى لم يؤدها أحد. كان فاسدو الذمم يعتقدون أنهم عندما يعطونى حصة من هذا المال الحرام سيكسبونى شريكا معهم. وكل مرة ذهبت لوالدك لأخبره سرا بما يحدث كان يقول لى إنه يعلم ويتجاهل الأمر بمزاجه الشخصى. يبدو أنه كان يائسا من إيجاد فنيين لا يقومون ببعض التجاوزات التى اعتبر أنه من الممكن قبولها. والحق يقال أن الحنق كان يعترينى عندئذ بشدة وأنا أجد الفاسدين يتساوون مع الشرفاء. كنت أود أن أصيح على الملأ: أنا لست مثلكم! ولكن فى الفترة الأخيرة بعد وفاة والدك وبعد انقطاع راتبى وطبعا راتب والدى الغير معلن ضاقت بى الدنيا كما لم يحدث لى من قبل. زاد من ذلك أن كل مدخراتى أنفقتها على الزواج وبناء الشقة التى نسكن فيها. وكلما اقترب ميعاد الولادة زادت الضغوط. عندما كنت أعزب كنت دوما أجد مخرجا، فأنا أستطيع التحمل. ولكن كيف لى أن أتصرف الآن وأنا أصبحت مسئولا عن أسرة؟! أريدك أن تعرف أنه مع اقتراب ولادة كريمة وأنا عاجز عن توفير الرعاية الصحية اللازمة لها لتلد بأمان نتيجة لضيق ذات اليد، تفهمت لأول مرة لماذا معظم العاملين كانوا موجودين ضمن :" القائمة السوداء". بل إننى بدأت ألتمس لهم العذر.

أنا أعلم أننى أثقل عليك وأنت أصلا مش ناقص. تحاول فى استماتة إنقاذ الشركة ومكبّل بأعباء لا أول لها من آخر ولكننى كنت أحتاج لأن تعرف. **أيامنا هذه ليست مثل أيام والدى، كل واحد منا بمفرده حتى لو بيموت.**

تنهد حسن تنهيدة عميقة وكأنه ألقى بحمل يثقل كاهله منذ دهر وشد على قبضتى مجددا وهو يقول لى فى تأثر بالغ:

- شكرا يا بشمهندس، أنت...
انتظرت حتى يكمل العبارة فأحسست بعجزه وقد خانته الكلمات فرددت سريعا:
- لا شكر على واجب... سأطمئن عليكم لاحقا... ادخل الآن إلى كريمة، فهاهم قد أحضروا عمرو.

قبل مغادرتي عرجت على الحسابات لتسوية مصروفات المستشفى المبدئية. وعند مراجعتي لكشف الحساب وجدت الجراح الدكتور بسام قد تنازل عن أجره.

يناير ٢٠٢٧

Brainstorming
(شحذ الأفكار من خلال التفكير الجماعى)

عكفت خلال الأشهر الماضية على إعادة تنظيم شركة والدى بعد أن أدمجت شركتى الصغيرة بها. حاولت فى المرحلة الأولى خلق مناخ يسمح بتطبيق نظم الجودة الشاملة.

فبدأت، بعد صعوبة شديدة، بتحديد هدف الشركة وتعريف بعض المبادئ الحاكمة لتحقيق الأهداف الجزئية. وفى نفس الوقت عكفت فى إصرار على إزالة خط التقسيم الفكرى. فلفظت تماما مبدأ تقسيم العاملين إلى أقلية مسئولة عن التفكير وحل المشكلات وأكثرية منفذة غير مشاركة، كما أعدت تخطيط الهيكل التنظيمى وحددت مسئوليات وسلطات كل العاملين التى لم تكن واضحة من قبل مما كان يعوق معظمهم عن اتخاذ قرارات فى كثير من الأمور.

وفضلت أن أبدأ العمل مع " المجموعة الرائدة" لبدء مشروعات "التحسين المستمرة" (Continuous Improvement) . فكان هذا الشهر هو بداية انتظام المرتب وبدء صرف أول دفعة من المستحقات المتأخرة. آملت أن يكون هذا حافزا نفسيا جيدا لكل العاملين.

وكنت خلال تلك الفترة أشجع استخدام تكنيك الـ (Brainstorming) للمجموعات لتوليد أكبر عدد من الأفكار المبتكرة من خلال التفكير الجمعى المشترك. وكانت قواعده البسيطة كالآتى:

١- شخص واحد مسئول عن إدارة الجلسة وكتابة الأفكار.
٢- الهدف من الجلسة يكتب على الشاشة فى مكان واضح للجميع.
٣- مدير الجلسة ينظم الأدوار بالتتابع ليعطى فرصة لكل مشترك بطرح فكرة، فكرة واحدة فقط. يمكن تخطى الدور إذا لم يكن لدى أحد المشاركين ما يضيفه.
٤- يمنع نهائيا التعليق السلبى أو انتقاد أى فكرة مطروحة. يصرح فقط بالإضافة لاستكمال الأفكار أو توضيحها.
٥- يجب على مدير الجلسة أن يكتب على الشاشة بصورة واضحة متتابعة كل فكرة جديدة تعرض.
٦- عندما يعتذر كل المشاركين عن إضافة أية أفكار جديدة تنتهى الجلسة.

فى النهاية يجب على المجموعة تقسيم الأفكار المطروحة إلى ثلاثة أقسام:

أولا: أفكار قابلة للتطبيق تستطيع المجموعة تنفيذها مباشرة دون الرجوع لأحد.

ثانيا: أفكار قابلة للتطبيق ولكنها تتجاوز نطاق سلطة المجموعة ولذا لابد من عرضها على اللجنة المختصة للدراسة.

ثالثا: أفكار غير قابلة للتطبيق يتم تدوينها وحفظها فى الوقت الراهن.

وأثناء اشتراكى فى إحدى هذه الجلسات اكتشفت أن كل الحاضرين يستخدمون كلمة " تسويق" (Marketing) بدلا من

كلمة ترويج لتتداخل مع مفهوم الدعاية والإعلان. فقررت حينئذ أن أنظم بعض المحاضرات التوضيحية لهذا المفهوم الجوهرى الذى بسببه ينجح أو يفشل أى مشروع.

مفهوم التسويق البسيط هو التخطيط لتلبية احتياج ما. أما التعريف الأدق فهو أنه **نظام متكامل من الأنشطة، مصمم من أجل التخطيط والتسعير والترويج الدعائى والتوزيع لمنتجات (يوجد لها فى الأصل احتياج) فى أسواق مستهدفة لتحقيق أهداف المنشأة.**

فالتسويق إذن أساس نجاح أى نشاط أيا كانت طبيعته، بما فى ذلك الدعاوى الدينية. فمثلا نشر مذاهب عقائدية جديدة، والذى أصبح أمرا منظما ورائجا فى مصر فى تلك الفترة اعتمد على خطة تسويقية ناجحة.

فغالبية الشعب الذى يعانى من الإحباط والفقر يحتاج بشدة إلى الانتماء إلى أى مفهوم جديد للحياة يوفر له الأمل سواء فى هذه الدنيا أو فى الآخرة. ومعظم الدعاة لهذه المذاهب كان لديهم تمويل جيد يمكنهم من تنفيذ خطة تسويقية ناجحة. وكان هذا أول خطوة فى طريق الأمل للغالبية العظمى التى كانت متعطشة للشعور بآدميتها.
وهذا الإحساس بإنسانيتهم جعلهم مهيئين بصورة إيجابية للاستماع والاقتناع بما يدعوهم إليه هؤلاء الدعاة، وخاصة وأن هذه المذاهب لم تكن غريبة تماما عن الديانتين الأساسيتين فى مصر: الإسلام السنى والمسيحية القبطية.

وبهذا اكتملت المنظومة التسويقية الناجحة: سوق مثالى متعطش للانسياق وراء أى دعوة للتخلص من اليأس، مع تخطيط جيد مدعم بتمويل مدروس وترويج مناسب.

المشكلة الحقيقية كانت فى اكتشاف الأهداف غير المعلنة، فجهات التمويل لا تتبع أيا من المؤسسات أو الجهات المصرية، وبالتالى فقد كان هناك عجز تام فى المعرفة الدقيقة للأهداف الحقيقية لنشر هذه المذاهب من خلال دعاتها. هؤلاء الدعاة الذين جعلوا شريحة من الشعب تستبدل انتماءها الضيق لهذا الوطن الصغير " مصر" بانتماء أشمل وأعمق، ألا وهو مذاهب دينية لا تعترف بالحدود الجغرافية لمد سيطرتها.

وللأسف، فقد تعامل النظام فى بدايات الدعوات لهذه المذاهب مع الموضوع بصورة أمنية بحتة دون تفهم الاحتياج الملح الموجود عند غالبية الشعب للهروب من الفقر، والرغبة الملحة فى أن يتوجه إليهم أى إنسان كبشر لهم قيمة ما.

وقد ساهم هذا التعسف الأمنى فى ازدياد نشر تلك المذاهب بصورة سرية إلى الحد الذى أصبحت فيه واقعا جديدا يستحيل تجاهله أو احتواء تأثيره السلبى على هذا المجتمع الذى بات يعانى من التفسخ، والاحتقان الطائفى الذى أصبح المرتع الجديد لتنفيس الغضب المكبوت من قهر النظام.

والغريب أيضا أنه خلال تلك الفترة ولأول مرة، أثناء هذه المحاضرات وجلسات الـ "Brainstorming" التى نتج عنها مئات الأفكار الإيجابية المبتكرة، تبادر إلى ذهنى إمكانية استخدام نفس المفاهيم فى حلول مشاكل أخرى مصيرية. وعندئذ بدأت مفاهيم "التسويق" و" قوة العقل الجمعى" توحيان إلىَّ بسبل

إصلاح معضلات كنت حتى تلك اللحظة عاجزا عن إيجاد مدخل منطقى لها.

وأعتقد أنه خلال تلك الفترة قد تبادر إلى ذهنى كثير من الأفكار التنظيمية التى استخدمتها فيما بعد أثناء إدارتى لـ "الحركة". صحيح أننى لم أبدأ بتأسيسها سوى بعد حوالى العام والنصف من هذا التاريخ إلا أننى أكاد أجزم أن البذرة الأولى لكثير من الأفكار نشأت خلال تلك الفترة أثناء انغماسى فى العمل محاولا إنقاذ الشركة.

الأحد فبراير ٢٠٢٧

محلقا

كنت أنتظرها فى السيارة أسفل شقة خالتها بفارغ الصبر حتى انتبهت فجأة على صوت خفيض به بحة لرجل اقترب من النافذة ليحدثنى:

- إذا سمحت، ممكن تسمعنى؟

التفت لأجد رجلا فى الأربعينيات من العمر، عيناه تلمعان بشدة وعلى وجهه تعبير سيظل محفورا بذاكرتى لسنوات قادمة.

وحتى الآن لا أدرى لماذا فى هذه المرة بالذات عجزت عن الرد؟! فبدلا من أن أقول له كما اعتدت دوما دون أن ألتفت: "ربنا يسهلك" وجدت الصمت يطبق علىَّ من كل جانب.

- إذا سمحت، هذه أول مرة أتحدث فيها إلى شخص لا أعرفه.

تفحصته مليا فوجدته نظيف الملابس متوسط المظهر.

- أقسم لك أننى لم أفعل ذلك من قبل ولا أدرى حتى من أنت. قد لا تكون حتى صاحب هذه السيارة بل مجرد سائق ظروفه أصعب منى. لا أدرى هل أنا مخطئ فى التحدث إليك؟! قل لى... أرجوك إذا أردتنى أن أمشى سأفعل ذلك... رد علىَّ.

لم أحر جوابا فاستدار فى ثبات يجر قدماه مبتعدا.

ودون أن أشعر وجدت نفسى أصيح بعد أن أعطانى ظهره:

- انتظر... سأسمعك.

توقف فى تردد شديد بضعة ثوان، وبدا لى وكأنه يحاول التنفس بصعوبة ثم استدار عائدا.

- أنا فنى فى إحدى المصانع التى تم بيعها لمستثمر أجنبى وتم إرغام معظم العاملين على الاستقالة بعد ضغوط ومشاكل عديدة. سنة وأنا أحاول العمل مرة أخرى دون جدوى. طرقت كل الأبواب دون فائدة. الغلاء صعب وفلوس المكافأة تآكلت فانتقلت مع الأولاد

عند أخى فى البلد لعجزى عن دفع إيجار السكن هنا. هذا الإسبوع كنت معتمدا على الجزء الأخير من مستحقاتى كما وعدونى ففوجئت بهم يمتنعون ويظهرون لى بندا فى العقد يتيح لهم عدم الصرف.

ثم أخرج لى صورة ابنته وهو يستطرد:

- هذه حنان البنت الكبيرة... أنا لدى أربع بنات.. هذه فى آخر سنة ويجب دفع مصروفات التسجيل للامتحان. المصروفات التى أؤخرها بكل الطرق. كنت معتمدا على صرف آخر جزء من المكافأة ولا أدرى ماذا أفعل الآن! لا أستطيع العودة لأقول لها إننى غير قادر على مصروفات تعليمها، وأنا طول عمرى باوعدها إنى أدخلها الجامعة... لا أستطيع مواجهتها... أنا كنت كويس... والله العظيم كنت كويس وكانت ماشية... بصعوبة صحيح لكن ماشيه. لا أدرى ماذا حدث، الدنيا أصبحت صعبة... صعبة جدا... وكل ما أقول إن شاء الله ربنا يفرجها تضيق أكثر... تضيق أكثر... لا أدرى ماذا أفعل!

تحشرج صوته وبدأ ينهمر فى البكاء متمتما بكلمات متناثرة غير مفهومة.

- كم مصاريف التسجيل؟

- لا، أنت لم تفهم شيئا... أنت تظننى متسولا... لقد أخطأت الفهم... أنا كنت عايز حد يسمعنى فقط.. أنا كنت مخنوق أحتاج للكلام وأقسم لك أننى لست كما تظن.

ثم أخرج لى بيد مرتعشة بطاقته وكارنيه عمله القديم وورقة مطالبة رسوم لتسجيل الامتحان فسقطت الأوراق منه على الأرض فى ارتباك. بدأ يلملم الأوراق وصور بناته التى بدأ يذكر لى اسم كل واحدة منهن وهو يضعها فى محفظته.

أخرجت نقودا لأعطيها له فرفض مد يده، فقمت بمحاولة دسها فى جيبه فأمسك بيدى بقوة شديدة ليخرجها وهو يرمقنى بثبات قائلا:

- أنت لا تصدقنى، أليس كذلك؟

لم أرد فأخرج قلما وكتب على ورقة شيئا سريعا بيد مرتعشة ناولها لي قائلا:

- هذا عنواني في البلد، وللأسف نحن لا نملك وسيلة اتصال. إذا مررت بالقرب من قريتنا مر علي وسأثبت لك أنني لم أكن أحاول خداعك.

ثم استدار وابتعد عني سريعا دون أن يلتفت خلفه.

فتحت الورقة لأقرأ ما فيها وكانت هذه هي أول مرة أعلم بـ"البلينا" وشككت حينئذ في وجودها أساسا.

أخذت أفكر فيما حدث، ولسبب ما لم أستطع استبعاد فكرة أن يكون متسولا محترفا. من الجائز أن هذا أراح ضميري أكثر... لا أدري. وبالرغم من ذلك فقد احتفظت بالورقة مطوية في محفظتي.

انهمكت في مراجعة رسائل العمل التي وصلتني على كومبيوتر السيارة حتى يمر الوقت البطيء. كنت أعلم أنه لا يزال أمامي على الأقل عشرون دقيقة قبل أن تنزل فريدة المتأخرة عن ميعادها كعادتها.

ودون أن أشعر اقتربت برشاقة وخفة من نافذتي المفتوحة وهي تقول في بساطة لتفاجئني دون مقدمات:

- اترك السيارة هنا، وهيا بنا نتريض قليلا، فلن نصل إلى أي مكان قبل بضعة ساعات بسبب الزحام.

تنفست الصعداء لعدم اضطرارنا لاستخدام السيارة وتمضية بضع ساعات بها، وخاصة مع تنامي هذا الإحساس الخانق الذي أصبح ينتابني كلما ركبتها.

- أين سنذهب؟

- لا يهم، هل هذا يشكل فرقا؟

- لا، ولكنني لا أعرف شوارع الزمالك جيدا.

- أنا أعرفها... ولكن بالرغم من ذلك لن أشغل بالى بالتفكير فى اختيار مكان نقصده.

كانت هذه هى أول مرة فى حياتى أتريض سعيدا دون وجهه محددة. كانت فريدة لديها هذه القدرة الفائقة فى جعلى أنسى تماما كل الهموم التى تكبلنى وأركز فقط على تمضية لحظات ممتعة معها دون التفكير فى شىء. وبالرغم من عدم تلامسنا أثناء سيرنا فإننى كنت أستشعر شحنة إيجابية نقية تنبعث منها لتغمرنى فى كل خطوة أخطوها.

وكان حى الزمالك، بالرغم من زحامه الشديد، فإنه كان لا يزال من الأحياء القليلة التى يمكن السير فيها. فكانت هناك الكثير من العمارات القديمة المرتفعة والفيلات ذات الاستخدامات الخاصة مثل السفارات والهيئات الدولية. ولذلك فلم يكن هناك عدد ضخم من الفيلات القديمة المتهالكة التى يمكن هدمها لاستبدالها بعمارات شاهقة كما حدث فى معظم الأحياء الأخرى والذى أدى إلى كارثة مرورية.

أخذنا ننفض الغبار عن كل ما حولنا لنتخيل سويا كيف كانت تبدو كل هذه العمارات القديمة وقت تشييدها. ذهلت من المجهود الخرافى الذى تم بذله فى كسوة الواجهات بهذه الخامات الغريبة التى تذكرك بعمارات قديمة تشاهدها فى أوروبا وما زالت ترمم حتى الآن. ولكن بخلاف المعمار الغربى كان هناك أيضا روح قديمة أوروبية تسيطر على هذا الحى العريق. روح تظن معها أن كل من بالشارع يستشعرونها ويعطونها حقها من التبجيل والقداسة. حتى باعة الخضروات والفاكهة الذين ما زالوا يرتدون الجلباب تشعر بهم مختلفين، يبيعون بضاعة معظمها مستورد ويتعاملون

مع الزبائن بطريقة متحضرة غير اعتيادية وكأنهم يشعرون بسيطرة روح أجنبية منذ قديم الأزل على هذا الحى الغريب.

أما أكثر ما أذهلنى فكان هذا الكم الرهيب من الحوانيت الصغيرة فى الشوارع الجانبية والتى لم ألحظها فى حياتى من قبل. ولم أكن لأنتبه لها لولا أن فريدة بدأت تتوقف عند كل فاترينة زجاجية يوجد بها شيء ملفت. انتقل إلىَّ شعور عارم بالدهشة وأنا أشاركها تأمل أغرب المنتجات من مختلف بلاد العالم. لاحظت كثيرا من الأفارقة الذين لا يتحدثون سوى الإنجليزية فى حوانيت تعرض منتجات إفريقية غريبة لم أتصور أن لها سوقا فى مصر من فرط غرابتها. من حين لآخر كنا ندلف داخل أحد الدكاكين لنشاهد عملا فنيا يشدنا فى واجهة المحل، سواء كان لوحة مثيرة أو قطعة نحت غريبة أو حتى أشياء أخرى للديكور لم أعرف لها استخداما. والغريب أننا كنا نتوقف عند نفس القطع الفنية المثيرة ويتبادر إلى ذهننا نفس الانطباعات بل وفى كثير من الأحيان نسأل نفس الأسئلة للبائعين. وبالرغم من أننا لم نكن ننوى شراء شيء إلا أن طبيعة أسئلتنا واهتمامنا الشديد كانت تجعل البائع يحضر لنا صاحب الحانوت ليشرح لنا. كذلك فقد تصادف أننا كنا دوما، نسأل عن نفس الأعمال الفنية الأصلية ذات القيمة الباهظة. المكان الوحيد الذى كانت الأسعار فيه معقولة بالرغم من جمال المنتجات كان أحد المحلات التابعة لمؤسسة غير هادفة للربح، والتى تصدر لأوروبا منتجات أفقر القرى فى مصر. أخذت أقرأ بسرعة مقالا أعجبنى فى إحدى المجلات المعلقة على الحائط بالمحل. كان يتحدث عن الدور الذى تقوم به هذه المؤسسة فى تنمية بعض قرى مصر الفقيرة فقمت بتسجيل موقع المؤسسة الإليكترونى وقررت زيارته لاحقا.

وبينما نحن نسير توقفت فريدة فجأة أمام بوابة حديدية، ثم قالت ببساطة:

- هيا بنا!

رددت مذهولا:

- إلى أين؟

- هنا... ثم استطردت بصوت خفيض وقد أمسكت بيدى تجذبها:

- بسرعة حتى لا يثير ترددنا شك رجل الأمن.

وجدت نفسى أتبعها منصاعا كالمسحور وقد سلبتنى أى إرادة للاعتراض أو حتى التفكير.

فور دخولنا من البوابة الخشبية الضخمة توجهت إلى المنضدة، حيث توجد الشموع فأخذت شمعة وناولتنى الأخرى وأنا أشعر بأن الجميع يرقبوننا فى توجس، فقد بدونا أغرابا. أشعلت بتلقائية شديدة شمعتها مستخدمة واحدة من الشموع المضاءة على المنضدة. وكانت جميعها تذوب فى شكل إنسيابى، مشكلة طبقة شديدة السمك أقرب إلى عمل سيريالى. فى توتر شديد فعلت مثلها فلسعتنى واحدة من قطرات الشمع المسال وتجمدت سريعا على يدى. قمت بنزعها فى ألم وأنا أشعر بنظرات متفحصة تلسعنى من كل الجهات.

جلسنا فى إحدى الصفوف الأخيرة نستمع إلى اللغة الغريبة ونظرت إليها مستفسرا، فوجدتها تبتسم لى بنظرة صافية ثم أمسكت بيدى أسفل مستوى ظهر الكنب الخشبى تستمهلنى. تأملت الرجل المهيب الذى كان يخطب بكلمات لا أفهم منها شيئا فرمقنى بنظرة متفحصة لبضع ثوان ثم استطرد متوجها للجموع أمامه دون أن يلتفت إلينا مرة أخرى.

وبعد قليل انتهى من الكلام فصعد بعض الشباب أمام آلات موسيقية مختلفة. أثار انتباهى أرغن ضخم بارتفاع عدة طوابق يحيط به

نوافذ طولية من الزجاج المعشق الملون بديع التكوين. وفوق منصة مرتفعة على ثلاثة مستويات متدرجة بدأت جوقة من الشبان والشابات فى الغناء بلغة لا تنتمى إلى هذا العالم. تصاعدت الترانيم على أنغام الموسيقى فاختلطت أصوات المغنين الأوبرالية بأصوات الآلات فعجزت تماما عن فصلهما فى ذهنى. وكان ثمة حماسة وصدق يشقان عنان السماء، ويجعلانك تنسى كل ما حولك لتستغرق فى هذه الحالة الروحية التى لا تنتمى إلى هذه الأرض المادية. وفى ثوان، وبالرغم من عدم فهمى للكلمات، وجدت نفسى أحلق سعيدا لألمس السقف المرتفع وأسبح فى النور الذى بدأ يغمر المكان بألوان الطيف من خلال النوافذ التى أصبحت أكثر إضاءة من ذى قبل. نظرت بجوارى فوجدتها تحلق معى وأنا ممسك بيدها أشعر بالسعادة والرضا والسكينة. وددت لهذه اللحظة أن تدوم للأبد ولكن للأسف فما هى إلا لحظات حتى انتهى كل شىء.

خرجنا واستكملنا التريض دون أن نتبادل الكلمات. وبعد فترة سألتها:

- لماذا لم تقولى لى شيئا قبل أن ندخل؟!
- لم أفكر كثيرا، ظننتها فكرة جيدة، أليس كذلك؟
- نعم ولكن لماذا غادرنا سريعا؟
- ماذا تعنى؟ لقد انتظرنا أكثر من ساعتين حتى انتهوا!

نظرت، بحكم العادة، إلى ساعة يدى مندهشا فتذكرت أننى قد توقفت عن ارتدائها. استطردت بعد لحظات من الصمت:

- ولماذا كنيسة أرمنية؟
- سمعت ترانيمهم يوم أحد وأنا أسير بجوارهم، فأعجبتنى فدخلت. ومن يومها كلما تسنت لى الفرصة أستمع إليهم.
- ولكن يبدو لى أنهم محترفون مدربون على الغناء الأوبرالى، فهذه ليست أصواتا عادية.

- لا أدرى هم يبدون لى أصغر من أن يكونوا محترفين، أعتقد أنهم فقط يؤمنون كثيرا بما يفعلونه وصادقون فى شحنتهم الحماسية.

بعد مدة طويلة من السير بدأنا نتعب فظهرت أمامنا بضع درجات تقود إلى باب أسفل مستوى الشارع معلق عليه إعلان لمعرض "موشن جرافيك". هبطنا سويا وانفصلنا بالداخل وبدأ كل واحد منا يتفحص شاشات البلازما فى اتجاه مختلف. وبعد فترة اقتربت منها لأسألها وأنا أعلم إجابتها مسبقا:

- هل هناك شيء أعجبك؟

- فى الواقع أنا لست معتادة على هذا النوع من الفنون، فأنا أميل أكثر للفنون الكلاسيكية، ولكن بلا شك فهذه الشاشات الثلاث المتتابعة مؤثرة للغاية.

عدت لأسألها مرة أخرى وأنا أستمتع بصواب توقعى:

- ما الذى تشعرين به وأنت تنظرين إليها؟

- ... لا أدرى، شعور لا يمكن وصفه... سكينة.

كنت قد تفوهت بنفس الكلمة فى نفس اللحظة فبدا صوتى وكأنه صدى لكلمتها. التفتت إلى تتفحصنى فى دهشة ثم ابتسمت رغما عنها وهى تسأل:

- هل هذا هو ما تشعر به أنت أيضا؟

- نعم. هذا بالضبط ما أشعر به.

قلتها وقد أمسكت بيدها لأغوص فى أعماق عينيها الشديدتى السواد.

ارتبكت قليلا ثم عادت تتأمل مرة أخرى الشاشات قبل أن تستطرد:

- أتدرى... بعد إعادة النظر، هذه الأعمال تذكرنى ببعض الأعمال الموجودة على موقع "إنليتمنت".

كان هذا آخر شيء أتوقع سماعه فى هذه اللحظة فأحسست بروحى المحلقة وقد بدأت فى السقوط فى قاع بئر مظلم كنت أحاول عبثا

الهروب منه. وها قد عادت، فى عنف، كل الهواجس التى ابتعدت عنها خلال الفترة الأخيرة لتحكم شباكها من حولى فتذكرنى أنه مهما طرت بعيدا فسأظل دوما فى متناولها لتقبض علىَّ فى أى لحظة دون إنذار. فغرت فاهى كالأبله دون تعليق وعلى وجهى نظرة خاوية.

- هل بك خطب ما؟ هل قلت شيئا ما ضايقك؟

- ...

- أأنت متعب؟

- ... لا أبدا. لا...

- كنت أقول أن هذه الأعمال تذكرنى بموقع " إنليتمنت". ألا تعتقد ذلك؟!

- لا أدرى. فأنا لا أعرف هذا الموقع جيدا.

- معظم المواقع تستخدم صوره المجانية. من الجائز أنك نسيته لأنه ظل مغلقا عدة أشهر ثم عاد للعمل منذ شهرين تقريبا. يجب أن تزوره فلن تتخيل حجم الأعمال التى يتم نشرها يوميا على الموقع.

- أتعنين الآن؟... بعد أن عاد للعمل؟

- نعم، الآن، كل يوم. بل إن هناك تصويتا من مرتادى الموقع يجرى يوميا لاختيار أفضل لقطة لهذا المصور العبقرى. يجب أن ترى أعماله، صدقنى لن تندم.

- ...

- ماذا بك، هل تريد أن نذهب؟

- لا أريد أن أضايقك ولكن نعم أفضل أن نغادر إذا لم يكن لديك مانع.

- طبعا، أنا آسفة. يبدو أنك تعبت فنحن لم نسترح منذ عدة ساعات.

- لا ليس هذا، فأنا لم أشعر بالوقت يمر ولا بالتعب، بل على العكس تماما فهذه النزهة أكسبتنى طاقة تمكننى من الاستمرار فى السير معك حتى الغد. صدقينى ليس هذا هو الموضوع.

- إذا فماذا بك؟

- ...
- لا بأس. لا تقل شيئا الآن.
عدنا للسير فى اتجاه سيارتى، يقتلنى الإحساس بالذنب على إفسادى لليوم بهذه الطريقة، فبادرتها قائلا:
- أتودين أن نذهب إلى مكان ما على النيل لنتناول شيئا؟
- لا، أفضل أن نفترق اليوم. آخر شىء أريده هو أن نقضى سويا لحظة بدافع الواجب أو تأنيب الضمير.
أمسكت بيدها لأستوقفها ووقفت قبالها أخترقها فى يسر بنظراتى لأقول لها وقد استعدت توازنى:
- يجب أن تصدقينى عندما أقسم لك أن هذا أروع يوم فى حياتى.
- لا تبالغ.
قالتها بسرعة وقد توردت وجنتاها.
- أنا لا أبالغ وأنت تعلمين ذلك.
احمر وجهها وبدأت تلتفت حولها ثم تركت يدى فى رقة وتلعثمت قائلة وهى تسحب يديها:
- لقد تأخرنا، يجب أن أعود الآن.
اصطحبتها إلى منزل خالتها وقد بدأت الشمس تغيب وأنا لا أصدق كم الأشياء التى فعلناها سويا هذا اليوم فى هذا الزمن الذى بدا قصيرا للغاية. أحسست عندئذ أننى لا أريد تركها، وكانت هذه هى أول مرة أشعر فيها أنه من الطبيعى أن نعود سويا لنفس المسكن.

مارس ٢٠٢٧

تسويق الوهم

فى هذه الليلة قمت بمراجعة العروض المقدمة لشراء منزلى. لم أكن قد أخبرت والدتى بعد ولكننى كنت على يقين من اضطرارى لبيعه عاجلا أم آجلا. فكنت قد اقترضت من أحد البنوك بضمان المنزل كل النقود اللازمة لدفع المرتبات المتأخرة وتكوين رأس مال عامل للنهوض بالشركة. ولما كنا قد اقتربنا من مهلة الستة أشهر دون أى تقدم يذكر فى خلق أنشطة جديدة تحقق ربحية، فقد بدأت أواجه الأمر الواقع وأعكف على دراسة تصفية الشركة وتسوية كل المعلقات مع الضرائب وخلافه. وهو شىء لم أتصور يوما أنه سيستلزم كل هذا المجهود الشاق وخاصة لشركة خاسرة.

قدرت إنهاء كافة المعلقات ببضع سنوات؛ ولذلك فقد بدأت أرتب لوقف النشاط وتسريح العاملين مع عرض وظائف مؤقتة على بعضهم لإنهاء كل معلقات الضرائب وتصفية الشركة. وكان بيع المنزل هو الحل الوحيد لتسديد كل القروض وتوفير مبلغ من المال نستطيع أن نستثمره بطريقة مضمونة من خلال أحد البنوك ليدر عائدا ثابتا مناسبا للإنفاق علينا كأسرة. المشكلة الوحيدة كانت إصرارى على وضع بند فى عقد البيع يمنع المشترى من التصرف بالبيع لغير المصريين. وقد أدى هذا الشرط إلى خفض سعر بيع المنزل إلى نصف قيمته السوقية. وفى نفس الوقت كنت أود الإسراع بعملية البيع للتخلص من ضغط القرض البنكى. وهو شىء لم أفعله فى حياتى من قبل وأقدمت عليه خلافا لنصيحة والدى التى كان دوما يرددها لى وهو حى. "اشتغل دائما بفلوسك، لن تقفز عاليا ولكنك ستنام نوما هنيئا".

وبينما أنا أدرس إحدى عروض الشراء وجدت أحد مهندسى الشركة يطلب التصريح بمقابلتى على الشبكة. عندما قرأت اسمه وافقت بعد تردد وقمت بتشغيل الكاميرا. تأملت النظارة الغريبة التى تعلو وجهه الهادئ وكتفه المنحنية قليلا للأمام والتى لم تكن تتناسب مع عضلات أذرعه المفتولة مما كان يجعلك غير قادر على تصنيف هيئته.

- مساء الخير يا بشمهندس خالد، ما هذا، أنت لا تزال فى الشركة! لماذا لا تعود إلى منزلك لتستريح؟

ابتسم فى ارتباك وهو يرد متجاهلا الإجابة عن سؤالى:

- أنا آسف أننى أزعج حضرتك بمشروعى ولكننى أعتقد أننى وجدت حلولا لكل المشكلات التى أثرتها حضرتك... هل تفضل أن أعاود الاتصال صباح الغد؟

- لا، تفضل. أنا أيضا ما زلت أعمل بالرغم من أننى لست صغير السن مثلك.

قلتها بفتور شديد لم يتأثر به.

- لقد أرسلت إلى حضرتك منذ خمسة دقائق خطة تسويقية متكاملة تستطيع أن تراجعها على مهل. وأتصل الآن لألفت انتباه حضرتك أننى وجدت، حلا للمشكلة التى أثرتها فى الاجتماع السابق، مصدرا اقتصاديا للطاقة لتشغيل هذه النوعية الجديدة من الشاشات "الطاقة الشمسية".

- ولكننى لا أعتقد أن هذا ممكن على مدار العام وأعتقد أن تكلفة الاستثمار الأولية ستكون باهظة مما يشكل عبئا تمويليا هائلا.

- بعد البحث المستفيض وجدت أن هذا الافتراض غير دقيق. ستجد حضرتك ضمن الملفات عرضا مقدما من شركة هندية متخصصة فى هذا المجال، ولديها براءات اختراع باسمها لإنتاج طاقة رخيصة بتكلفة أولية تجعل للمشروع جدوى اقتصادية.

- أنت تعرف الهنود وألاعيبهم، فكثير من شركاتهم لا تتمتع بمصداقية.
- هذا لا ينطبق على هذه الشركة، فقد قمت بالتأكد منها ومن منتجها. بل أكثر من ذلك، لقد قمت بالاتصال بكثير من عملاء هذه الشركة فى أمريكا وأوروبا والكل أشاد بكفاءة أنظمتها. ستجد ملفا مرفقا به نسخة من هذه المراسلات.
- حسنا، يتبقى التكلفة الباهظة للشاشات وأنظمة الرؤية.
- المشكلة تكمن فى احتكار شركة يابانية وحيدة لهذا النوع من التكنولوجيا، ولكننى اكتشفت مؤخرا أن هناك شركة صينية وأخرى هندية لديهما تكنولوجيا موازية وأثبتتا كفاءة مكنتهما من التصدير إلى السوق الأوروبية. ستجد أيضا نسخة من العروض المقدمة وتحليل فنى لها.
رددت دون حماسة:
- حسنا، أترك لى هذه الملفات وسأراجع كل شيء.
- ...
- أهناك شيء آخر؟
- لا، ولكننى أشعر أنك لست متحمسا لفكرتى علما بأنه منذ أن طلبت منا أن نحاول الاشتراك سويا فى الخروج من الأزمة ونحن نعمل بعد مواعيد العمل الرسمية منذ أشهر. وبدلا من تشجيع هذه الفكرة الجديدة تقوم بوضع العراقيل والعقبات الواحدة تلو الأخرى وكأنك تأمل أن نفشل. ولكن هذه المرة أنا على يقين من أننا غطينا كل شيء. ليس هذا فقط بل إن رقم "عائد التشغيل" ارتفع ليحقق، فى حالة نجاح المشروع، أعلى عائد للشركة خلال تاريخها. وبالرغم من ذلك أنت لا تشجعنا على الاستمرار.
فحصت الأرقام أمامى لأصعق، فقد كانت بالفعل أرقاما خيالية. ولكننى نجحت فى ألا يتغير تعبيرى الجامد وأنا أشرح له فى هدوء مصطنع:

- أرجوك، لا تأخذ هذا الموضوع بشكل شخصى. ولكننى تعودت فى عملى السابق الدقة المتناهية. فقد شاهدت العديد من الأفكار المبتكرة تفشل بسبب إهمال دراسة التفاصيل الصغيرة. وللأسف فهذه الصغائر كانت تبدو واضحة للجميع منذ البداية ولكن لأنها صغائر فلا أحد يهتم بالالتفات إليها، فكنت تجد هذه التفاصيل التافهة تحديدا هى التى تتسبب فى فشل معظم الأفكار العظيمة، ولذلك تعودت عندما يأتينى أحد بمشروع يبدو للوهلة الأولى رائعا أن ألقى فى وجهه بكل التفاصيل التى ربما يكون قد أهمل دراستها. فإذا كان هذا الإسلوب لن يثنى مبتكر الفكرة عن عزمه ليعكف مرة أخرى على ايجاد حلول لهذه المشكلات التافهة الصغيرة التى أنغص حياته بها، فهذا يعنى أنها بالفعل فكرة تستحق الدراسة والتنفيذ. أما إذا تسببت طريقتى فى تثبيط عزيمته لدرجة اليأس من المضى قدما بسبب شعوره بعدم التقدير والثناء على ذكائه وابتكاره فهذا معناه أن الفكرة ليست جديرة بما فيه الكفاية لتنفيذها.

- حسنا، أنا لم أيأس بعد، ومتأكد من أننى لم أترك أى تفصيلة مهما بلغت تفاهتها دون دراسة.

- لا تكن واثقا هكذا!

- هذه المرة أنا واثق مما أقول، ولكننى لست متأكدا من أنك ستقبل تنفيذها بالرغم من ذلك.

- لماذا تقول هذا؟

- لأننى أشعر أن هناك سببا آخر يجعلك تتمنى لهذه الفكرة الفشل.

- سأكون صريحا معك. بعض ما تقوله صحيح. ففكرة شاشات الإعلانات الذكية التى يشاهد فيها كل سائق ما يريد أن يراه حتى يتفادى رؤية المبانى العشوائية والزحام الخانق هى فكرة لا يوجد بها أى هدف اجتماعى بل وتساهم فى ترسيخ فكرة عزل الأغنياء عن الفقراء وتعميق الشرخ بينهما. أتستطيع أن تقول لى ما الفائدة التى ستعود على المجتمع من هذا التطبيق المستفز الذى يخدم فقط رغبة الأغنياء فى تجاهل الوضع المأساوى لأغلبية الشعب؟!

- أولا هذا التطبيق المستفز مطبق منذ عشرين عاما فى دولة مثل اليابان. كل فرد فى سيارته الخاصة من خلال زجاج عربته المبرمج يتحكم فيما يراه فى الشاشات الذكية على جانبى الطريق أثناء ذهابه وعودته من العمل. فبدلا من الاستسلام للزحام الخانق يستمتع ركاب السيارة بمشاهدة مناظر مريحة للأعصاب على طول الطريق مثل لوحات فنية أو غابات جميلة أو حتى سماء لها أفق بدلا من هذه الإعلانات السخيفة التى تطاردك كل يوم. فهو يساعد بالقطع على زيادة الإنتاجية لدى الفرد عند جعل مشوار عمله اليومى أقل إثارة للأعصاب. وفى نفس الوقت فإن من لم يشتركوا فى الخدمة سيشاهدوا إعلانات عادية كما اعتادوا.

- ولكنك تعلم تماما أن هذه الشاشات فى مصر لن يستطيع تحمل تكلفة الاشتراك فى خدمتها سوى شريحة ضيقة جدا من الأغنياء.

- نعم، ولكن عددها كاف لجعل هذا المشروع ذا جدوى اقتصادية كما أثبتت الدراسات التى أجريناها.

- ولكننى أتوقع أن هذه الطبقة بالذات ستستعمل هذا التطبيق فى أشياء عبثية فقط لأنه يضايقهم مناظر العشوائيات على جوانب كل الطرق السريعة. صدقنى ستجد أناسا يبرمجون الشاشات ليروا نساء عاريات أثناء تحركهم بالعربات. والمدهش أن لا أحد سيدرى بهذا لأن لا أحد يمكنه رؤية ما يرونه من خلال زجاج عرباتهم. بل إنك صممت تعديلا للنظام لكى يشاهده فقط من يجلس بالخلف فى حالة الاستعانة بسائق.

- وماذا فى ذلك؟ هذا أمر أنا متأكد من أنه سيطلب من قبل كثير من العملاء الذين يستعينون بسائقين.

- لا أدرى... أشعر بالعبث عندما تتحدث عن هذا المشروع، فهو يفترض أيضا أن كل من لديه هذا الكم من النقود يتمتع بتفاهة غير عادية.

- ولكن استطلاعات الرأى التى أجريناها طبقا لمحاضرات التسويق التى قمت أنت بتدريسها لنا أثبتت أن هذا صحيح بصورة

ما، فكثير من هذه الفئة لديه تفاهة وشره لتملك أشياءً ثمينة، لا معنى لها، فقط حتى لا يقال عنه إنه لا يستطيع تحمل تكلفة تملكها.
- ولكن يتبقى أمر الدور الاجتماعى لهذا المشروع.
- حسنا، فكر فى الأمر بهذه الطريقة. حضرتك إذا لم تتبن أفكارا عبثية تدر مالا وفيرا سريعا فسينتهى بك الأمر بالإفلاس وغلق مئات من أبواب الرزق فى أوجه العاملين لديك. أما إذا نفذت هذا المشروع ونجح، فمن حقك أن تؤدى أى دور اجتماعى تتمناه. هذا طبعا بالإضافة إلى إتاحة فرصة للعاملين لديك بأن يحظوا بحياة أفضل فى حالة إشراكهم فى نسبة من الأرباح كى تصل بأجورهم إلى الحد الأدنى الواقعى الذى تحدثت عنه من قبل. فقط أعط لهذه الفكرة فرصة حقيقية ولن تندم، أرجوك.
- حسنا، ولكن ما الذى أوحى إليك بهذه الفكرة الغريبة فى المقام الأول؟
- فى الواقع أنا لم أكن أعلم أن هذه التكنولوجيا موجودة. فالموضوع كله أتى بالصدفة. فى أحد الأيام كنت أتصفح إحدى المواقع لأشاهد فيلما تخيليا عن هضبة الهرم بعد عزلها عما حولها بأسوار تحيط بمجموعة من الأغنياء. وكانت هذه الأسوار عبارة عن شاشات تعرض مشاهد تخيلية لتمتد الرؤية البصرية فتحول المأساة على الجانب الآخر إلى مناظر جميلة ممتدة حتى الأفق. فبدأت...
قاطعته بسرعة:
- وما اسم هذا الموقع؟
أجاب مندهشا من انفعالى المبالغ فيه:
- " إنليتمنت"، هل تعرفه؟
- ... سمعت عنه ولكننى لم أرتده من قبل.
- حسنا، كما كنت أقول، كنت أظن أن هذه الشاشات مجرد خيال حتى عثرت أثناء بحثى على شركة يابانية تنتج هذا التطبيق منذ سنوات، وتحتكر الغالبية العظمى من اللوحات الإعلانية، فكان كل

الشخص فى سيارته من خلال الزجاج المعالج يتمكن من رؤية ما يريده، سواء عن طريق الاشتراك فى إحدى باقات الإعلانات أو عن طريق دفع الحد الأقصى الذى يضيف إلى هذا إمكانية البرمجة الشخصية للشاشة.

- إذن هذه الفكرة واتتك من رؤية واقع مأساوى، أعتقد أن مؤلفه كان يريد التحذير منه ليعمل الناس على تفاديه. لا يعقل أن نستغل هذه الرؤيا السوداوية لابتكار أفكار عملية نحاول بها تحقيق واقع أليم كان يفترض بنا منعه.

- يا بشمهندس محمد، لماذا تنفعل هكذا وتحمل الأمور أكثر مما تحتمل! أنا أتحدث فقط عن تطبيق مفيد للتكنولوجيا ولست مسئولا عما إذا استخدمها الناس بصورة غير منتجة بسبب خلل فى شخصيتهم. هل يعنى مثلا ثرثرة غالبية المصريين فى التليفونات أن نلغيها؟! قطعا لا. إذا لم ننفذ ذلك الآن فسينفذه غيرنا عاجلا أم آجلا. على الأقل نحن ننوى الاستفادة من نجاح هذه الفكرة فى التنمية. أرجوك لا تكن متشائما هكذا. سيكون لنا السبق فى السوق، سنعانى كثيرا فى البداية ولكن لن ينافسنا أحد فى المستقبل.

- حسنا، حسنا... دع لى بعض الوقت لأدرس ما قدمته.

- متى أتوقع الحصول على رد من حضرتك؟

- قبل نهاية الإسبوع.

- شكرا، وآسف على الحدة التى حدثتك بها، ولكننى بالفعل مؤمن بهذا المشروع وبإمكانية تنفيذه.

- لا تعتذر عن شىء أنت مقتنع به وأشكرك على صراحتك.

بعد إغلاق الكاميرا ولجت إلى موقع "إنليتمنت" لأكتشف أشياء مذهلة من خلال العدد الضخم الذى عاد ليرتاد هذا الموقع. ليس فقط أن هناك مجموعات مختلفة أخذت على عاتقها استكمال عمل غريب بل وجدت على الـ "Forum" (منتدى) مشادات حادة بين كل مجموعة وأخرى عن أحقيتها فى استكمال الأعمال،

بل إن بعضهم انتحل شخصية غريب نفسه مدعيا أنه صاحب الموقع الأصلى وأن ما أشيع عن وفاته غير صحيح. أحسست بانقباض شديد من كل هذا الغضب الغير مبرر، وشعرت بأن إعادتى تشغيل هذا الموقع بعد اختفاء غريب نفسه كان أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى. وددت لو أفعل شيئا لإنقاذ الوضع. وددت لو أصرخ فيهم جميعا لأقول لهم إن غريبا لم يكن يود ولو لثانية أن تستغرقكم كل هذه المهاترات العبثية، ولكن الخوف العظيم من أن ترصد أى جهة أمنية تدخلى جعلنى ألتزم الصمت التام. أغلقت الموقع فى مرارة شديدة ولكننى لا أنكر أنه منذ تلك اللحظة ولمدة طويلة لم أكف يوما عن التفكير فى مخرج من هذا المأزق.

عدت لدراسة الملفات التى أرسلها خالد لى لأكتشف أنه بالفعل لم يغفل أى تفصيلة. كان كل شىء مدروسا ومخططا بعناية، كانت بالفعل خطة تسويقية محكمة، وللأسف فقد كانت بالفعل تلبى احتياجا أعتقد أنه موجود كما اتضح من استطلاعات الرأى المختلفة.

ليس فقط أن محتكرى السلطة والثروة كانوا لا يكفون عن ترويج إصلاح تخيلى فى كافة المناسبات بل صاروا لا يريدون رؤية الحقيقة المؤلمة ولا حتى بصريا، ويفضلون أن ينغمسوا فى وهم تخيلى تناسوا أنهم هم الذين نسجوه بأيديهم.

العظيم سابو

قررت أن أستعلم عن إحدى الشركات الهندية التى اقترحها خالد فبدأت بجمع بعض المعلومات عن مؤسس الشركة " سابو" وأنشطته الأخرى فى جودبور. وجدت آلاف الصفحات تتحدث عنه وعن إنجازات "رجل الصناعات الصغيرة الكبير" كما أطلق عليه البعض بسبب إنجازاته العظيمة فى قريته الفقيرة. توقفت قليلا لأقرأ جزءا من حوار أجرته معه واحدة من أهم الصحف الهندية.

"- لنبدأ بحياتك، كيف تحولت من مجرد فلاح فقير إلى أبى الصناعات الصغيرة فى الهند؟

- هذا كلام غير دقيق، فأنا ما زلت فلاحا فقيرا.

- ولكنك مخترع عظيم ابتكر سبيكة معدنية متطورة تعتبر ألأمن سبيكة فى العالم لطحن الحبوب. ولقد اشترت منك مؤخرا شركة هولندية، والتى تعتبر الأكثر تقدما فى هذه الصناعة، حقوق التصنيع ووظفته فى ماكينات ذات تقنية عالية وأصبحت تصدره للعالم كله.

ليس هذا فحسب بل إنك بعد عشر سنوات اخترعت أول فرن رأسى فى العالم للصناعات المعدنية. والشركة التى أسستها حينذاك قد أقامت أكثر من ألفى مصنع حتى الآن فى كثير من دول العالم تعمل كلها وفق هذا الاختراع المسجل باسمك. وأخيرا منذ عدة سنوات اقتحمت مجال نظم المعلومات.

- شركة نظم المعلومات كانت فكرة أولادى. أنا أصبحت مسنا الآن أقضى معظم وقتى فى الزراعة مع حفيدى "فد" الذى انتقل ليعيش معى فى هذا المنزل.

- ولكن كيف واتتك كل هذه الأفكار وأنت لا تؤاخذنى بدأت كفلاح فقير كما نعلم جميعا؟!

- لقد ولدت عام ١٩٤٥، أى أننى كنت من أوائل من التحقوا بأول مدرسة تنشأ فى قريتنا بعد الاستقلال. كنت أعمل بجانب الدراسة مع والدى فى الحقل أنا وإخوتى لعجزه عن إعالتنا جميعا. وكان أكثر ما كان يشغل بالى وأنا أرى والدى يعمل باجتهاد حتى الموت هو إيجاد طريقة لمساعدته. فكنت وأنا محنى أحرث الأرض أنظر للتربة وأرفض تصديق أن هذه الأرض التى نكد بها كل هذا الوقت لا تعطينا سوى هذا القليل الذى لا يكفينا.

شغلنى هذا الموضوع لدرجة أننى أصبحت لا أفكر إلا فى شىء واحد وهو استغلال هذه البيئة التى كانت تبدو لنا جدباء لتحسين حياتنا. كنت دوما أشعر بأن هناك كثيرا من الطاقات الكامنة فى جودبور ونحن نعجز عن الالتفات إليها. وكلما شممت رائحة التربة ووجدت يدى متسخة أثناء العمل انتابتنى رغبة عارمة فى التعرف على خواص المواد التى شكلت هذه الأرض. كنت أرفض تصديق أن كل هذه الصخور التى نقصم ظهرنا لنطهر الأرض الزراعية منها لا فائدة لها.

ولهذا السبب بدأت أقرأ كل ما تطوله يداى لتفسر لى التربة ألغازها، وقررت الالتحاق بكلية العلوم حيث كنت أول خريج من قسم "Metallurgy" (علم المعادن). وبعد أن أخذت الشهادة وبدلا من قبول وظيفة فى إحدى مراكز الأبحاث فى مومباى عدت لأساعد والدى فى الحقل.

وبدأت خلال تلك الفترة تجارب بسيطة بدائية على كل المواد التى تعامل معها الجميع على أنها غير مفيدة ونقمة على المزارعين. وبعد سنوات توصلت إلى تصنيع سبائك طحن شديدة الصلادة

تتوائم مع كل مواصفات منظمات الصحة العالمية. وكان يمكن إنتاجها باستخدام هذه الكميات الهائلة من الصخور التى تعيق الزراعة والتى يتخلص منها المزارعون. المشكلة التى واجهتنى كانت فى إنشاء أفران بدائية وغرف تبريد لازمة لتصنيع مثل هذا المنتج بصورة اقتصادية. فبدأت أفكر فى حلول بدائية باستخدام مواد جميعها متاح فى قريتى.

وكانت هذه هى بداية تفكيرى فى أفران الحرق الرأسية التى تطورت فيما بعد إلى ابتكار مستقل بذاته استعملته فى إنتاج مواد بناء رخيصة فى وقت كانت شركات عملاقة تحتكر هذه الصناعة فى العالم.

ولكن يجب أن تعلم أننى لم أكن بمفردى فى هذه المسيرة بل كان يشاركنى الآلاف. أولا اعتمدت دوما على الأيدى العاملة فى قريتى لتنشأ أول نواة صناعية فى هذه القرية. وقد نمت هذه النواة بمساندة الحكومة والإعفاءات الضريبية الممنوحة والدعم التكنولوجى ليصبح هناك ١٧٠٠٠ مصنعا ذى غرفة واحدة فى جودبور وحدها. كل هذه المصانع حاصلة على شهادات الجودة الأوروبية والأمريكية التى تسمح لنا بالتصدير لأى مكان فى العالم.

والآن أتى حفيدى فد وقد تخصص فى الهندسة الوراثية وكله أمل فى زيادة إنتاجية الأرض الزراعية فى قريتنا الصغيرة، وبحكم كونى مزارعا فى الأساس فأنا أساعده فى أبحاثه. كما ترى هناك امتداد مستمر لأجيال متعاقبة تعود دوما إلى أصولها القروية لتنمى الأرض والمكان الذى نشأت فيه. صحيح أن أولادى الآن فى مومباى ولكن دوما كان معى هنا عدد ضخم من الأسرة من أخوات وأولاد عموم وأولاد الأخوات وأحفاد.

- ألاحظ من كلامك أنك تركز دوما على ما هو بداخل الأرض.
- قطعا، فأساس أى صناعة فى الدنيا هو الـ "metallurgy"(علم المعادن) إذا لم تفهم وتتعلم كيفية استغلال الموارد المعدنية الموجودة فى بلدك وتوجه أبحاثك فى هذا الاتجاه فلن تقوم لديك أبدا صناعة حقيقية، وستظل دوما عبدا تستورد كل احتياجاتك. وأنا أفخر بأننا تطورنا فى هذا المجال بالذات بصورة مختلفة عن العالم كله تتلاءم مع مواردنا."

أخذت أقلب فى ذهنى هذا الكلام وأنا أحصر كم الصناعات التى انهارت فى مصر منذ التطبيق الكامل لكافة اتفاقات التجارة الحرة. فكل هذه الصناعات المندثرة نشأت وازدهرت فى رحم الحماية الجمركية واعتمدت عليها بشكل رئيسى. أما حجم السوق الفقير لدينا فلا يبرر قيام أى صناعات تجميعية اقتصادية بسبب ضآلة حجم الإنتاج الضعيف غير الاقتصادى.

صناعة وحيدة كنا نملك مقوماتها لامتلاكنا المواد الخام الرئيسية التى تتطلبها وهى صناعة الأسمنت. تعجبت كثيرا من تعرض هذه الصناعة بالذات للاحتكار وعدم وجود أى حصص حاكمة للدولة أو لصغار المساهمين بها. تذكرت المرحوم كمال خورشيد وقصة أبى الشهيرة فزال العجب.

مارس ٢٠٢٧

الخوف

فى هذا اليوم كنت أعمل بالمنزل عندما فوجئت بأمى تدخل علىّ المكتب منفعلة انفعالا شديدا، بعد عودتها من عزاء ابنة عمتها.

- أريدك فى موضوع هام لا يحتمل التأجيل، ولكن اقسم لى بحياة والدك أنك ستفعل ما أقول دون مناقشة.
- خير يا أمى.
- اقسم أولا.
- أرجوكِ لا أستطيع فعل هذا، قولى لى وبإذن الله سأريحك وأفعل ما تريدينه.
- هل تعلم كيف توفيت تانت هادية؟
- نعم، حادثة فظيعة. سمعت أنها تعرضت للقتل أثناء محاولة سرقة منزلها.
- نعم، ولكن هل تعرف التفاصيل؟
- لا، لا أعرف.
- حسنا، لقد سمعت اليوم بأنهم، بسبب نفوذ زوجها المهندس سامح، أجروا الإسبوع الماضى تحقيقا موسعا وقبضوا أمس على الجناة. أتذكر عم محمد الطباخ؟
- طبعا، فمنذ أن كنت صغيرا وأنا أصادفه فى كل مرة نذهب إليها. والحق يقال كان يجهز لنا دوما أشهى الأصناف. أعتقد أنه كان يقيم لديها... أليس كذلك؟!
- حسنا، لقد تبين للنيابة أن عم محمد خطط مع الجناة لهذه الجريمة. فهو الذى أعطاهم المفاتيح الإليكترونية للأبواب وتفاصيل أماكن الأشياء الثمينة، واتفق معهم على أن يقوموا بكسر

أحد الشبابيك للإيحاء بأنه حادث سرقة من شخص غريب. لقد انتزعوا منه هذا الاعتراف بعد التحقيق معه لمدة يومين متصلين.
- أنا لا أصدق هذا الكلام، أعتقد أنه اعترف فقط للتخلص من تعذيب الشرطة له.
- لا، لقد حكى لنا سامح أنه كان يرفض التحقيق مع عم محمد لأنه لم يشك فيه للحظة وحذرهم من أنه لن يتركهم إذا أذوه لأنه كان يعتبره من أهل المنزل. هو متأكد أنهم لم يعذبوه وأنه بالفعل اعترف بالحقيقة لأن النيابة اكتشفت أخطاء تدل على أن السارقين كان لديهم الشفرات السرية لكل أجهزة الإنذار، وأخذوا كل ما هو ثمين فى زمن قياسى وكأنهم يحفظون كل تفصيله فى المنزل كأحد قاطنيه. كما أن التكسير المصطنع، بعد تحليله، أثبت أنه تم من الداخل لإعطاء الإيحاء بأن السارق لا يملك المفاتيح، أى لإبعاد الشبهات عن أى شخص معتاد على دخول المنزل. وبعد اعترافه قبضوا على شركائه وأعادوا المسروقات.
- غريب... فعلا من كان يصدق؟ عم محمد الطيب، أمر لا يصدق!
- لقد ظل يصر أنه لم يكن يخطط لقتل هادية وإنما للسرقة فقط. أثناء سفر سامح، اقتحم أقرباؤه المنزل وقاموا بتقييدها وتكميمها وتثبيت كيس أسود على رأسها بشريط لاصق حتى لا تتعرف عليهم. قالوا فى التحقيق أنها كانت تنازع وترفص فى الهواء تحاول الصراخ ونزع الكيس حتى تركوا المنزل وهى على قيد الحياة. ولكن يبدو أنهم أحكموا تكميمها بصورة جعلها تختنق فى النهاية بعد عدة ساعات من صعوبة التنفس.
- ميتة فظيع.
- نعم، هى لم تكن تستحق ذلك.

اختنق صوتها وهى تلفظ عبارتها الأخيرة مما جعلنى أحضنها بذراعى لأربت على كتفها ودموعها تنهمر. وبعد فترة استجمعت نفسها لتقول لى بصوت مخنوق:
- أنا خائفة... أنا خائفة أن يحدث لى شيء فى هذا المنزل.
- اطمئنى يا أمى لن يحدث شيء.
- أنت لا تفهم شيئا... عندما جئنا إلى هذا المنزل أنا ووالدك قال لى نفس الكلمة التى تقولها أنت الآن بلا مبالاة وانظر ماذا حدث لنا جميعا... أنا خائفة.
- لا تخشى شيئا يا أمى.
أزاحت ذراعى لتستجمع نفسها قبل أن تواجهنى بحدة:
- لا، أنا أخشى كل شيء،... هذا المنزل غير آمن.
- يا أمى، لقد تكلمنا فى هذا الموضوع من قبل وأنا أعدت لك تشغيل النظام الأمنى كما أردت بالرغم من عدم اقتناعى.
- هذا غير كاف. لقد كنت تشغله من قبل ولم يمنع شيئا.
- هذا صحيح، لأن ما حدث كان لا يمكن تفاديه.
- حسنا، أرحنى وافعل ما أريد.
- ولكننى فعلت ما تريدين بالفعل، ولا أجد شيئا آخر أفعله لأطمئنك. لا أحد يأتى إلى هذا المنزل سوى أمل التى تطبخ لك نادرا، ولا أعتقد أن أمل مثل عم محمد فهى قد تربت معك وأنت صغيرة. كذلك أنصحك بأن تبدئى فى سؤالها عن أحوال عائلتها وتحاولى مساعدتها بقدر ما تستطيعين.
- هو إحنا عارفين نساعد أنفسنا، أنا مرتبى يكفى بصعوبة شديدة، ولا أدرى من أين تأتى بهذه النقود التى تكمل بها المصروفات الأساسية. وأشعر إنك ستفاجئنى بمصيبة فى يوم من الأيام.
- أعدك يا أمى أن كل هذا سيتغير.
- لقد قلت لى ذلك من قبل.
- لا، الأشهر الماضية كنت أعدك بأن أجد حلا أثناء بحثى عن مخرج للأزمة الذى لم يكن واضح المعالم بعد. أما الآن فقد بدأت

بالفعل مشروعا سيدر عائدا جيدا خلال ستة أشهر. بعدها نستطيع تسديد كل ديوننا ونعتمد على دخل ثابت لنا جميعا.

- أرجو ذلك، ولكننى مع ذلك أريدك أن تفعل لى شيئا فى هذا المنزل لأشعر بالأمان. أريدك أن تضع قضبانا حديدية بأقفال محكمة لغلق كل فتحات المنزل.

- ولكن يا أمى المنزل بالفعل به ضلف حديدية بأقفال محكمة.

- نعم، ولكن معظمها يسمح بنفاذ يد تستطيع أن تكسر الزجاج وتعبث فى القفل بأداة لكسره. أنا أريد المسافة بين القضبان فى غاية الضيق بحيث لا تنفذ منها أى يد.

- يا أمى لا يمكن لسارق مرعوب من كشف أمره أن يجرؤ على طرق أقفال حديدية لكسرها. هذا سيستلزم وقتا طويلا وسيصدر أصواتا حادة توقظ كل الجيران. هذا طبعا إذا استطاع تفادى كل أجهزة الإنذار المعقدة. هذا غير منطقى.

- غير منطقى بالنسبة لك ولكنه سيريحنى ويطمئننى... ألم تر ماذا حدث لتانت هادية؟ هذا هو بالضبط ما أتخيله يحدث لى كل لحظة... أحدهم يقتحم المنزل ليعذبنى حتى أموت.

- يا أمى، تانت هادية لم يتم اقتحام منزلها كما قلت ولكنه تم دخوله بمساعدة أحد قاطنيه. أى أن كل الاحتياطات الأمنية لم تكن لتوقف ما حدث. صدقينى، الخوف لا علاقة له بعدم إحكام المنزل... إنه موجود بداخلك.

- وماذا أفعل؟ أنا لا أستطيع التخلص منه... أنا أعجز عن ذلك... وكأن أحدا بالخارج يراقبنى طوال الوقت.

- لا أدرى كيف أجعلك تدركين أنه " لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا". كيف أقنعك أن الخوف هو إحساس مدمر، يزرعه عقلنا فى داخلنا إذا سمحنا بأن تسيطر علينا الفكرة القاصرة بأن حياتنا على الأرض هى كل شىء... ألا تدركين أننا كلنا جميعا سنموت عاجلا أم آجلا فى لحظة ما.

- أنا أفهم ما تقول، وبالرغم من ذلك لا أستطيع انتزاع الخوف من قلبى. كذلك جو المنزل الذى تعيِّشنا أختك فيه لا يساعدنى على ذلك.
- ماذا تعنى؟
- أعنى هذا الظلام الدامس الذى نعيش فيه ليل نهار وصراخها الهيستيرى إذا حاولنا زيادة الإضاءة فى أى مكان بالمنزل. رفضها الغاضب لمعظم أصناف الطعام وعدم مغادرتها لحجرتها وهى تهمس لأناس لا أدرى من هم طوال ساعات متصلة أمام الكومبيوتر. هذه الخيالات المظلمة الموجودة فى كل مكان تثير فىَّ القشعريرة.
- حسنا، أعدك بأننى سأفعل كل ما بوسعى لجعل المنزل آمنا ولكن من جانبك عدينى بشىء.
- ماذا؟
- أن تواظبى على الصلاة.
- أنا أحاول.
- لا أقصد هذه الصلاة ولكنى أقصد... الصلاة.
- ماذا تعنى؟
- أعنى أنه إذا صليت مرة واحدة... مرة واحدة فقط صلاة حقيقية وأحسست بنور إلهى يغمر قلبك لن تخشى شيئا أبدا ولن تتوقفى عن الصلاة مطلقا.
- هو إنت فاكر إن أنا لا أشعر به؟! كيف تظن أننى أحيا إذن؟
- أنا على يقين من ذلك، فالله يحبك ويقربك له أكثر من غيرك؟
- لماذا تعتقد ذلك؟
- بسبب المصائب التى حدثت لك فجأة دون سابق إنذار، موت والدى المفاجئ و...
انفجرت فى البكاء على صدرى وأنا أربت على ظهرها وأقول بصوت متحشرج:
- أعدك بأن كل شىء سيكون على ما يرام... ثقى بى... ثقى بالله.

بعد دقائق بدأت تهدأ فذهبت لأحضر لها كوب مياه وجلسنا صامتين بعض الوقت حتى تركتنى إلى غرفتها لتغير ملابسها وتستريح.

أخذت وقتا طويلا لأستجمع شتات أفكارى ثم ذهبت إلى غرفة فرح وطرقت على بابها وأنا أسمع أصواتا لمحادثة بالداخل لا أستطيع تفسيرها. بعد فترة طويلة فتحت قفل الباب لتطالعنى بوجه متجهم تبينته بصعوبة من خلال الظلام الدامس.
دخلت فشعرت برائحة عطنة، غالبا بسبب سوء التهوية ورفض فرح السماح لأحد بدخول الغرفة للمساعدة فى تنظيفها. قمت بزيادة شدة الإضاءة لأتخلص من هذا الإحساس الثقيل ففوجئت بها تصرخ فى عنف كى تطفئها:
- إضاءة مظلمة... أرجوك أنا أفضل الغرفة هكذا. يكفى إضاءة شاشة الكمبيوتر. أتريد شيئا؟
- ... لعلمك أنا أيضا سجنت فى الغرفة المضاءة، أنا أتفهم شعورك ولكن...
- ماذا تريد؟
- أريد أن نتحدث.
- حسنا، تفضل.
- لا أدرى كيف؟
- ماذا تقصد؟
- مضت أشهر الآن وأنا أحاول عبثا اختراق هذا الحاجز. وعندما أحسست بالعجز التام فكرت فى اللجوء لمساعدة متخصصة ولكنك رفضت فى غضب شديد كل الحلول المقدمة.
- أشهر؟ ماذا تعنى؟ هذا الحاجز موجود منذ سنوات. أنت فقط كنت مشغولا ولم تلتفت إلا مؤخرا إلى أنه لا توجد بيننا أى علاقة أصلا.

ـ نعم، من الجائز أن ما تقولينه صحيح... ولكن امنحيني الآن فرصة لأن نبدأ من جديد.
ـ للأسف لقد تأخرت كثيرا... فالحاجز بيننا الآن يستحيل اجتيازه.
ـ لماذا؟ ثقي بي ولنجرب سويا. ماذا ستخسرين؟
ـ لا شيء، لن أخسر شيئا لأنني لا أمتلك شيئا.
ـ إذن لماذا ترفضين المحاولة؟
ـ لأنه لا يوجد شيء أحاول من أجله، لا يوجد بداخلي شيء.
ـ كيف تقولين ذلك؟ لقد كنت دوما مصدر بهجة هذه الأسرة وسعادتها، لا يمكن أن يختفي هذا، لا يمكن!
ـ لا، ممكن.
ـ لماذا هذا الإصرار العنيد على عدم إعطاء نفسك فرصة ثانية؟
ـ وفر هذه النصائح النظرية الساذجة، ولا تحدثني هكذا وكأنه لا دخل لك بما حدث لنا جميعا!
ـ ماذا تعنين؟
ـ أنت تفهم جيدا ما أعنيه. كل ما حدث لنا من مصائب أنت السبب فيها، والآن تأتي لتنصحني وتطلب مني بعد أن فقدت كل شيء أن أبدأ هكذا من جديد. بهذه البساطة... وكأنني أستطيع محو ذاكرتي بإرادتي... وكأنني أستطيع نسيان ما حدث... وكأنني أستطيع طرد الكوابيس اللعينة التي تهاجمني كل ثانية في يقظتي ومنامي. الكلام سهل بالنسبة لك ولكن الواقع بالنسبة لي أنني أعاني كل ثانية من حياتي ولا أحد منكم يفهم شيئا... أنت تحديدا لا تفهم شيئا لأنه لا يعنيك شيء مما حدث. فأنت في النهاية رجل ما زال لديك المستقبل وستبدأ من جديد. أما أنا، بالنسبة لك، فأمثل لك تأنيب الضمير الذي تريد التخلص منه من خلال سماحي لك بمساعدتي على أن أصبح أفضل لأستعيد حياتي السابقة. ولكنك تحلم، فأنا لن أريح ضميرك أبدا... حياتي انتهت وأنت السبب في هذا... وأنا لا يعنيني بالمرة ما تشعر به تجاهي، سواء كان تأنيب ضمير أم

مشاعر حقيقية فأنت بالنسبة لى غير موجود... أنت ميت بالنسبة لى... أنت ميت... ميت...

لم أستطع التحكم فى دموعى المنهمرة ووجدت الكلمات تختنق فى حلقى وأنا أشعر بطعنات نافذة فى صدرى. شرعت فى مغادرة غرفتها يطاردنى صراخها الهيستيرى. أثناء خروجى من الباب اصطدمت بأمى التى هرولت إلينا منزعجة من الصياح :

- ماذا حدث؟... ماذا حدث؟

لم أستطع أن أتفوه بكلمة فأمسكتها من ذراعها وأنا أشير لها بالدخول ثم أغلقت الباب وأنا أسمع صوت أمى العالى وهى تحاول احتضان فرح لتهدئتها.

"عين، وصابتنا. لا يمكن أن يكون سوى ذلك. أرجوك يا رب، أنا لا أعترض على شىء ولكن أرجوك نجنا مما نحن فيه أرجوك."

جلست وحيدا أنتحب كالطفل الصغير، أشعر بصدع فى نفسى وصراع داخلى عنيف بين كم هائل من الأحاسيس والأفكار المتضاربة. لم أدر حينذاك هل ما أشعر به هو حزن؟ أم غضب؟ أم إحساس بالذنب؟ أم رغبة عارمة فى الهروب والصراخ وتحطيم كل شىء؟! هل أنا فعلا السبب فى كل ما حدث؟

أحسست بعجزى عن تحمل هذا الضغط المخيف فقررت أن أغادر المنزل بضع ساعات دون وجهة محددة.

عرجت على غرفة فرح بهدوء دون أن تشعر بى فوجدتها قد نامت بجوار والدتى.

دون تحديد وجهتى على الشارت بلوتر قدت السيارة وأنا لا أرى الطريق أمامى. كنت أشعر باختناق وصعوبة حقيقية فى التنفس، وأرى الدنيا سوداء أمامى. وبدلا من الشعور ببعض الراحة لابتعادى عن المنزل تضاعف إحساسى بالضيق فأوقفت السيارة لأكتشف أننى فى منتصف شارع الهرم. أحسست بشىء

قبل يقبض عليَّ وأنا جالس فبدأت أضرب المقود والتابلوه أمامى بكل عنف. أحسست بقليل من الراحة فواصلت الضرب أكثر حتى تورمت يداى. أخذت نفسا عميقا ثم غادرت السيارة لأسير على الطوار دون هدى.

أوقفنى رجل يقف على سلالم تقود إلى قبو مظلم أحمر:

- عايز تشرب، عندنا نسوان حلوة ممكن تقعد معاك... اتفضل.

التفت حولى لأكتشف أننى أسير أمام مجموعة من أرخص الملاهى الليلية الموجودة فى هذا الشارع. عجبت من كونى أمر بهذا الشارع آلاف المرات ولم يدفعنى الفضول يوما لأن أكتشف ما يحدث داخل هذه الأماكن. نظرت إلى اليافطة الحمراء أعلى الرجل لأقرأ اسم الملهى"آتون". أصابنى الاسم الغريب بالنفور فمضيت فى طريقى.

أمام ملهى آخر انتبهت إلى صوت أجش لرجل ينادى وهو يشير بيديه للداخل:

- اتفضل، ألق نظرة، وإذا لم يعجبك تستطيع أن تغادر.

ترددت قليلا ثم وجدت نفسى أهبط الدرج لاإراديا. شعرت بحركة غريبة بأسفل فوجدت أحدهم يدفع بعض الفتيات فى اتجاهى وهن يقلن له:

- حاضر، حاضر بالراحة.

نظرت إليهن فغالبنى إحساس بالشفقة من هيأتهن المذرية وملابسهن الرثة. أحسست بتناقض فظيع مع الصورة التى كانت فى مخيلتى عن هذه الأماكن، وكان هذا بسبب ما كنت أشاهده فى الأفلام، ومن شكل المومسات المثير المنتشرات فى بعض شوارع الأحياء الراقية.

ابتسم لى الرجل فى الأسفل ابتسامة عريضة كاشفا عن أسنانه الصفراء:

- إيه رأيك؟ بنات حلوين هيسلوك وانت بتشرب.

نظرت مرة أخرى إلى حيث يشير فوجدت الفتيات ينتزعن على مضض ابتسامة صفراء لم أرها فى حياتى من قبل فاستدرت. حاول الرجل الآخر الإمساك بيدى.

- إيه بس اللى مش عاجبك؟

- لا شيء، لا شيء ولكننى تذكرت فجأة شيئا تركته فى السيارة يجب أن أعود لأخذه.

أفلت من يده وصعدت السلم وكان يلاحقنى صوت الرجل فى الأسفل وهو يسب الفتيات بأقذع الشتائم.

عدت بخطوات سريعة دون أن أصعد الطوار حتى أتفادى الملاحقات المستمرة. وقبل أن أصل إلى السيارة تسمرت فى مكانى مشلولا لا أدرى ماذا أفعل. رأيت فزعا رجلين منهمكين على التابلوه يعبثان به. فكرت لثوان أن أصرخ فيهما ولكننى خفت فعدلت عن الفكرة. استجمعت رباطة جاشى وعدت أدراجى بهدوء لأطلب المساعدة وقلبى يدق بعنف.

- ظننتك لن تعود، تفضل يا باشا... يا بنات... يا بنات...

- انتظر، أنا لم آت من أجل هذا، هناك اثنان يحاولان سرقة سيارتى.

- يا نهار أبوهم إسود، إنتظر قليلا... يا رجالة ناس بيسرقوا الزبون، إطلعوا بسرعة.

فوجئت بثلاثة رجال أحدهم ضخم ومخيف للغاية يصعدون السلالم مهرولين. جرينا جميعا بسرعة ناحية السيارة لأفاجأ فى ذهول بعدم وجود أحد بداخلها والشارع مهجور تماما.

- لقد كانا هنا منذ دقيقة... لا أدرى كيف اختفيا بهذه السرعة!

- الإضاءة هنا تزغلل ومن الممكن أن تكون رأيت خيالات فظننتها رجلين.

- لقد رأيتهما كما أراك، أنا متأكد من ذلك ولا أهذى.

- حصل خير يا بيه، الحمد لله سليمة. جائز تقلت شوية فى الشرب، إفتح الباب الأول واطمئن إن كل شيء موجود.
مددت يدى للمقبض وأنا متأكد أننى سأجده مفتوحا ولكنى وجدت فى ذهول السيارة مغلقة كما تركتها. أخذت أبحث كالمجنون عن أى باب مفتوح أو كسر فى الزجاج فلم أجد شيئا.
- أفقدت الكارت؟
- لا، ولكن هذا مستحيل. هذا الكارت المشفر هو الوحيد الذى يفتح السيارة ويغلقها ويستحيل فك شفرته.
قلت هذا وأنا أضع الكارت لأجد كل شيء بالداخل كما تركته.
- إطمئنيت يا باشا، هيا بنا للداخل نشرب قليلا وننبسط يبدو أنك متوتر للغاية.
نظرت إليه شذرا وقمت بإخراج نقود من المحفظة لأعطيها له وهو يبتسم ابتسامة أثارت حنقى.
- شكرا على مساعدتكم، يجب أن أرحل الآن. تفضل هذا من أجل تعبكم معى.
- لو ما كنتش تحلف يا بيه، نحن لم نفعل شيئا. لكن على العموم حضرتك تشرفنا فى أى وقت.

انتظرت حتى استداروا وغادروا فقمت بتفحص العربة وأنظمة الإنذار فيها فوجدت كل شيء سليما. أخذت أتفحص التابلوه دون أن أتحرك. ثم بدأت أحاول استرجاع شعور الضيق الذى كان يلازمنى كلما ركبت السيارة والذى كنت قد بدأت أعتاد عليه. تذكرت أننى كنت أشعر دوما بأننى مراقب من جهة اليسار. وبحكم خبرتى المهنية أخذت أتخيل أنسب مكان لوضع كاميرا مراقبة ثم قمت بإضاءة العربة من الداخل وأخذت أفتعل بحثى عن شيء فى محفظتى بينما أنا فى الحقيقة أحاول بطرف عينى تفحص جزء محدد فى التابلوه على يسارى حتى لمعت نقطة صغيرة فتيقنت أنها كاميرا.

أثناء عودتى للمنزل تقاذفتنى آلاف الهواجس المخيفة.

" هل هم يراقبوننى منذ أن تركونى؟ جائز، ولكن مر حوالى... تسعة أشهر. هل كانوا يراقبوننى طوال هذه الفترة بهذه الدقة؟ أم أن هناك شيئا جديدا جد جعلهم يفعلوا ذلك؟ هل علموا بعلاقتى بموقع "إنليتمنت"؟ هل توصلوا إلى جيرار وعلاقتى به؟ ولكن كيف؟ يا لغبائى الشديد، لابد أننى أهملت شيئا. ولكن مهلا، منذ متى وأنا أشعر أننى مراقب؟ حاولت التذكر عبثا ثم تذكرت شيئا جعلنى على يقين من أن هذا الإحساس كان يراودنى منذ أول مرة ركبت فيها السيارة بعد الإفراج عنى. لماذا ظهروا اليوم إذا كانت الكاميرا موجودة من قبل؟ لماذا اقتحموا سيارتى الآن وبصورة تجعل من المستحيل اكتشاف ذلك؟ كيف فكوا الشفرة؟ ما الذى كانوا يفعلونه؟ وفجأة تذكرت دقى العنيف على التابلوه والمقود. لابد أنه كذلك، لابد أن هذا الخبط أصاب نظام المراقبة بعطب ما. نعم هذا هو التفسير الوحيد. لابد أنهم كانوا يصلحون ضررا تسببت فيه.

ولكن مهلا، لا يجب أن أخشى شيئا. أنا لم أفعل شيئا أحاسب عليه... ولكن هل كنت قد فعلت شيئا فى المرة الأولى؟ ولكن، هذه المرة أنت خالفت ما حذروك من فعله. إعادة تشغيل موقع "إنليتمنت" ليس بالأمر الهين. ولكن لا، لا يمكن أن يعرفوا بهذا. هذا مستحيل، لا يوجد طريقة ليعرفوا بها، إلا إذا توصلوا إلى جيرار ومنه إلى الدبلوماسى الذى بالتأكيد سيقول لهم كل شىء ويقودهم إلى صديقى الذى لن يخفى شيئا بدوره. ولكن كيف؟ لن تعرف أبدا فقد يكون جيرار ارتكب خطأ ما، لن تعرف هذا أبدا...

هل ممكن أن يكون لارتداء فرح النقاب علاقة بالموضوع؟ فرح... أم... لا أدرى كيف أساعدها هى الأخرى. من الجائز أن هذا مستحيل؟ لا أدرى. لو فقط أجد وسيلة ما لإنقاذها مما هى فيه أو لإقناعها بتقبل مساعدة طبية متخصصة ولكنها عنيدة... مثل باقى العائلة.

عدت إلى المنزل لأرتمى على فراشى وجسمى مخدل من الشد العصبى ونمت فى ثوان بعمق دون أن أغير ملابسى.

عندما استيقظت صباحا، وأثناء استحمامى بعد أن عادت المياه مدة نصف ساعة، قررت أربعة أشياء.

أولا: أن أتفادى أية مواجهات مع فرح، وألا أحاول أن أفتح معها مطلقا أى موضوع شائك إلا عندما أشعر أنها ستستمع إلىَّ.

ثانيا: أن أتوقف تماما عن الخوف من كونى مراقبا. قررت أن أكف عن التفكير فى هذا الموضوع العبثى لأننى لن أستطيع فعل شىء حياله سوى أن أكون أكثر حرصا فى كل تحركاتى.

ثالثا: أن أقوم بعمل التحصينات التى أرادتها أمى لعل هذا يعطيها شعورا بالأمان قد يساهم فى تحسين الجو العام بالمنزل.

رابعا: أن أركز على العمل قدر استطاعتى، وأعمل على إنجاح هذا المشروع الجديد لأنه الشىء الوحيد الإيجابى الذى كنت أستطيع القيام به فى هذه الفترة ويستلزم منى مجهودا جبارا ومعظم وقتى. قدرت أن هذا سيتيح لى فرصة للهروب من كم المشاعر السلبية التى تسجننى داخل كل هذه الحلقات المفرغة.

تخيلت حينذاك أن حل مشاكلنا المالية قد يؤدى إلى إحساس والدتى بالأمان المادى وهو فى النهاية شعور مطمئن لها بصورة أو بأخرى. تصورت أنه من الجائز أن ينتقل هذا الشعور إلى فرح فيساعد على تهدئتها قليلا بمرور الوقت. كنت أعتقد بسذاجتى أن الزمن كفيل بأن يساهم فى التئام أصعب الجروح الغائرة. ولكن الأيام أثبتت لى فيما بعد خطورة أن تترك الجروح المفتوحة دون علاج فترة طويلة.

إبريل ٢٠٢٧

الرائحة

كان اليوم هو بداية تنفيذ أعمال التحصينات التى كنت وعدت بها والدتى. كنت فى مكتبى عندما سمعت تنبيه الباب الأمامى ينبئنى بوصول الفنيين. نظرت من خلال كاميرا المراقبة لأجد رجلين ضخمى الجثة يرتديان أسمالا بالية أمام الباب الرئيسى.
- أفندم؟
رد أكبرهم سنا وهو ينظر إلى الأرض بعيدا عن الكاميرا:
- إحنا من طرف البشمهندس يوسف. قال لنا على شغل عندكم.
- وأين البشمهندس يوسف؟
- هو فى موقع قريب وسيحضر خلال نصف ساعة، ولكنه قال لنا أن نبدأ التكسير لحين قدومه. مش دى فيلا المهندس نصار؟
- نعم، ولكنى كنت أتوقع أن يأتى المهندس يوسف قبلكم لتنسيق العمل معى.
- كما تريد حضرتك، إحنا عبد المأمور... حضرتك ممكن تتصل به.
ترددت قليلا قبل أن أرد متشجعا بصوت الرجل الرخيم:
- حسنا، حسنا... اذهبا لباب الحديقة الجانبى... سأفتحه لكما فالعمل سيكون من خارج المنزل... سأوافيكم خلال دقيقة.
فور ولوجى من باب الحديقة أحسست أننى قابلت الرجل الطاعن فى السن من قبل.
- إحنا آسفين يا باشا إننا أزعجنا حضرتك.
رددت بدون تركيز وأنا أتفرس ملامحه من خلال تجاعيد غائره:
- بماذا كلفكم البشمهندس يوسف؟
- إحنا عمال هدد. هنكسر أجزاء الحوائط حول الكائنات الحديدية حتى نقتلع كل الضلف الحديدية القديمة لحين وصول الفنيين.

تذكرته فجأة عند سماعى كلمة " هدد" فصحت وقد انفرجت أساريرى:
- عم جمال أبو جبل...ألا تتذكرنى؟!
أخذ العجوز يحدق بى فاغرا فاه وكأنه فوجئ لأول مرة فى حياته بأحد يتعرف عليه أو يتذكره.
تلعثم بكلمات غير مفهومة فى اضطراب وجزع شديدين لا يتناسبان مع تفاهة الموقف. أدركت لحظتها أنه يخشى أن يغضبنى إذا صرح لى بأنه عاجز عن التعرف علىَّ مما قد أفسره بأنه عدم احترام.
لم أنتظر إجابته واستطردت سريعا بلهجة ودودة حتى أرفع من حرجه:
- أنا المهندس محمد نصار. كنت أساعد والدى فى الإشراف على تنفيذ هذه الفيلا منذ سنوات بعد تخرجى مباشرة. ألا تذكر؟! لقد كنت أنت من قام بكل أعمال التكسير وتشوين كل مواد البناء. ألا تذكر؟!
رد مبتسما فى ارتباك متصنعا التذكر وإن أوحى لى تردده ونظراته بعكس ذلك:
- آه طبعا... طبعا مهندس محمد! كيف أنسى حضرتك! أنا آسف أننى لم أتذكرك على الفور، ولكن حضرتك عارف أنا اشتغلت فى أكثر من مئة فيلا فى هذه المنطقة... فأنا أسكن على مقربة من هنا.
- لم أتعرف عليك فى البداية بسبب اللحية.
- آه... هذا صحيح كنت فى الماضى أحلق ذقنى يوميا.
- ولماذا تطيلها الآن؟! كان شكلك أصغر بدونها.
- والله يا بيه زمان كنت أقعد أستخدم الموس شهور لحد ما يبقى تلم ويعورنى، وبالرغم من ذلك كنت أستمتع بالحلاقة قبل الذهاب للعمل... كانت تشعرنى بالنشاط والحيوية. أما الآن فلا أملك ثمن أسوأ شفرة موجودة فى السوق. الغلا بياكل دخلى البسيط فى ثانية.

نظرت إلى زميله الضخم المبتسم فى حياء، والذى بدا لى من أقربائه، فاستطرد متلعثما:
- هذا ولدى منصور. متعلم... دبلوم صنايع... كنت أتمنى أن أراه يعمل عملا مختلفا ولكن الظروف حكمت إنه يعمل معى باليومية.
- ماشاء الله. كنت أظنك أصغر من ذلك.
رد بابتسامة عريضة كشفت عن عدد ضخم من الأسنان المتساقطة:
- لدينى كام سنة يا باشا.
- زمان كنت أظن أن الفرق بيننا لا يتعدى العشر سنوات، يعنى المفروض تكون فى أوائل الأربعينيات. أما الآن فأعتقد إنك فى منتصف الخمسينيات.
- أنا عندى إثنين وأربعين عاما.
- أنا آسف... ولكن يبدو إن إبنك ماشاءالله كبَّرك فى نظرى.
توجهت إلى الابن البشوش مداعبا:
- إنت تعرف إن والدك كان أقوى وأضخم واحد فى الموقع. فى إحدى المرات، تحديا لباقى العمال قام وحده برفع أحجار ثقيلة إلى مكان مرتفع كانوا قد طلبوا لتشوينها ونشا!
- ده كان زمان يا بيه. دلوقت الصحة يادوب على القد.
- كانت أيام جميلة...
- إحنا تحت أمرك يا باشا.
ارتبكت وكأننى نسيت ما قدموا من أجله، ثم رددت بكلمات متناثرة:
- هذه النوافذ... يجب أن تخلعوا القضبان الحديدية المثبتة على كل هذه النوافذ.
- حسنا... أين تريدنا أن نبدأ؟
- تستطيع أن تبدأ بهذا الجانب...
قلتها وأنا أتفحص فى ارتياب الابن وقد بدأ يخرج الأجنة والشاكوش.

- أين المعدات التى ستستعملونها؟! لا تقل لى إنك مازلت تستعمل هذه الأدوات البدائية!
- نعم، فنحن لا نملك غيرها،... هى وصحتنا.
- ولكننى ظننت أن لديكم معدات ميكانيكية.
- الموضوع مش مستاهل... كلها كام ساعة ونخلص...كده أوفر يا بيه واهو آدينا بناكل عيش... اتفضل حضرتك، لا تعطل نفسك وسنناديك بعد أن ننتهى.
- ولكن ألم يقل لكم البشمهندس يوسف أنكم يجب أن تغطوا النوافذ الزجاجية لحمايتها من الكسر؟!
- لا، هو لم يقل شيئا... لا تقلق يا بيه ربنا يسترها، هنخلى بالنا.
- إن شاء الله ربنا يسترها ولكن هذا لا يمنع من أخذ الحيطة... أنا عموما توقعت أنه سيهمل هذه التفصيلة ومجهز هذه الألواح لهذا الغرض.
ذهبت بجوار السور وحملت لوحا ثقيلا وبدأت أدخله بين القضبان والزجاج.
انتفض عم جمال يحمل عنى اللوح فى إصرار شديد:
- عنّك يا بيه... عيب يا بيه تعمل كده واحنا واقفين... هوده معقول.
تمسكت بإصرار باللوح رافضا تركه.
- اتركه لى، سأريك كيف أريده أن يوضع.
رد فى عناد شديد دون أن يترك اللوح:
- قل لى كيف وسأضعه أنا... عنّك...عنّك يا بيه... عيب.
لم أترك اللوح وتمسكت به بقوة شديدة وأنا أضعه بعناية رأسيا:
- لا يوجد عمل فى هذه الدنيا به عيب يا عم جمال، المهم النية.
- حسنا، حسنا... كما تريد.
ذهبت لآخذ لوحا آخر واستطردت وأنا أرفعه:

- سأريك كيف أريد وضع الألواح متجاورين ثم أتركك لتكمل... أرأيت، أريد أن يركب اللوحين على بعض بمسافة مشتركة لا تقل عن ١٥ سم أو شبر... حسنا، ابدأ فى الرص أمامى حتى أطمئن.
- هيا يا منصور رص معى بسرعة... لا تقف هكذا... هيا... هيا... أمامت الابن المشدوه وقد تسمر على بعد أمتار حتى بدأ يتحرك مدفوعا بصيحات الأب فتركتهما ليكملا العمل بعد أن استشعرت أنهما فهما ما أريد عمله.

بعد أن صعدت عدة درجات على السلم الداخلى فى اتجاه المكتب، ودون سبب منطقى، وجدت نفسى أعود أدراجى. وقفت بهدوء على الجانب الآخر من الزجاج الجانبى المعتم لأرقبهما دون أن يستطيعا رؤيتى.

انتظرت حتى انتهيا من رص الألواح وبدآ التكسير. أخذت أرقب عم جمال على بعد سنتيمترات منى وهو يرفع الشاكوش بعناء وينهال على الأجنة بكل ما أوتى من قوة فتنتفض يداه مع ارتداد الأجنة وسط الشظايا المفتتة من الحائط. وبدأ المنزل كله يهتز من جراء هذا الدق المستمر حتى ظننت أن الحائط بأكمله سينهار من جراء هذه الخبطات. أخذت أرقب قسمات وجهه العابسة وتجاعيد وجهه البائسة التى بدت وكأن حدتها زادت لتشكل درعا يقى عينيه الغائرتين من الشظايا المتناثرة. شعرت بنهجانه الشديد مع كل دقة فكنت أسمع شهيقا خافتا عند رفع يده بالشاكوش يعقبه صوت زفير عال وصيحة مجسمة عند كل اصطدام.

التفت إلى الابن المفتول العضلات الذى كان يؤدى نفس المهمة ولكن دون صوت يذكر ودون أن يبدو عليه الإرهاق وإن بدا لى أنه يتسبب فى ارتجاج المنزل أكثر بكثير من والده.

عدت لأتأمل عم جمال الذى بدأت قطرات العرق تنسال من كل ذرة فى جسده بغزارة شديدة حتى بدأت القطرات تتفتت مع كل خبطة لتتناثر مع الشظايا فى كل مكان. أخذت أرقب قطرات العرق على الزجاج الجانبى حيث أقف وهى تنسال ببطء شديد إلى أسفل مخلفة وراءها أثرا لا يمحى. زاد النهجان والخبط بصورة تصاعدية حتى بدأت صيحات عم جمال تتحول إلى أنين مكتوم. ظننت أننى كنت أتخيل تغير نبرة الصيحات حتى توقف الابن وتوجه لوالده ليربت عليه حتى ينتبه ويتوقف. بدا لى وكأنه يشير إليه بأن يستريح قليلا ليستكمل هو العمل. أشاح عم جمال بيده مما أوحى لى برفضه القاطع لاقتراح الابن حتى استسلم الأخير وعاد لركنه تاركا والده يستكمل الجزء الخاص به.

وبعد فترة انتهى عم جمال من إحدى جوانب النوافذ فجلس القرفصاء ليستريح ويشعل سيجارة دون أن يتوقف النهجان والسعال الشديد. فى هذه اللحظة تسارعت دقات يوسف وكأنه يريد الانتهاء من أكبر قدر من التكسير قبل عودة والده للعمل. راقبته وهو ينفث دخان سيجارته محدقا فى الحائط أمامه بنظرات زائغة استحال معها أن أخمن ما يدور بخلده فى هذه اللحظة. تأملت هيأته من خلال خيوط العرق المتقاطعة على الزجاج حتى بدأت أشم هذه الرائحة... رائحة بدت لى أنها رائحة عرق عم جمال. ونظرا لحاسة شمى الضعيفة فقد كنت متيقنا من استحالة نفاذها من خلال هذا الزجاج المصمت. وبالرغم من ذلك فقد ظللت فترة طويلة أشم تلك الرائحة من حين إلى آخر كلما رأيت القضبان الحديدية التى تحصن نوافذ منزلنا مثل السجون .

مايو ٢٠٢٧

جولة فى مومباى

خلال الشهرين الماضيين عملنا جميعا بحماسة منقطعة النظير أعطتنا دفعة غير عادية لإنهاء دراسات التعاقدات لمشروع الإعلانات الذكية. وقد أوكلت مسئولية إدارة المشروع للمهندس خالد صاحب الفكرة الأصلى بالرغم من صغر سنه وقلة خبرته.

وبالرغم من اعتراض كثير من المهندسين فى البداية على التعاون معه كمدير للمشروع فإن خالدا استطاع بذكائه الشديد وتفوقه الواضح فى حل المشاكل الهندسية وكذلك بتواضعه وهدوئه أن يكتسب احترام وتعاون إيجابى من الجميع.

وقد استقر العزم فى النهاية على الشركة الهندية لأنها لم تكن تقلد التكنولوجيا اليابانية كما فعل الصينيون، فالهنود كانوا يملكون تكنولوجيا خاصة بهم ابتكروها وطوروها بأنفسهم. وكانت هذه الميزة تتفق مع الشرط الذى وضعته وهو ألا نصبح فقط مستوردين مستهلكين لهذا التطبيق بل أيضا مصنعين له من خلال اتفاقيات "نقل تكنولوجيا" (Technology transfer) والاستعانة بخبراء هنود لمدة ثلاث سنوات، يقومون خلالها بوضع أسس لهذه الصناعة الناشئة فى مصر وتدريب الفنيين والمهندسين المصريين. وقد وافق خالد على هذا الشرط على مضض، حيث إن الدراسة التى قدمها فى البداية كانت تثبت أن تكلفة الاستيراد والحصول على توكيلات حصرية للأنظمة المنتجة فى الهند ستكون بالقطع أوفر من إنتاجها فى مصر لأسباب عديدة، أحدها للأسف كان التكلفة العالية للتصنيع بسبب عدم كفاءة الفنيين المصريين مقارنة بالهنود.

وقبل توقيع العقود، وكعادة متأصلة فينا نحن المصريين، تمنيت أن أذهب إلى الهند لأزور مقرات الشركة بصورة شخصية لأكتشف المكان والأناس الذين سنتعاون معهم. وعندما طلبت من خالد السفر رفض أن يأخذ على عاتقه المسئولية منفردا، واقترح أن أصحبه ففوجئ برفضى التام دون إبداء مبررات حيث لم أكن أود أن أطلع كائنا من كان على سبب قرار منعى من السفر. وفى اليوم التالى فوجئت بخالد يرسل لى بضعة مواقع على شبكة المعلومات، بعضها خاص بالشركة الهندية تسمح لى بمحاكاة واقعية لسفرى لأرى كل شىء على الطبيعة، بل وأقابل ممثلى الشركة داخل مقراتهم بعد تحديد مواعيد معهم.

قررت أن أبدأ هذا الإسبوع بزيارة مقر الشركة الرئيسى فى بومباى ثم أذهب لاحقا إلى جودبور لأزور المصنع وأقابل مؤسس الشركة أثناء سفر خالد وتوقيع العقد.

اشتركت فى إحدى المواقع التى مكنتنى أثناء ارتدائى لخوذة الحقائق التخيلية من ركوب توكتوك أؤجره ليتجول بى فى أنحاء المدينة. تملكنى الفضول الشديد للتعرف على هذا البلد الذى لم أزره فى حياتى من قبل. الفكرة كانت فى تزويد التوكتوك بكاميرات ثلاثية الأبعاد فى كل الاتجاهات تمكننى، من خلال الخوذة، من رؤية كل ما يدور أثناء السير وكأننى أركب على المقعد الخلفى. وهى فكرة كانت رائجة فى هذه الفترة على مواقع السفر التخيلى والتى لم أجربها من قبل. أدخلت بيانات عنوان الشركة ورغبتى فى استقلال توكتوك من المطار ليتجول بى فى المدينة ثم أدخلت تعريف بطاقتى. بعد دقائق تم تلبية طلبى بعد اختيارى سائقا يتحدث الإنجليزية، لديه مؤهل جامعى وتأهيل مرشد سياحى. أحسست بحماسة شديدة وأنا أقدم على هذه التجربة

ولا أدرى ما إذا كان لهذا علاقة بكلام غريب وصلاح من قبل عن هذا البلد الذى لم أكن أعرف عنه شيئا حتى هذه اللحظة أم لا؟

وجدت فى المقعد الأمامى شابا فى بداية العشرينيات يرتدى قميصا سمنيا خفيفا وبنطلونا بنيا بنفس درجة لون بشرته وصندلا. نظر إلى كاميرا الشاشة التى تعرض صورتى يحيينى بابتسامة مهذبة:

- مرحبا بك مستر نصار. اسمى فينيت، فى خدمتك. سأكون دليلك فى هذه الجولة التخيلية.

ثم قام بتشغيل العداد وهو يسألنى:

- أتفضل يا سيدى الطريق المختصر أم الطريق الذى يمر فى قلب بومباى.

رددت بسرعة مندهشا من علامة الدهان الأبيض على جبهته وإنجليزيته ذات اللهجة الهندية المميزة:

- أريد أولا جولة تخيلية فى بومباى، لذا خذنى من الطريق الذى يمر بوسط المدينة ثم نتوجه بعدها إلى عنوان الشركة المطلوبة إذا كان هناك وقت.

- حسنا، كما تريد مستر نصار.

- بالمناسبة، هل تنطق بومباى أم مومباى كما سمعتك تقولها منذ قليل؟

- مومباى يا سيدى، وهو اسم مشتق من اسم إلهة هندية. ولكن اسم مومباى له أصل ظهر مع البرتغاليين فى القرن السادس عشر وكان ينطق عندئذ مومبايم. وعندما جاء الاحتلال قام الإنجليز فى القرن السابع عشر بتحريفه إلى بومباى. ولكن الاسم الأصلى "مومباى" الذى كان لا يزال شائعا بين الهنود عاد مرة أخرى بصورة رسمية عام ١٩٩٥.

شعرت عندئذ بأننى أحسنت اختيار هذا السائق بالرغم من أنه كان الأعلى كلفة فى الاختيارات، وتيقنت بأن رحلتى فى هذا اليوم ستكون مثمرة.

- يجب أن أعترف بأننى مذهول من وضوح وواقعية الرؤية، وسرعة تناسق الحركة بين الخوذة والكاميرات عندما أتلفت فى أى جهة أثناء سير التوكتوك.

- هذا يا سيدى نتيجة لنظام جديد مبتكر فى الاتصالات المرئية تم اختراعه فى الهند. لن تجد مثيلا له فى العالم كله.

فور خروجنا من موقف المطار وعلى عكس ما توقعت صدمت بمجموعة ضخمة من العشش على جانبى الطريق والتى بالرغم من شكلها القبيح إلا أنها كانت تبدو لى أن وراءها تخطيط مدروس بعكس عشوائيات مصر.

- ما هذه المنازل؟

- منازل سكنية.

- ولماذا هى قريبة بهذا الشكل من المطار؟

- أرجوك كرر مرة أخرى يا سيدى. لا أفهم السؤال؟

- أعنى أن أى زائر أو سائح للبلد سيصدم من هذا المنظر القبيح الذى يستقبله فور نزوله.

- جائز مستر نصار أن لديك وجهة نظر ولكن ليس السائح هنا هو من يقرر الأمور، فهو غير مسموح له بالتصويت فى صناديق الاقتراع.

صمت خجلا مما دفعه إلى الاستطراد بلهجة أكثر تهذيبا:

- يا سيدى، أنا لا أقصد تقليل احترامى لوجهة نظرك ولكن هذه المنازل لها قصة. عندما أرادوا إنشاء هذا المطار الجديد كان يجب أن ينتزعوا ملكية ضخمة لمجموعة من الأراضى. وقد رفض الملاك الصغار عندئذ الأمر وإسلوب التعويضات المقترحة. وقد استلزم الأمر حكومات متعاقبة على مدار خمسة عشر عاما لإقناع

الأهالى والحصول على موافقة البرلمان على نظام تعويض يلائم ظروف المواطنين. ولذلك، وبسبب صعوبة هذا الأمر فهم لم يلزموا سوى الحد الأدنى من الملكية اللازمة وتركوا باقى العشش قريبة من المطار كما ترى.

- لابد أن هناك شخصا مهما يقطن هذه العشش حتى يؤخر إنشاء مطار دولى مدة خمسة عشرة عاما.

- هذا صحيح إلى حد ما، فهذه الطبقة وأنا منها، تمثل أكبر كتلة تصويتية فى الانتخابات.

- أدرى أنه فى بلدنا قد لا يعلم المالك حتى أن ملكيته الخاصة سوف يتم انتزاعها إلا عند التنفيذ.

- طبعا يا سيدى هذا أسرع بالتأكيد. الصين مثلا عندما أرادت إنشاء المطار الجديد فى نفس التوقيت أنهته فى ثلاث سنوات شاملة إجراءات نزع ملكية الأراضى. ولكن الأشياء هنا مختلفة، فهى بالقطع أبطأ ولكنها تسير فى الاتجاه الذى يعتقد الجميع أنه يحقق مصلحة غالبية الناخبين... قد تكون سرعة الإنجاز نتائجها أفضل، لا أدرى.

- هل كل سائقى التوكتوك فى مومباى مثقفون مثلك؟

- فى الواقع... لا يا مستر نصار. أنا لا أسوق التوكتوك العادى بل أسوق فقط توكتوك الجولات التخيلية كمرشد سياحى للأجانب خلال إجازتى الجامعية. والآن بعد تخرجى أعمل مؤقتا بضعة أشهر لحين انتهائى من اختبارات الوظائف والحصول على وظيفة فى تخصصى.

بدأ الزحام يزداد ورأيت أعدادا هائلة من التوكتوك والسيارات القديمة المتشابهة وأعدادا لا حصر لها من البشر مترجلين وعلى عجل. كانت كل السيدات المترجلات ترتدين السارى الهندى وكل الرجال يلبسون مثل فينيت لكن مع درجات

اختلاف بسيطة فى الألوان. البعض كان مظهره مختلفا بسبب اللحية والعمة. كثير من الناس يضعون أصباغا على جبهتهم وأنفهم بألوان مختلفة، وإن بدا لى أن هناك طقوسا ما تتحكم فى الألوان وكثافتها. وكانت هذه أول مرة أشاهد لوحات الأفيال والفئران ذات الصاجات والإلهة ذات الثمانية أزرع ملصقة على الزجاج الخلفى للعربات والتوكتوك. وبالرغم من أن الزحام بدا لى خانقا يحيط به قبح معمارى على الجانبين فإنه بمعجزة ما، لا أعتقد أنها صدفة، كنا لا نتوقف إلا قليلا فى الإشارات ونسير بسرعة ثابتة.

ذهلت عندما وجدت لافتات متسخة لكل شركات الخدمات العالمية المعروفة معلقة على أكشاك صغيرة غير معتنى بشكلها المعمارى الخارجى. قارنت فى ذهنى بين كشك شركة شحن جوى عالمية والمكتب المماثل لها فى مصر الذى كنت أعرفه جيدا فذهلت من المفارقة. كان كل شىء من حولك ألوانه قاتمة وفجة ويبدو غير مكتمل وإن كان يعمل - ويا للغرابة- بكفاءة عالية.

فى إحدى الإشارات اقترب رجل يرتدى ساريا نسائيا ويضع أيضا ألوانا على جبهته وأنفه، يريد الركوب فأشار إليه السائق إلى الشاشة بجواره ففهم أن هناك راكبا تخيليا فابتعد.

- هل هذا الرجل يرتدى ساريا نسائيا؟

- نعم سيدى، فهو "gay"(مثلى).

- ولكنه ليس الأول الذى أراه، فقد شاهدت أكثر من واحد منذ ركبت ولكنى كنت أعتقدهم سيدات دميمات.

- فى الواقع سيدى، مومباى تحوى أكبر عدد من المثليين فى الهند. هم هنا يتعرضون لمضايقات أقل بكثير.

- حسنا، من حيث أتيت وفى معظم الدول المجاورة يخجل المثليون من إظهار هويتهم الجنسية فى الأماكن العامة.

- ...

- ألا تريد الحديث فى هذا الموضوع؟
- لا أبدا مستر نصار، ولكنه موضوع شائك للغاية ويثير كثيرا من المشاكل فى الهند.
- لماذا؟
- لأنه حتى الآن يوجد نص فى القانون لم يتغير منذ الاحتلال يجرم المثلية الجنسية. ومنذ فترة بدأت بعض الأحزاب تنادى بضرورة حذف هذا النص من القانون، ليس فقط بسبب تنافيه مع مبادئ الحريات العامة ولكن لأنه أيضا يتسبب فى جعل هذه الممارسات سرية مما يعوق عمل توعية مناسبة للحد من انتشار مرض الإيدز. فى الواقع هناك انقسام شديد حول هذه النقطة بالذات التى لم يكن يجرؤ أحد على إثارتها منذ عشرين عاما.
- وأنت ما رأيك الشخصى؟
- أنا ، مثل معظم الهنود، إنسان متدين، وهناك كثير من رجال الدين وضعوا تفسيرات لنصوص تحرم مثل هذه العلاقات الشاذة. صحيح أن هناك قلة ترى أن الدين لم يتعرض لهذا الموضوع بتاتا ولكن الثقافة الهندية العامة ترفض العلاقات الغير طبيعية من وجهة نظرها. وبالرغم من ذلك فنحن شعب تمت تربيتنا على تقديس الحرية التى كافح أجدادنا قرنا كاملا للحصول عليها بعد احتلال استمر آلاف السنين. وأعتقد أنه طالما أن هذه الممارسات لم تختف من قديم الأزل فإنه من الأفضل ألا يتم تجريمها حتى يتم معالجة هذا الموضوع بصورة إيجابية. لا جدوى من دفن رؤوسنا فى الرمال، وخاصة وأنه عمليا لم يتم تطبيق هذا القانون منذ عشرات السنين.

أخذت أتأمل حديقة عامة صغيرة وكانت للعجب الشديد نظيفة للغاية. بدأت أمل من المشاهد المتكررة فعدت للحديث مع فينيت.

- لا أفهم كيف تكون الشوارع بهذا الازدحام الرهيب وفى نفس الوقت يكون هناك سيولة مرورية! بالمناسبة ما هو تعداد مومباى؟

- مومباى عاصمة ولاية "مهراشترا" تعدادها حوالى سبعة عشر مليونـا. إذا أضـفت لهـا ضـواحى "نيفـى مومبـاى" و"ثـان" المجاورتين فقد تصل إلى ستة وعشرين مليون نسمة. خامس أكبر متروبوليتين فى العالم.

- قل لى ما قصة هؤلاء الذين يركبون العجل ويحملون خلفهم هذه الصناديق ذات الأكواد الملونة؟

- هؤلاء هم عاملي توصيل الطلبات.

- أى طلبات؟

- كـل مـا يمكـن أن تتخيلـه مـن طلبـات لقـاطنى مومبـاى. فنتيجة للتعداد الضخم لا يستطيع الجميع أن يذهبوا إلى عملهم ويعودوا إلى منازلهم فى نفس التوقيت. أيضا لن يتكمن الجميع من الذهاب لشراء حاجياتهم أو أخذ غذاء فى مكان قريب وقت الراحة. ناهيك على أنه لا يمكن أن توفر مطاعم لهذا العدد المهول من العاملين فى وسط المدينة. ولذلك يتم الاعتماد على هؤلاء الذين يتحركون طوال اليوم على عجل لتوصيل كل شىء بما فى ذلك وجبات الغذاء التى تأتى خصيصا من منازل العاملين فى هذه الصناديق.

- وكيف يجتازون المسافات البعيدة؟

- هم لا يجتـازون مسافات بعيدة بـل هـم يتحركـون فـى منـاطق محددة. فقد يستلزم مثلا إيصال نفس الوجبة خمسة أفراد متتابعين، كل واحد يعمل فى منطقة محددة.

- ولكن لابد من أنه يحدث أحيانا لبس ما مع كثرة تنقل الطلب بين أيد مختلفة.

- هذا مستحيل، مستر نـصار، فنظـام البـاركود ذو النقـاط الملونـة الملصوق على الصندوق مدروس لتفادى أى لبس. صدقنى فى كثير من الأحيان لا يصل الموظف إلى عمله لأى ظرف قهرى

مطارى، ولكن غذاءه وحاجاته تصل فى موعدها بالثانية إلى مقر عمله. هناك كثير من النكات الهندية حول هذا الموضوع.
- ولماذا باركود ملون؟ لماذا لا يكتبون ببساطة العنوان؟
- لأن كل من تراهم يحملون هذه الصناديق أميون لا يقرأون أو يكتبون. هذا نظام هندى مبتكر لمعرفة العناوين والشوارع أثناء السير دون أن تكون متعلما.
صمت قليلا أحاول تصور مدخل تصميم هذا النظام فوجدته شديد التعقيد.

- هل تستطيع أن تذكر لى معلومات اقتصادية عن المدينة؟
- ليس كثيرا مستر نصار ولكننى سأحاول. مومباى هى العاصمة المالية للهند. أيضا هى المركز التجارى والترفيهى، وتعتبر سابع مركز تجارى على مستوى العالم من حيث التدفقات المالية العالمية. بها المقرات الرئيسية لمعظم المؤسسات المالية وكثير من الشركات العملاقة سواء الهندية أو الدولية. وهى أيضا مدينة جاذبة لكثير من الهجرة الداخلية من كافة أنحاء الهند بسبب مستوى المعيشة المرتفع.
- أعذرنى يا فينيت، ولكن منذ أن غادرنا المطار وكل الشوارع متشابهة لا توحى على الإطلاق بما تقوله الآن.
- انظر مستر نصار على يسارك.
نظرت حيث أشار بحماسة إلى مجموعة من المبانى الخرسانية الضخمة التى تبعث على الكآبة.
- ما هذا؟
- هذا مركز أبحاث "بهابها" الذرى.
قالها بفخر شديد لم يمنعنى من التعليق فى تهكم شديد:
- أعذرنى يا فينيت، ولكن مركز العلوم المبسطة للأطفال فى كندا شكله مبهر ومتطور أكثر بكثير من هذا المبنى.
أطرق قليلا برأسه قبل أن يستطرد:

- سيدى، لا يهم شكل المبنى من الخارج المهم ما يفعله الناس بالداخل. لا أدرى ولكننى أعتقد أن ثقافتنا لا تعطى وزنا كبيرا للشكل الجمالى للأشياء. المهم أن تؤدى الغرض منها بكفاءة عالية. أعتقد أنها أولويات ونحن لم نصل بعد مثلكم إلى الاهتمام بالجماليات. نحن لا نهتم مطلقا بالمبانى ونفضل أن نشيدها بأقل تكلفة ممكنة، ونوفر النقود للصرف على الأشياء الحقيقية التى تحدث داخل المبنى. من أى بلد أنت يا مستر نصار؟

- ... مصر.

- حضارة عريقة مثل الهند تماما، وحصلتم على استقلالكم تقريبا فى نفس الفترة، ولكن يبدو أنكم تسبقوننا وبدأتم تهتمون بالجماليات.

- ... يبدو هذا.

مللت من شكل المبانى الكئيبة، فقد كان كل شىء مختلفا وهنديا أكثر من اللازم، حتى الأشخاص فى الإعلانات كانوا يشبهون من يسيرون فى الشارع بعكس الإعلانات التى تعودت عليها فى مصر، والتى تستعين بكل من له ملامح أجنبية ولا يوجد بها كلمة عربية واحدة.

- لقد ذكرت من قبل شيئا عن الترفيه.

- نعم، نحن لدينا "بوليوود" مركز صناعة السينما الهندية التى تنتج أكبر عدد من الأفلام فى العالم.

- هل هى قريبة من هنا؟

- هى ليست فى طريقنا، ولكننا نستطيع أن نذهب إليها فى عشرين دقيقة إذا أردت.

- هل هناك شىء آخر نشاهده هناك؟ شىء يوحى بالترفيه أو شىء به نمط معمارى مختلف.

- طبعا، أستطيع أن آخذك إلى أرقى حى فى مومباى وهو قريب من بوليوود.
- ماذا يوجد هناك؟
- يوجد شاطئ جورو أرقى شاطئ فى الهند. هناك أيضا فيلات كل نجوم السينما وبعض المطاعم والفنادق الفاخرة.
- حسنا، خذنى إلى هناك.
استدار بسرعة إلى اليمين مما جعل عسكرى مرور يقف بعيدا يشير إليه بإصبعه.
تسمر فينيت فى مكانه وقد امتقع وجهه تماما وانتظر العسكرى الذى قدم إليه ينهره بعصبية ملوحا بعصاه.
وأثناء صياح العسكرى كان فينيت يتحدث بسرعة بلهجة مستعطفة وهو يشير إلىَّ فى الشاشة وقد ضم كفيه مفرودين يحركهما بسرعة إلى أعلى وإلى أسفل.
وبعد دقيقة توقف العسكرى عن الصراخ وأشار إليه بالسير وهو ينظر له شذرا، وقد بدا أنه تعطف عليه وسامحه هذه المرة.
- ماذا كان هذا؟
- لا شىء مستر نصار ولكنى انحرفت فجأة دون إشارة فى ميدان رئيسى ولاحظ العسكرى ذلك، وكان يود معاقبتى ولكنه تركنى عندما لاحظ أننى أقوم بجولة تخيلية.
- أنتم تحترمون العسكرى هنا للغاية.
- كما فى كل مكان مستر نصار.
- نعم، كما فى كل مكان... ولكن ألم يكن ليتركك لو أنك أعطيته نقودا.
- أووه مستر نصار. لا، لا، أنصحك ألا تحاول فعل ذلك هنا أبدا، قد تسبب لنفسك مشاكل كبيرة للغاية.

أخذت أنتظر مدة طويلة دون أن يظهر شيئا، وكانت الشمس تغرب فسألت فينيت:

- هل اقتربنا؟
- ماذا تعنى مستر نصار؟ لقد وصلنا منذ عشر دقائق. ألم تلاحظ؟
نظرت إلى حيث يشير فرأيت سورا خرسانيا عاليا للغاية يبرز من أعلاه أطراف بعض الأشجار ونباتات الزينة ويقف أمام بوابته المصمتة بعض الناس.
- ما هذا؟
- هذا منزل "شكور" الممثل العالمى المتقاعد. ألا تعرفه؟
- لا، للأسف... ولكننى لا أرى سوى سورا عاليا.
- نعم، خلفه فيلا رائعة تطل على البحر مباشرة وسط حديقة نادرة الجمال. لقد رأيتها فى إحدى المجلات. كل هؤلاء معجبون ينتظرون خروجه بسيارته ليحيوه ويشاهدوه عن قرب.
- ولكن هل هناك زاوية أفضل نستطيع منها رؤية الفيلا بالداخل؟
- للأسف لا، فالسور العالى يمنع الرؤية تماما.
- لماذا؟
- لأنه يريد الاحتفاظ بخصوصيته، كذلك هو لا يريد استفزاز الفقراء. انتظر قليلا، أنظر هناك على هذه التبة، هذا منزل "شريبال" المغنى العالمى.
- أتقصد هذا السور القاتم هناك؟
- نعم.
- ألا يمكن رؤية أى من هذه الفيلات من أى زاوية؟
- لا أعتقد، فكلها أسوار عالية لنفس الأسباب.
- حسنا، لقد اكتفيت من الأسوار، هل اقتربنا من بوليوود؟
- نعم، هى تقع خلف هذا السور العالى هناك، ولكن للأسف الزيارة ممنوعة الآن.
- حسنا، شكرا يا فينيت لنعود فورا إلى الشركة.
- ألا تريد رؤية شاطئ جورو، إنه مكان فى غاية الرقى.
- هل هو أيضا محاط بأسوار؟

- لا مستر نصار، هو مفتوح، لا يوجد لدينا شواطئ خلف الأسوار.
- حسنا، وليكن بسرعة. قلتها وأنا أنظر للعداد.
انعطف فينيت سريعا بضعة مرات حتى وجدت شارعا أمامى يبدو مختلفا، انتشرت على جانبيه سيارات فارهة ذات موديلات حديثة. كانت هناك مجموعة من المطاعم والبارات التى انتشر أمامها شباب وشابات يرتدون ملابس أوروبية حديثة. لاحظت أن الفتيات لا يرتدين السارى وعلى درجة فائقة من الجمال والأناقة الأوروبية. أما الشبان فلم يكن أى منهم يضع أصباغا على وجهه أو يرتدى صندلا. طلبت من فينيت الإبطاء أثناء السير لأجد محلات ملابس قريبة تحوى أفخم الماركات العالمية. أشار فينيت إلى محل فخم للغاية وهو يقول:
- هذا محل "المليونيرات" حيث تجد به أغلى ملابس فى الهند.
لاحظت أن هذا المحل تحديدا لم يكن به أى من الملابس الأوروبية ولكن ملابس تشبه لبس المهراجا الهندى التقليدى بما فيها القلنسوة المرصعة بماسة فى منتصفها تعلوها الريشة.
- أتدرى مستر نصار! خيوط التطريز الذهبية هذه من الذهب الخالص.
- ولكننى لاحظت يا فينيت أن الشباب الذين رأيناهم منذ قليل يرتدون الملابس الأوروبية وليس الهندية.
- هؤلاء ينتمون إلى طبقة محدودة من الهنود، يمرون بمرحلة عمرية تجعلهم هكذا، ولكن فى النهاية هم بداخلهم هنود. كما قلت لك منذ قليل يا سيدى، لا تنخدع بالمظاهر.
- تتحدث عنهم يا فينيت وكأنك رجل مسن. لاحظ أنك تنتمى إلى نفس المرحلة العمرية.
- نعم سيدى، ولكن أنا من أسرة فقيرة ليس لدى وقت لأمر بما يمرون به الآن.

فى نهاية الشارع كان هناك موقف ضخم للعربات الفارهة. أخذ فينيت ببراعة شديدة يناور بالتوكتوك فى مساحات ضيقة للغاية حتى وصل إلى أبعد نقطة فى الموقف ثم أشار إلىَّ بفخر:

- أنظر مستر نصار، جورو بيتش.

نظرت حولى لأجد شاطئا رمليا تطل عليه هذه المحلات الفارهة. كان الشاطىء يعج بالحياة فى هذا الوقت المتأخر. انتشر مئات من الباعة الجائلين يبيعون زجاجات بها عصائر مختلفة الألوان، وأشياء كثيرة تشبه الحلويات والمثلجات التى كانت تحيط بها كثير من الحشرات بسبب الإضاءة البيضاء. كان هناك أيضا بعض المراجيح التى تشبه كثيرا الساحات الشعبية عندنا والتى اختفت منذ سنوات. وكان العدد الضخم من الأطفال الذين يركضون فى كل مكان وجلوس أهلهم على الشاطئ وسط بقايا الطعام يجعل الشواطئ العامة فى الأنفوشى تبدو مقارنة بجورو بيتش وكأنها منتجع فى فينيسيا.

- هذا هو جورو بيتش؟!

- نعم، مستر نصار.

- ولكنه شاطئ عام؟!

- ماذا تعنى مستر نصار؟

- أعنى أن مستوى المطاعم الفارهة والمحلات الراقية التى تطل على الشاطئ جعلنى أتصور أن يكون جورو بيتش شاطئا خاصا.

- لا يوجد فى الهند كلها شاطئ خاص مستر نصار. الشواطئ ملك الجميع، الفقراء قبل الأغنياء كما ترى.

- حسنا، لنعد أدراجنا يا فينيت ولكن من طريق مختلف.

ابتسمت ونحن نعود إلى قلب المدينة من جديد لأداعب فينيت:

- على الأقل شاهدنا شارعا مختلفا، به عربات فارهة حديثة بدلا من التوكتوك وهذه السيارات العتيقة.

- ماذا تعنى بالسيارات العتيقة يا مستر نصار؟

- أقصد هذه السيارات القديمة وكأنها أنتجت منذ عشرين عاما؟

- مستر نصار، كل العربات التى تراها أمامك هى إنتاج هندى حديث وتعمل بأفضل أنظمة الطاقة البديلة.
- كيف هذا؟ إن موديلات هذه العربات عتيق للغاية.
- هذا بسبب قانون التصنيع الهندى للسيارات. فعندما أرادت الشركات العالمية تصنيع عربات بالهند وضعت الحكومة بعض القيود. أولا أن يتم تصنيع العربات بالكامل فى الهند ولا يتم استيراد مسمار واحد لتجميعه. وبما أن هذا مستحيل بسبب التخصص الشديد والتطور السريع فى هذه الصناعة فقد اشترطت الحكومة الهندية أن يظل الموديل كما هو لا يتم تغييره سوى كل عشر سنوات بالنسبة للشكل والكماليات التى تم إلغاء معظمها. كما ترى الشكل والكماليات لا يعتبرون أولويات بالنسبة لنا، الأولوية أن ننشئ دعائم قوية لهذه الصناعة على المدى البعيد وهو ما فعلناه بكل فخر، مما مكننا من تصدير تلك الموديلات إلى كثير من الدول النامية.
- وهل العربات الفارهة التى شاهدناها أيضا مصنعة فى الهند؟
- لا، هذه عربات مستوردة، عليها ضرائب ورسوم أكثر من ثمنها الأصلى. من يريد الكماليات والمظاهر فليدفع الثمن. كما قلت لك من قبل يا مستر نصار الشكل والمظهر ليسا من أولوياتنا الآن، نحن لا نمتلك هذه الرفاهية.
توقفنا فى إشارة ففكرت قليلا قبل أن أسأله:
- ما هى أولوياتكم إذا؟
فى هذه اللحظة عبر أمامنا طابور من التلميذات فى مرايل بيضاء نظيفة للغاية، يحملن حقائبهن المدرسية فى فخر واعتزاز ويتوجهن إلى إحدى مناطق العشش. نظر إليهن فينيت مشيرا بفخر قبل أن يرد:
- هذه هى أولوياتنا. عندما استقللنا عام ١٩٤٧ كانت نسبة المتعلمين ١٢ بالمائة وكنا ٣٦٠ مليون نسمة. الآن نسبة الأميين ١١ بالمائة ونحن ١,٥ بليون نسمة. صدقنى هذا الأمر لم يكن من

السهل تحقيقه فى ثمانين عاما وتطلب تضحيات من الجميع وأولوية فى توجه الشعب والدولة على السواء. معظمنا يؤمن بالمستقبل. عندما تكبر هؤلاء البنات سيعشن فى هند أفضل وفى الغالب أكثر رفاهية، ولكن الأهم أن يعشن فى هند اختفت منها الأمية.

- ومن الذى سيقوم بتوصيل الطلبات عندئذ؟

ابتسم فينيت وهو يرد:

- سنكون قد اخترعنا طائرات روبوت صغيرة تحلق فى سماء مومباى لهذه المهمة.

صمت قليلا وأنا أتردد فى التعليق.

- أبك خطب ما مستر نصار؟!

- نعم، لا داعى لتوصيلى إلى الشركة، فقد رأيت ما فيه الكفاية وأنا لا أريد التأخر على اجتماعى، سأذهب إليه مباشرة من خلال جهازى الشخصى.

- ولكن يا مستر نصار...

- لا تقلق يا فينيت سأدفع لك تكلفة توصيلى إلى هناك. كذلك أرجو أن تعطينى رقم تعريفك الشخصى على الشبكة لأحول لك مبلغا إضافيا كتعبير بسيط عن عرفانى الشديد بالخدمات التى قدمتها لى فى هذه الجولة. لقد شرفت بلقائك وأتمنى أن نتقابل مرة أخرى، فمن النادر أن أقابل شخصا مثلك... أنا سأبدأ قريبا التعاون مع إحدى الشركات الهندية... من يدرى؟... بالمناسبة ما هى دراستك يا فينيت؟

كان فينيت يهز رأسه يمينا ويسارا مثل البندول وهو يستمع إلىَّ مما أثار ارتباكى. ظننت أنه يعانى من حركة عصبية ولكنه توقف عندما بدأ يجيب:

- لقد درست رياضة بحتة وتخصصى الدقيق هو تصميم النماذج الرياضية لتطبيقات البرمجيات.

- وأين تنوى العمل؟

- أنا أحلم بالعمل فى مركز أبحاث شركة "ويبرو".
- لقد سمعت عنها، هى شركة عملاقة تشبه مايكروسوفت.
ابتسم فى خبث قبل أن يرد فى حياء:
- بل إن مايكروسوفت هى التى تشبهها.
- كما تشاء. سعدت بالتعرف عليك وإلى أن نلتقى.
- إلى اللقاء مستر نصار.

خلعت الخوذة بسرعة وتوجهت فورا للاجتماع التخيلى فى مقر الشركة الهندية متحمسا، مما ساهم فى أن تجرى الأمور على نحو أفضل مما كنت أتوقع. وقبل أن ننهى المقابلة قمنا بتحديد ميعاد لزيارة المصنع فى جودبور ومقابلة مؤسس الشركة السيد سابو العظيم.

لا أدرى لماذا ولكننى قبل أن أخلد إلى النوم تذكرت غريب فجأة. وفى هذه الليلة حلمت بعشرات الأفكار المتداخلة المتشابكة والتى كانت تقود دوما إلى محاولات فاشلة للوصول إلى فكرة محورية. فكنت كلما أشعر بأننى أقترب من نتيجة ما تتوه منى الأفكار تماما لأعود من جديد إلى نقطة الصفر. كان هناك شىء ما لا يزال ناقصا.

يونيو ٢٠٢٧

وحيد مجددا

- لا لن أقبل أن ينتهى كل شيء هكذا من خلال رسالة أو مكالمة هاتفية.
- أنا لا أريد أن أنهى شيئا.
- إذن ما هذا الذى كتبتيه فى رسالتك الأخيرة؟
- أنا أقترح فقط أن نبتعد قليلا حتى نستطيع التفكير بصورة أوضح.
- ما هذا الكلام؟ لماذا لا تقولين لى بصورة مباشرة إنك لا ترغبين فى الارتباط بى!
- ...
- لماذا تصمتين. أنا أنتظر إجابة... هل تقبلين أن نرتبط أم لا؟
- لا أستطيع الإجابة الآن، فأنا مشوشة ولا أعرف.
- وأنا لا أستطيع أن أعيش فى هذه الحيرة أكثر من ذلك. أنا أريد إجابة الآن.
- ما زلت حتى هذه اللحظة لا أستطيع التفكير فى مثل هذا الموضوع.
- ثمانية أشهر مضت ونحن نتقابل ولا تستطيعين معرفة ما إذا كنت أستطيع التقدم لأطلب يدك بصورة رسمية أم لا؟! أنا لا أتحدث عن الزواج. أنا فقط أتحدث عن قبول المبدأ نفسه وليس عن اتخاذ قرار نهائى.
- ...
- لن ينفع أن نكمل الحديث هكذا هاتفيا. أريد أن أراك.
- أنت ترانى على الشاشة.
- لا. أريد أن نتقابل فى أى مكان... الآن.
- لا أدرى، أفضل أن نؤجل المقابلة عندما تكون أقل انفعالا.

- أعدك بأن أكون فى غاية الهدوء عندما آتى. سأمر عليك بعد ساعتين، مسافة الطريق. سأتصل بك من أسفل عندما أصل.
- ...
- أرجوك.
- حسنا، سأكون بانتظارك.

طوال الطريق حاولت تهدئة نفسى دون جدوى فوصلت فى حالة مذرية من التخبط وقمة الانفعال.
عندما شاهدتها ترجلت من السيارة.
- ألن نذهب إلى مكان؟
- لا، لنتمشى قليلا بجوار النيل.

سرنا قليلا دون أن نتبادل كلمة، وبالرغم من قيظ شهر يونيو إلا أن نسمة هواء جميلة جعلتنا نبطئ من خطواتنا قليلا حتى لا نبتعد عن النيل. وجدت نفسى لا شعوريا أمسك بيدها وأدعوها للجلوس على سور لا يرتفع عن الأرض إلا قليلا، يعلو منحدر ضفة النيل. لم أترك يدها وأحسست بملمس كتفها حتى حل علينا الغروب فى صمت دون أن نشعرونحن نهز أرجلنا فى الهواء بين الحين والآخر. كنت أحدق فى النيل يجرى أمامى. تركت انفعالاتى تنسال مع اتجاه سريان المياه التى كانت فى لحظة ما دون سابق إنذار تغير اتجاهها بصورة غامضة إلى الاتجاه المعاكس أو تغوص فجأة دون مقدمات إلى القاع الأسود المجهول. شعرت بأننى منوم تنويما مغناطيسيا وبأن النيل قد ابتلع كل انفعالاتى المتلاطمة بسكونه الغامض ليتركنى صافيا نقيا تملؤنى السكينة.

- هل تحبيننى؟
- ...
- ما مشاعرك الآن؟

- ... لن تفهم أبدا.
- سأحاول.
- أنا لا أدرى ما إذا كانت المشاعر التى أكنها لك هى حب أم شىء آخر... لا أدرى فعلا... لا أستطيع أن أحدد وأنا قريبة منك... وأنت تضغط علىّ بهذا الشكل... أحتاج لأن أبتعد قليلا.
- لماذا؟
- لأننى أشعر أننى أفكر بلاعقلانية ومندفعة وراء شىء قد يكون سرابا.
- ألا تشعرين بما أشعر به عندما نكون سويا؟
- بلى، ولكننى لا أستطيع تفسيره، ولا أدرى إذا كان يصلح ليكون أساسا للارتباط أم لا؟
- لماذا يكون شيئا جليا هكذا ولا تستطيعين تفسيره؟!
ردت بعد صمت طويل وعيناها مرقرقتان بالدموع:
- ...لأننى وحيدة،... ليس لدى خبرة لأحكم... لا يطمئننى أحد على كنه هذا الشعور.
- أنت لست وحيدة،... أنا معك. ألا أستطيع طمأنتك، ثقى بى؟
- هذه هى المشكلة. أنت دوما واثق من كل شىء وتظن أنك تعرف كل شىء. منذ أن تقابلنا وأنت تصر على الربط بين أن نرتبط بصورة رسمية واستمرار علاقتنا. وبالرغم من ثقتك الشديدة إلا أنه فيما يتعلق بى فأنت ما زلت لا تفهم كثيرا من الأشياء عنى وهذا يخيفنى كثيرا.
- تخافين منى؟! منى أنا؟! لماذا؟
- لأننى أخشى أن أنجرف معك فى اندفاعك فنتخذ قرارات مصيرية نندم عليها فيما بعد.
- انظرى لى جيدا، انظرى فى عينى وقولى إنك تخشين ألا يكون ما بيننا حقيقيا.
- أنت لا تفهم شيئا. فى كثير من الأحيان أنتظر منك أن تقول شيئا فتقابلنى بالصمت، وإذا تحدثت تتحدث عن ارتباط مقدس. هناك

إحساس بالأمان أحتاج منك أن تشعرنى بـه وأنت عاجز عن ذلك لأنك ما زلت لا تفهمنى.
- أنا؟! أنا لا أفهمك؟! انظرى فى عينى... أنا الوحيد فى هذه الدنيا الذى يفهمك. الوحيد...
شعرت بخطأى الفادح وأنا أتفوه بهذه العبارة فقد بدأت تتكلم منفعلة ودموعها تنسال:
- أنت على حق... أنت الوحيد... أنا ليس لى أحد آخر ألجأ إليه... ولكن ألم يتبادر إلى ذهنك أن السبب فى هذا... هو أننا تلاقينا سويا ونحن نمر بأزمات متشابهة... عندما التقينا أول مرة لم يكن قد مر أشهر على وفاة أسرتى... أمى... أبى. كانت هذه هى أول مرة أخرج فيها من المنزل... أما أنت فقد كنت لا تزال تحت صدمة وفاة والدك وصديقك والمشاكل التى تحيق بأسرتك. إنها الصدفة التى جمعتنا سويا فى هذه الظروف، وهى فقط السبب فى أننا استطعنا التفاهم بهذه الطريقة، ولا يعنى هذا بالضرورة أننا نصلح كزوجين.
- لا توجد صدف... صدقينى... أنا أيضا كانت أول مرة أخرج فيها،... صدقينى، لقد خرجنا فى هذا اليوم تحديدا لأنه مقدر لنا أن نلتقى سويا... هذه إشارات يعطيها لنا الله لكى نختار طريقنا.
- وماذا لو كان ما بيننا ليس أكثر من مساعدة نفسية قدمها كل واحد منا للآخر؟! ماذا لو كان هذا هو كل ما بيننا؟ ماذا لو كان ما بيننا لا علاقة له بمقومات الارتباط الأبدى.
- لقد مر أكثر من عام الآن على تلك الأحداث. هذا الكلام كنت أتقبله فى البداية أما الآن فلا. ما حدث قد حدث ولا يمكن أن نجعله يفسد الطريقة التى نرى بها الحياة، فكل شىء يحدث له حكمة ما قد لا نكتشفها أبدا... لا يمكن أن تظلى خائفة من المضى قدما!
- ماذا تعنى؟! حتى أنت لا تستطيع الادعاء بأن النسيان سهل. فأنت أيضا أصبحت تخشى من اصطحابى فى السيارة فقد تسرع بدون قصد فأتذكر وأنهار كما حدث فى مرة من المرات.

- ولكننى أصبحت أتحاشى ركوب السيارة لسبب آخر لا علاقة له بك فـ...
- أنت تبسط الأمور وكأنه من السهل علىَّ أن أدعى أن كل شىء على ما يرام والحقيقة غير ذلك. أنا أحاول، أحاول فعلا ولكن الأمر صعب.
- لماذا صعب؟ هذا قرار تتخذينه... تشجعى واتخذيه.
- لا أستطيع ... لا أستطيع أن أنسى يوم ذهبت للـ... يوميا أحلم بكابوس... لا أستطيع تجاوز ما حدث ولا شىء يساعدنى على ذلك... حتى منزلى تركته وأصبحت ضيفة عند أقاربى... وهذه القضية اللعينة التى لا تنتهى والتى أحضر جلساتها كل شهر أو اثنين لأحاول دون جدوى اكتشاف المسئول عن الإهمال الجسيم الذى تسبب فى هذه الحادثة... رسالة الماجيستير التى تأخرت فيها وأحاول بصعوبة إنهاءها فى ميعادها كما كنت أعد والدتى دوما...
- إذا دعينى أساعدك. ثقى فى إحساسك وأعدك أننى لن أخذلك وسأكون بجوارك دوما.
- خائفة... خائفة من اتخاذ أى قرار مصيرى الآن وخاصة معك. أريد أن نبتعد قليلا حتى أنتهى من الرسالة فأستطيع وزن الأمور دون تأثيرك وضغطك علىَّ.
- أنت ترتكبين خطأ فادحا... لا تبتعدى عنى الآن... أنا أحتاج إليك كما تحتاجين إلىَّ.
- خائفة... أرجوك لا تصعب على الأمور.
- حسنا، انس الكلام الذى قلته لك، ولنظل كما نحن إلى أن تطمئنى وتتضح الأمور.
- لا أستطيع... أنت تقولها وأنت لا تعنيها، أنت لا تستمع إلى نبرة صوتك... لن تتضح الصورة لى الآن إلا إذا ابتعدنا قليلا.
- ...
- أرجوك حاول أن تفهم.
- ...

تركت يدى والتفتت إلى الناحية الأخرى لتأخذ نفسا عميقا ثم استدارت لتعطى ظهرها للنيل وهى لا تزال تجلس بجوارى وأنا عاجز عن التوقف فى التحديق فى صفحة المياه الحالكة السواد. شعرت بدوامة تبتلعنى بغتة لأسقط تجاه القاع المظلم دون أن أصطدم بشىء. وددت عندئذ أن أصرخ" لا تتركينى" ولكنى كنت أشعر بدوار فانتظرت حتى ألمس القاع ولكنى واصلت السقوط... السقوط إلى ما لانهاية. وعندما استدرت بعد فترة طويلة عدت مرة أخرى وحيدا.

الصوت الرفيع يرفض تركنا

خلال الأسابيع التالية انكببت على العمل كالمجنون، فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذى أشعرنى آنذاك بأننى أنجز شيئا له معنى بعد فشلى الذريع فى أن أجعل كل من اهتممت بأمرهم يتواصلون معى.

والحق يقال إن حماسة الجميع فى العمل، حتى الذين تشككوا فى البداية فى إمكانية أن تعود هذه الشركة للعمل بكفاءة، قد أفادنى كثيرا فى هذه الفترة. فقد اشترك العاملون بروح جماعية طيبة وبتضحية فائقة بوقت راحتهم، بل وبالصبر العظيم على عدم تلبية كثير من احتياجاتهم من أجل تحقيق هدف اشترك **الجميع** فى صياغته. كانت هناك شحنة إيجابية تسيطر على المكان **لتغيير واقعنا المحبط** لدرجة أننى أصبحت أفضل التواجد الدائم فى الشركة معظم ساعات يومى بين العاملين مع لفظى شبه التام لكافة أشكال الاجتماعات التخيلية.

وقد ساعدنى هذا كثيرا على تخطى محنة افتراقى عن فريدة. ولكننى لم أكن أدرى أن شهر يونيو المقبض سيحمل لى مزيدا من المصائب الغير متوقعة. ففى أحد الأيام تلقيت هذه المكالمة المشؤومة.

- مهندس محمد، أهلا بك مجددا.

- ...

عجزت عن الرد فقد كان على الطرف الآخر هذا الصوت الرفيع البغيض الذى حفر فى منطقة مظلمة من عقلى كنت أتفادى الاقتراب منها.

- لقد وحشتنا ونريد أن نلتقى بك مرة ثانية.

- ...

كنت أنظر فاغرا فاهى من هول الصدمة إلى الشاشة المضاءة بشدة دون أن تظهر بها أى صورة.

- ...

- لا تخش شيئا،إنه مجرد لقاء ودى، نريد فقط أن ندردش معك نصف ساعة. لماذا أنت مرتبك هكذا؟
- ... إنها المفاجأة فقد مر حوالى عام وظننت... ظننت أن ما بيننا انتهى... لماذا تريدون لقائى؟
- ستعرف عندما تأتى.
- ... ولكن ما الذى يضمن لى أنكم ستتركوننى؟
- لا يوجد أى ضمان، ولكنك تعلم أنه إذا كنا نريد أن نستضيفك عندنا بصورة دائمة فلن نستأذنك... لا تقلق ستعود إلى شركتك خلال ساعتين على الأكثر. لا تضيع الوقت، ثق بنا.
- أين سنلتقى؟
- اركب سيارتك وستصلك التعليمات تباعا.

فور جلوسى على مقعد السائق تلقيت رسالة تطلب السماح بتحميل مسار محدد على الشارت بلوتر. أعطيت موافقتى وقمت بتشغيل الأوتوبيلوت. خلال الطريق افترستنى الهواجس المظلمة التى كنت قد بدأت أنساها فى خضم العمل. كنت على يقين من اكتشافهم علاقتى بجيرار وموقع غريب. كان قلبى يدق بعنف متزايد، ورغما عنى عدت لأشعر بالخوف من جديد.

بعد فترة وصلت السيارة أمام أحد مواقع الإنشاءات فى القاهرة الجديدة ليرن الهاتف من جديد.
- أترى الكارافان أمامك أقصى اليمين؟
- نعم.
- أدخل هذه الأرقام على الشاشة فى قفل الباب ثم ادخل ولا تنس غلق الباب خلفك.

ترجلت من السيارة وضغطت على ١٩٦٣. ولجت للداخل وأغلقت الباب خلفى فسمعت المزلاج الإليكترونى يطقطق مرة أخرى.

- تفضل اجلس على الكرسى أمام الشاشة. برجاء أن ترتدى القفاز الموصل بأسلاك فى يدك اليمنى وتضع الطوق على رأسك. من الآن فصاعدا لا تفكر فى إخفاء أى شىء ولا تدلى بأى معلومة أنت غير واثق من صحتها. وعندما لا تكون متأكدا من شىء صرح لنا بذلك. لمصلحتك لا تفكر بالكذب فنحن نعرف كل شىء مسبقا.
- ...
- انظر إلى الشاشة جيدا وقم بالتعليم على كل من تتعرف عليهم من الصور التى ستعرض عليك الآن.

أخذت أحدق طويلا فى صور مجموعة من السيدات المحجبات فى اضطراب بالغ حتى انتهى العرض ويدى الممسكة بالقلم الضوئى ترتجف بشدة.
رددت بصوت خفيض فى تردد.
- لم يسبق لى رؤية أى منهن فى حياتى من قبل.
- هذا غريب جدا،هل أنت متأكد؟ أمعن النظر مرة أخرى؟
تفحصتهن مرة أخرى وأنا أقلب الصور بمزيد من التأنى ثم رددت بصوت متحشرج:
- نعم أنا متأكد.
- نحن لا نفهم كيف لا تتعرف على أى واحدة منهن مع العلم بأن أختك فرح تتصل بهن يوميا منذ شهور! أتريد رؤية التسجيلات؟
امتقع وجهى وأنا أرد بصوت لا يكاد يخرج من جوفى:
- لا، أنا أصدقكم ولكن يجب أن تصدقونى عندما أقول لكم إننى لا أدرى شيئا. ألا يظهر هذا فى تحليل الجهاز الذى أرتديه.
- بلى، يظهر... إطمئن، نحن نثق فى أنك لن تحاول الكذب علينا.
بادرته بسرعة متلعثما وقلبى يخفق بشدة:

- هل... هل هذا سيتسبب فى مشكلة لفرح؟
- نحن نحاول تفادى ذلك، ولهذا دعوناك لتقابلنا، فنحن نثق فى أنك قادر على مساعدتنا فى حل هذه المشكلة.
بدأت أتشبث بهذا الأمل الواهى وأنا أستطرد مضطربا محاولا أن توحى نبرة كلماتى المتسارعة بصدق وعدى:
- طبعا، طبعا سأفعل كل ما بوسعى... ما المطلوب منى بالضبط؟
- أن تجعل فرح تقطع علاقتها بكل اللاتى تخاطبهن على الشبكة بدءا من اليوم.
- حسنا، ولكن يجب أن تقولوا لى من هن تحديدا حتى أستطيع فعل ذلك.
- كل من تخاطبهن. فهى حتى الآن لا تخاطب سواهن.
- ولكن عن ماذا يتحدثن؟ ما المشكلة بالضبط التى يتسببن فيها؟
- حتى الآن هن يحاولن فقط مساعدتها فى مرضها.
- وما الضرر فى ذلك؟
- الضرر فى أن هؤلاء السيدات ينتمين جميعا إلى تنظيم دولى محظور.
- هل هو تنظيم إرهابى؟ يقوم بتفجيرات أو ما شابه؟
- هذه معلومات غير مسموح بتداولها. يكفيك أن تعلم أنهن يخالفن القانون، فهن لم يأخذن موافقة الجهات الأمنية على تشكيل مثل هذا التنظيم.
- ولكن كيف أقنعها بالتوقف عن مخاطبة أناس يساعدونها وأنتم ترفضون أن تتحدثوا بوضوح عن المشكلة التى يتسببون فيها.
- وهل سننتظر حتى يتسببوا فى مشاكل؟ نحن نمنع المشاكل قبل حدوثها، هذا هو دورنا. لن ننتظر حتى يستفحل الأمر ويصعب علينا القضاء عليه بعد ذلك.
- وما المطلوب منى تحديدا؟
- أن توقفها، فأنت أخوها وستستمع لك بالتأكيد.
- سأحاول، ولكننى غير واثق من قدرتى على إقناعها؟!

- لمصلحتها يجب أن تفعل، فحتى الآن نحن نراعى ظروف مرضها.
- حسنا... سأفعل كل ما بوسعى.
- نحن نعتمد عليك ونثق فى أنك ستبذل قصارى جهدك حتى لا تضطرنا إلى استضافة أختك مرة أخرى.
رددت فى تلعثم واضطراب:
- ... أأستطيع المغادرة الآن؟
- نعم، تفضل ولكن قبل أن تذهب يجب أن تجيب على سؤال أخير... هل تعلم شيئا عن موقع "إنليتمنت"؟
- ...

بلعت ريقى الذى جف وشعرت بمرارة عصارة فى جوفى وأنا أحاول الهمس بصوت متحشرج.
- نحن ننتظر الإجابة، صوتك غير واضح.
- نعم،... نعم... أعلم أنه عاد للعمل.
- هل لديك أى معلومات عن مرتاديه؟ هل اتصلت بأى منهم أو حاول أحدهم الاتصال بك؟
- لا.
- هل تعلم عن أى شىء يخططون له بأى صورة من الصور؟
- لا.
- حسنا، تستطيع الذهاب الآن.

وضعت الطوق على المنضدة وبسبب ارتعاش يدى الشديد استغرقت وقتا طويلا فى خلع القفاز.
غادرت ورجلاى لا تقويان على حملى من الاضطراب وعدت إلى المنزل مباشرة.

أثناء طريق العودة أخذت أتصور كل مداخل الحوار الممكنة مع فرح ووجدتها جميعا تنتهى إلى طريق مسدود.
" إذا كان هناك وسيلة لجعلها تتقبل كلاما منى لنجحت فى ذلك من قبل، ولكننى للأسف كنت متيقنا من استحالة إقناعها بشىء." بدأت أفكر بسرعة فى حلول أخرى لمنع هذه الكارثة الوشيكة وكانت كلها تدور حول إنقاذ فرح رغم أنفها عنوة ودون مناقشتها.

فور وصولى إلى المنزل المظلم توجهت مباشرة إلى غرفتها.
طرقت الباب ثم انتظرت قليلا فلم أحظ بإجابة. ألصقت أذنى على الباب فسمعت همسها وهى تخاطب إحداهن.
فتحت الباب بسرعة متوجها إليها وهى مذهولة غير مصدقة لاقتحامى غرفتها بهذه الطريقة.
اقتربت من الشاشة متفحصا السيدة التى ارتبكت من المفاجأة لتشيح بوجهها بعيدا عن الكاميرا وهى تهمس بسرعة:
- أتركك الآن، سنتحدث يا أختى فى وقت لاحق.
أفاقت فرح من ذهولها وبدأت تصرخ:
- كيف تجرؤ على اقتحام غرفتى هكذا؟ كيف تجرؤ؟ من أعطاك الحق لتطفل علىَّ وتقتحم خصوصياتى؟ ألم تر أننى كنت أتحدث إلى إحداهن؟
لم ألتفت إليها و بدأت أنقر بسرعة على الكومبيوتر دون أن أرد.
- ماذا تفعل؟ اترك كل شىء فورا، لا تعبث فى أى شىء. اترك حجرتى فورا. أأنت مجنون؟!، قلت لك لا تعبث فى ملفاتى الشخصية، ماذا تفعل؟ لماذا تقوم بمحو هذه الملفات، أترك كل شىء...
لم أتأثر من علو صياحها الهيستيرى والذى قدمت والدتى على أثره لتتبين الأمر. وواصلت عملى حتى انتهيت ثم أغلقت الكومبيوتر.
- حسنا، لقد انتهيت. الآن يمكننا الحديث.

أخذت والدتى تحاول تهدئتها وأنا على يقين من خلال تعبيرات وجهها الانفعالية وصياحها الغاضب أن المحادثة ستكون قصيرة للغاية.

- فرح، كل اتصالاتك بكل أنواعها مراقبة ومسجلة.

- ...

- لقد تم استدعائى مرة أخرى من قبل الجهة التى احتجزتنا من قبل. كل من تخاطبينهم مراقبون وينتمون لتنظيمات إرهابية... هم يسجلون كل شىء تقلنه.

صاحت والدتى وهى تشهق جزعا:

- يا نهار إسود، هو إحنا ناقصين!

- لقد حذرونى اليوم من أنه إذا لم تتوقفى عن هذا التهور سنعود مرة أخرى حيث تم احتجازنا من قبل، وأعتقد أن هذه المرة ستكون للأبد.

- ...

- إوعى يا فرح... ده إحنا ما صدقنا إنك نجوت بمعجزة المرة الأولى.

- أنا آسف أننى لم أشرح لك منذ أن دخلت عليك ولكن هذا الجهاز لا يجب فتحه فقد يستقبل رسالة ويورطنا فى مصيبة. أنا وضعت شفرة سرية ستمنع أى مخلوق من فتحه ولو بالخطأ. هل تستخدمين أجهزة أخرى؟

- ...

- من فضلك ردى على، هل تستخدمين أجهزة أخرى؟

- ردى على أخيك يا فرح بسرعة، ربنا يهديك.

- ... من الذى أعطاك الحق لفعل هذا؟

- ماذا تعنين؟ حق فى ماذا؟ أنا فقط أحاول منع كارثة قد تدمرنا جميعا.

- من الذى أعطاك الحق لتقرر لى شيئا؟

- فرح، أتفهمين ما قلته؟ أنا لا أقرر لك شيئا. أنا فقط أحاول مساعدتك.
- أبوس إيدك استمعى إلى كلام أخيك.
- من أوحى لك أن أى كلام تقوله سيجعلنى أمتنع عما أنا مقتنعة به.
- ليس أنا من سيمنعك، ولكنهم هم الذين سيوقفونك بالقوة إذا اتصلت بهؤلاء مرة أخرى.
- وبالرغم من ذلك أنا لا أستطيع الامتثال لأمرهم.
- لماذا؟
- لأنه لا يوجد مخلوق يهتم بى غير هؤلاء اللاتى تمنعنى عنهن. هن الوحيدات اللاتى شعرن بى ويحاولن مساعدتى.
- ونحن أيضا نريد مساعدتك.
- هذا غير صحيح، أنت بالذات لا يمكن أن تفهم شيئا ولا تستطيع مساعدتى لأنك عاجز حتى عن مساعدة نفسك. تهرب من مواجهة وحدتك واكتئابك بالاستغراق فى العمل. طوال حياتك وأنت منغلق منطو لا تتواصل مع أحد.
- جائز عندك حق ولكن معاودة اتصالك بهؤلاء الناس لايعنى سوى الانتحار.
- وأيضا انتظار أناس آخرين مستسلمين للاكتئاب مثلك عاجزين عن مد يد العون هو أيضا انتحار. هن الوحيدات اللاتى يفهمننى. معظم هؤلاء السيدات مررن بنفس مأساتى ويعطيننى نصائح لوجه الله.
- لن أناقش هذا الآن لأننى لا أستطيع الحكم على أناس لا أعرفهم ولا أفهم دوافعهم بصورة واضحة. كل ما أطلبه منك أن تتوقفى عن الاتصال بهن لفترة حتى نجد سويا الإسلوب الأمثل للخروج من أزمتك. فأنت إذا اتصلت بهن مرة أخرى بعد هذه اللحظة سيتم استضافتك من جديد حيث لن يعرف طريقك أحد. وبالتأكيد لن

يتركونى أنا أيضا بعد أن خالفت وعدى لهم بأننى سأقنعك بالتوقف، أرجوك استمعى لى مرة واحدة فقط.

- اسمعى كلامه يا بنتى، لا تأتى لنا بمصيبة وأعطى لنفسك فرصة لمراجعة الأمور.

- ... اخرجوا جميعا من غرفتى... اخرجوا، أريد أن أبقى وحيدة... أتسمعون، أريد أن تتركونى الآن... لا أريد رؤية أحد الآن.

أشارت إلىَّ والدتى بأن أخرج وأتركها فلاحظت فرح إيماءتها فقالت لها بحزم:

- أرجوك يا أمى... أريد أن أبقى وحيدة.

- ولكننى أخاف من تركك وحيدة وأنت بهذه الحالة.

- سأكون بخير، لا تقلقى... سآخذ بعض المهدئات وأنام قليلا.

خرجنا ثم جلست مع والدتى نتناقش بصوت خفيض عن تنظيم طريقة للتناوب للاطمئنان على فرح والتأكد من أنها لن تقوم بأية حماقات.

وبالفعل رتبت العمل بحيث أعود للتواجد معظم الوقت فى المنزل. كانت هذه هى الفترة المؤقتة التى بدأت فيها توكيل كثير من المهام الرئيسية إلى خالد. وقد اضطررت فى الأسابيع التالية إلى إعطائه مزيدا من الصلاحيات، وهو أمر تسبب بعد ذلك بسنوات فى نتائج لم أتصور حينها للحظة إمكانية حدوثها.

ولكن يبدو أن كل الأحداث البسيطة التى لا نلتفت إليها فى حاضرنا تشكل بصورة تراكمية بطيئة متشابكة تخطيطا محكما معقدا لا نكتشف حكمته إلا عندما يصبح واقعا حاضرا لا يمكن الفكاك من تلافيفه. وحينها جل ما نستطيعه أن نتمنى معجزة

مستحيلة تمكننا من العودة للماضى لتغيير أفعالنا العفوية الغير مقصودة والتى أدت إلى هذه الكارثة المحتومة.

يوليو ٢٠٢٧

سامحونى

- والله يا محمد لا أدرى ما إذا كان منعها من الاتصال بهؤلاء الناس صواب أم خطأ؟
- ماذا تعنين؟! هذا ليس أمرا اختياريا.
- ولكنك لم تقترب منها مثلى منذ أن عادت. فالحق يقال، إنه بالرغم من كل شيء، فهي لم تتحسن سوى عندما بدأت في التواصل معهن. أما الآن فالوضع أصبح أسوأ بكثير وأعجز حتى عن الكلام معها. أما أنت، فقد أصبحت لا تطيق منك كلمة. نحن أبعدناها عن الوحيدين الذين استطاعوا حقا النفاذ إليها ومساعدتها.
- كل هذا الكلام لا فائدة منه الآن، فنحن حاليا تحت رحمة من هو أقوى. وهذا الباطش قرر عدم استمرار هذه العلاقة، ونحن لا نملك سوى الإذعان والطاعة أو الإصرار على مخالفة أوامره والانتحار. وأنا شخصيا أفضل في الوقت الحالى تفادى أى صدام محسومة نتائجه. الأولوية الآن هى أن نسعى بكل الوسائل لانتشال فرح مما هى فيه. يجب أن نتمسك بموقفنا والحاحنا وألا نيأس أبدا من رفضها الدائم للمساعدة الطبية. ففى اعتقادى أن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذها بعد أن توقفت تماما عن الإصغاء إلينا.
- ولكنك لا تشعر بها مثلى، فأنا أمها. وبالرغم من أنها استجابت لتوسلاتى وبدأت تأخذ صينية الأكل التى نتركها على الباب وتعيدها فارغة إلا أننى أشعر أنها لم تكن أبدا فى حال أسوأ مما هى فيه الآن.
- لا تقلقى، فقطعا مع الوقت ستهدأ ونجد وسيلة لجعلها تستمع إلينا.
- أتدرى أننى لم أرها منذ ذلك اليوم الذى أغلقت فيه على نفسها الغرفة، لدرجة أننى أصبحت أنتظر صراخها وهى تستيقظ فزعة

من الكوابيس حتى أطمئن عليها. أيضا فكرة أن نرغمها على أن تبقى بمستشفى كما فعلنا فى أمريكا لم تؤد إلى شىء سوى أن تتحسن صحيا بقدر ضئيل للغاية وتسوء نفسيا...

- لا أدرى يا أمى ولكن فى لحظة ما يجب أن نأخذ هذا الحل فى الاعتبار ف...

فوجئت بتعبير أمى الشديد الجزع وكأنها رأت شبحا يمر خلفى فتوقفت عن الكلام بغتة لأسألها بسرعة فى ارتباك:

- ماذا؟... هل هناك خطب ما؟

- نعم،... أريد أن أرى فرح الآن.

- هل هناك شىء؟

نهضت أمى وتوجهت بسرعة دون أن ترد إلى الدور العلوى وهى تجرى.

- ماذا هناك؟ اشرحى لى.

لحقت بها فوجدتها تنظر إلى صينية الأكل التى لم ينقص منها شىء وهى تدق بعنف على الباب.

- فرح... افتحى... أرجوك افتحى الآن... افتحى من أجلى... أنا والدتك... أرجوك.

- يا أمى... أنت تعلمين أنها لن تفتح.

- أنت لا تفهم شيئا... أنا متيقنة بأن هناك مصيبة... انظر هى لم تأخذ الصينية كما اعتادت أن تفعل يوميا.

- حسنا... اهدئى قليلا.

بدأت أمى فى البكاء وهى تصرخ بقوة أثناء دقها العنيف:

- افتحى يا فرح... ارحمينى وافتحى... أرجوك... أنا أمك... أرجوك...

- أرجوك تمالكى أعصابك يا أمى... لماذا تقلقين هكذا؟ هى مثل كل يوم.

- لا ليس مثل كل يوم... أنا لدى إحساس بأن هناك مصيبة... اكسر هذا الباب اللعين.

- لا أستطيع فنظام الأمن لن يتيح هذا. إذا حاولت كسر المزلاج العادى فسأتسبب بتشغيل مزاليج إليكترونية من الفولاذ يستحيل كسرها.

- وما الحل إذن...؟! فرح ستضيع ونحن نتفرج.

- ... يجب أن نقنعها لتفتح هى الباب من الداخل بواسطة شفرتها الصوتية.

- ... أرجوك يا فرح... أنا ماما... افتحى الآن فقط وأعدك بأننا سنفعل كل ما تريدينه... إذا كنت تريدين العودة للاتصال بمن تريدينه فلتفعلى... لن يمنعك أحد... فقط افتحى.

أطرقت بأذنى على الباب فلم أسمع أى صوت.

جريت بسرعة إلى المخزن وقد أوقفت بواسطة شفرتى الصوتية نظام أمن البيت بالكامل. عدت بسرعة وأنا أصيح فى أمى:

- ابتعدى عن الباب.

- ماذا ستفعل؟

- سأحطم قفل الباب بهذا المنشار الآلى.

- ألن يتسبب هذا بتشغيل نظام الأمان؟

- لا، لقد أوقفته.

كانت هذه هى أطول خمس دقائق مرت علىَّ فى حياتى. شعرت بالدهر يمر قبل أن أضرب الباب بقدمى فى عنف عدة مرات ليفتح على مصراعيه ولنجد فرح نائمة فى فراشها.

اقتربت والدتى من الفراش فى رعب فصرخت عندما رأت وجه فرح الشاحب وعينيها نصف المقفلة، ثم احتضنتها فى عنف هيستيرى.

أمسكت والدتى بقوة من الخلف لأجلسها فى حزم على حافة السرير وهى على وشك أن تفقد وعيها وتنهار. جسست نبض فرح سريعا فلم أشعر بشىء. استمررت فى محاولاتى اليائسة حتى شعرت فجأة بنبض شديد الخفوت. وجدت نفسى أتصرف بصورة

آلية دون تفكير كما لو أننى رأيت هذا الموقف من قبل، وفكرت فى ملايين السيناريوهات حتى توصلت إلى أفضل تسلسل منطقى من الأفعال. أخذت علب الأدوية الفارغة على المنضدة بجوارها ووضعتها جميعا فى جيبى. وكما لو أنه لا تربطنى علاقة بفرح فقدت تركيزى، قمت بحملها بين يدى بسهولة لأكتشف لأول مرة كم أصبحت شديدة النحول مثل الهيكل العظمى. طلبت من والدتى أن تتمالك أعصابها وتتبعنى بسرعة وأنا أطمئنها أن فرح ستكون بخير إذا ساعدتنى.

- أحضرى لى حافظة نقودى والهاتف من ثانى درج علوى فى مكتبى.

قمت بإعادة تشغيل النظام مرة أخرى بواسطة شفرتى الصوتية لتدق أجهزة الإنذار فى عنف ويتم الاتصال بالإسعاف بصورة أوتوماتيكية. عندما وصلت للباب قمت باستعجال والدتى التى لم تتوقف عن البكاء الهيستيرى. سألت النظام عن أقرب مستشفى طبقا لحالة زحام الطرق فى هذه الساعة. وبعد أن ذكر لى البيانات المطلوبة، وقبل أن أعطى موافقتى لتحميل العنوان على الشارت بلوتر فى السيارة طلبت من والدتى أن تفتح ضلفة الباب على آخرها حتى أستطيع المرور حاملا فرح. وقبل أن أغادر المنزل كررت سؤالى للنظام مرة أخرى عن ثانى أقرب مستشفى بها أفضل عناية مركزة فاقترح مستشفى آخر فى منطقة نائية خارج ضواحى المدينة. أعطيت الموافقة على تحميل العنوان الجديد ثم ركبنا السيارة وتركت والدتى مع فرح فى الخلف.

قمت بزيادة السرعة القصوى فى كل سنتيمتر أتاحه لى الزحام أثناء اتصالى بالمستشفى. أخذوا بيانات الحالة بالتفصيل ثم تأكدت من توافر مكان بوحدة العناية المركزة فقمت بحجزه، وظللت أتابعهم حتى تأكدت من أن استقبال الطوارئ به طاقم ينتظرنا بسرير مجهز.

وصلنا سريعا وتم نقل فرح بسرعة لنصعد جميعا إلى الدور العلوى وأحدهم يسألنا:
- قلت إنها كانت تتناول بعض المهدئات؟
- نعم... وأيضا لم تكن تأكل بانتظام.
ثم أعطيته العلب الفارغة التى كانت بجيبى فتفحصها سريعا وهو يكتب بسرعة قبل أن يعطيها لآخر.
أوقفنا طبيب عند الباب الخارجى للعناية المركزة وطلب منا العودة للاستقبال لاستكمال البيانات وتوقيع التعهد المطلوب ووالدتى تصرخ فى وجهه بصورة هيستيرية. راقبنا السرير يمر من الباب الأول ونحن نتتبعه فى الشراعة الزجاجية حتى مر من الباب الثانى ليختفى تماما. لبثنا دقائق أنا ووالدتى التى لم تكف عن البكاء نراقب فى ذهول الباب. ارتمت والدتى على أقرب مقعد وهى لا تقوى على الوقوف وظللت أنا أراقب الباب المغلق عاجزا فترة طويلة،... أنتظر دون جدوى. توجهت إلى أول كاونتر صادفته فى دور آخر لأسأل عن أسماء الأطباء معها وأتأكد من أنه لا يمكن معرفة شىء إلا بعد أن يخرجوا من الغرفة. عدت مرة أخرى حيث كانت والدتى لا تزال تبكى، وظللت واقفا مسمرا أمام الباب المغلق وأنا أشعر أننى أركض لاهثا لا أستطيع التوقف. بعد فترة طويلة أشارت لى والدتى فجلست بجوارها ثم احتضنتها وقد بدأت دموعى تسيل وأنا عاجز عن التحكم فيها.

بعد فترة طويلة خرج أحد الأطباء مسرعا إلى المصعد فانتفضت من مكانى فى عنف دون أن أترك يد والدتى التى لم تستطع النهوض وقد بدأت تتنفس بصعوبة.
- إذا سمحت حضرتك... كيف حال فرح؟!
تردد الطبيب ثم قال معتذرا بلهجة مهذبة دون أن يتوقف:

- أنا أسف، ولكن لدى حالة طوارئ بأسفل، الدكتور علاء هو الذى يتابعها.

تركت يد والدتى وتبعته بسرعة إلى المصعد الذى طلبه سريعا.

- أرجوك... أنا رأيتك تدخل معها.

- حضراتكم أهلها.

- ... نعم أنا أخوها وهذه والدتها.

- المفترض ألا أفعل هذا ولكن... حسنا، الفحص المبدئى يشير إلى أنه لم يحدث ضرر دائم، فالحمد لله أنكم أحضرتموها سريعا. بالرغم من أنه يبدو أنها لم تكن تضع شيئا فى جوفها سوى المهدئات إلا أنه بمعجزة ما فإن وظائفها الحيوية ظلت تعمل بصورة سليمة. ستبقى تحت الملاحظة وسنقوم ببعض الفحوصات قبل أن يعطيكم الدكتور علاء تقريرا وافيا. أرجوكم ألا تشيروا إلى هذه المحادثة بيننا وانتظروا الدكتور بأسفل.

همست له بصوت خفيض:

- ... لا أستطيع أن أمنع نفسى من السؤال ولكن هل تعتقد أنها كانت تحاول... أنت تفهم... الإ...

اختنقت العبارات فقام الطبيب بالرد سريعا:

- لا،... لا أعتقد أنها كانت تحاول عمدا إيذاء نفسها. فنحن لم نجد ما يشير لذلك ولكنه، فى اعتقادى، نتيجة للامتناع مدة طويلة عن الطعام والأهم عدم الالتزام بالطريقة الصحيحة لتناول الأدوية. لا أستطيع أن أجزم ولكن هناك بعض المؤشرات تؤكد ذلك. وأنصحك بألا تثير هذا الموضوع مرة أخرى وإلا أدخلت نفسك فى متاهات تحقيق نيابة لا داعى لها. نحن من جانبنا نعتقد أن تقريرنا الطبى لن يؤدى إلى فتح تحقيق، إلا إذا أردت أنت طبعا إثارة هذا الموضوع.

عدت للتنفس مرة أخرى بصورة طبيعية ثم سألته مترددا:

- هل أخطأت عندما أحضرت معى علب الأدوية الفارغة؟

- لولا أنك فعلت ذلك لما كنا استطعنا تشخيص حالتها بهذه السرعة. وفى الأغلب ما كنا تمكنا من اكتشاف الإسلوب الأمثل للتعامل مع حالتها سوى بعد وقت طويل لم نكن نملكه.
شكرته بحرارة ثم عدت لأطمئن والدتى التى كانت لا تزال تنتحب قائلة:
- الحمد لله يا رب... الحمد لله...

بعد فترة قابلنا الدكتور علاء الذى أكد نفس الكلام ولكن مع كثير من التحفظ والإصرار على إبقائها تحت الملاحظة انتظارا لنتيجة الفحوصات. ثم نصحنا بالمغادرة والعودة صباح اليوم التالى حيث لم يكن بإمكاننا أن نفعل شيئا لها.

كانت هذه هى أول مرة أتبين فيها أننا ما زلنا بملابس النوم أنا ووالدتى.
- أعتقد أننا يجب أن نعود للمنزل.
- لن أغادر هذا المقعد إلا عندما أراها.
- أنا حجزت غرفة لنا ولكن يجب أن نعود لنحضر بعض الأشياء ليس فقط لنا بل لفرح أيضا، فنحن لا ندرى كم من الوقت سيبقونها هنا.
- إذهب أنت وأنا سأنتظر هنا معها.
- حسنا، ماذا تريدين أن أحضر؟
لبثت قرابة النصف ساعة واقفا أستمع إلى الأشياء وأماكنها لدرجة أننى قاطعتها قائلا:
- لن أتذكر كل هذا، سأتصل بك عندما أصل.
- لا أحمل وسائل اتصال فقد نزلنا على عجل.
- سأترك لك الهاتف وأنا سأتصل بك.

أثناء عودتى أخذت والدتى كل خمس دقائق تتصل بى فى العربة لتذكرنى بشىء، فقمت بتسجيل كل ما تقوله وأنا أرد شاردا دون تركيز.

انتهيت من جمع الأغراض وأجلت إحضار متعلقات فرح حتى النهاية. أخذت أتفحص غرفتها مليا فى انقباض شديد فقد كان كل شيء يوحى بالاختناق. لاحظت أن الثلاجة الصغيرة مفتوحة وممتلئة عن آخرها بالأكل الذى كانت تحضره إليها أمى. وأثناء بحثى عن الأشياء التى طلبتها والدتى وجدت نفسى لا إراديا أقلب بعض الكراسات فى أحد الأدراج بجوار السرير.

أخذت أتصفح الأشكال المخيفة التى رسمت بفحم شديد السواد وأقارنها فى ذهنى برسمها الباعث على التفاؤل فيما مضى. ثم وجدت أحد الكشاكيل وكأنها تعمدت إخفاءه بعناية. كان هناك قلم فى وسط الكشكول فى صفحة بها كلمة واحدة مكتوبة بخط كبير:

" سامحونى".

عدت عدة صفحات للخلف فوجدت بضعة ورقات مكتوب فيها نفس الكلمة والبعض الآخر: "ارحمونى" والبعض:"أتوسل إليكم أن تسامحونى".
جلست على الفراش لأقلب فى ذهول، وعقلى يرفض الاستيعاب، مقتطفات من خواطر فرح منذ أن أفرجوا عنها وقد بهتت كثير من الكلمات لتساقط الدموع عليها أثناء كتابتها.

مقتطفات من خواطر فرح

"... يا لهذه الكوابيس اللعينة التى تطاردنى فى يقظتى ومنامى... لا يوجد مفر منها... لا مفر... ولكننى أستحق كل ما يحدث لى أستحق..."

"... لا أستطيع السيطرة على نفسى... أنفجر غاضبة فى وجهها... لماذا؟ لا تفهم ولن تفهم شيئا... أنا نفسى لا أفهم شيئا... فقط لو تتوقف عن الاهتمام بى وتهملنى قليلا... فقط لو تصرخ فى وجهى..."

"... لن أستطيع تحمل الضوء أكثر من ذلك، فهو يذكرنى بكل شىء... أشعر وكأننى مرة أخرى داخل هذه الغرفة اللعينة... يجبرنى الضوء على المواجهة ولكننى لا أستطيع... لا أقوى... اليوم سأختبأ فى الظلام ولن أخرج أبدا... أخشى كل شىء... أخشى أن أنظر فى المرآة فأكتشف مدى الخسة والضعة التى وصلت إليها... لقد وصلت إلى أسفل الدرك ولا أملك سوى أن أمضى حياتى فى الوحل..."

" أين فرح؟... أين فرح؟... أين ذهبت؟..."

"... لا أطيق مخلوقا يشعر بالشفقة حيالى؟ أود لو أبوح لهم جميعا بالحقيقة... أتعذب كل لحظة حينما أشعر بها تحاول مساعدتى... أود لو أصرخ فى وجهها بكل شىء... نعم يجب أن أفعل هذا... يجب أن أفعل هذا... غدا سأفعله ولن يوقفنى شىء وليحدث ما يحدث... غدا سيكرهنى الجميع تماما كما أكره نفسى... أنا أعلم أن هذا سيريحنى من هذا العذاب... أكيد... لا أدرى...؟"

"... هل يمكن أن يفهموا ويتفهموا؟ اليوم... يجب أن ينتهى كل شىء اليوم... لا أستطيع الاستمرار... اليوم يوم الحقيقة..."

"... لا أفهم شيئا... لا أستطيع التحكم فى نفسى... اليوم بدلا من أن أبوح لها بكل شىء انفجرت غاضبة على شىء تافه لا أذكره... أتمنى أن يختفوا جميعا ويريحونى... نعم أتمنى أن يختفوا جميعا...يختفوا لأبدأ من جديد... ولكن هل يمكن محو ما حدث؟!..."

"... اليوم هو أول يوم أتحدث فيه إلى أحد... أول يوم... أشعر نفسى أحيا من جديد... شخص مر بما أعانيه ويفهمه... شخص يرانى جيدة ويود مساعدتى ويهدينى إلى طريقك يا رب... ساعدنى يا رب... ساعدنى... من يدرى ربما يكون هذا طوق نجاة... من يدرى؟ ساعدنى يا رب فأنا لست بهذا السوء بالرغم من كل ما فعلته... لا لست بهذا السوء."

"... اليوم سنعود ولا أدرى ما إذا كان بإمكانى هذا أم لا... أشعر بأننى أتحسن وقد بدأت التواصل مع أحد يفهمنى ويحاول إنقاذى...أخشى أن أعود إلى نقطة الصفر مرة أخرى... ساعدنى يا رب... ساعدنى...أخشى مقابلته... أخشى المنزل... أشعر وكأننى سأجد شبح أبى هناك... ينتظرنى... ليعاتبنى على كل ما تسببت فيه... يا إلهى لقد بدأت أتحسن... لماذا يجب أن نعود؟..."

"... فور رؤيتى له فى المطار كنت أود معانقته بشدة وأطلب منه أن يغفر لى،... يغفر لى كل شىء ولكنه لا يعلم... لا أحد يعلم... لا أحد... أنا وحيدة... وحيدة... لم أستطع سوى مصافحته ببرود وكأنه السبب فى كل ما جرى... وكأننى لست مذنبه فى شىء... لا أدرى ما الذى يحدث كلما أقترب منه أو من والدتى... وكأن

شيطانا يسكن داخلى يسيطر علىَّ كلما اقتربت منهما لأعذبهما كما أتعذب... وما ذنبهما؟... فهما لم يقترفا شيئا... أنا الذى تسببت فى كل شىء... أنا المخطئة ولا أحد سواى... أنا الوحيدة... أنا حقا وحيدة..."

"... راقبت نفسى اليوم وأنا أصيح فيه وكأننى أشاهد مشهدا لا يخصنى... كنت أود أن أوقف الصراخ ولكنى لم أستطع... كان هذا الجنون بداخلى يود لو يؤذيه حتى آخر مدى... شعرت للحظة أننى قادرة على إيذائه... لماذا؟ هو لم يفعل شيئا... هو لم يتسبب فى شىء ولكنه لا يعرف... لا يعرف شيئا... أنا الوحيدة السبب... كل ذلك بسبب طيشى وانجرافى وراء مشاعرى وأهوائى ونزقى... نعم أنا فاسدة... مستهترة بجنون... ولولا ذلك لما بدأت الاتصال به بهذه الطريقة المجنونة... أطارد فى وله وغباء أكثر شخص مستهدف من قبل الأمن... والمصيبة أننى كنت أعلم... كنت أعلم... ولكن كما لو أن هناك غشاوة على عينى منعتنى من رؤية الشىء المحتوم حدوثه... هو كان يرى هذا ورفض الاستجابة... كان يعلم ويريد حمايتى ولكننى لم أترك له فرصة وحفرت قبرى وقبره وقبر كل من أحببتهم بيدى... أنا السبب... لقد قتلته وقتلت والدى ودمرت أسرتى... والدتى وأخى... واستحققت كل ما جرى لى... كل ما جرى لى ... استحققته... يا ليتنى مت بعد أن اغتلتهم جميعا وأجبن الآن أن أبوح لهم بالحقيقة... اغتلتهم وهم لا يعلمون ولا يزالون يحبوننى ويهتمون بأمرى... بعد أن اغتلتهم... يا ويلى... يا عذابى... ارحمنى... أود لو يكرهوننى... أود لو يكرهوننى ولكنى ما زلت أخاف... أخاف من قول الحقيقة... أخاف على نفسى... فأنا سيئة... شريرة...أجبن من أن أواجههم بالحقيقة... ارحمنى يا رب من هذا العذاب... أرجوك أن ترحمنى..."

"... اليوم نلت ما أستحقه.. أخيرا نلت ما أستحقه... أصبحت وحيدة تماما وفقدت آخر أمل فى النجاة... لا يوجد مخلوق يفهمنى ولن يوجد... أتمنى الاختفاء من حياة الجميع... أكره نفسى وأتمنى الاختفاء... أرحنى يا رب من هذا العذاب...ارحمنى... إذا كنت تستمع لى ارحمنى فأنا لم أعد قادرة على المضى قدما... هذه هى نهايتى...ارحنى وأرح من حولى.. فأنا لم أقصد أن أتسبب فى كل هذا الشقاء ولا أود أن أتسبب لأحد فى مزيد من الشقاء... هل سيسامحوننى... هل سيسامحوننى يوما... هل سيسامحوننى إذا عرفوا كل ما فعلته بهم وبنفسى... سامحونى... أرجوكم... أتوسل إليكم أن تسامحونى."

لا تتركينا!

عندما عدت استقبلتني والدتي بلهفة فقد سمحوا لنا أن ندخل خمسة دقائق لنطمئن على فرح بعد خروج الطبيب. دخلنا وراء الستارة حيث أشارت الممرضة فوجدناها تبدو شاحبة أكثر من ذي قبل، مغمضة العينين والمحاليل والأجهزة تحيط بها من كل جانب. شعرت بجزع والدتي التي شهقت لدى رؤيتها فأمكست بيدها حتى تتماسك. اقتربت والدتي منها لتقبلها وتربت على يدها وتقرأ القرآن.

انحنيت عليها هامسا في أذنها:

- فرح...اصمدي فقد كنت دوما شجاعة... أصغر وأشجع فرد في العائلة... ارتباطك بغريب كان أشجع ما قمت به على الإطلاق...اصمدي...هم الذين باتوا يخشون كل شيء فيدمرون الجميع... هم أضعف من أن يجازفوا... أصبحوا يخشون الشجاعة ويريدون استبدالها بالجبن... أرجوك عودي إلينا فنحن نحتاجك... عودي إلى ذاتك فلا توجد حقيقة سواها... فرح... هل ما زلت تسمعينني؟... هل ما زلت موجودة؟...لا تتركينا... أرجوك...نحن بحاجة إليك... بحاجة إلى شجاعتك...

اختنقت الكلمات وبدأت أبكي في صمت حتى شعرت بقبضتها الواهنة تشد على يدي وقد بدأت تلتفت إليَّ بنظرات زائغة.

أتت الممرضة تطلب منا الانصراف فشعرت بها لا تريد أن تترك قبضتي. ربت على جبهتها لأطمئنها حتى أفلتت يدي.

في اليوم التالي طمأننا الطبيب وأكد أن حالتها مستقرة وأن تحسنها يرتبط أساسا بحالتها النفسية ورغبتها في العودة للحياة الطبيعية. فبالنسبة له لم يكن هناك سبب عضوي يمنعها عن الطعام

واستعادة حالتها الصحية الجيدة. وقبل نهاية اليوم قرروا نقلها صباح اليوم التالى إلى الغرفة مع إبقائها تحت الملاحظة واستمرار إعطائها بعض المحاليل.

كنا ننتظرها بفارغ الصبر أنا ووالدتى وكنت أنظر فى شرود خارج النافذة، أسرح بنظرى بعيدا فى الأفق الممتد والذى كنت قد فقدت الإحساس به منذ زمن طويل فى هذه المدينة الخانقة. كانت هناك بعض الأشجار المتناثرة فى الأفق فى نهاية مساحات ممتدة من الرمال التى كانت تعكس لهيب شمس الصيف الحارقة. لفت انتباهى حركة غريبة فى الأفق فأمعنت النظر لأجد سربا من الطيور. كنت على يقين فى هذه اللحظة أنه أضخم سرب شاهدته فى حياتى. كان يعلو ويهبط فى رشاقة فوق إحدى الأشجار مثل الموجات المتعاقبة التى ترتطم عند الشاطىء. وفجأة اختفى السرب بضعة دقائق ثم عاد ليبعث مرة أخرى من الشجرة ولكنه بدا لى أكبر وأكثر حيوية من ذى قبل. ثم توجه إلى شجرة أخرى لتتكرر الموجة ثم تختفى داخل الشجرة الجديدة. وعندما ظهر مرة أخرى كان أكبر وأكثر إشراقا. تكرر هذا المشهد عدة مرات حتى تحول السرب إلى سحابة ضخمة تراءت لى وهى تظلل الصحراء كلها فى رقة لتسمح بمرور أشعة الشمس اللطيفة من خلال نسمة هواء رقيقة تحيل الرمال القاحلة إلى واحة بديعة. عندئذ غمرنى إحساس داخلى عميق بأن كل شىء سيكون على ما يرام. نظرت إلى السماء فوجدتها تبتسم لى لتطمئننى.

أفقت على صوت جلبة عند الباب المفتوح فرأيتها تدخل على سرير متنقل. ساعدتهم فى نقلها إلى سرير الغرفة وشعرت بها تحاول مساعدتنا.
بعد أن ثبتوا الأجهزة والمحاليل خرج الممرضون فنظرت إلينا فى إنهاك بالغ دون أن تستطيع الكلام.

نظرت إليها والدتى وانهارت فى البكاء مرة أخرى، فقد كانت بالفعل لا تزال شديدة الشحوب.

- فرح؟ هل أنت بخير؟

ولأول مرة منذ أن شاهدتهم يختطفونها تلتفت لتنظر إلىَّ... تنظر إلىَّ مجددا وقد عادت عيناها تلمعان بالرغم من وهنها الشديد. حاولت الكلام فعجزت ولكننى لمحت ابتسامة لا تكاد تلحظ تضىء وجهها المتعب. همست لها وعيناى مرقرقة بالدموع:

- فرح... لقد عدت... لا تتركينا مجددا.

أغسطس ٢٠٢٧

متى ستبدأون؟!

خلال الأسابيع الماضية بدأت فرح في التحسن بسرعة. وبالرغم من عودة الكوابيس إليها من حين لآخر واستغراقها في شرود طويل في كثير من الأحيان إلا أنها كانت تعود إلينا دوما في النهاية. كنت أشعر بأن هناك شيئا أساسيا لا يزال ناقصا حتى تستعيدها تماما ولكنني على الأقل شعرت بأنها تحاول أن تبدأ من جديد. والحق يقال إنها كانت بداية مبشرة أذهلت كل الأطباء. كانت تدفعها رغبة شديدة في التحسن وتستبسل في النضال للخروج من ظلمات سجنها الموحش لتستعيد حيويتها من جديد، وهوأمر كان شديد الصعوبة بعد طول هذه المدة.

استعادت والدتي هدوءها النسبي وعادت إلى عملها مرة أخرى وحاولت إقناع فرح هي الأخرى بالعمل. بل وأخذت تهتم بالحديقة من جديد، وبدا وكأن كل شيء يستجيب للتحسن حتى النباتات عادت لتبعث مرة أخرى بعد أن ذبلت. أما المنزل فقد عاد لإشراقه وأصبحت والدتي تتعمد فتح الستائر جميعها ليغمر ضوء النهار المنزل طوال اليوم حتى الغروب.

أما أنا فكنت كلما أتيح لي الوقت للاختلاء بنفسي كنت أشعر بوحدة قاسية وأعود لأتذكر فريدة محاولا الوصول إلى حكمة أوسبب منطقي لانتهاء علاقتنا بهذه الصورة الغريبة فلا أجد. بدا لي أن هذا الأمر المعلق سيطاردني ما حييت وأنا عاجز عن تفهمه.

وعلى صعيد العمل كانت الأمور تسير كما خطط لها خالد بالضبط. وأصبحت شبه متيقن من تحقيق مشروعه الجديد نجاحات هائلة بالرغم من ظروف البلد القاتمة. وبالفعل فبعد بضعة أشهر سددنا القرض البنكي وديوننا الشخصية. وشعرت والدتي بهذا النجاح المادى فزاد إحساسها بالطمأنينة مما جعلها تعيد النظر فى الاستماع لمقولتى المتفائلة دوما بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

والحق يقال إن خالد كان فى تلك الفترة خير عون لى، يتفانى بإخلاص ويقضى معظم وقته بالشركة ولا يترك تفصيلة مهما صغرت دون متابعة.

- ستضطر للذهاب إلى الهند بمفردك الإسبوع القادم.
- أرجوك يا بشمهندس محمد أن تراجع هذا القرار. أنا ما زلت لا أمتلك الخبرة والجرأة اللازمة لإنهاء تعاقدات بهذا الحجم.
- هذا غير صحيح، طوال الفترة الماضية ونحن معا خطوة بخطوة أثناء المفاوضات والمراجعة. أنت تعلم كل ما أعلمه وعلى دراية تامة بما نريد أن نحققه.
- لن يضير حضرتك شيء إذا أتيت معى.
- لن أستطيع بسبب ظروف مرض أختى. صدقنى لن أستطيع، ولكن لا تخش شيئا فسأكون معك خطوة بخطوة على الفيديو كونفرنس. وأنت ستنقل لى كل ما تراه فى المصانع من خلال ويب كاميرا. لا تقلق من شيء... صدقنى.
بلع ريقه وأخرج زجاجة المياه الصغيرة التى كان دوما يحتفظ بها فى حزامه. وبعد أن رشف رشفتين ارتسم على وجهه شعور بالألم وكأنه تناول شيئا لاذعا.
- قل لى لماذا أراك دوما تحتسى المياه المعدنية التى تحملها فى حزامك؟

- آه... هذا... هذا... بسبب التلوث... أشعر دوما بطعم لاذع فى حلقى فأعجز عن بلع ريقى... أحد مشاكل السحابة السوداء... مهندس محمد، أرجوك أن تراجع نفسك مرة أخيرة.
- لقد فعلت وللأسف هناك استحالة عملية فى سفرى. توكل على الله وسيسير كل شىء على ما يرام بإذن الله.

وبالفعل سافر خالد وقام بزيارة كل المواقع ووحدات التصنيع وأدار المفاوضات بأفضل مما كنت أتوقع، ولكن فى اليوم الأخير وقبل توقيع العقود أصر على ألا يتدخل فى المقابلة النهائية مع مؤسس الشركة ويقف موقف المتفرج دون أى تدخل.

فى ذلك اليوم وقبل الميعاد المحدد قررت، بدافع الفضول، أن أشاهد منزل "سابو العظيم" والمنطقة المحيطة به من خلال كاميرات الأقمار الصناعية. بدأت بمشاهدة قريته من أعلى فوجدتها مشيدة بنوع من الأحجار الحمراء التى تحدد الطابع المعمارى لهذه المبانى التى بدت وكأنها نبتت من هذه الأرض الحمراء. بواسطة الزووم اقتربت من فيلته ذات الطابق الواحد وسط مزرعة صغيرة. لاحظت فلاحين يعملان بالفأس بانهماك شديد، أحدهما طاعن فى السن والثانى شاب فى بداية عقده الثالث.

اقترب وقت الاجتماع فقمت بتشغيل برنامج الاجتماعات التخيلية وأنا أراجع مرة أخيرة نقاط النقاش الرئيسية.

بعد دقائق وجدت الشاشة مقسمة قسمين. القسم الأول يصور غرفة اجتماعات الشركة فى مومباى، حيث خالد مع مديرى الشركة والثانى غرفة استقبال منزل سابو نفسه. بدأ مدير الشركة، الابن، بالتحية ثم أخبرنى بأنه سيبدأ الاجتماع حتى مجىء والده الذى لن يناقش سوى الرؤى العامة المستقبلية. وبالفعل انتهينا من

كل التفاصيل خلال ساعتين فأرسل رسالة إلى والده حتى ينضم إلينا.

تأملت غرفة الاستقبال الخالية فوجدتها متسعة، لا يوجد بها سوى مصطبة مبنية من الطوب على شكل حرف "U". وكانت تتناثر فوق هذه الأرائك الحجرية، التى تسع لاستقبال ثلاثين شخصا على الأقل، وسادات ملونة مزركشة متناثرة ومنحولة القماش بفعل القدم. أما الأرض المبلطة فكانت تشبه الحوائط الحمراء الداكنة ولكن بدرجة أفتح بكثير. لم تكن هناك سوى منضدة خشبية واحدة فى منتصف الغرفة وعدا ذلك لا يوجد أى آثار لأى مقتنيات من أى نوع. ومرة أخرى أثارت انتباهى صورة الفيل الضخم والفأر الصغير وسط كم هائل من الأيقونات والتفاصيل المزخرفة مما حول اللوحة إلى مشهد يصعب استيعابه دفعة واحدة. أما الحائط الجانبى فكان يحوى عددا من شهادات تقدير وأوسمة وصورا لشخص فى مراحل عمرية مختلفة يصافحه أناس تصورت أنهم مسئولون مهمون.

انتبهت على صوت وقع أقدام ثقيلة آت من طرف الغرفة فوجدت رجلا طاعنا فى السن يتبعه شاب يسير خلفه حانيا رأسه فى احترام شديد. جلس سابو وقد ثنى إحدى رجليه تحته وفرد الرجل الأخرى للأرض وهو يتكئ على كوعه وقد مال بجسمه بشدة فوق الشلت المزركشة. كان يلبس جلبابا أبيضا يظهر به آثار بقع عرق ضخمة تحت إبطيه. كان أكثر ما أذهلنى عندما اقتربت الكاميرا من وجهه هو هذا الشعر الكثيف الذى يخرج من أذنه، والذى امتد قرابة العشرة سنتيمترات عموديا على جانبى رأسه.

لاحظ ابنه اندهاشى من هذا المنظر الغريب والتضارب الصارخ بين منظر والده بهذه الملابس الرثة ومنظرى الشديد التأنق فى هذه البدلة القاتمة فقال بسرعة:
- والدى قد أتى مع حفيده فيد مباشرة من عمله فى الحقل ليتعرف عليك قبل أن يوقع العقود.
حيانى برأسه دون أن يتكلم ونظرات عينيه الضيقة تخترق الشاشة لتنفذ مباشرة إلى أعماقى مما جعلنى أشعر بارتباك شديد.

عاد الابن لاستكمال الاجتماع معى وكأن سابو غير موجود. ولولا أنه أوقف ابنه مرتين ليقول تعليقات شديدة الاقتضاب ولكن فى غاية التركيز والذكاء لكنت نسيت وجوده، حتى انتهينا وأنا لم أتحدث معه.

- أعتقد أننا غطينا كل شيء، هل هناك شيء آخر مستر نصار؟
- لا أعتقد شكرا.
- هل هناك شيء آخر يا والدى؟
رد عليه سابو بالهندية ردا مقتضبا فحياه وهو يقول لى:
- سأتركك مع والدى الآن فهو يريد أن يتعرف عليك بصورة شخصية إذا كان لديك وقت.
عجبت من هذا الموقف الغريب فرددت مرتبكا:
- طبعا، طبعا هذا يشرفنى.

عاد سابو لتفحصى مما أربكنى وأشعرنى بأنه يجب قول شيء ما فلم أجد شيئا سوى البدء بمجاملة لا معنى لها:
- منزلك جميل وشديد الاتساع كما يظهر من الخارج... أعتقد أنه أكبر منزل فى جودبور كلها.
- هو منزل بسيط للغاية وجودبور مليئة بالقصور والمنازل الفخمة.

- ولكنه بدا لى أكبر منزل فى هذه القرية.
- بالفعل هو أكبر منزل فى قريتنا الصغيرة من حيث المساحة وذلك لأنه يستقبل أعدادا ضخمة من الفلاحين، أما غرف المعيشة والنوم فلا يوجد بها أكثر من الموجود فى أى منزل لأصغر فلاح فى القرية.
- ... ينم هذا عن تواضع شديد.
- ماذا تأكل يا مستر نصار؟
- ... أعذرنى لا أفهم السؤال.
- كما ترى أنا فلاح بسيط وأرغب فى التعرف على بلدك لأنه لم يسبق لى التعاون مع مصر من قبل. ولهذا السبب طلبت مقابلتك.
- أعذرنى على السؤال ولكن ما علاقة ما آكل بهذا؟
- ما تأكل يشير إلى ما تزرع وما تزرع يجعلنى أفهم الكثير عن طبيعة بلدكم وشعبها بحكم كونى مزارعا فى الأساس. ما هى الأكلة الرئيسية لديكم؟
- الأكل الرئيسى لدينا هو الخبز... ولكننا نستورد القمح.
- قد يضطر المرء فى بعض الأحيان إلى الاستيراد، هذا وارد.
- نحن لا نستورد أحيانا احتياجاتنا من القمح، بل نحن نعتمد دوما على استيراد احتياجاتنا الغذائية الرئيسية، فنحن رقم واحد على العالم فى استيراد القمح.
- ...
- أشعر أنك أصبت بخيبة أمل. ولكننا تعودنا منذ عشرات السنين أن نأكل ما لا نزرع، وهذا يحدث فى كثير من البلدان.
- ...
- أشعر أنك تريد قول شىء.
- أنا لا أستسيغ هذه النظرية وخاصة بالنسبة لدول فقيرة فى طور النمو. فالهند مثلا تكفى كل احتياجاتها الغذائية الأساسية ولا تستورد شيئا، فنحن نأكل ما نستطيع زراعته حتى أصبحنا نحب ما نزرع ليصبح جزءا من ثقافتنا. وقد تحولت الهند فى الستينيات

والسبعينيات خلال "الثورة الخضراء" من بلد تنتشر بـه المجاعات إلى بلد مصدر للحبوب فى عهد أنديرا غاندى.

- اعذرنى على مقاطعتك، ولكن لماذا صار لقبها غاندى ووالدها نهرو؟ هل لهذا علاقة بالمهاتما غاندى ؟

- لا، لا توجد علاقة بين عائلة مهندس غاندى وعائلة نهرو. فأنديرا حصلت على اسم غاندى من زوجها فيروز غاندى.

- حسنا، أرجو أن تكمل كلامك؟

- كما كنت أقول حدث هذا فى عهد أنديرا عندما أطلقت برنامج "الأمن الغذائى" الذى ضاعف فى عشر سنوات إنتاجية القمح ثلاث مرات بخلاف إنجازات أخرى عديدة.

- عشر سنوات فقط لتتحولوا من المجاعات إلى الاكتفاء الذاتى والتصدير، إنجاز غير عادى وخاصة ُعندما تكونون ثانى أكبر بلد فى العالم من حيث التعداد السكانى.

- فى الواقع السبب فى هذا هو أن أنديرا صممت على أن يتم هذا فى مدة قياسية. فالهند كانت تعتمد حينذاك على المعونة الأمريكية الغذائية فى فترة حكم نيكسون الذى كان يبادلها مشاعر كراهية شديدة. وكانت رؤية أنديرا أن اعتماد الهند على أمريكا فى المعونة الغذائية يهدد الأمن القومى فجعلت "الأمن الغذائى" التزاما وطنيا فى برنامج حكومتها.

- ولكن هذا ليس حال كل الدنيا، فنحن لسنا الوحيدين الذين نستورد غذاءنا.

- عندك حق، أرجو ألا تكونوا مثل دول الخليج الذين يفرطون بسهولة فى ثرواتهم المعدنية فتعتمدون على تصدير المواد الخام!

- لا، فالغاز والبترول أصبحا لا يكفيان احتياجاتنا، ومحاجرنا من رخام وجرانيت قد انتهت تقريبا، ولا نملك أية تكنولوجيا خاصة بنا للتنقيب عن ثرواتنا المعدنية.

- إذا بالقطع أنتم تتخصصون فى تصدير تكنولوجيا متطورة أو صناعة ما؟!

- فى الواقع نحن ليس لدينا أى تكنولوجيا متطورة ولا أستطيع القول بأن لدينا مقومات صناعية خاصة.
- إذن، ماذا تمتلكون كميزة تنافسية؟!
- لا أدرى، لا أعرف، هذا غير واضح... بالنسبة لى على الأقل، فتوجه الدولة كان دوما منصبا على التلصيم ومحاولة تفادى المجاعات، ولم ينصب فى يوم من الأيام على اكتشاف ميزتنا التنافسية. فنحن دوما نسمع منهم أن المشكلة تكمن فينا كشعب لأننا نزيد بمعدل غير عادى لا يتناسب مع مواردنا.
- ما تعداد مصر؟
- حوالى مائة مليون.
- ...
- تبدو مندهشا.
- عندما أسمع أحدهم يعتبر مائة مليون نسمة مشكلة أشعر بالفخر أننا نمونا بهذه المعدلات التى أوصلتنا إلى ترتيب عالمى متقدم ونحن تعدادنا مليار ونصف...
- ...
- سيد نصار، أنا دوما أحاول تعلم شىء جديد كل يوم واليوم طلبت أن أجلس معك لأنك أول شخص أقابله من مصر، هذا البلد العريق صاحب حضارة تمتد آلاف السنين تماما مثل الهند. ماذا ستعلمنى اليوم يا سيد نصار؟
- ...لا أدرى،... حقيقى لا أدرى... هل أنت مهتم بالحضارة الفرعونية مثلا... أستطيع أن أتحدث عن الكثير من المعجزات الإنشائية التى قام بها أجدادنا... لا أدرى هل ستهتم بهذا؟
- قطعا، ولكن أليس لديك أنت ما تعلمه لى بخلاف تراث أجدادك؟
- لا أدرى،... لا أعتقد. لا أدرى ما إذا كان لدى شىء؟
- كل شخص فى هذه الدنيا لديه شىء ما لا يملكه غيره.
- جائز، ولكننى لم أكتشفه بعد.
- هذا غير مهم، المهم أن تبدأ البحث. هل بدأت سيد نصار؟

- لا، لا أدرى... لا أعتقد.

- هل تسمح لى بسؤالك عن شيء استوقفنى أثناء اطلاعى على مسيرتك المهنية؟
- تفضل؟
- لماذا فضلت العودة لقريتك الفقيرة بالرغم من تعليمك الجيد؟ ألا تجد هذا غريبا بعض الشيء؟
- لا يوجد تعليم جيد يفرض على كل من تمتعوا به مغادرة أماكن نشأتهم الفقيرة دون عودة.
- ولكنك كخريج علوم، عندما عدت لقريتك الفقيرة، تخليت عن وظيفة فى مركز أبحاث معد لاستغلال إمكانياتك.
- الأصل فى التعليم كما أفهمه هو أن تكتسب مهارات ومناهج التفكير العلمى، تمكنك من إيجاد حلول مبتكرة للمشكلات التى تعوق تنمية المكان الذى نشأت فيه. أما أن تتعلم بمنهج يقولبك ويجعلك ترسا فى منظومة العالم المتقدم فهذا تعليم فاشل لن يؤدى إلى تنمية حقيقية فى بلدك. فهم يسبقونك بمئات السنين ولا تصلح منظومتهم لنهضتك، وأقصى أمل سيكون لديك هو أن تهاجر أو تلتحق بإحدى الشركات العابرة للقارات لتستطيع أن تكون جزءا منها وتساهم فى تنميتها، حتى يستفيدوا هم بدلا من استفادة وطنك بأفضل ما عندك.

التعليم الحقيقى يجب أن ينصب على دراسة وتفهم مواردك وكيفية الاستفادة منها. التعليم ليس مناهج مستوردة تصلح فقط لدولة متقدمة لا تمت لثقافتك بصلة. التعليم الأجنبى يجعلك عاجزا عن تفهم بيئتك والتعامل معها واكتشاف مواطن الضعف بها قبل مواطن القوة.

- ولكن للهجرة ميزات كثيرة عندما يكون بلدك فقيرا بلا موارد، وخاصة عندما تشكل تحويلات المهاجرين أو العاملين بالخارج نسبة كبيرة من الدخل القومى.
- قطعا، والهند خير مثال على ذلك. فبعض المقاطعات الفقيرة تعتمد فى تنميتها على نسبة الهجرة المرتفعة، ولكن شريطة ألا يؤثر هذا على قوة العمل اللازمة للتنمية الداخلية. فالهند، طوال تاريخها، لم تتجاوز نسبة المهاجرين منها فى أى وقت من الأوقات أكثر من ١% من قوة العمل.
- وأنا الذى كنت أظن أن الهند قد خلت من خبراء فى تكنولوجيا المعلومات عندما كان ٧٠% من العاملين بمايكروسوفت فى بدايتها من الهنود. للأسف الحال فى مصر مختلف، فنحن لسنا مليارا ونصف نسمة ونعانى من هجرة جماعية بحيث أصبحنا نعجز عن إيجاد أشخاص مؤهلين للعمل فى مختلف القطاعات. وأيضا لم أسمع مطلقا عن مصريين عادوا لجذورهم فى هذه القرى الصغيرة لينموها. من يتعلم جيدا يغادر القرية دون رجعة ويذهب للعاصمة، أما من ينبغ فهو يهاجر خارج البلد. المشكلة أن المناخ طارد فى بلدنا.
- لا يوجد مناخ طارد. هذا اختيار يقوم به الإنسان.
- لا توجد اختيارات حقيقية عندما تكون فقيرا.
- هذا غير صحيح، فالهند كانت من أفقر دول العالم، وقد تعرضت لمجاعات طاحنة طوال عقود، وكان هناك يأس من إمكانية تحقيق أى شىء.
- وما الذى حدث؟
- كما قلت لك، بعد كفاحنا من أجل حريتنا بدأت مجموعة تبحث عن حلول للمشكلات من جذورها للقضاء على الجهل والفقر. فإذا كنت من خريجى كلية العلوم مثلى، فعليك أن تقوم بإنشاء مركز أبحاث بدائى فى قريتك الفقيرة ليكون نواة فى يوم من الأيام لمركز

علمى ضخم فى المستقبل، وذلك بدلا من أن تشكو مثلا من أن الدولة لا تنشئ مراكز كافية لاستغلال كل هذه الطاقات.
أن تحقق شيئا عظيما خلال حياتك بالمقاييس المادية، ولكنك ستبدأ فى تحقيق حلم يجنى ثماره أحفادك. فطريق التنمية صعب وبطىء ولكن المهم أن تبدأ أول خطوة.
- ولكن فى بعض الأحيان تبدو الأحلام بعيدة، يستحيل تحقيقها، ويتم منعك عنها بالقوة.
- لا يمكن لقوى مهما بلغ بطشها أن تقضى على حرية الحلم لدى الإنسان.
- ولكنك قد لا تكون حرا، قد تكون فى سجن كبير.
- إذن يجب أن تكافحوا من أجل حريتكم، فالهند مثلا بدأت فى النضال من أجل حريتها منذ عام ١٨٥٧ حتى حصلت عليها عام ١٩٤٧. المهم ألا يتوقف الناس عن الحلم وأن يتنفسوا الحرية.
- المشكلة أننا توقفنا عن الحلم لأننا ظننا أننا قد حصلنا على حريتنا وهو ما لم يحدث... نعم لقد توقفنا عن الحلم وأصبحت الحرية سراب أقرب إلى المستحيل.
- لا يوجد حلم مستحيل ولكن توجد إرادة ضعيفة وهدف غير واضح. انظر إلى الرجل فى هذه الصورة، لقد حلم منذ ثلاثين عاما أن الهند ستصبح بلدا مكتمل النمو وإحدى القوى العظمى بحلول عام ٢٠٢٠ وهو ما حدث بالفعل.
تأملت الصورة للرجل الذى يهدي سابو درعا وهو يصافحه.
- من هو هذا الرجل الذى تتحقق أحلامه؟
- هو الدكتور إيه. بى. جى. عبد الكلام رئيس الهند عام ٢٠٠٢.
- لابد وأنه رجل عظيم.
- الدكتور "كلام" رجل فى غاية التواضع، وقد كان صديقا لى، فهو مثلى يأتى من أسرة هندية فقيرة.
- ولكن كيف استطاع هذا الفقير أن يحلم هذه الأحلام الكبيرة؟
- لقد كان دوما يقول لى:

" احلم...، احلم...، احلم الأحلام، لأن الأحلام تؤدى إلى أفكار والأفكار تؤدى إلى أفعال".

- هل تستطيع أن تحدثنى أكثر عنه؟

- هو نموذج لرجل هندى مائة بالمائة، يتلو القرآن والباهجفاد جيتا بنفس الحماسة والاقتناع، ويأتى من أفقر الطبقات الهندية ولذلك فقد استطاع التواصل مع الغالبية العظمى من الشعب.

- ولكن كيف يستطيع رجل فقير أن يصل إلى رئاسة الهند؟

- لقد كان والده يؤجر مراكب صيد صغيرة حتى يستطيع أن يكمل كلام تعليمه الثانوى. وقد تدرج بعد ذلك فى المناصب ليصبح فى الثمانينات مديرا لمشروع أول قمر صناعى هندى وأول صاروخ باليستى، ثم مؤسسا لبرنامج التسليح النووى الذى توج عام ١٩٩٨ بانضمام الهند للدول النووية العظمى. ولمعلوماتك، الهند واحدة من دولتين فى العالم حققتا هذا الإنجاز من خلال علماء من مواطنيها، ومن خلال أبحاث وتكنولوجيا خاصة بها لا يوجد لها مثيل فى العالم. فنحن لم نقتبس أو نعتمد على ما توصلت إليه أية دولة أخرى كما فعلت الصين وكوريا وإيران، لقد كنا دوما نعتمد على أنفسنا.

- لابد وأن الدكتور " كلام" قد استمر فترة طويلة حتى يحقق كل أحلامه.

- لا لقد كان رئيسا لفترة واحدة فقط، تلته بعد ذلك براتيبها باتيل أول رئيسة للهند عام ٢٠٠٧.

- إذن، كيف حلم بأشياء تحققت بعد عشرين عاما؟

- أولا: الرئاسة فى الهند منصب شرفى. فنظريا الرئيس لديه سلطات واسعة، ولكن عمليا رئيس الوزراء ومجلس وزرائه هم الذين يتمتعون بصلاحيات تنفيذية لهذه السلطات. ثانيا: رؤيته كانت مصدر إلهام لكثير من طوائف الشعب المختلفة، وبالتالى لكثير من

صناع القرار في هذا البلد الذين كان يجب عليهم تبني أحلام الغالبية العظمى. بالطبع لا تظن أننا نعيش في مدينة فاضلة أو أننا لا نعاني من فساد سياسي. ولكننا بالتأكيد نسير في اتجاه تنموي. لقد تحدثت كثيرا، وهذا ليس من طبعي ويصيبني بالإجهاد، أرجوك حدثني أنت قليلا عن رئيسكم الحالي.

- هو بالتأكيد يختلف عن الدكتور عبد الكلام، فهو رجل أعمال شديد الثراء.

- وماذا كان يعمل قبل توليه الرئاسة؟

- لقد عمل في مؤسسات مالية عالمية بالخارج، وعند عودته إلى مصر عمل في مجال الاستشارات المالية أثناء خصخصة القطاع العام المصري وفي تسويق بيع ديون مصر، وعضوا منتدبا لبعض البنوك والشركات، وفي مجالات أخرى عديدة لست متأكدا منها.

- يبدو أنه رجل أعمال ناجح للغاية. ما سر هذا النجاح في اعتقادك؟

- لا أستطيع الحكم، فقد كان دوما شديد التكتم فيما يتعلق بنمو أعماله وأعمال أسرته، بالرغم من اتساع نشاطها لتشمل كل القطاعات، ولسبب ما تجاهل كل الشائعات التي أحاطت بالشركات التي يرتبط بها وحجمها وفضل الصمت وعدم التعليق، وبالتالي فمن الصعب عليَّ وانا لا أملك معلومات كافية أن أجيبك على هذا السؤال سوى أنه بالقطع إنسان ذكي ونشيط.

- وماذا كان نشاط أسرته؟

- في الواقع، لم يعرف عن والده الراحل سوى أنه كان من رجال المؤسسة العسكرية وأصبح رئيسا للجمهورية بعد اغتيال من سبقه. ولا أعتقد أنه كان يمارس أية أنشطة قد تؤدي إلى أي ثراء من أي نوع. هو أيضا كان يتكتم بشدة حول هذا الموضوع بالرغم من تكاثر الشائعات حوله.

- إذن فرئيسكم الحالي هو إبن رئيسكم السابق.

- نعم، فالأسرة الحاكمة فى مصر مثل نهرو وابنته أنديرا وأعتقد ابنها راجيف أسرة ممتدة فى الحكم.
- وهل كان يحارب الأب ابنه عندما أراد خلافته فى المنصب؟!
- قطعا لا، فالابن عندما بدأ بالعمل السياسى بدأ بالالتحاق بالحزب الحاكم الذى يرأسه والده، وفى خلال مدة قياسية أصبح المحرك الخفى له واللاعب الرئيسى الذى لديه كل الصلاحيات مع وجود كافة إمكانيات الدولة مسخرة لتلبية طموحه السياسى. بالعكس فالأب أثناء حياته كان يساند ابنه، والابن استفاد بالقطع من منصب الأب أثناء حياته، أو على الأقل هذا ما ظهر لنا بالرغم من التعتيم الإعلامى المتعمد، ولكن لماذا تسأل هذا السؤال؟
- لأنك أشرت للتشابه مع أنديرا ووالدها، فبانديت نهرو قد عارض بشدة عندما انتخبت كرئيسة للكونجرس، لأنه خشى أن يخلق هذا نوعا جديدا من السلالات الحاكمة. وقد وصف ترشحها بأنه "عمل غير ديمقراطى وغير مرغوب فيه". ولكن أنديرا التى كانت تعاند والدها بشخصيتها السياسية المستقلة تمادت فى سياسات كثيرة لم يوافق عليها نهرو حتى رفض تماما أن تتقلد أى منصب فى مجلس وزرائه، وهى لم تستطع أن تترشح إلى منصب رئاسة الوزراء سوى بعد وفاته بعامين.
- ولكن هذا لم يمنع من أن تستمر أسرة نهرو، حسب معلوماتى فى العمل بالسياسة والسيطرة فى كثير من الأحيان على مسرح الأحداث. أنت لا تدرى أبدا ماذا يفعل الحزب الحاكم عندما يكون فى السلطة، كل تلاعب ممكن أن يحدث أثناء الانتخابات، فعادة ما يصر الحاكم على أنه أدرى بمصلحة الشعب من الشعب نفسه ولهذا يتم تزوير الانتخابات. أو كما يقولون فى مصر إننا لم نتأهل بعد كشعب للديمقراطية، ولذلك فهم يحاولون منذ سبعين عاما أن يتدرجوا بها، ولكننى والحق يقال أشعر أننا نتقهقر للخلف. هذا يحدث فى كل مكان وزمان وبالتأكيد يحدث لديكم فى الهند.

- أولا أسرة نهرو – غاندى متواجدة الآن فى المعارضة بنفس قوة تواجدها فى حزب الأغلبية. هذه الأغلبية التى تتأرجح بسرعة بين مختلف التيارات. فمن يحظى بالأقلية اليوم سيصبح غالبية غدا. هذه هى حال السياسة فى الهند، سلسلة طويلة من التقلبات السياسية وعدم استقرار الأوضاع. وفى رأيى الشخصى أن هذه المنافسة السياسية القوية أفادت الهند كثيرا، أما فيما يتعلق بالتلاعب فى الانتخابات فهذا مستحيل أن يحدث فى الهند.

- اعذرنى، ولكن لا يوجد مستحيل فى السياسة، كل شىء جائز.

- إلا هذا. الشعب فى الهند يختار ممثليه الذين يحظون بشعبية حقيقية بإرادته الحرة وبأعلى نسبة تصويت فى العالم، وكل من انتخبوا تقلدوا مناصبهم ليتباروا فى تنمية بلدهم وخاصة الطبقة المتوسطة التى تمثل غالبية الناخبين. ومن فشل فى تحقيق هذا الهدف أثناء حكمه سقط فى الانتخابات التالية.

- أنا آسف يا مستر سابو، فأنا غير مقتنع بما تقول، هذا يبدو لى صعب تحقيقه فى هذه الدنيا. ألم يحدث من قبل أن اتهم مرشح فشل فى الانتخابات مرشحا آخر فى السلطة بالتلاعب فى النتيجة.

- نعم، لقد حدث هذا مرة واحدة فى تاريخ الهند عام ١٩٧٥ عندما كانت أنديرا رئيسة وزراء. فقد اتهمتها المعارضة بالتأثير على نتائج الانتخابات وذلك بعد سلسلة طويلة من الانتهاكات الدستورية للانفراد بالسلطة أثناء قلاقل ما بعد الحرب.

- وماذا حدث عندئذ؟

- حكمت المحكمة على أنديرا بعزلها من منصبها وعدم الترشح لمدة ست سنوات.

- أرأيت؟ يحدث هذا فى كل مكان، استغلال قوة سلطة الحكم للتأثير على إرادة الشعب.

- انتظر حتى أنتهى يا سيد نصار. استأنفت أنديرا ضد الحكم ولكن المعارضة تحالفت عليها وطالبوا باستقالتها ونظموا إضرابات ومسيرات حوطت مبنى البرلمان ومسكنها الشخصى،

وأعطى وزير الداخلية الذى كان ينتمى إلى المعارضة الأمر بعدم إطلاق النار على منظمى الإضرابات الغير مسلحين.
- وماذا حدث عندئذ؟
- أقنعت أنديرا الرئيس بإعلان حالة الطوارئ لفرض الأمن طبقا للدستور. واستمرت حالة الطوارئ حوالى عامين.
- وماذا حدث خلال تلك الفترة؟
- فى خلال أشهر وبمساعدة ابنها سانجاى غاندى تم القبض على كل رموز المعارضة وإخضاع كل المعارضين من الشعب بقوة البوليس. أعداد هائلة من الاعتقالات دون محاكمات، ورقابة صارمة على كل وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية. استخدمت أنديرا فترة الطوارئ للانفراد التام بالحكم وعزل كل المعارضين من مناصبهم وتعيين كل من كان يدين لها بالولاء بصورة شخصية حتى خلت الساحة تماما من أى صوت مخالف مؤثر.
- يذكرنى هذا بشيء أعرفه جيدا. أرأيت هذا يحدث فى كل مكان؟
- اصبر قليلا مستر نصار. فى عام ١٩٧٧ أجرت أنديرا غاندى الانتخابات مرة أخرى بعد أن استتب الأمن فى البلاد. اعتقدت أنديرا حينئذ أن تاريخ كفاحها هى وأسرتها، وسجنهم جميعا من أجل الاستقلال وإنجازات "الثورة الخضراء" فى عهدها، وتحسن المؤشرات الاقتصادية وانتصارها فى حرب ١٩٧١ وقهرها لأى صوت معارض، أمور ستضمن لها الفوز بلا جدال.
- وماذا حدث حينئذ؟
- منيت بهزيمة ساحقة، ولم تفز هى نفسها أوابنها بأى مقعد.
- ...
- كانت هذه هى الفترة الوحيدة التى مرت فيها ديمقراطية الهند بمحنة، وقد أحس الشعب الهندى بالخطر ففضل الديمقراطية على الديكتاتورية صاحبة الإنجازات الغير مسبوقة.
- ولكننى أذكر أن أنديرا تم اغتيالها وهى رئيسة للوزراء.
- نعم، فقد عادت إلى الساحة السياسية ليتم انتخابها عام ١٩٨٠.

- ولكن كيف حدث هذا؟
- لقد كانت شخصية قوية وسياسية محنكة وتعلمت الدرس جيدا. فهي كما قالت بعد ذلك أثناء اعتذارها للشعب الهندى إنها عندما فرضت حالة الطوارئ وأقصت المعارضة عن الساحة أصبحت لا تسمع حولها سوى التمجيد بمدى عظمتها وإنجازاتها الغير مسبوقة لخدمة الهند. وقد أدى هذا إلى انقطاع تواصلها مع الناخبين وهو أمر كانت تجيده فى السابق باقتدار. فلم يكن مهما بالنسبة للهنود أن يعملوا بتحسن مادى ملموس فقط بل كان يهمهم أن يشعروا دوما أن صوتهم مسموع لدى من يمثلهم، والذى يجب أن يشعر بنبضهم حتى يستطيع أن يخدمهم على الوجه الأكمل. تماما كما هو المفترض فى أى بلد ديمقراطى. ألا يحدث هذا لديكم يا سيد نصار؟
- ليس بالضبط، فللأسف الصلة بين الحاكم والشعب مقطوعة، بل إن تخيل فكرة أن رئيسنا الثرى شديد الأناقة ذا المظهر الأجنبى يخدم غالبية الشعب المطحون الذى يتحكم فى بقائه تبدو لى مشهدا كوميديا. كذلك للأسف يتم السماح بالانتقاد من قبل الإعلام المستقل لتفريغ شحنة الغضب المكبوت، ولكن يوجد تدمير لأى صوت معارضة حقيقية مؤثرة. فالساحة السياسية لا يوجد بها سوى فرد واحد فقط وليس حتى حزب.
- هذا شديد الخطورة يا سيد نصار، ولا يجب أن يسكت الشعب على ذلك. فنهرو مثلا بدأ بتطبيق تعاليم غاندى وتخلى عن حياته المرفهة، وارتدى الملابس البسيطة وعاش طوال حياته يطوف فى أفقر قرى الهند كناشط سياسى. فلا يعقل أن تنتخب الأغلبية الفقيرة شخصا يعجز عن التواصل معها وتفهم قدراتها واحتياجاتها. كل من عملوا بالحياة السياسية الهندية ونجحوا فعلوا ذلك. أسرة نهرو كلها فقدت ثروتها تماما منذ عهد أنديرا.

أما عدم وجود معارضة فهو أشد الآفات فتكا بالديمقراطية. أتدرى أنه فى قمة شعبية نهرو، حينما لم يكن ينتقده مخلوق، ظهر صحفى

فى إحدى صحف كلكتا ينتقده بشدة. وقد عجب الناس حينئذ من هذا الصحفى الذى ينتقد "جوهرة الهند" واصفا إياه بعجزه عن التعاون مع من يخالفونه الرأى وجذبه للعمل معه من هم أضعف منه وأقل كفاءة. وكانت دهشة الناس تنبع فى المقام الأول من أن هذه المقالات اللاذعة أشارت إلى أخطاء حقيقية ارتكبها نهرو وإلى بعض العيوب فى أدائه كسياسى. فكانت هذه هى أول مرة ينتبه فيها الناس إلى أن "تجلى التضحية بالنفس" كما كانوا يطلقون عليه هو بشر مثلهم يخطئ أحيانا ويجب تقويمه. وقد اكتشف الناس بعد ذلك بسنوات أن هذا الصحفى المجهول الذى كان يوقع باسم "شناكيا" ما هو إلا نهرو نفسه الذى كان يكتب أروع مقالات نقد ذاتى ظهرت فى التاريخ.

- حسنا، يا مستر سابو لقد أقنعتنى، ولكن ألا يمكن فى المستقبل مثلا أن يقوم من هو فى السلطة بالتأثير على نتيجة الانتخابات بصورة أو بأخرى؟

- لا أحد منا يتمنى هذا، وأعتقد أننا كشعب لن نسمح بحدوثه.

لا أدرى لماذا كنت أتشكك فى ذلك اليوم بقوة فيما يقوله سابو، وكأننى أجد مسألة نزاهة الانتخابات أمر يستحيل تحقيقه. ولم أتحقق إلا بعد ذلك بسنوات من صدق ما يقول. فقد كان بالفعل التلاعب فى النتائج مستحيل من الناحية العملية، وهو ما جعل الهند دوما أكبر ديمقراطية فى العالم.

- حسنا، قبل أن أتركك لتستريح يا سيد سابو، ما النصيحة التى تستطيع أن تقدمها لى ولبلدى فى جملة واحدة؟

- لا يمكننى تعليمك شيئا يفيد بلدك وأنا لم أره مطلقا، هذا مستحيل. كل ما أستطيع قوله عن تجربتى الشخصية فى تنمية قريتى الصغيرة فى جملة واحدة هو:

"التعليم، التمسك بحرية الاختيار، ووحدات الإنتاج الصغيرة،
كانوا دعائم تنمية قريتى المحبوبة."

- شكرا، سيد سابو. هل تسمح لى بالاستعانة بك فى المستقبل فى استشارات أخرى لا علاقة لها بالتعاون المهنى بيننا؟
- فى أى مجال؟
- فى مجال التنمية فى بلدى الصغير مصر.
- فى أى وقت ترغب فيه سيد نصار، سيكون هذا من دواعى سرورى. هل هناك شيء آخر؟!
- لا شكرا، هل تريد أنت أن تقول لى شيئا؟
- فقط ابدأ.

* ...

شعرت بالإجهاد من كل ما أثارته هذه المقابلة فى ذهنى المنهك وقررت الانصراف. لاحظت أن حفيده لم يتفوه بكلمة منذ أن بدأنا الحديث ولكنه لم يتوقف عن الكتابة بالقلم الإليكترونى طوال الجلسة، وذكرنى هذا بخالد الذى كنت قد نسيت وجوده تماما فقمت بسؤاله سريعا عما إذا كان يود أن يضيف شيئا قبل إنهاء المقابلة، فأجاب بالنفى وعلى وجهه علامات التأثر الشديد.

لا أدرى لماذا، ولكن بعد أن أغلقت الشاشة تذكرت صلاح حربى.

الألم

صببت المياه الباردة على وجهي حتى أفيق، ثم غسلت أسناني وأنا أنظر للمرآة. تأملت ذقني التي طالت أكثر من المعتاد فقررت أن أبدأ يومي بحلاقتها. كنت من الناس الذين لايزالون، لسبب مجهول، يصرون على حلاقة ذقنهم بالطرق التقليدية، فلم يستعملوا قط وسائل إزالة شعر الذقن الدائمة. ليس فقط لأنها باهظة التكاليف، فقد كنت أستطيع تحمل تكلفتها، ولكن فكرة أن أقوم بتغيير شيء ما في جسمي بصورة دائمة كانت تبدو لي فكرة مرفوضة. فلابد أن لهذا الشعر الذي ينبت كل يوم حكمة ما، هل أخطئ بحلاقته كل يوم؟! جائز.

تأملت ماكينة الحلاقة اليدوية مندهشا من استمرار إنتاج مثل هذه الأداة الأثرية. بالقطع سيأتي اليوم الذي تندثر فيه هذه العادة الأزلية التي تستغرق وقتا مهولا من حياة الإنسان دون معنى. بدأت وأنا أرغي الصابون بنكهة الليمون أحسب عدد الدقائق التي أقضيها في الحلاقة اليومية ثم ضربتها في عدد أيام السنة. احتسبت إجمالي الأسابيع التي أضعتها في الحلاقة منذ مولدي فذهلت من هذه المدة الطويلة الذي قضيتها في هذا العبث.

تذكرت فجأة جملة عم جمال:" والله يا بيه زمان كنت اقعد أستخدم الموس شهور لحد ما يبقى تلم ويعورني". تأملت الشفرة الجديدة ثم تفحصت الأمواس القديمة التي وضعتها جانبا تمهيدا للتخلص منها. التقطت أحدها لأتأمل الشعيرات الصغيرة العالقة بين حد الأمواس الثلاثة. غسلتها بالماء الساخن وأنا أهزها بعنف قبل أن أقوم بتركيبها في ماكينة الحلاقة. قررت عدم استخدام صابون الحلاقة فغسلت وجهي بالماء الساخن وأنا أنظر في تصميم إلى المرآة.

وضعت الشفرة على ذقنى، وبدأت فى حرص شديد تحريك حد الأمواس التلمة من أسفل سالفى الأيمن نزولا إلى إتجاه ذقنى. دققت النظر فى المرآة وأنا أشعر بالألم لأكتشف أن ذقنى كما هى لم تنقص شعرة. تفحصت الماكينة فوجدت الشعر القصير يبرز بين الأمواس فقمت بهزها مرة أخرى بعنف لعل شيئا يسقط ولكن الحوض ظل نظيفا كما هو. قررت أن أزيد الضغط قليلا بيدى المرتعشة فشعرت بألم أرغمنى على التوقف. نظرت إلى المرآة مرة أخرى بإمعان فاكتشفت أن الجزء الضئيل الذى قمت بتمرير الموس عليه لا يزال يحمل أطرافا قصيرة واضحة من الشعر. قمت بغسل وجهى آملا أن تكون هذه شعيرات مقصوصة ملتصقة فقط بوجهى ولكن للأسف لم تختف أى منها.

صممت فى هذه اللحظة أن أمضى حتى النهاية، فقررت، ويدى المرتعشة تكاد ترفض الاستجابة، زيادة الضغط على نفس الجزء، مما أشعرنى بألم لا يحتمل انتفض له كل جسمى. وبدلا من التوقف وجدت نفسى فى عصبية شديدة أعيد تمرير الشفرة عدة مرات على نفس المكان حتى انتهيت من حلاقة مساحة لا تزيد عن سنتيمتر مربع أسفل السالف الأيمن. شعرت بأزيز ألم دائم فى رأسى كله وأنا أتأمل جانب وجهى مرة أخرى فوجدت النتيجة مقبولة، وإن كانت بعض الشعيرات لا تزال تقاوم السقوط. كررت المحاولة لأشعر بالألم المميت يتصاعد.
لاحظت أن أقصى إحساس بالألم كان دوما عند بداية احتكاك الموس مع الجلد. يبدو أن عقلى أثناء الصدمة الأولى كان يرسل إشارة عصبية لأشعر بألم فظيع حتى أتوقف. وعندما يدرك عقلى عجزه عن منعى من الاستمرار يقوم بتخفيف الإحساس بوطأة الألم تدريجيا. دق قلبى بعنف وأنا أتخيل مقدار الألم الذى يجب أن أتحمله حتى أنتهى من كل ذقنى ونصف رقبتى.

غسلت الماكينة مرة أخرى ثم كتمت نفسا طويلا، ودون تردد قمت فى ثبات بتكرار حك الموس بسرعة فائقة فى عصبية شديدة دون مراعاة لأى اتجاه وبدون لحظة توقف أو تردد. بدأت خيوط رفيعة من الدماء تنسال من بثور حول فمى ورقبتى وخدى الأيمن. لم أشعر مطلقا بأى معاناة من الجروح لأن الإحساس بألم الحلاقة نفسه فاق أى إحساس آخر.

انتهيت فى غضون دقائق فتنهدت بقوة مطلقا زفيرا عاليا بعد دقائق مؤلمة من كتم الأنفاس. خلال هذا الزفير الطويل شعرت بأننى أفرغ شحنة ألم تفوق بمراحل الألم العضوى الذى تسببت فيه الأمواس التلمة. شحنة ألم كانت موجودة بداخلى منذ فترة طويلة لم أدر عنها شيئا حتى هذه اللحظة. شحنة ألم لم تكن تخصنى فقط بل تخص كل من حولى من الذين أقابلهم كل يوم. شحنة مشتركة من معاناة البشرية جمعاء وليس فقط بؤس عم جمال الذى كنت أفكر فيه خلال تلك اللحظة. وأثناء هذا الزفير تيقنت للحظة فى سعادة غامرة بأن لدى أيضا القدرة على التخلص من كل هذا الألم الدفين إذا أردت. ولكننى أدركت أيضا أننى لن أسعد مطلقا وأنا وحيد، فأحسست لحظتها برغبة جامحة تدفعنى لمساعدة الآخرين فى التخلص من ألمهم. طبعا لم أفكر فى الوسيلة ولكننى كنت متيقنا أنها متاحة بين يدى تنتظر أن أستعملها.

غسلت وجهى، ولاحظت أن هناك شعيرات طويلة لا تزال موجودة فى أماكن غريبة على ثغرى. ولكن أكثر ما أزعجنى هو تحول خيوط الدماء الرفيعة إلى مسارات عريضة بصورة جعلتنى لا أتبين مقدار الضرر الذى لحق بوجهى. وعندما عجزت عن إيقاف سيلان الدماء قمت بتجفيف وجهى وكتم الجروح بالفوطة حتى تبينت ثلاث بثور مفتوحة بخط عرضى تنسال منها الدماء

ببطء. تناولت زجاجة عطر ما بعد الحلاقة ورششت على وجهى لأقفز متأوها من الألم.

نظرت إلى وجهى مرة أخيرة فبدا لى مقبولا.

خرجت من الحمام لأقابل فرح أثناء نزولى للمطبخ لتناول الإفطار فبادرتنى منزعجة:

- إنت جرحت نفسك بشدة، ما الذى حدث؟
- لا شىء. جرح بسيط، لا تقلقى.
- كيف حدث هذا؟ أنت ما زلت تنزف.
- لا تقلقى هذا بسبب الحلاقة... ثوان وسيتوقف... سأمسحه بعد ذلك عندما يتجلط... لا تقلقى.

بدأت أرتدى ملابسى وقد غمرتنى السعادة. والغريب أننى خلال ذلك اليوم استشعرت شحنة عظيمة من الإقبال على الحياة. بدا لى كل شىء أثناء خروجى هذا اليوم وسط الناس أكثر إشراقا وتفاؤلا عن ذى قبل. أحسست يومها بأن لدى قدرة فائقة على أن أستشعر كل ما يدور حولى كل لحظة فأحسست بكل شىء من حولى... حى... حى جدا.

أكتوبر ٢٠٢٧

خليفته

خلال تلك الفترة وبجانب متابعتى للعمل ومحاولتى لقضاء وقت مناسب مع أختى ووالدتى بدأت أقرأ كل ما تطوله يدى عن تجارب الدول الناجحة فى مجال التنمية. والغريب أن أكثر ما وجدته متشابها مع ظروفنا كانت مشاريع تنموية فى الهند وبنجلاديش. أخذت أقرأ بنهم محاولا، دون جدوى، إيجاد مدخل لتطبيق مثل هذه التجارب فى مصر. شعرت أن حجم المشكلات وتشابكها وتعقيدها يجعلك عاجزا عن الإمساك ببداية الخيط. فكنت كلما وجدت مدخلا جديدا أصطدم بمشكلات معقدة متفاقمة تحبطنى، وخاصة أن كثيرا من المعوقات ارتبطت بالنظام السياسى المسيطر، والذى كنت أرى أنه من العبث التفكير فى إصلاحه. رويدا رويدا بدأت همتى للقراءة تفتر وانشغالى بهذا الموضوع يتضاءل لعجزى عن إيجاد منهج يؤدى إلى نتائج ملموسة.

عدت مرة أخرى للانغماس فى العمل والاعتناء بأسرتى الصغيرة، وبدأت خلال تلك الفترة أفكر جديا فى معاودة الاتصال بفريدة. كنت أمر بهذه المرحلة المتذبذبة بين رغبتى فى إحداث تغيير ما حولى وبين التركيز على حياتى الشخصية الضيقة إلى أن أتى ذلك اليوم.

كنت أجلس فى سيارتى منذ مدة فى إحدى الإشارات عائدا من المكتب. أحسست بحركة غريبة على يسارى فالتفت لأجد فى ممر ضيق، مشهدا لن أنساه ما حييت. كان هناك رجل يصيح فى ولد وبنت، وقد بدوا لى جميعا، بسبب ثيابهم المهلهلة، متسولين محترفين. كانوا قد انزووا فى هذا الركن المظلم ليتشاجروا بعيدا

من أعين المارة فى الشارع الرئيسى. وبالرغم من الظلام الدامس تبينت الرجل وهو يصيح بعنف شديد فى الطفلين اللذين لم يتجاوز عمرهما الأربعة أعوام.
انكمشا أمام الرجل وهما يحاولان باستماتة اختراق الحائط بظهريهما، ليهربا من بطش هذا الوحش المخيف. كان الغضب يتطاير من وجهه بصورة جعلتهما ينظران إليه فى هلع وقد بدآ فى البكاء الهيستيرى انتظارا لافتراسهما دون رحمة.

وبسبب زجاج العربة العازل للصوت لم أستطع تبين كلمة من صياحه، وإن بدا لى أنه يتوعدهما بشدة. أحسست بأعين الرجل تلمع بشدة فى الظلام قبل أن يخرج فى حركة مفاجئة من جيب جلبابه المهلهل شاكوشا حديديا. رفعه عاليا مباغتا الطفل الصغير لينهال على رجله بضربة قوية، بدت لى بالرغم من سرعتها الفائقة وكأنها استغرقت الدهر كله قبل أن تهوى على قلبى لتدميه. طار الطفل وهو يصرخ من الألم فاصطدم بالحائط الجانبى فوقع منه شيء صغير وهو يهوى على الأرض. وفى ثانية خاطفة جرت الطفلة والتقطت الحزمة الصغيرة الخضراء الملقاة بجانبه ثم مدت إليه يدها تساعده على النهوض وهو يبكى ويصرخ من الألم. تحامل فى صعوبة ليتكئ على كتفها وقد تناول منها الحزمة الصغيرة ليخرجا من الممر إلى الشارع الرئيسى وهما يبكيان بحرقة.

توجها إلى السيارة خلفى ببطء بسبب مشى الصبى على رجل واحدة وأخذا يدقان النافذة وهما يلوحان بحزمة الجرجير المبللة بدموعهما المنهمرة.

راقبت هذا المشهد كالمشلول، ولم أتنبه لفتح الإشارة إلا عندما بدأ العسكرى يشوح لى بعصبية شديدة لتعطيلى المرور. وجدت نفسى

أمضى رغما عنى مدفوعا بالكلاكسات الحانقة، ولم أجد مكانا للركن إلا بعد فترة طويلة عدت بعدها ركضا وقلبى لا يزال يدمى لأبحث عن الطفلين.

اجتاحتنى فى عنف الأحاسيس المقبضة التى كانت تعذبنى دوما فى مثل هذه المواقف دون سبب واضح، وتذكرت الطعنات التى شعرت بها دوما وأنا أتجول بين المتسولين الذين يحملون الأطفال الرضع. أخذت هذه المرة وأنا أجرى فى كل مكان بحثا عن الطفلين أحاول أن أفسر سبب هذا النزيف الموجع الذى أشعر به فى صدرى. لم يكن الموضوع له علاقة بحساسية مفرطة كما كنت دوما أظن. فى هذا اليوم لمست شيئا مختلفا تماما وأنا جالس فى سيارتى الفارهة أراقب ما يحدث فغمرتنى انفعالات أكبر من كل هذه المشاعر الصغيرة، بل أكبر من الدنيا كلها.

وصلت وأنا أنهج وتوجهت فورا إلى عسكرى الإشارة الذى كان ينهرنى عندما عطلت المرور.

- إذا سمحت، هل رأيت طفلين يتسولان فى هذه الإشارة؟
- لا.
- كيف لا؟! لقد كانا هنا منذ دقائق.

نظر لى باستغراب شديد بسبب انفعالى الغير مبرر:
- هل سرقا منك شيئا؟
- لا،... لا ولكننى... حسنا انس الأمر... أين يتواجد المتسولون عادة فى هذه المنطقة؟
- لا أدرى... هم بالقطع لن يسمح لهم باجتياز هذه الإشارة بسبب أناس مهمين يقطنون هذه الناحية. ابحث عنهم فى هذا الاتجاه.

أخذت أركض حيث أشار وعيناى تبحثان فى كل الاتجاهات.

أحسست بانفعالات تجتاحنى مثل الطوفان وأنا ألهث ركضا أثناء بحثى. أحسست بشعور طاغ يطرد كل ما عداه من أحاسيس فلا يبقى سواه. هو حالة لا يمكن وصفها بالكلمات لأنها أكبر من كل شىء ومن أى معنى. وبالرغم من الألم العظيم الذى كان يعتصر كل ذرة فى جسمى فإننى لم أشعر من قبل أننى حى إلا عندما لاوقته، بل ولم أشعر بأننى مؤمن بالله إيمانا كاملا إلا عندما غمرنى. ولأول مرة ألمسه بداخلى ينادينى ليهزنى ويزلزلنى.

هؤلاء الأطفال، مثلهم مثل باقى الإنسانية، خلفاء لله فى الأرض. ولأول مرة أدرك أن ما كان يدمى قلبى لم تكن بالقطع مشاعر الشفقة تجاه هؤلاء المنبوذين بل فجيعتى وأنا أراقب فى استسلام انحدار الإنسان إلى الدرك الأسفل دون أن يحرك أحد ساكنا. **تخيل مشاعرك وأنت ترقب "خليفته" مغطى بالوحل، يدهسه الجميع دون مبالاة ودون التفاتة. إنه الشعور ذو الاجتياح الأعظم. وفى هذه اللحظة لن ترغب فى شىء من هذه الدنيا سوى أن تستجيب لهذا النداء فتحاول أن تؤدى الأمانة التى فطرها الله فى قلبك فتجاهد لتعيد إلى من سجدت له الملائكة بأمر الله مكانته التى تليق به.**

- ألم تر طفلين يمران من هنا؟
- لا، ولكننى أحتاج إلى علاج.

قالها وهو يرفع يده الممسكة بكيس شفاف ملىء بسائل أصفر يخرج منه أنبوبة مطاطية، تختفى نهايتها تحت ملابسه.

ولأول مرة أدرك الهدف من وجودى على الأرض، والذى بالرغم من استيعابى لضآلته الشديدة، لعجزى عن التأثير فيما حولى، فإنه أشعرنى بقوة عاتية من جراء يقينى بأن الله معى. هذه القوة هى التى تجعلك تشعر بأن الطريق الذى يجب أن تسير فيه لإعلاء قيمة

العدل والحق ورفع الظلم البيّن عمن خلق فى "أحسن تقويم" هو طريق حتمى للحياة لا بديل له، فقد كنت حتى هذه اللحظة أتصور أن فعل الخير هو أمر اختيارى يقترن بمدى سعة قلب الإنسان ورغبته فى البذل، مدفوعا فى معظم الحالات بدافع الشفقة أو الرغبة فى ضمان الجنة.

وبدأت أفهم الحكمة فى جعلى أكثر حظا من هؤلاء الأطفال المنبوذين دون أن أختار أو أعمل لأستحق هذا الفضل. فهناك حكمة إلهية عادلة تقضى بأن ما سنحاسب عليه، نحن الأوفر حظا، يجب أن يتناسب مع ما أنعم به علينا. وبالتالى فإذا خلقنا فى مكان محدد على الأرض، ومن حولنا ظلم لا يطولنا يقع على الروح الإنسانية المقدسة، فيجب أن نفكر مليا فى سبب وجودنا فى هذا المكان بالذات حيث نشاهد يوميا اغتيال الإنسان بأبشع الصور الممكنة دون أن نحرك ساكنا. وعندئذ يجب أن نستوعب السبب الذى جعلنا الله نحظى بكل هذا الحب والنشأة الطيبة دون أن نفعل شيئا يبرر استحقاقنا لهذا التفضيل. هل هو فقط لكى نصبح نحن أنفسنا فى أفضل صورة كما أرادها الله؟! أم أن هناك ما هو أبعد من ذلك، ألا وهو أن نصلح ما حولنا من خلل يشوه ويدمر خلقه منذ لحظة خروجهم إلى هذه الدنيا غير العادلة. قطعا أنا مطالب بحمل أمانة أكبر بكثير من هؤلاء الأطفال البؤساء، وقطعا سيحاسبنى الله إذا فرطت فيها وتقاعست عن حملها حتى لو لم أقترف أنا نفسى ذنوبا نهانا الله عنها. فاجتناب الذنوب فى هذه الحالة غير كاف لأنه يعبر عن حالة سلبية هيأتها لنا ظروف حياتنا المرفهة.

- ألم تر رجلا ومعه طفلان صغيران، ولد وبنت؟
- بلى.
- أين؟ بسرعة أرجوك.

- اشتر منى هذه الورود أولا.
- حسنا... خذ النقود.
- هذا ثمن وردة واحدة... اشتر على الأقل اثنتين.
- خذ النقود، واحتفظ بالورد، أين هم؟
- هم ذهبوا جميعا من هذا الاتجاه منذ عشر دقائق.
- ألا تدرى أين يذهبون؟
- لا، فهذه أول مرة أرى فيها هذين الطفلين.
- وما علاقة الرجل بهما؟
- أتقصد سرنجة؟!... لقد نشبت بينهم مشادة فى الصباح لتعديهما على منطقته، وقد حكم عليهما أن يعملا بضع ساعات ويأخذ ما كسباه ثم يغادرا دون نقود أو بضاعة حتى يتعلما ألا يتعديا على منطقته بعد ذلك.

أحسست بضعف شديد، تزايدت حدته تحت وطأة ظلم وقهر سرنجة، وكأنه أخذ منى أنا حصيلة ما تسولته. احترت أمام هذا الإحساس حتى أدركت أننا جميعنا نأتى من نفس المصدر، الله جل جلاله، لنشترك فى رباط مقدس يربطنا جميعا منذ لحظة ميلادنا حتى نعود إليه مرة أخرى يوم القيامة. هذا الرباط المقدس يجعلك تشترك فى الإحساس بالألم الذى يصيب من حولك وكأنه يصيبك أنت شخصيا. ولكى تخلص نفسك من هذا العذاب الذى بالقطع سيؤلمك لو أنك تحيا حياة حقيقية فيجب أن تفعل كل ما بوسعك لرفع الظلم عن البؤساء المستضعفين. وبدأت تتجلى لى حقيقة أن الرغبة فى التخلص من هذا الألم الذاتى ومن عبء الإحساس بعبث الوجود هو المحفز الأساسى للاستجابة لتلبية هذه الصرخة بداخلى؛ وليس التعاطف مع هؤلاء المنبوذين كما كان يهيأ لى من قبل. فالتعاطف معناه أنك تفعل ما تفعله من أجل الآخرين وهذا ليس صحيحا. فكل ما تفعله منبعه الأساسى الرغبة فى الوصول إلى خلاصك الذاتى من عذابك وألمك. هذا الألم الذى، فى بعض

الأحيان، يفوق آلام الإنسان المقهور نفسه، وذلك نتيجة لعدم وعيه بكل أبعاد مأساته وابتعاده عن أصله الإنساني.

لمحت فى نهاية الشارع هيأة رجل خمنت أنه سرنجة. كان يتوجه نحو فتحة ضيقة فى سور عال. جريت نحوه بسرعة قبل أن يدلف من الفتحة ويختفى عن نظرى حتى وصلت إليه لاهثا أتصبب عرقا، ولا أستطيع أن أتنفس دون أن أشعر بآلام موجعة وكأن سكينا يخترق صدرى وينفذ من ظهرى كل مرة أحاول فيها أخذ نفس عميق.

- سرنجة؟

التفت بسرعة مدهوشا ثم بدأ يتفحصنى فى ارتياب شديد وأنا أنهج.

- لقد رأيتك عند الإشارة ومعك طفلان صغيران... أتدرى أين أجدهما؟

- ...

- لا تخش شيئا، أنا فقط أريد...

توقفت عن الكلام فجأة عندما وجدته يمد يده داخل جيبه لأتذكر بغته الشاكوش الحديدى. وجدت نفسى أرجع خطوات إلى الخلف وقد بدأت علامات الخوف تظهر علىَّ.

تلفت حوله ففعلت مثله لأجد نفسى وحيدا معه فى هذا الركن المنزوى من الشارع. شعرت بقلبى يدق بسرعة وأنا ألمح فى عينيه نفس النظرة الميتة التى كان يرمق بها الصبى وهو ينهال عليه ضربا. لا شعوريا رفعت يدى أمامى وكأنى أصده عن اندفاعه وهو لا يحرك ساكنا. تراجعت للخلف خطوات فى ارتباك فتعثرت حتى كدت أقع على ظهرى. تماسكت قليلا وأنا أثبت نظرى على يده التى كانت متيبسة داخل جلبابه.

- اهدأ... اهدأ... سأغادر الآن...

أخذت أبتعد وهو يثبت نظره على دون أن يحرك ساكنا ثم استدار فجأة ودلف بسرعة من الفتحة الضيقة ليختفى نهائيا.

توقفت عن التقهقر وأخذت أتأمل السور العالى وأنا أحاول أن ألتقط أنفاسى بصعوبة شديدة.

" لعنة الله على هذه الأسوار التى أعجز عن اجتيازها."

تذكرت أن المرة الوحيدة فى حياتى التى أمضيت فيها يوما على الجانب الآخر كان مع غريب. شعرت بالحنق الشديد وأنا أتأمل هذا الحاجز الطويل والذى لا توجد به سوى هذه الفتحة لعبوره. شعرت بخوف عظيم يمنعنى من الاقتراب ثم بدأ عقلى يصور لى أنه لا يوجد شيء يمكن فعله فى الناحية الأخرى سوى المخاطرة بحياتى دون نتيجة. تذكرت فجأة اليوم المخيف عندما كاد الأطفال أن يودوا بحياتى فى أحد الأزقة.

آثرت السلامة وقررت الاستسلام والعودة إلى السيارة. ولأول مرة أشعر أثناء تأملى لمثل هذه الأسوار بالضيق و العزلة الشديدة. وشعرت أن انعزالى داخل مجتمعاتنا المرفهة الضيقة يجعلنى لا أرى ما يتسبب فيه نمط حياتنا المترف من تدمير للإنسان، خليفة الله، الموجود على الجانب الآخر. وفى هذه اللحظة، عند هذا السور، تيقنت أننى لن أنعم أبدا براحة البال وبحياة هانئة هادئة منعزلة عما حولها. وأدركت عندئذ ولأول مرة أن هذه العزلة الاختيارية التى عشت فيها طوال حياتى هى الشقاء بعينه لأنها عزلة عن الله. وعندئذ تيقنت بأننى قد استعدت مرة أخرى بداية الخيط.

- تفضل يا باشا، لقد مسحت لك السيارة.

أثناء إخراجى للنقود سقطت ورقة صغيرة مطوية وبدا لى أنها كانت محشورة منذ زمن طويل فى محفظتى دون أن أدرى. وجدت بها العنوان الغريب لـ "البلينا" فتذكرت الرجل الذى أعطاها إياى على الفور. وفى هذا اليوم تحديدا وقبل أن أنام وبعد أن انتهيت من صلاتى كنت قد وضعت خطة للعمل.

صالح حتى البارحة

وصلت إلى المحطة فى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل. كانت هذه هى أول مرة أركب قطارا فى مصر منذ أكثر من عشرين عاما وأول مرة فى حياتى أذهب إلى محطة الجيزة. كان ميعاد القطار بعد ربع ساعة، وقد حجز لى التذكرة فى هذا الميعاد أحد العاملين بالشركة الذى لا يزال يذهب شهريا إلى قريته فى الصعيد. وقد اقترح علىَّ أن أذهب إلى الأقصر ثم أستقل أى وسيلة نقل أخرى للوصول إلى العنوان النهائى.
وبدلا من شكره على مساعدتى نهرته بسذاجة شديدة على حجزه الدرجة الأولى بالرغم من إصرارى الشديد على أن يرتب لى حجز درجة ثانية أو ثالثة. وقد فوجئت فى ذلك اليوم باستمرار العمل بالتذكرة الورقية فى عصرنا هذا، واكتشفت لاحقا أنها لم تكن سوى البداية فى رحلة مليئة بالمفاجآت الحقيقية.

استوقفنى تصميم المحطة العتيق الفخم المتأثر بالمعابد الفرعونية. ولعجبى الشديد فقد وجدت المحطة مزدحمة ازدحاما شديدا وعشرات من الناس يقفون أمام شباك الحجز ينتظرون أن يعيد أحدهم تذكرة ليأخذوها. يبدو أن كل من يريد الذهاب إلى الصعيد يسافر ليلا مثلى حتى يصل فى الصباح ليبدأ اليوم من أوله. لفت انتباهى أنواع مختلفة من العمم التى لم أعهدها من قبل والتى كانت تشير بصورة ما إلى المحافظات التى يأتى منها هؤلاء الناس أو طبيعة مهنهم.

سألت شخصا يهرول بسرعة استنتجت أنه يعمل فى المحطة من بذلته الزرقاء التى أصبح لونها رمادى داكن بفعل الزمن والتراب:
- إذا سمحت!أين أنتظر هذا القطار؟!

تباطأ قليلا وهو يمسك بتذكرتى.
- سينادون عليه فى الميكروفون بعد نصف ساعة.
- آه سيتأخر إذا؟
- لا، سيصل فى ميعاده الساعة الواحدة.
- ولكن التذكرة مكتوب فيها...
اختفى قبل أن أنهى الجملة أثناء تفحصى التذكرة.
توجهت إلى آخر يرتدى زيا مشابها يحمل جهاز اتصال عتيقا.
- إذا سمحت أين أنتظر هذا القطار؟
رد متهكما:
- ألا تلاحظ أنه لا يوجد سوى رصيف واحد، فى أى عربة أنت؟
أخذ منى التذكرة التى كنت أمدها له ثم أشار لى بالإصبعين الممدودتين الممسكتين بالتذكرة فى اتجاه نهاية الرصيف.

توجهت إلى حيث أشار، ولاحظت من الساعة الرقمية العتيقة أنها الواحدة إلا الثلث. قررت الانتظار بالرغم من البرودة الشديدة، فقد كنت معتادا على القطارات الأوروبية المنضبطة، فإذا لم تكن متواجدا فى ثانية الوصول على الرصيف أمام عربتك فمن المستحيل أن تلحق بالقطار.
"حسنا، حتى إذا لم يصل فى ميعاده وتأخر فسأنتظره على الرصيف... هذا أضمن."
ثم تذكرت أول شخص قابلته، والذى ذكر أنهم يعلنون بواسطة الميكروفونات عن وصول القطار فالتفت خلفى لأجد كل المقاعد شاغرة. لاحظت يافطة قديمة مكتوب عليها "استراحة الدرجة الأولى." دفعتنى البرودة الغير معتادة فى هذا الشهر إلى الدخول أملا فى بعض الدفء.

وجدت مقاعد جلدية وثيرة وعريضة أقرب إلى كراسى الصالونات العتيقة. قدرت من طرازها أنها تعود إلى العهد

الملكى، وعجبت من متانتها بالرغم من قدمها الذى دل عليه الجلد العتيق المقطوع بالطول ليخرج منه الحشو العتيق المتمسك بالكرسى بالرغم من تعرضه لعوامل التعرية والزمن. وعلى الحائط علقت لوحة عتيقة للأهرامات وترعة وأراض زراعية. مشهد قد اختفى منذ زمن وحل محله مبان عشوائية. اقتربت قليلا لأقرأ تاريخ اللوحة "١٩٤٧". خلعت شنطه الظهر لأجلس مستمتعا بدفء الغرفة المزدحمة. كنت من القلة التى لا تمسك بأداة اتصال تحدق فيها. يا ترى، ما المهام التى ينجزونها الساعة الواحدة ليلا؟!

تأملت الجمع من حولى فعجزت عن تحديد انتماءاتهم الطبقية أو المهنية. جلست بجوار رجل يرتدى ثيابا تبدو لى قديمة بالية وساعة يد ضخمة ملفتة تبدو باهظة الثمن، وشابان يلبسان ثيابا عصرية ويحملان حقائب وأجهزة تدل على سفرهما للخارج، يتحدثان بلهجة صعيدية غريبة لا أفهم منها شيئا. وبجوار الباب كان هناك رجل وزوجته المتبرجة بصورة ملفتة وابنته وقد أخذوا يحدقون فى شاشة يمسك بها الأب يتبادلون التعليقات والضحكات بلهجة غريبة. قلة كانت تبدو قاهرية من لهجتها ومن الموضوعات التى يتحدثون فيها والمرتبطة بانتدابهم للعمل هناك من قبل الجهات التابعين لها.

وفجأة قطع علىَّ تأمل الجالسين من حولى صوت الميكروفون العالى بالخارج وهو يزعق بصدى مجسم:" خص..وص.. صل ..صل.. فيهع... عص...رص..صف...ثل..عهع... آن.."

التفت إلى من بجوارى أسأله:

- ماذا يقول؟

- لا أدرى، الصوت غير واضح.

انتفضت بسرعة عندما سمعت صفارة القطار وأمسكت بحقيبتي مهرولا نحو الخارج لأسأل أول شخص قابلنى يرتدى ثيابا زرقاء مادا إليه التذكرة فى هلع وأنا أراقب وصول عربة زرقاء عتيقة.
- لا، ليس هذا، انتظر القطار التالى. سيصل فى خلال عشرة دقائق. لا تقلق، عد إلى الاستراحة، سينادون فى الميكروفون.
- شكرا جزيلا.

قررت عدم المجازفة وانتظرت على الرصيف فى قلق شديد. لا أدرى لماذا انتابنى هذا الشعور الغريب كما لو كنت متيقنا من أننى لن ألحق مطلقا بالقطار. التفت حولى فشعرت بشحنة قلق مماثلة تنتقل إلىَّ. بدا لى وكأن الجميع يخشون أن يفوتهم القطار لسبب أو لآخر. عجبت من هذا الإحساس اللامنطقى حيث إننا جميعا نقف على بعد أمتار من المكان الذى سيقف فيه القطار دون أدنى شك. لماذا إذن هذا الاحساس اللامنطقى؟ لماذا أشعر بأننى لست وحدى الذى يقلق إلى هذا الحد؟

وقفت لأهدأ قليلا متأملا القطار. كانت أمامى عربة متهالكة تم دهانها قبل التأكد من الانتهاء من صيانتها فبدا اللون الأزرق وكأنه سكب على أسطح خشنة معرجة لم يتم الانتهاء من تشكيلها بعد. كانت العلامة التجارية لشركة" جنرال إليكتريك" مطموسة تماما من القاطرة. لمحت بجوار سلم الصعود عبارة واضحة مكتوبة بلون أبيض.
" صالح حتى ٢٠٢٧/١١/٢".
انزعجت من العبارة فتوجهت إلى الرجل الذى يقف بالباب يرقب صعود المسافرين.
- إذا سمحت! ما معنى هذه العبارة؟
نظرإلى حيث أشير ثم ابتسم هازئا وهو يشير إلىَّ بالصعود دون أن يرد، مما زاد من عنادى فاستطردت بلهجة متحدية:

- ما هو بالضبط الشيء الصالح حتى تاريخ ٢٠٢٧/١١/٢؟
- اركب يا حضرة، لا تضيع وقتك. على كل حال النهاردة ٢٠٢٧/١١/٢.
- لا، هذا تاريخ البارحة. الساعة الآن تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل. نحن الآن ٢٠٢٧/١١/٣.
- اركب ولا تضيع الوقت، هذا لا يعنى شيئا.
ثم استدار بلا مبالاة ودلف إلى الداخل.
تأملت القطار يتحرك وأنا تتقاذفنى المعانى المختلفة لهذه العبارة. قطعا هى لا تعنى شيئا، فبالتأكيد هذا ميعاد فحص روتينى لأجهزة الإطفاء مثلا أو أى شيء من هذا القبيل. قطعا لا تعنى هذه العبارة شيئا. أخذت أهدئ من روعى حتى عاد إلىَّ الإحساس بالقلق وبأن القطار سيفوتنى. راقبت الساعة العتيقة والدقائق تمر كالساعات حتى سمعت صوت الميكروفون.
" قـــط... أرك..كـــى... المـــق...رر... وص... لهـــو... السغه...الثانهخخخ...وخهعل...دقل...وصل..."
وقفت فى مكانى حتى بدأت العربات التى هدأت من سرعتها تماما تتوقف. توجهت إلى أقرب باب مفتوح يقف به أحد العاملين لأناوله التذكرة فأشار إلى الأمام قائلا:
- العربة بعد القادمة.
توجهت ركضا وعندما هممت بفتح باب العربة وجدته موصدا. ظن من خلفى من طريقة إمساكى بالمقبض أننى لا أمتلك القوة الكافية فأزاحنى من كتفى وحاول إدارة المقبض فى عنف بيده الغليظة فلم ينجح من المرة الأولى. تركته وقد ترك حقيبته ليصارع مع الباب يحاول خلعه. جريت عائدا للعامل الواقف بباب العربة الثالثة لأصيح لاهثا:
- الباب موصد، لا نستطيع فتحه.
- هوه سيد مش موجود؟!

- لأ، مش موجود. ممكن أركب من هنا وأنتقل من الداخل قبل أن يتحرك القطار؟!
- لأ، مش ممكن. عربة الدرجة الأولى لا يفتح بابها من الداخل على العربة التى تليها.
- ماذا سنفعل إذا؟
- لا تقلق. يا سيد... يا سيد...
ثم دخل بسرعة إلى العربة يطرق فى عنف على زجاج الباب الموصد بين العربتين حتى نهض أحدهم مفزوعا ينظر إليه بعينين نصف مقفلتين وهو ينهره:
- افتح الباب يا سيد.
جريت عائدا فوجدت الرجل الذى اصطف وراءه العشرات قد أوشك على خلع المقبض فصحت به من الخلف:
- توقف، توقف... لا تحطم الباب، سيد سيفتح لنا الآن.
وبالفعل ما هى إلا ثوان وكان سيد قد وصل مهرولا يفتح الباب بسرعة، فصعد الجميع متدافعين فى عنف وهم يلعنون دون سبب منطقى المسئولين المرتبطين بمرفق السكة الحديد لرفضهم تخصيص اعتمادات مناسبة لتحديثه وصيانته.

توجهت إلى مقعدى لأجد سيدة عجوز ممتلئة تجلس به وتنظر لى باستعطاف قائلة:
- هو لازم يا بنى، أنا خلاص جلست.
- آسف يا حاجة، ولكننى اذا جلست فى كرسى آخر لن أستطيع مناقشة صاحبه الأصلى إذا أصرّ على التمسك بمكانه. كما ترين القطار ممتلئ عن آخره.
- حاضر، يابنى، حاضر... فقط ساعدنى على النهوض.

بعد تحركات بطيئة للغاية جلست بملابسى البسيطة بجوار شاب يرتدى ثيابا غاية فى الأناقة.

وخلال دقائق استعدت هدوئى وإحساسى بالاطمئنان ففردت المقعد بطوله استعدادا للنوم الفورى كما اعتدت دوما كلما ركبت اى وسيلة مواصلات. وقبل أن أغمض عينى سألت جارى عن زمن الرحلة فأجابنى بثقة شديدة:

- إذا مر كل شىء على ما يرام فستستغرق الرحلة ثمانى ساعات ونصف.

- ماذا؟ لقد قالوا لى عندما حجزت التذكرة أن الرحلة تستغرق سبع ساعات فقط.

- لا، هذا هو الوقت النظرى، ولكننى أركب هذا القطار أسبوعيا وأؤكد لك أننا لن نصل قبل ثمانى ساعات ونصف.

شكرته ثم أغمضت عينى مرة أخرى لأحاول النوم أثناء تحرك القطار الذى شعرت أنه يتحرك على ظلط وليس قضيبين مستويين.

وفجأة سمعت صوتا عاليا يصرخ فى أذنى ففتحت عينى لأجد شابا رث الثياب ينحنى بوجهه على بعد سنتيمترات من أنفى ليوقظنى صارخا بلهجة صعيدية:

- أين حقيبتى؟

- آه ... ماذا؟! أية حقيبة؟

- حقيبتى البرتقالية. لقد تركتها هنا وزميلك يقول لى أنه لم يرها. هل أخذتها؟

- لا، أنا لا أحمل سوى هذه الحقيبة الرياضية السوداء. ها هى تحت رجلى.

نظر إلىَّ الرجل متشككا بعصبية شديدة ثم أشار إلى حقيبة أسفل المقعد المجاور.

- ها هى حقيبتى.

رد الشاب الأنيق فى هدوء شديد وهو يرفع الحقيبة البرتقالية الأنيقة ماركة "ديلسى":

- أتقصد حقيبتى أنا والتى بها أجهزتى الشخصية؟!

- لا، هذه حقيبتى وبها شبشب وشراب وأشياء أخرى.
- هذه حقيبتى ولا يوجد بها سوى أجهزة مختلفة، بى سى تابلت، وهارد ديسك، وأجهزة اتصال مختلفة. ولا يوجد بها أى شبشب.
- ممكن تفتحها؟؟!
- لأ، لأننى متأكد مما أقول. أرجوك ابحث عنها فى مكان آخر.
نظر الشاب الغاضب حوله بسرعة ثم لمح شيئا فى الرف العلوى. رفع إحدى الحقائب ليخرج حقيبة رياضية ممزقة صغيرة وهو يصرخ فى انتصار:
- ها هى حقيبتى ! أرأيتم! كانت هنا طوال الوقت.
راقبته فى ذهول وهو يسير منتصرا حاملا حقيبته الحمراء فهمست إلى جارى:
- ألم يقل أن حقيبته برتقالية؟ لماذا إذن أخذ حقيبة حمراء؟!!
- هذا شائع فى كثير من مناطق الصعيد. الكثيرون لا يفرقون بين اللون الأحمر والبرتقالى.
- إذن لماذا كان يصر على أن حقيبتك البرتقالية التى لا تشبه هذه على الإطلاق هى حقيبته؟
- لا تلق بالا، يبدو عليك شخصا يهتم بالتفاصيل.
- لا أبدا ولكننى فقط مندهش!
- لا تقلق ولاتركز هكذا، فسوف تتعب إذا قررت تفسير كل شىء تراه.
- حسنا، سأحاول أن أهدأ وأنام فأمامنا رحلة طويلة.

بعد دقائق من النعاس أيقظنى مشرف القطار بعنف شديد لأعطيه التذكرة فيشخبط بقلمه عليها.
وبالرغم من عجزى عن العودة مرة أخرى للنوم فقد أبقيت عينى مغلقة محاولا إراحة أكبر قدر من أجزاء مخى. ولكن ما هى إلا دقائق حتى بدأت أسمع طرقا منتظما لضلفة غير مقفولة أخذ صوتها يعلو فى ذهنى حتى شعرت أن هناك من يقرع طبلة فى

أذنى. اعتدلت فى جلستى والتفت إلى مصدر الصوت فوجدت خلف باب العربة المغلق ضلفة لوحة كونترول ضخمة تفتح وتقفل فى عنف صاخب مع اهتزاز القطار. اتجهت إلى الباب فى قلق خوفا من أن تكون هذه اللوحة شيئا هاما قد يتسبب فى خطورة ما على القطار. قابلت فى طريقى أحد الملاحظين، والذى كان يدخل العربة فى نفس اللحظة.

- حضرتك، باب لوحة الكونترول هذه يصطدم بعنف شديد أثناء الاهتزاز، قطعا ستتلف... كذلك ألاحظ الآن بالصدفة أن طفاءة الحريق خلفك مؤشرها أحمر مما يؤكد أنها فارغة، يجب أن تعيدوا ملأها.

- إذا شحناها ستسرق، هكذا أفضل.

- آه... فهمت... وماذا عن اللوحة الكهربائية؟

- أتعنى هذه؟! لا تلق بالا، هى غير ذات أهمية ولا تعمل منذ سنوات.

- ولكن ألا يشكل ذلك خطورة؟!

- لا تقلق، ليس لها أى علاقة بسير القطار.

- حسنا، ولكن إذا كان لديك مفتاحها فهل من الممكن أن تغلقها لأنها تسبب ازعاجا شديدا؟

رمقنى متبرما ثم تنهد قائلا:

- تحت أمرك، سأحاول إغلاق بابها.

راقبته وهو يعود أدراجه ولم أجلس مكانى إلا بعد أن أوصد بعنف باب اللوحة مستخدما يديه ورجليه ثم استدار واختفى.

تمددت مرة أخرى، وبمعجزة نجحت فى العودة لحالة نصف الثبات التى كانت تخفف عنى القلق بصورة ما. ومن حين لآخر كان الاهتزاز الشديد يوقظ فى ذهنى فكرة ما ترتبط بالهدف من رحلتى فأقوم بحفظها دون محاولة تحليلها ليقينى بأننى لن أستطيع أن أبنى نظريات على واقع لم ألمسه وأعيشه.

وبعد بضع ساعات بدأت أنتفض فزعا فى كل مرة يبطئ فيها القطار من سرعته أمام محطة ظنا منى أننا قد وصلنا. ومع طلوع الشمس فى الصباح بدأت أفتح عينى من حين لآخر لأتأمل المشهد من النافذة بالخارج. كان لون الخضرة والسماء الزرقاء يوحيان لى بأن القاهرة أصبحت ملوثة أكثر بكثير مما كنت أظن. أما أكثر ما أثار دهشتى فكان عدد المبانى الضخمة للمدارس والتى كانت تبدو لى أن بها مبالغة فى استخدام الخرسانات ومواد التشطيبات الصلبة مقارنة بباقى المنازل البدائية المتهالكة فى المركز أو القرية. أحسست بوجود خلل غير طبيعى فى الأولويات، فمع انهيار منظومة التعليم بدا لى أن الأبنية التعليمية نفسها هى الشىء الوحيد الصلب الغير قابل للانهيار. أما المناهج والمدرسون الذين يشكلون عصب العملية التعليمية فقد أصبحوا فى ذيل الأولويات. تخيلت لو أن ميزانية الأبنية التعليمية الهائلة قد تم توجيهها إلى إصلاح التعليم نفسه حتى لو جلس الطلبة فى الحقل للدراسة لكان أفضل، ثم تذكرت حجم العمولات والأعمال المرتبطة بالمقاولات التى تصل إلى مليارات الجنيهات والتى سيتم وقفها، وتذكرت عدد المنتفعين من استمرار البناء دون تعليم، واستنتجت أنها فكرة خيالية غير قابلة للتطبيق.

شعرت بالتخديل فى أجزاء متفرقة من جسمى نتيجة لعدم تغيير هذا الوضع المتعب لعدة ساعات. قررت النهوض والذهاب إلى دورة المياه بسبب كل هذا القلق الذى جعلنى أرغب فى إفراغ كل ما أكلته البارحة مساء ولم أهضمه. تمشيت إلى عامل البوفيه الذى كان يقف فى وسط العربة لأسأله فأجابنى بسرعة وهو يحاسب أحد زبائنه:

- إذا كنت مضطرا فهى فى هذا الاتجاه بين العربتين.

فور عبورى الباب انتابنى الفضول لتفحص لوحة الكونترول الممسوح اسمها، والتى كانت تزعجنى فى بداية الرحلة وخاصة أنها كانت تقع أمام باب الحمام مباشرة. أخذت أقرأ بالإنجليزية الملصقات المختلفة تحت الأزرار الحمراء والخضراء.

"Water Pump", "Flushing Pump", "...

" طلمبة مياه، طلمبة طرد"

لم أستطع استكمال القراءة، فقد كانت الرائحة قد زكمت أنفى بالرغم من حاسة شمى الضعيفة. استدرت لأفتح الباب القذر ببطء وقد كتمت أنفاسى أثناء ولوجى الغرفة الضيقة التى كان كل شيء بها متسخ بصورة غير آدمية. وفى ذهول وجدت تلا صغيرا من البراز فى مقعدة الحمام منسوبه أعلى من منسوب القاعدة الخشبية التى تآكلت. قطعا من فعل هذا لديه قدرات خاصة ليتغوط وهو واقف. رنت فى أذنى فى هذه اللحظة نبرة صوت عامل البوفيه وهو يقول" إذا كنت مضطرا." خرجت لأوصد الباب من خلفى ولأعود أدراجى وأحاول ألا أتحرك كثيرا حتى أصل إلى محطتى.

وعند مرور أحد الملاحظين استوقفته قائلا:

- هل اقتربنا من الأقصر؟

- نعم، يتبقى حوالى ساعتين.

- كيف؟ لقد مر بنا حتى الآن حوالى ثمانى ساعات. الرحلة ثمانى ساعات، أليس كذلك؟

- نعم، ولكنك تركب الستة وعشرين؟

- لا أفهم.

- ستة وعشرون أى أن هناك خمسة وعشرين قطارا قبلك. إذا تأخر كل واحد منها خمس دقائق تتأخر أنت ساعتين.

- ولماذا يتأخر أيا منها خمس دقائق؟ ألا تسير على قضبان ولا يوجد شيء يعطلها فى الطريق؟

- يا بيه احمد ربّك، الإسبوع اللى فات أيام الإضراب القطار اتأخر أربعتاشر ساعة.

- أتعلم أننى ركبت هذا القطار منذ عشرين عاما فى رحلة للمدرسة وكان الوضع يختلف تماما عن ذلك.
- منذ عشرين عاما كان هذا القطار جديدا، أول وآخر شحنة قاطرات جديدة تصلنا. وقد جددوا هذا القطار ليستعمله السائحون والمقتدرون من المصريين. أما الآن، فلا السائحون يركبونه ولا المصريون الأغنياء يقتربون منه، إلا إذا كانوا مضطرين للضرورة القصوى. الكل أصبح لا يستطيع المغامرة بالتأخر عدة ساعات. ومن ساعتها لا يوجد لا صيانة ولا زيادة فى المرتبات ولا قاطرات جديدة. الشيء الوحيد المستمر هو الإضرابات التى أصبحت من كثرتها لا تأتى بفائدة تذكر.

إلا الجاموسة!

وصلت إلى محطة الأقصر وأنا لا أستطيع السير من فرط الألم. غادرت البوابة الفرعونية العملاقة الفخمة التى تم تشييدها عندما كان السائحون لا يزالون يركبون القطارات. دخلت فى أول فندق قابلته وتوجهت بسرعة إلى دورة المياه حيث جلست ما يقرب من نصف ساعة أستريح من معاناتى الساعات الماضية.

رفضت كل سيارات الأجرة الذهاب إلى العنوان الذى كان بحوزتى حتى دلنى أحدهم على موقف عربات ربع نقل تذهب إلى هذه القرى. ركبت إحداها وانحشرنا جميعا بصعوبة على كنبتين متقابلتين.

كان الجميع ينظرون إلىَّ بارتياب شديد بالرغم من ملابسى التى تعمدت أن تكون أبسط ما يمكن، ولكنها بدت فى النهاية ملابس وليست أسمالا بالية. نظرت فى عجب إلى الأطفال الجالسين أمامى والذين كانوا يتأملوننى فى دهشة. كانت الطفلة التى لم تتجاوز العاشرة ترتدى الجزء العلوى لـ"تايير" الإنجليزى الشهير ماركة "سان مايكل" المميز بلونه منذ عشرات السنين. وكان الجاكت الذى كان، على ما يبدو، يخص فى الماضى سيدة طويلة مطوى الأكمام ومخيطا بدون عناية بفتلة من لون مختلف. أما موديل الجاكت القصير فى تصميمه فقد تحول إلى بالطو طويل بسبب قصر قامة الفتاة. أما الطفل الآخر الذى خمنت أنه أخوها والذى يصغرها بعدة أعوام فكان يرتدى جاكتا رجاليا من الصوف الإنجليزى ما زال فى حالة جيدة بالرغم من قدمه الشديد. وكان يرتديه وقد تجاوز طوله أقدام الطفل التى لا تلمس الأرض كأنه جلباب طويل. وبالطبع فقد بدت أكتاف ملابسهما المتهدله غريبة الشكل، فكانا أشبه بالشخصيات الكاريكاتورية المثيرة للشفقة

والألم. لاحظت أن والدهما نفسه كان يرتدى جلبابا خفيفا وشبشبا ممزقا ويحكم الكوفية الصعيدية حول رقبته واللاثة حول رأسه. داعبتهما فابتسما وبدأ ينظر أحدهما للآخر فى خبث وهما يتفحصاننى كاتمين ضحكاتهما. ثم همس الأخ إلى أخته بصوت عال . " هو الراجل ده شكله غريب كده ليه؟!." أفلتت أخته ضحكة عالية ثم حاولت رسم العبوس على وجهها وهى تحاول نهره واضعة إصبعها فى وضع رأسى أمام فمها كى يغلق فاه. طوال الطريق ظلا يتبادلان النظرات والضحكات وأنا أشجعهما بابتساماتى المستمرة.

ترجلت عندما أشار لى أحد الجالسين الذين كنت قد سبق وسألته عن العنوان. كان مدخل القرية يبدأ عند مبنيين من الخرسانة والطوب. المبنى الأول يتقدمه حديقة مزروعة بعناية خلف السور الذى يعلوه يافطة "وحدة الحكم المحلى". أما المبنى الثانى فكان تابعا لبنك ناصر الاجتماعى. تعجبت من فخامة التشطيب وجمال حديقة الورود الأمامية، والتى لا تتناسب مع الطبيعة البدائية للمكان على الإطلاق.

سرت خلف المبنيين فى مدق طويل غير ممهد يمتد يمينا ويسارا وقد تناثرت على أحد جوانبه أكوام لم أستطع تصنيفها كقمامة. كان منسوب جميع المنازل الصغيرة منخفضا عن منسوب المدق بثلاث درجات على الأقل. وكانت هذه الدرجات العشوائية تقود إلى أبواب خشبية بالية مصنوعة يدويا عن طريق تجميع فضلات الأخشاب والجريد يدويا وربطها بحبال مهترئة. وبالرغم من هشاشة الأبواب فإن طبقة سميكة من القذارة كانت تغطيها فتشعرك بوجود رابط قوى متجانس بين أجزاء الباب الضعيفة. وجدت رجلا مسنا يتكئ على عصا، يسير حافيا فى جلباب مهترئ فسألته عن المنزل المطلوب. وبعد محاولات مضنية لإفهامه

ومحاولات أكثر صعوبة فى أن أفهم لهجته خمنت مقصده وتوجهت إلى منزل بعيد أشار إليه.

أثناء توجهى إلى هناك شعرت بضيق وحرج شديدين. فكان كل من أمر به يتوقف بغتة عما يفعله ليحدق بى ويراقبنى حتى وصلت إلى المنزل المطلوب. لاحظت خارج المنازل المجاورة سيدتين وأربعة رجال على الأقل يرمقوننى وأنا أنادى من وراء الباب الخشبى.

" حاج حسين... حاج حسين..."
لم يرد أحد، فقمت بالتنصت جيدا حتى سمعت جلبة بعيدة فخمنت أنه يوجد أحد بالداخل، ولكن خفوت الأصوات جعلنى أشعر بأن فراغ المنزل بالداخل أكبر بكثير مما أظن. ناديت بصوت أعلى.
" حاج حسين... حاج حسين..."
توقفت عن النداء عندما سمعت صوت امرأة يأتى من بعيد وهو يقترب صائحا:
" مين؟ مين على الباب؟!"
أصدر الباب صريرا حادا فوجدت بأسفل الدرج امرأة بدينة فى الأربعينيات ترتدى ثيابا سوداء شديدة الاتساخ.
- الحاج حسين عبد الدايم موجود من فضلك.
- أيوه موجود اتفضل... اتفضل! نقول له مين؟
- أنا صديق لأخوه مصطفى... سأنتظر هنا يا حاجة.
- لا يمكن تنتظر على الباب، اتفضل.
- أعذرينى لا أستطيع الدخول.
- يا حسين... يا حسين ... اصحى يا راجل... واحد أفندى بيسأل عن مصطفى.
راقبتها وهى تدلف من ممر ضيق فى غاية الطول يؤدى إلى ساحة أوسع قليلا بها طشت ووابور جاز.

انتظرت فترة حتى أتى لى رجل مسن نصف نـائم فى جلباب شديد الاتساخ. كنت أتأمل وجهه الملىء بالتجاعيد الغائرة وذقنه الغير حليقة وهو يحدثنى بلهجة متثاقلة وحاجباه مرفوعان من الدهشة:
- أفندم... أى خدمة؟
- أنا صديق لمصطفى يا حاج... صديق من مصر وكنت بالصدفة فى الأقصر فقررت أن أمر به لأطمئن عليه وأرى إذا كان محتاجا لشىء... هو كان كتب لى اسمك وعنوانك فى ورقة تركها لى.
- يا أهلا، يا أهلا، اتفضل اتفضل حضرتك.
- لا أريد أن أزعجك يا حاج. هو مصطفى موجود؟!
- لا يا بنى مصطفى سافر من شهرين. سافر مع أسرته. صديق له وجد له عملا فى السعودية.
- أنا آسف يا حاج أنى أزعجتك...
- يا باشا لا يمكن أن أتركك هكذا على الباب، يجب أن تدخل.
حاولت المقاومة ولكنه أمسكنى بيده القوية وجذبنى على الدرج غير المستوى حتى كدت أفقد توازنى.

دلفت من الممر الذى كان بلا سقف وأدركت أن هذا الممر الطويل يقع ملاصقا لمنزل آخر. وفى نهايته كانت توجد ساحة ضيقة بها فتحة باب عليها أكياس سماد ممزقة. أشار لى أن أدلف للداخل وهو يزيح الشكائر المتدلية. وجدت سريرا من الطوب فى جانب الغرفة يقابله مصطبة ضيقة موضوعا عليها تلفازا صغيرا قديما غير رقمى به صورة مشوشة. وكانت هناك مساحة أخرى ضيقة خمنت أنها تصلح لكل الأغراض من إعداد الطعام وجلوس لتناول الطعام والشاى وخلافه. على اليمين كانت هناك فتحة أخرى دون باب خمنت أنها تؤدى إلى حمام ضيق. نظرت إلى أعلى فوجدت بعض الجريد والشكائر وبقايا أخشاب متناثرة بينها فراغات كبيرة. كان هناك جزء صغير من جزع شجرة مثبت به مروحة سقف بيضاء.

ارتبكت وهو يزيح فى عنف أحد الأولاد الممددين على الفراش لكى يدعونى للجلوس. جلس هو القرفصاء على الأرض فظللت واقفا حتى حلف بأغلظ اليمين أن أستريح من عناء السفر وأن أشرب شيئا.

- حسنا، كيف أستطيع أن أخدمك يا باشا؟!

- لا شيء... كويس أننى اطمأنيت على مصطفى. بصراحة أنا كنت قاصده فى خدمة.

فحصنى بارتياب شديد ثم سأل بلهجة مترددة:

- أؤمر.

- فى الواقع أنا كنت أعلم منه أن الحالة صعبة فى القرية، وأنا بامثل أناس لديهم رغبة فى المساهمة بتنمية المناطق الأقل حظا. فكنت أعتمد عليه فى أن يوجهنى إلى الأسر التى تحتاج إلى مساعدة.

التفتت إلىَّ زوجته التى كانت تعد الشاى صائحة بغتة:

- العطايا... سعادتك واحد منهم. والنبى محتاجين سقف... الجو بالليل هنا تلج رصاص وساعات تمطر نغرق كلنا والـ...

- اسكتى يا ولية.

- طب بلاش سقف... اطلب منه بطاطين.

- بقولك اخرسى يا ولية.

- حضرتك لو هناك...

- يا باشا احنا مستورين والحمد لله ولا نحتاج شيئا. لكننى أعرف حد ممكن يساعدك فى الموضوع ده. معاكى يا نفيسة نمرة الأستاذة بتاعة الجمعية.

- يا واد يا يوسف هات بسرعة نمرة أبلة الجمعية... أبلة نجاة.

بعد قليل حضر من الخارج الولد الذى كان ممددا على الفراش وفتح كراسة ممزقة فوق التلفاز وأتى منها بورقة صغيرة أعطاها لى.

قمت بنقل النمرة متسائلا:

- وكيف ستساعدنى الأستاذة نجاة؟!

- هى متطوعة فى جمعية وتقوم بدراسة الحالات المحتاجة. هى ستدلك على من يحتاجون إلى مساعدة.

- ألطمع فى أن تكلموها لتقدمونى لها حتى تطمئن.

أخرجت هاتفى من الحقيبة وطلبت النمرة وأنا أعطيه السماعة. وبعد دقائق من حديث لم أفهم معظمه أخذ يصف لى المكان الذى يجب أن أقابلها فيه وأنا أرشف بمعاناة شديدة شايا أسود. وبعد أن رفضت بأدب دعوته على الغذاء توجهت إلى البنك الذى كنت قد مررت به فى مدخل القرية.

بعد عشر دقائق رأيت فتاة فى الثامنة عشرة من العمر تتوجه نحوى مسرعة من الاتجاه المقابل. كانت ترتدى غطاء للرأس ملونا وجاكتا ضيقا قليلا بالرغم من رفعها الشديد. أما الجونلة الطويلة النظيفة فكانت تلمس الأرض لتتسخ أطرافها أثناء إثارتها للغبار الذى يغطى الأرض بكثافة.

- أستاذ محمد؟

تأملت وجهها الأسمر الذى كان يصعب تحديد هوية ملامحه، ولأول مرة أدرك صعوبة ايجاد ملامح مميزة لنا كمصريين.

لاحظت أنها تنظر فى عينى مباشرة وهى تمد لى يدها.

مددت يدى وأنا أرد مرتبكا:

- الأستاذة نجاة.

- يا مرحب بك، انت شرفت البلينا. الحاج حسين أبلغنى أنك تريد أن تتعرف على العائلات التى تحتاج إلى مساعدة. هل تمثل جمعية ما؟

- لا... لا... فى الواقع أنا... فى الواقع أنا أمثل مجموعة من الأفراد الذين يرغبون فى إخراج زكاتهم لتنمية الأماكن النائية التى

تحتاج إلى مساعدة. وأنا هنا فى الواقع لأول مرة لأرى الوضع بنفسى من خلال زيارة مبدئية أولية لتحديد إمكانات المساعدة.
- أتقصد العطايا؟
- لا أفهم ما تعنين. ماذا تقصدين بـ"العطايا"؟
- أقصد أشياء تتبرعون بها مثل حقائب رمضان، بطاطين، أجهزة، مروحة سقف، جزء من أضحية العيد... إلخ.
- وماذا يحدث بعد ذلك؟
- ماذا تعنى؟
- أعنى بعد أن يأخذوا هذه الأشياء، كيف يتحسن وضعهم؟
- لا أفهم ما تقصده بالضبط، ولكنهم ينتظرون هذه الأشياء بمنتهى الشغف من العام للعام. وأهل الخير ينفقون الملايين فى كل عام حتى لا يخيبون رجاء هؤلاء البؤساء.
- أتقصدين أنهم فى كل عام ينتظرون حقيبة بها طعام ليأكلوه فى رمضان؟!
- نعم، فأنت لا تتخيل مدى البؤس والفقر الذى هم غارقون فيه، إذا دخلت منازلهم سترى كيف يعيشون.
- أستطيع أن أتخيل، لكننى ما زلت لا أفهم كيف سيساعدهم تقبل الصدقات والاعتماد عليها وانتظارها من العام للعام. هذا سيهين إنسانيتهم ويدمر كرامتهم وعفتهم، ولا يحفزهم على مساعدة أنفسهم.
- أنا أفهم ما تعنيه. فهناك قلة عندما نذهب إليها بالحقائب فى رمضان ترفضها بإباء، صدقنى عندما ترى ظروفهم القاسية وعدم امتلاكهم أى شىء ستتيقن بأنهم فى أشد الحاجة ليس فقط إلى مؤونة رمضان فحسب بل إلى الكيس البلاستيك الذى يحوى الطعام. وبالرغم من ذلك يرفضون بشدة أى صدقة ولكن هؤلاء قلة. صدقنى قسوة الفقر هنا لا يمكن لفرد مثلك تصورها.
- على كل حال هذه ليست نوع المساعدة التى أبحث عنها. أنا أبحث عن وسيلة للمساهمة فى التنمية وليس عن وسيلة لتبديد

النقود دون مردود سوى كسر كرامة الفقراء وتحويلهم إلى متسولين.
- أنا أفهم ما تعنى، ولكننى لا أفهم كيف تنوى تحقيق ذلك؟
- حسنا، ألا يوجد من لديه فكرة مشروع صغير مثلا ويحتاج إلى قرض أو استشارة ما لتنفيذه.
- قرض لا يرد؟!
- قطعا لا، قرض يرد حتى يستخدم فى مساعدة أسرة أخرى. كذلك إذا لم يحقق المشروع الصغير العائد الذى يسمح له برد رأس المال فلن يستقل أبدا، وسيعتمد دوما على القروض التى ستصبح هى الأخرى صورة من صور العطايا.
- هل ماكينات خياطة مثلا تصلح كمشروع؟
- نعم تصلح ولكن بشرط أن يكون لدى صاحبة الفكرة الخبرة أو المهارة أو قابلية للتعلم لهذا النوع من النشاط.
- هل تربية المواشى تصلح كمشروع؟ فهناك جمعيتان تنفذان مثل هذه المشاريع، واحدة من خلال قرض لا يرد والثانية من خلال قرض يرد.
- أى مشروع يصلح طالما له جدوى اقتصادية تمكنه من الاستقلال ويساهم فى تنمية المكان.
- أى مشروع، حتى لو لم يكن من أسرة معدمة؟!
- أى مشروع طالما سيحقق التنمية، لأن كل مشروع ينجح سيمكن صاحبه من مساعدة آخرين من أهله. المهم أن يساهم فى تنمية المكان، وخاصة فى مجال التعليم لأن هذا شرط أساسى. فلا يعقل مثلا أن نمول مشروعا ناجحا اقتصاديا لأنه يعتمد على عمالة مجانية مكونة من أولاد صاحب المشروع الذى منعهم من استكمال دراستهم لمساعدته فى مشروعه.
- آه أعتقد أننى فهمت. أتريد أن نبدأ فى زيارة بعض الأسر الآن؟!
قالتها وهى تخرج من حقيبتها بضعة أوراق لترينى إياها.

- هذه استمارات استبيان للكشف على الحالات التى تحتاج إلى مساعدة.
أخذت أقرأ إحدى الاستمارات بسرعة معلقا:
- ولكننى ألحظ أن هذه الاستمارات وما بها من أسئلة مصممة فقط للتأكد من عجز هذه الأسر، ولا يوجد بها سؤال واحد عن وجود أى إمكانية داخل هذه الأسر يمكن استغلالها للتنمية والاكتفاء الذاتى.
- كما قلت لحضرتك، الفقر هنا وحش جدا. من أين تريد أن نبدأ؟
- لا أدرى، أنت أدرى.
- حسنا لنذهب من هذ الاتجاه فتوجد هنا ٦ عائلات متجاورة نستطيع أن نبدأ بها.
- اعذرينى على سؤالى ولكننى فعلا لا أريد أن أسبب لك أى ضرر وأنا عارف تقاليد وعادات الناس فى الصعيد. ألا يوجد حرج إذا شاهدونا سويا ونحن نزور المنازل؟ ألا تخشين من أن تتعرضى لأى كلام يضايقك وأنت تتجولين مع شخص غريب فى القرية؟ ألا...
- هو حد يجرؤ يفتح فمه بكلمة، ده أنا كنت أخزق عينيه! هو احنا بنعمل حاجة غلط؟! ده شغل والشغل ليس به عيب.
كنت أتأمل نظرتها المتحدية ونبرتها الحادة، فلم أرد وتبعتها وهى تخطو بسرعة نحو المدق الترابى.
- هذا هو أول منزل، تفضل.
قالتها وهى تدفع الباب المتهالك بعد أن طرقته طرقتين دون أن تنتظر إجابة. انتظرت بالخارج حتى عادت بعد دقيقة وخلفها امرأة بدينة ترتدى جلبابا أسود.
- اتفضل... اتفضل يا سعادة البيه... اتفضل.
نزلت الدرج، ودخلت لأجد نفس الممر الضيق والحجرة التى بلا باب ونفس الفراش والتليفزيون العتيق ومروحة السقف. وكانت

نجاة تشير إلى تفاصيل فى المنزل وتحدثنى بسرعة بكلمات متناثرة:

- لا يملكون شيئا... حتى منزلهم لا يوجد به سقف. وصلة المياه والكهرباء هذه مسروقة... لكن هيعملوا إيه دول غلابة. زوجها مريض نفسى لا يعمل، وأولادها الكبار واحد فى السجن والثانى اتقتل. حالتهم كما ترى تحت الصفر.

نظرت إلى الرجل الشديد النحافة المنزوى فى ركن يرقبنا بنظرات زائغة وهو يهز رأسه يمينا ويسارا فى حركة عصبية.

تركت نجاة تحدثها بسرعة بلهجة غير مفهومة فوجدت السيدة تنظر لى برجاء قائلة:

- يعنى يا بيه ما ينفعش سقف أو بطانية؟! أى حاجة من عندك كويسة! زى ما انت شايف الراجل يقعد طول اليوم كده وبعدين فجأة يدوّر الضرب فىَّ وفى الواد اللى فاضل. والله أى حاجة كويسة من عندك.

- يا خالة صابحة هوه مش هيديكو عطايا، هوه عايزك تفكرى فى حاجة انت محتاجاها ممكن تجيبلك فلوس. جاموسة...

- جاموسه... يانهار إسود... لا إلا الجاموسه!الحاجة سعدية اتقطم وسطها خدمة وبعدين جاموستها عيت وورتها الويل وفى الآخر ماتت وأصبحت هى مديونة... لا إلا الجاموسة!

- يا خالة غير الحاجة سعدية فيه ميت بيت وبيت استفادوا من مشروع الجاموسة العشر. الموضوع بس عايز شوية اهتمام.

- لا ابعدينى عن المشاريع والاهتمام، هوه احنا عارفين ناكل لما نشيل هم أكل الجاموسة.

- ما همَّا ممكن يدوكى فلوس للأكل ترديها بعد...

- لا ابعدينى عن الهم ده.

- طيب انت بتعرفى تخيطى؟! تحبى نجيبلك ماكينة خياطة.

- لا، معرفش الحاجات دى. لو فيه عطايا أهلا وسهلا إنما أى حاجة تانية أنا مابفهمش فيها.

نظرت لى نجاة نظرة متوسلة ثم سألتنى مباغتة:
- ما ينفعش نعملهم سقف؟!
لم أحر جوابا، ولكننى نظرت لها نظرة ذات معنى فالتفتت للسيدة قائلة بسرعة وهى تنهض:
- حسنا، سنرى ما يمكن عمله، إن شاء الله خير.

عندما أصبحنا بالخارج التفت إليها مؤنبا:
- يا أخت نجاة، ألم نتفق على أشياء قبل أن ندخل. ألم أؤكد لك أننى لن أتبرع بعطايا؟!
- نعم، ولكنك ترى مدى الغلب الذى يعانون منه.
- ولكنهم لا يريدون مساعدة نفسهم. أنت قلت لها أن تختار أى مشروع أو فكرة وهى كانت ترفض كل شىء، بل هى لا تتمنى سوى عطايا بدون مقابل.
- قطعا، هى مهيأة نفسيا لاستقبال منح لا ترد دون أى مسئولية إضافية. اليوم نحن نعرض عليها شيئا مختلفا تماما ويحتاج إلى مجهود ومسئولية لم تعتد عليها، طبيعى أن تخاف وترفض.
- حسنا، أنا أود فعلا المساعدة ولكن ليس بهذه الطريقة. فهم إذا لم يكن بداخلهم أى رغبة أو حماسة فطرية لتغيير وضعهم فلن أستطيع فعل شىء لمساعدتهم، سيكونون أقرب إلى الأموات منهم إلى الأحياء.
- هم بداخلهم رغبة ولكننا فاجأناها اليوم وهى سيدة بسيطة أمية لا تجيد عمل شىء ولا تملك مهارات من أى نوع.
- صحيح، بالمناسبة كيف يعيشون إذا كانوا لا يملكون شيئا ولا يجيدون عمل شىء؟!
- ظروف كل واحد مختلفة. الصغير الذى رأيته بالداخل ترك المدرسة، يعمل باليومية وهناك جمعية تعطيهم مبلغا شهريا، بالإضافة إلى مساعدات أقارب لهم تركوا القرية ويعملون بالخارج.

- بالمناسبة أنا لم أقابل سوى أطفال أو شيوخ عجائز حتى الآن، أين الشباب؟
- الشباب يتركون القرية ليعملوا.
- ألا يوجد هنا أى فرص للعمل؟
- ماذا سيعملون؟ هناك مصنع وحيد فى المركز كله لديه اكتفاء ذاتى ولم يعين أحدا منذ خمسة عشر عاما. هناك بعض الأسر تعيش على الزراعات التى تخدم المصنع ولا يوجد شىء آخر. معظم الشباب يذهب للعمل بالسياحة، إما فى الأقصر أو الغردقة.
- ولكن ألا يوجد هنا أى صناعات يدوية أو أى شىء يتميز به المكان يمكن أن يكون نواة لتنمية صناعات صغيرة مثلا؟
- لا، لا يوجد شىء.
- حسنا، ماذا سنفعل الآن؟!
- بما أنك هنا وإذا كان لديك وقت نستطيع زيارة أسر أخرى.
- حسنا.

وبالفعل قمنا بزيارة منازل أخرى تشابهت جميعا وانتهت كل المقابلات إما برفض لفكرة أى مشروع صغير أو قبول يحمل فى طياته رفض للفكرة كما اكتشفت من حديث نجاة مع إحدى السيدات فى آخر زيارة.

- ألا تستطيعين مثلا أن تخيطى؟! نستطيع أن نجلب لك ماكينة خياطة مثلا؟
- كل اللى تجيبوه كويس.
- حقيقى يا حاجة، هل أنت متحمسة للفكرة؟
- كل اللى يجى منكم كويس.
- بعد إذنك يا نجاة ممكن أتدخل. يا حاجة انتى بتعرفى تخيطى؟
- لا.
- عندك استعداد تتعلمى؟

- فين يا بنى، مافيش هنا مكان أتعلم فيه.
- أمال عايزه ماكينة خياطة ليه؟
- أهو أحاول، وإذا ما نفعش أبقى أبيعها.
- لكن يا حاجة انتى لازم تردى ثمن الماكينة من الشغل، دى مش عطايا.
- يا لهوى، أرد ثمن الماكينة... وأنا أقدر ازاى. لا سعادتك مش عايزاها.
شعرت بأسى يعلو وجه نجاة وهى تقول لى بيأس:
- حضرتك مش مقتنع.
- لأ. أنا عارف إن الموضوع صعب ويحتاج لدراسة أكثر وهذه هى أول زيارة لى ولم أكن أتوقع أن أجد ما أريده فى أول زيارة.
- أستاذ محمد. إنت فعلا عايز تساعد. الناس بدأوا يفقدون الثقة بى.
- طبعا عايز أساعد بشرط أنهم يكونوا عايزين يساعدوا نفسهم، لماذا تقولى ذلك؟
- لأن إدارة الجمعية اللى أنا متطوعة بها رفضت توزيع عطايا على هذه القرية بالرغم من وصول المساعدات حتى القرية الملاصقة.
- لماذا؟
- لا أدرى، شىء خاص بالإدارة المركزية، هم لهم حساباتهم المختلفة. لكن الآن الناس أصبحت لا تثق فىَّ بعد أن وعدتهم بالعطايا؛ ولذلك أتأكد منك إننى إذا استطعت أن أجد من يستوفى الشروط التى تضعها أنك بالفعل ستقوم بالمساعدة.
- لا تقلقى من هذا الأمر، فقط اعثرى على من يريد مساعدة نفسه ومتحمس لتغيير وضعه وسأقف بجانبه ولن أتركه حتى يقف على قدميه.
- حسنا، اتفقنا.

- سؤال أخير. لاحظت أن معظم الأسر التى مررنا بها معظم رجالهم ملتحون. هل هذا يرتبط بانتماء دينى أم ماذا؟
- لا، لا... هم ملتحون لأن هذا أوفر. ففى النهاية الحلاقة أيا كانت وسيلتها سوف تكلفهم ما لا يملكونه.
- أفهم من ذلك أنك لا تفرقين عند دراسة الحالات بين المسلم والمسيحى.
- سأقول لك شيئا يا أستاذ محمد. المسيحيون فى هذا المركز تحديدا يمثلون ثلث السكان. وهم بالرغم من ذلك يشغلون معظم الوظائف المتخصصة فى المركز، أطباء وصيادلة ومحامون... إلخ. وبالتالى فمستواهم المعيشى هنا مرتفع أكثر من المسلمين واحتياجهم للمساعدة أقل. ولعلمك فهناك جمعيات تقدم مساعدات هائلة للفقراء أسسها مسيحيون بغرض خدمة المجتمع دون تفرقة بين مسلم ومسيحى لدرجة أن بعضها ساهم فى ترميم مساجد.
- إذن ما قرأته عن وجود صدام مستمر بين عائلات مسيحية ومسلمة فى هذا المركز مبالغ فيه!
- الصدام هنا، عندما حدث، كان نتيجة لفضيحة ألمت بأسرة بسبب أسرة أخرى. أن تهرب فتاة مسيحية مثلا مع فتى مسلم دون زواج. الصدام هنا له علاقة بالشرف فى المقام الأول. ولكن أنا لا أستطيع أن أقول لك سوى ما أشاهده فى قريتى الصغيرة وليس لدى معلومات عما هو خارجها. فكل يوم نقرأ عن مصيبة جديدة.
- أفهم من ذلك أنك إذا وجدت مسيحيا مثلا لديه فكرة مشروع جيدة ستعرضينها علىَّ؟!
- بالطبع، هل حضرتك لديك مشكلة فى هذا؟
- لا على العكس، أنا فقط كنت أريد أن أطمئن أنك أنت نفسك ليس لديك مشكلة فى هذا.
- لا تقلق حضرتك، ثلاثة من أعز صديقاتى مسيحيات.

- حسنا، أعتقد أننى سأذهب الآن. رقم هاتفى هو الذى اتصل منه الحاج حسين وقد سجلت رقم هاتفك. أرجو أن أسمع منك قريبا عن مشروعات تحتاج إلى مساندة.
- إن شاء الله. اطمئن.
وبعد رفضى العنيد لقبول دعوتها بمنزل أسرتها للغذاء مدت يدها لتصافحنى مودعة وهى تشد على يدى بحرارة.

لم أجد تذكرة عودة فى هذا اليوم سوى فى الدرجة الثانية الساعة الثانية بعد منتصف الليل. تناولت الغذاء فى أحد المطاعم ثم توجهت إلى مطعم "مكدونالدز" القريب من المحطة وقررت أن أجلس فيه لحين اقتراب ميعاد القطار لعدة أسباب.
السبب الأول أننى كنت أريد أن أقضى حاجتى قبل ركوب القطار حتى لا أتعرض لنفس التجربة الأليمة الى خضتها أثناء رحلتى الأولى.
السبب الثانى أنه كان مجهزا بكل أنواع موجات الاتصال بشبكة الإنترنت بالمجان. فقد كان الفضول يدفعنى للتجول عبر الشبكة لتجميع أى مواقع رسمية خاصة بالتنمية.

أثناء انتظارى للقطار أخذت أكتب ملخصا لكل الأفكار التى كانت تراودنى والتى تحولت فيما بعد إلى أساس لمفهوم "الحركة" الذى تعرفونه جميعا والمنشور على الموقع. إذا كان هناك أحد يهتم بالتعرف على البذرة الأولى للحركة فيمكنه قراءة هذه المسودة فى الملحق (١) المرفق بالمذكرات ص ٣٩٩ .

لعنة الفراعنة

لا أدرى لماذا بعد أن انتهيت من الكتابة تخللنى إحساس بالإحباط وشعرت أن الموضوع أصعب بكثير مما كنت أظن. ففى النهاية يستحيل أن تجبر أناسا على مساعدة أنفسهم وتحسين وضعهم إذا كانوا هم أنفسهم يائسون من هذا وكل همهم هو إيجاد قوت يومهم من خلال الاستجداء. لعنة الله على الفاقة التى تغتال الإنسانية بهذه الطريقة الوحشية! لابد من وجود شيء يمكن فعله للبدء، ولكن ماذا؟

وأثناء استغراقى فى تأملاتى أنظر شاردا أمامى، لفت انتباهى فجأة ما هو موجود وراء الزجاج الذى كنت أتأمله ولا أرى فيه سوى انعكاس صورتى. فقد أتاح لى الزجاج البانورامى الشفاف بكامل مساحة الواجهة أن أتأمل المشهد المهيب الذى كان يقابل المطعم على الناحية الأخرى من الطريق، فقد كان مثل لوحة جدارية هائلة الضخامة. أخذت أتطلع إلى معبد الأقصر وتساءلت لوهلة ما إذا كان هناك أى مطعم آخر لماكدونالدز فى العالم يتمتع بمثل هذا المشهد البانورامى الرائع!

كان المعبد مصمما بصورة إعجازية تجبرك على الخشوع والإحساس بالضآلة المتناهية. والغريب أن الكنيسة والجامع المشيدين به لم يبديا غريبين على الإطلاق من ناحية التصميم أو الوظيفة بل أنك كنت تستشعر بشكل غامض أنهما يستكملان التصميم الأصلى الذى تصوره المعمارى الأول، على الأقل على مستوى تكامل خط السماء الرائع. هذا الخط المحدد الرفيع الذى بدا وكأنه يفصل بين الحياة كما نعرفها وبين بعد آخر للوجود تستشعره فى السماء المظلمة التى تتلألأ بها النجوم، تشير إليها قمة المسلة وبرج الأجراس والمئذنة.

كان هناك شيء آخر يتخطى الزمن بل ويتحداه في شموخ. شيء يجعل الحياة الأرضية تبدو في منتهى الضآلة إلى حد مخيف، إلى حد العبث المطلق والتفاهة اللانهائية. لقد عاش أجدادنا من قبل وماتوا على مدار آلاف السنين الماضية وسنموت نحن وأحفاد أحفادنا على مدى آلاف من السنوات القادمة، وسيظل هذا الصرح الشامخ من الحجارة يتحدانا باستهانة ويشعرنا بضآلتنا وبعبث التمسك بهذه الحياة الفانية التي مآلها مصير واحد محتوم.

لعنة الله على هذه الأحجار الخالدة، لعنة الله على هذه الرسالة الأزلية الباعثة على اليأس والاستسلام. لماذا؟! لماذا لا توجد سوى المعابد والمقابر الخالدة؟! لماذا لا يوجد أى أثر من أى نوع لمنازل الحياة؟! لماذا لم يدون هذا في أى رسم أو بردية؟! أين كانت الحياة؟! أين كانت الحياة؟!

لماذا لا نشم سوى رائحة الموت؟! وإذا كان الموت هو المسيطر إلى هذه الدرجة فهل كانت هناك أية محاولات للحياة أو لاختيار الحياة؟! جاءتني الإجابة من الصرح المهول أمامي:
"وما جدوى الاختيار إذا كان لن يغيّر شيئا من النهاية المحتومة؟!"

ولكن الملك الإله الذي من أجله بني هذا المعبد هو الآخر يموت ويزول. نعم ولكنه وحده من حقه الانضمام للآلهة في السماء، ولذلك تشيد له المقابر والمعابد التي لن تزول حتى نهاية الكون. ولكن ألا يدرك هذا الملك الإله، في أى لحظة من اللحظات، ضعفه كإنسان وفناءه يوما ما مثل أى انسان عادى؟!
يبدو أن هذا لم يكن يدور في خلده وأنه كان يتجرد من إنسانيته بدليل هذا الكم الهائل من المقابر والمعابد على مدار آلاف السنين.

أشعر بهذا المبنى العملاق وكأنه يخاطبنى من الماضى السحيق:
" لم ولن يتغير شىء... هذا المكان المقدس شاهد أبدى على ذلك.
لم ولن يتغير شىء... الملك الإله سيعيش مثل الخالدين على الأرض تخدمه بطانته، وليذهب الآخرون إلى الجحيم. وعلى أى حال فلا يبدو أن هؤلاء الآخرين يمانعون، فهم يعيشون كالأموات لا يطالبون بشىء ولا يحتاجون لشىء سوى قوت اليوم... الشىء الوحيد المتبقى الذى لا يمسه الملك الإله وبطانته... حتى الآن."

لعنة الله على هذا البلد الشاذ. كيف تستبدل الناس حياتها بهذا المفهوم الجنائزى الذى تصبح معه فكرة تغيير وإصلاح الحياة أمرا عبثيا؟! كيف يتحملون؟! ولكن مهلا،... هل هم أحياء فعلا؟! هل كانوا أحياء فى يوم ما؟! هل هناك أمل؟! أم أن عجزى عن تقبل الواقع العبثى هو الذى يصور لى أن هناك أملا؟!

لعنة الله على هذه الصخور الضخمة... لعنة الله على الأجداد الذين أصابونا بهذه اللعنة... لعنة الله عليهم، لعنة الله عليهم.

أفقت من شرودى فجأة على إضاءة الهاتف الذى بدا لى وكأنه يرن منذ فترة طويلة دون أن أكتشف ذلك بسبب خفضى لصوت الجرس.

- آلو. أستاذ محمد!
- أستاذة نجاة؟! كيف حالك؟!
- الحمد لله. أنت لن تتخيل تأثيرك علىَّ... منذ أن تركتنى وأنا لا أنفك أفكر فى الكلام الذى حدثتنى به. أعذرنى إذا كنت خيبت ظنك فأنا منذ بضعة أعوام لا أفعل شيئا كمتطوعة سوى الاتصال بالأسر الأكثر إثارة للشفقة على وجه الأرض لمساعدتهم. ولكن المشكلة أنه حتى اليوم لم يتغير شىء فى حال تلك الأسر،... لا شىء على

الإطلاق. بل على العكس، فبعد أن كنت أتأثر فى البداية بتعففهم عن قبول المساعدات أصبحوا الآن يستعجلونها إذا تأخرت دون استحياء. وأنا بداخلى لا أشعر أن هذا صواب ويشعرنى بعبث ما أفعله ولكننى حتى اليوم لم أجد طريقة أخرى للمساعدة. منذ أن تركتنى قبل بضع ساعات وأنا أفكر فى كل الأحلام التى سمعت البعض هنا يحلم بتحقيقها ويعجز عن ذلك لعدم وجود مساندة. تذكرت كل هؤلاء الأشخاص المتحمسين فجأة، بل وبدأت الاتصال بهم. مشروعات صغيرة حقيقية تتناسب مع قدرات أصحاب هذه الأفكار. لن تصدقنى اذا قلت لك أن لدى عشرة مشاريع على الأقل تنطبق عليها المواصفات التى ذكرتها. هل تصدقنى؟

نظرت إليها وهى تتحدث بحماسة وقوة فلم أستطع منع نفسى من الابتسام وأنا أقول:

- نعم أصدقك.

- حسنا، كيف أرسل لك كل هذا؟ كيف أجعلك تقابل هؤلاء الشباب؟ هل تستطيع إرسال بريدك الإليكترونى؟

- نعم. سيصلك الآن. هل تجيدين استخدام الحاسب الآلى؟

- طبعا، بل إن أحد هذه المشروعات هو مركز لتعليم الحاسب الآلى للأولاد الصغار. فمدارسنا هنا لا تزال تفتقر إلى الأجهزة.

- حاسب آلى هناك لديكم؟! هل هذا ممكن؟

- طبعا ولكن هل ستقبل بعض المشروعات التى يتقدم بها أناس ليسوا معدمين تماما؟!

- سأقبل مساندة أى مشروع يحقق أهدافا تنموية ويكون صاحب فكرته متحمسا مثلك ويريد له النجاح. من يدرى ربما يكون هذا هو المدخل الوحيد للبداية كمرحلة أولى.

- فعلا يا أستاذ محمد، ستفعل ذلك؟

- فعلا يا أستاذة نجاة.

- أشكرك يا أستاذ محمد، لن تتخيل مدى سعادتى اليوم. لن أنام حتى أرسل لك ما جمعته من معلومات حتى الآن...

- مهلا مهلا يا أستاذة نجاة. أنا أقدر حماستك ولكن أنا لدى طريقة مختلفة لبدء التعاون. أنا دوما أميل للتخطيط والدراسة الجيدة قبل الاندفاع. ولكى نضمن النجاح فسنختار مشروعا واحدا فقط نعتقد أنه الأقرب إلى تحقيق فرص النجاح. وهذا المشروع هو الذى سنركز عليه حتى ينجح بإذن الله. ومن خلال هذه التجربة سنستخلص القواعد والأسس التى يمكن التعاون فيها لتنمية المكان. إذا أرسلت لى بريدك الإليكترونى الآن سأرسل لك مجموعة من الملفات. الأول يحوى الشروط الواجب توافرها فى المشروع. الثانى يحوى شروطا أخرى يجب أن تنطبق على صاحب الفكرة. الثالث به البيانات والدراسات المطلوب استيفاؤها قبل البدء للتأكد من تكامل عناصر المشروع وجدواه الاقتصادية والتنموية.

- أرسل كل ما تريده وسنقوم باستيفائه فورا.

- أستاذة نجاة، لا يمكن أن تتصورى أهمية هذا الموضوع بالنسبة لى. أنا أقدر حماستك وهى تملأنى بالسعادة لكن أرجوك ألا تطغى حماستك للبدء على رغبتنا فى أن نبدأ بداية صحيحة نستطيع أن نبنى عليها أساسا متينا فيما بعد. وأنا من الآن أحذرك من أن نجاح أول تجربة سيكون صعبا وسيأخذ وقتا، ولكن إذا تمت بصورة سليمة فستخلق أساسا لخمسة مشاريع أخرى ستأخذ وقتا أطول قبل أن تصبح خمسين مشروعا. ليس المهم سرعة الانتشار بقدر ما هو مهم إقامة أسس سليمة بصورة تجعل آلية النمو لا تخضع لأفراد محددين وتحقق الهدف الذى نطمح إلى تحقيقه.

- حسنا، حسنا، لقد أرسلت لك بريدى وأنتظر رسالتك بفارغ الصبر.

- ستصلك غدا بإذن الله.

- حسنا، شكرا يا أستاذ محمد.

- الشكر لك... يا نجاة.

الفترة من عام ٢٠٢٨ وحتى ٢٠٣٢

أعتقد أننى أمضيت حوالى عام أو أكثر بقليل أتردد على نفس القرية. وبالرغم من حماسة نجاة الفائقة فإننا لم نتوصل لمشروع محدد نبدأ به إلا بعد دراسة ما لا يقل عن عشرين مشروعا مختلفا. وقد استغرق هذا منى عاما كاملا من المتابعة اللصيقة والمراقبة وعدد مهول من الزيارات الميدانية حتى أستطيع أن أتفهم طبيعة البنية الاقتصادية والاجتماعية للمكان.

وفى نهاية تلك الفترة قمنا بتعديل أهداف نشاطنا التنموى وكتابتها، وحددنا بوضوح الفئات المستهدفة وكيفية إدارة العلاقة معها. والحقيقة أنه بسبب ذيوع صيت نجاح المشروع الرائد فقد بدأ العديد من الأهالى يلجأون إلينا بأفكار مختلفة يرغبون فى تنفيذها. وقد قمت باختيار خمسة مشاريع أخرى نموذجية فى العام التالى قبل أن أبدأ بنشر نتائج هذه التجربة والدعوى لتعميمها من خلال تأسيس "الحركة" على الشبكة فى عام ٢٠٣٠.

وكان لتطبيق فكرة مجموعات الـ "Brainstorming" على الشبكة أثر عظيم فى إضافة مزيد من الأفكار والاقتراحات المبتكرة لنشاط الحركة وخاصة أنه فى أغلب الأحيان كانت المجموعة تضم أناسا من تخصصات مختلفة. وكانت هذه الفترة من أكثر الفترات استقرارا والتى عملت فيها بحماسة متناهية، تدفعنى رغبة جامحة فى تحقيق شيء كنت أستشعر أنه أول خطوة على الطريق الصحيح الذى يريدنى الله أن أسلكه.

وشعرت لأول مرة فى حياتى أننى أسعى لتحقيق الهدف الذى خلقت من أجله مما ملأنى بالسعادة والرضا. لم أشعر بأى تردد أو

تأنيب ضمير أوشك فى جدوى ما أفعله، وكنت بالفعل أنام كل يوم بسلام تملأ نفسى السكينة.

خلال تلك السنوات الخمس توقفت تماما عن كتابة أية مذكرات. أما الشركة التى كانت تزدهر يوما بعد يوم فقد أصبح خالد مديرها التنفيذى. وبالرغم من عدم شعبيته بين الموظفين بسبب صرامته وحدته فإنه كان يحظى بكثير من الاحترام مع إجماع الجميع بقدرته الفائقة على إدارة الشركة وتحفيز كل من يعمل معه ليعطوا أفضل ما لديهم.

كنت قد رأست أول جمعية عمومية فى بداية عام ٢٠٢٨ واعتمدت تعديل عقد الشركة لكى يستفيد العاملين من الأرباح. فاعتمدت توزيع ١٠% من صافى الأرباح على العاملين و٢٠% لتدريبهم و٣٠% أخرى لدعم تعليم أبنائهم و١٠% تبرعات توجه لأنشطة تنموية أتحكم أنا فى توجيهها. أما الثلاثون بالمائة المتبقية فكانت توزع علىَّ أنا ووالدتى وفرح. وارتبط صرف هذه النسب بشرط زيادة الأرباح عن مبلغ محدد حتى تمثل نسبة الـ٣٠% المتبقية الحد الأدنى لمصروفات إعاشتنا كأسرة.

وبما أن الشركة حينذاك كانت تحقق خسائر منذ عامين فلم يكن هذا البند ليؤثر فى شىء، حيث بدت فكرة استفادة العاملين من توزيع الأرباح بعد تحقيق الحد الأدنى المقرر فكرة بعيدة المنال. ولكن عندما بدأ خالد فى تنفيذ مشروعه ونجح نجاحا مبهرا بدأ الجميع يتحمسون ويبذلون أقصى ما فى وسعهم. وفى العام الثانى للمشروع شعر الجميع أنهم قريبون من تحقيق حلمهم. وبدأت الإشاعات تسرى بين العاملين أننى لن ألتزم بتعديل عقد الشركة وسأقوم بإلغائه لأننى لم أكن أتوقع أن تحقق الشركة مثل هذه الأرباح فى هذا الزمن القصير. وعندها طلب خالد مقابلتى لمعرفة

ما إذا كنت بالفعل سأوفى بوعدى مهما كان مبلغ الأرباح مرتفعا، فطمأنته قائلا:

- نجاح الشركة السريع أساسه، فضلا عن خطتك التسويقية المتميزة وإصرارك على إنجاحها، هو نيتنا فى أن نجعل هذا النجاح ينعكس على تغيير حياة أكبر قدر ممكن من الناس للأفضل.

وبالفعل فقد التزمنا بصرف النسب التى وعدنا بها مما جعل دخل العاملين بالشركة من أعلى الدخول فى مصر مقارنة بالخبرات المماثلة التى تعمل حتى فى شركات أجنبية.

والعجيب أن أكثر ما حفز العاملين كان دعم تعليم أبنائهم والمنح المخصصة للمتفوقين منهم. وكانت هذه الفترة بالصدفة هى التى وصل فيها أولاد حسن إلى سن الالتحاق بالمدارس. وكم كان حسن سعيدا بتمكن أولاده من تعلم مهارات ولغات أجنبية بطلاقة منذ الصغر، وهو ما لم يكن يوفره سوى التعليم الخاص العالى الكلفة. وكان حسن قد أنجب بعد سنتين من مولد عمرو ولدا آخر أسماه وليد ثم بنتا - لم يخطط لإنجابها- بعد وليد بأربع سنوات.

وعلى صعيد أسرتى الصغيرة فقد تحسنت فرح كثيرا بمساعدة والدتى حتى بدأت أطمئن إلى أنها تجاوزت أزمتها بسلام. وبمعجزة بدا وكأنها قطعت علاقتها تماما بالماضى وقررت أن تمضى قدما فى حياتها. وفى أحد الأيام فوجئت بوالدتى تحدثنى عن طبيب يدعى "على" يرغب فى التقدم للزواج من فرح. اكتشفت حينذاك أنها تعرفت عليه من خلال الشبكة منذ فترة طويلة دون أن تخبرنى. وبسرعة فائقة أذهلتنا جميعا تحولت إلى زوجة لتنجب نصار الصغير بعد عام واحد من الزواج فتبدأ والدتى مرحلة جديدة فى حياتها الأسرية كجدة.

أما أنا، فبالرغم من أننى لم أنس فريدة طوال هذه الفترة فإن الاضطراب الذى كان يراودنى عند تذكرها اختفى تماما ليحل محله إحساس آخر بالسكينة لا أستطيع وصفه. إحساس ما بأنه لم تكن هناك مطلقا أى مشكلة أدت لانفصالنا.

وخلال تلك الفترة كانت الحركة تنمو بانتظام. كان لدى تصور خاطئ حينذاك أن مناوشات الأمن وتضييق الخناق على المتطوعين واعتقال البعض منهم من حين إلى آخر هى ممارسات قمعية فظيعة تنغص علىَّ حياتى. وبدأ الإحباط يتسلل تدريجيا، مع شعور عام باليأس من إمكانية تحقيق أى شىء إيجابى فى هذا البلد. ولكننى عندما أسترجع تصرفات الأمن خلال تلك الفترة وأقارنها بما بدأ يحدث بعد ذلك بخمسة عشرة عاما أدرك أننا كنا نتمتع خلال تلك الفترة بقدر هائل من الحرية والمرونة فى العمل. أما هذه المنغصات التى أصابتنى بالإحباط حينذاك فهى لم تكن سوى تفاهات لا تستحق حتى التوقف عندها.

وخلال تلك السنوات كان هناك استقرار سياسى مدعوم منذ فترة أزلية بدستور وقوانين وقبضة أمنية تحول تماما دون ورود فكرة التغيير على بال أى انسان. والحقيقة أن هذا قد أفاد الحركة كثيرا فى بدايتها. فيأس الكثيرين من تحقيق أى شىء إيجابى من خلال الانتماءات السياسية الضعيفة القائمة شجعهم على الانضمام إلى أى حركة تنموية يستطيعون أن يشعروا فيها بقدرتهم على إحداث فرق ما.

ولم يهدد استقرار النظام السياسى خلال تلك الفترة سوى الاضطرابات العنيفة التى كانت تندلع من حين لآخر فى بعض

المناطق نتيجة لمجاعة المياه. وشهدت مصر قفزة هائلة خلال بضعة أعوام فى أسعار المياه الصالحة للشرب والاستخدام الآدمى.

أما ارتفاع معدلات الجريمة وحوادث الطرق فهى لم تهدد أمن النظام بقدر ما أصبحت تبث روح عدم الأمان والخوف فى قلوب الجميع، الميسورو الحال وأصحاب السلطة قبل المعدمين الذين أصبح لا يخيفهم شىء. بل إن الكثيرين منهم أصبحوا يفضلون الموت على هذه الحياة البائسة.

وأعتقد أنه فى النصف الثانى من عام ٢٠٣٢ بدأ الإحباط ينمو بداخلى بصورة متضخمة. فبالإضافة إلى التضييق الأمنى الغير مفهوم، بدأ بعض المتطوعين، بدافع الحماسة الشديدة، يتخلون عن الالتزام بالأسس التى قامت عليها الحركة، مما ساهم فى تعثر كثير من المشاريع. وقد زاد من هذه المشكلة عدم القدرة على توجيه المتطوعين لأن مبادئ الحركة كانت تعطى حرية مطلقة ليتصرف كل منهم وفق رؤيته الخاصة، وهو أمر لم أستطع قط تغييره بالرغم من محاولاتى المستميتة فى جعل الأمور تسير وفق رؤيتى الخاصة.

وفى نهاية تلك الفترة اختفى إحساس السكينة الذى كان يراودنى لبضع سنوات وعدت لأتساءل مرة أخرى عما إذا كان الله يريدنى أن أغيّر من مسار حياتى. تقاذفتنى الهواجس المحيرة عن جدوى وصواب ما أفعله، وبدأت أشعر بضرورة أن أفعل شيئا مختلفا ولكننى لم أستطع كالعادة تحديد نقطة البداية. كنت كما لو أننى أنتظر إشارة ما... قد لا تأتى أبدا.

نهاية عام ٢٠٣٢

الحرية

فى هذا اليوم فوجئت بفرح تتصل بى لتطلب مقابلتى بعد العمل فى إحدى المقاهى المزدحمة دون أن توضح لى السبب. انصرفت من العمل مبكرا متوجسا بالرغم من محاولتها طمأنتى مؤكدة أنها تريدنى لشىء غير هام.

كان المكان صاخبا يعج بالحركة فأخذت أبحث عنها حتى وجدتها. اقتربت منها وهى ترشف من كوب شراب ساخن له رائحة جميلة.

جلست أمامها أتأمل وجهها الطفولى الذى لا يزال بريئا بالرغم من كل ما مرت به. كان غطاء الرأس الذى ترتديه لونه فاتح للغاية، يتماشى مع ألوان ثيابها الفاتحة المتسعة التى لا تظهر تفاصيل جسدها الصغير ولكن بصورة ما يناسبها للغاية.

- لقد أقلقتينى، أهناك خطب ما؟!
- لا، لا تجزع هكذا. فقط أريد التحدث معك.
- ولماذا فى هذا المكان الصاخب؟! لماذا لا نفعل ذلك فى المنزل؟
- هكذا أفضل.
- حسنا، كيف حالكم... زوجك العزيز ونصار الصغير.
- الحمد لله. على يقضى معظم وقته فى المستشفى يحاول بصعوبة أن يستقطع مزيدا من الوقت لنا ولأنشطته الأخرى. أما نصار فهو لا ينفك يدهشنى كل يوم بأفكار شيطانية جديدة أنهره عليها. بصراحة لا أتذكر أننا كنا هكذا ونحن صغار.
- هذا هو بالقطع ما كان يقوله أهلنا عندما كنا أطفالا.

- لا، لا أنا أتكلم بجدية، هذا الجيل بالقطع إما جيناته مختلفة وإما أنه يعانى من اضطراب أو عصبية ما بسبب السحابة السوداء. لا أدرى ولكننى أشعر بأن الأمر غير طبيعى.
- أنت تبالغين دوما.
- جائز... ولكنك لن تدرى عما أتحدث إلا عندما ترزق أنت بأولاد.
- بعد اللى قلتيه، الحمد لله أننى لا أفكر فى هذا الموضوع الآن. المهم أنت كيف حالك؟ هل أنت راضية؟
- الحمد لله... الحمد لله.
شعرت بصدق نبرتها فتنهدت فى ارتياح حتى باغتتنى فجأة.
- هل تحمل وسيلة اتصال؟
- لا، لا أحمل شيئا. لماذا تسألين؟ ألا تحملين هاتفك؟
- بلى، ولكننى تركته فى العربة، فأنت تعلم ما يقال عن أنه فى بعض الأحيان يتم تحديد أماكن الأشخاص المطلوب مراقبتهم بواسطة وسائل الاتصال ليتم التنصت على أحاديثهم عن بعد.
- من الذى قال لك ذلك؟
- لقد قرأته فى تعليمات الأمان الوقائية على موقع "الحركة".
- ...
- لا تجزع هكذا. نحن بأمان تام هنا.
نظرت إلى عينيها مليا فأدركت أنه لا جدوى من المراوغة.
- كيف علمت أن لى علاقة بالحركة؟
- بالقطع لم يكن من الصعب تخمين أنك أنت الذى أرسلت لى وصلة للموقع. وبالقطع أنا لم أكن أستطيع منع نفسى من الاشتراك فى هذه المشاريع. بل وحتى دعوة الكثيرين للتطوع بها.
- فرح! أرجوك لا تتمادى، فأنا لن أسامح نفسى مطلقا إذا عرضتك للخطر.
- لا تخش شيئا، فأنا أكثر حيطة من ذى قبل ولا يمكن اكتشاف علاقتى بأى شىء. كذلك أحلف لك أننى لا أشترك معهم سوى فى

فعل الخير ولا شيء غير ذلك. فهذا قد أعطى معنى لحياتى كنت أحتاجه بشدة للخروج من أزمتى.

- ماذا تعنين عندما تقولين أنك تشتركين "معهم". فرح... هل ما زلت على اتصال بهم؟

- ... نعم، لكن فقط فى مشاريع الحركة التنموية. أقسم لك أنه لا علاقة لى بأى شيء آخر.

- لا أدرى كيف أقنعك بضرورة التوقف عن التمادى فى هذا الأمر... فقط لأننى أخاف عليك. لقد قلت لك من قبل أنه ليس لدى شيء محدد ضدهم، ولكن تذكرى ما يمكن أن يحدث لوالدتنا إذا حدث لك مكروه مرة أخرى.

- والدتى تعلم.

- ماذا تقولين؟! تعلم وتوافق على ما تفعلين!

- بالطبع لا تعلم أية تفاصيل، ولكنها تعلم أن هذا كان مهما للغاية للخروج من أزمتى. ولكن دعنى أعود لكلامك. أنت تقول إنه ليس لديك شيء محدد ضدهم. ماذا تعنى بهذا؟

كنت مذهولا من البساطة التى تتحدث بها فى هذا الموضوع فأطرقت قليلا قبل أن أجيب.

- أكذب عليك لو قلت لك أننى أستطيع تكوين صورة واضحة.

- لماذا؟

- السبب الأول بالطبع لا يرجع إليهم ولكن يعود إلى البطش الأمنى والتعتيم الإعلامى الذى جعلهم لا يستطيعون الظهور بوضوح فى العلن. السبب الثانى هو أن الرابط الذى يجمعهم أصبح غير واضح المعالم. فعلى الرغم من أن هناك أناسا بينهم متميزين للغاية فى شتى المجالات وفى غاية التفتح والتطور فإن بينهم آخرين فى غاية الانغلاق والجمود لدرجة تجعلنى لا أستطيع تحديد موقف واحد منهم. فى بعض الأحيان أتشكك أنهم يكونون وحدة واحدة أو أنهم يعتنقون حتى نفس المبادئ. لا أدرى هل هم منقسمون على أنفسهم أم أن جوهرهم واحد... لا أدرى... كما

فلت لأن النظام يضطهدهم فإن هذا يجعلهم غير واضحين بالنسبة لكثيرين من الناس وأنا واحد منهم.
- ولكنك بالقطع توافق على الخير الذى يؤدونه.
- قطعا، ومتحمس جدا لكثير من مشاريعهم التنموية وأوافق على كثير من آرائهم.
- إذن لماذا ترفض نشر اقتراحهم بجعل أعضاء الحركة يصوتون بالموافقة على السماح بنشر بعض الأفكار التى تعبر عن هويتهم العقائدية؟!
- لا تحدثينى فى هذا الموضوع مطلقا.
- أرجوك تحدث بصوت منخفض... لماذا لا تريد المناقشة؟
- لأننى أنا الذى قررت مبادئ الحركة وأنا لا أريد تغييرها.
- ولكنك تؤمن بالديمقراطية كما هو واضح من مبادئ التأسيس. لماذا فى هذه النقطة بالذات ترفض التصويت؟! حتى على يندهش كثيرا من هذا الأمر؟
- على؟! هل يعلم على بهذا؟
- قطعا، أنسيت أنه زوجى؟ كيف أخفى عنه أمرا كهذا؟ ولكن لا تقلق هو أقسم لى أن هذا سر بيننا لن يبوح به لأحد.
- أرجو لمصلحتنا جميعا أن يلتزم الجميع بالحرص الشديد فى هذا الأمر، فهم لن يرحمونا هذه المرة.
- لا تخش شيئا...، ولكن اشرح لى لماذا ترفض التصويت؟
- لأن فكرة الحركة وقوتها قائمة على عدم التعرض لأية انتماءات سياسية أو عقائد دينية وهم يمثلون الاثنين معا. الحركة تضم أى مواطن يرغب فى المساهمة فى التنمية حتى لو كان ملحدا. وأنا أريد أن أركز على الرغبات الإصلاحية التى يتفق عليها كل من يحلم بنهضة هذا البلد. آخر شىء أرغب فيه هو التركيز على الاختلافات التى تفرقهم. فهدف التنمية يحتاج إلى كل مجهود ممكن فى هذه المرحلة.

- ولكن الرغبة فى الإصلاح إذا اقترنت بعقيدة ورسالة سماوية واكتشاف لدور الإنسان الإصلاحى على الأرض فستكون أقوى.
- أنا شخصيا أتفق معك تماما، وهذا ما أؤمن به و يحفزنى ويقوينى. فالله دوما كان بجانبى، أشعر به يحملنى بحنية بالغة ليساعدنى فى كل المحن التى مررت بها والتى لجميعها حكمة بالغة. فأنا كنت مكتئبا ولم أتقرب من الله وأكتشف طريق سعادتى إلا عندما مررنا بالأزمة التى توفى فيها والدنا.
- كيف تقول ذلك؟ كيف أصبحت أكثر سعادة بعد وفاة والدنا؟
- هذا هو ما أشعر به.
- حسنا، لنترك هذا الموضوع جانبا، فكثير من الأشياء التى تقولها أعجز عن فهمها. لنعد إلى موضوعنا الأصلى. إذا أنت تؤمن بأن أساس ما تفعله هو الرغبة فى إرضاء ربك، وأن نيتك فى هذا العمل هى أن تفعل ما يمليه عليك دينك، فلماذا لا تتركهم يعبرون عن هذه الرسالة الإنسانية فى الموقع.
- لأن الله الذى خلق آدم هو الذى ترك له حرية ارتكاب المعصية. ولو أراد الله لخلق الانسان مثل باقى الملائكة عاجزا عن فعل المعصية ولكنه لم يفعل. فإذا كان الله لم يفعل ذلك فمن حقى كإنسان أن أدعو الناس لعمل أؤمن بأنه إصلاح للأرض وأترك لهم مطلق الحرية فى تحديد علاقتهم بالله. صدقينى هذا العمل بهذه الطريقة سيقرب فى النهاية الجميع من الله.
- ولكن كل ما تقوله لا يتعارض مع فكرة السماح لهم بطرح معتقداتهم على أفراد الحركة، وهم فى النهاية أحرار لن يجبرهم أحد على شيء.
- أنا لست ضد حرية التعبير بل على العكس تماما. وهم بالقطع لا يحتاجون للحركة لمساعدتهم فى ذلك. فرسالتهم تصل لكثير من الناس كما أرى، ولا أفهم لماذا يحتاجون التدخل فى عمل تنموى بسيط يرتبط بعشرات المشاريع فقط بينما مشاريعهم ترتبط بملايين من الناس؟! كل ما فى الأمر أنهم يسعون للحكم والسلطة مثلهم مثل

أى حزب سياسى وهو ما أرفض التعرض له فى الحركة.هم قد انضموا للحركة على هذا الأساس، وكانوا يعلمون مبدأ إخفاء هوية المتطوعين وانتماءاتهم العقائدية والسياسية، لماذا يريدون تغيير هذا الآن؟! أنا حر فى رفض أن يتم ربط الحركة بأى صورة من الصور بحزب سياسى؛ لأن فكرة الحركة تنتفى تماما مع فكرة السعى للسلطة.

- لماذا ترى طريق الإصلاح يتعارض مع فكرة السعى للسلطة إذا كان هذا سيحقق هدف الإصلاح بصورة أفضل وأسرع؟! أنت بنفسك ترى المعاناة التى يتكبدها الجميع والحرب التى نتعرض لها من أجل فعل الخير فى ظل هذا النظام المتعسف.

- أولا يجب أن أعترف لك أننى شخصيا أتعاطف معهم كثيرا، وأعتقد أنهم تعرضوا لظلم بيّن ومحاكمات غير دستورية ومصادرة غير عادلة لأموالهم. والسبب الرئيسى فى ذلك أن لهم وجهة نظر إصلاحية ترتبط بتغيير الوضع القائم وهو، كما أعتقد، ليس بجريمة بل إننى أراه فضيلة فى ظروفنا الحالية.

ثانيا، أنا لا أرى أن السعى للسلطة بالضرورة يتعارض مع الإصلاح، ولكننى أرى أن كل مجهودات التغيير تنصب الآن فى اتجاه سياسى وأنا لدى رؤية مختلفة عن أولويات هذه المرحلة بالنسبة لى وبالنسبة للدور الصغير الذى أستطيع القيام به... هذه قناعتى أنا الشخصية. أنا لا أرى أن من سيأتى إلى السلطة الآن، أيا ما كان، ومهما كانت نواياه طيبة فإنه سيكتشف أن الغالبية العظمى من الناس فقدت الإيمان بنفسها وفى إمكانية التغيير والحلم بمستقبل أفضل. الفساد استشرى فى الناس كانتشار النار فى الهشيم. أنا أؤمن بأن غالبية الناس أصبحت ضعيفة وغير قادرة على اكتشاف طريقها ومكامن قوتها الداخلية. أنا لا أؤمن بأن السيطرة السياسية ستتمكن من علاج هذا المرض المعدى الذى أصاب معظم سكان هذا البلد.

أن يؤمن الناس بالقوة الذاتية بداخلهم التى تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم والتخلص من إفقارهم... التخلص من الجبن... السعى نحو حياة أفضل يختارونها هم... هذا هو حلمى. أن يؤمن الناس بالتعليم الحقيقى ويضحوا بكل شيء مادى فى سبيل هذا الهدف المستقبلى البعيد هو غايتى فى هذه الحياة. هذا الحلم لا علاقة له بالوصول للسلطة ولا يتعارض مع من يرغب فيها بأى صورة من الصور. فليسع كل من يريد إلى السلطة، ولنحاول نحن جعل الناس أفضل حتى يروا بوضوح ما يريدونه من حكامهم الذين يختارونهم.

- أى اختيار؟! أنت تعلم أن هناك احتكار للحكم منذ أن ظهرت مصر فى التاريخ.

- ولكن هذا لن يستمر للأبد.

- كيف وأنت ترفض محاولات كسر احتكار السلطة من قبل أى مخلوق.

- هذا ليس صحيحا. أنا لا أرفض هذا، ولكننى أقول ببساطة إننى أنا شخصيا لا أجد لى دورا فى ذلك. لن أنزلق إلى هذه الصراعات العبثية لأنه ليس بإمكانى تقديم أى شيء إيجابى فى هذا الاتجاه خلال هذه المرحلة الزمنية. ما أستطيع تقديمه هو فقط المساعدة فى إعادة اكتشاف الإنسان لموطن قوته ليتخلص من ضعفه وسلبيته وجبنه ويختار هو طريق التغيير الصحيح الذى يرتئيه.

- بداية الطريق لن تكون قبل إنهاء هذا الاحتكار الأزلى. أنت بنفسك جربت بطشهم وظلمهم.

- بطشهم وظلمهم أنار لى كثيرا من الأشياء التى كانت تخفى علىَّ. أنا لا أشعر بأى رغبة فى الانتقام ولكن فى تغيير حالة اللاشيء التى نعيشها والتى أدت بالجميع للاستسلام لهذا السرطان المتفشى دون مقاومة.

ما لا أفهمه هو لماذا هذا الإصرار على أن تتقاطع السبل؟! لماذا لا أستطيع المضى قدما فى طريقى وهم يمضون قدما فى طريقهم. أنا لم ولن أنتمى لحزب أو طائفة دينية من أى نوع أو أى جهة أيا كانت تسعى للسلطة. وبالرغم من ذلك فسوف أذهب بعكس كل من أعرفهم للانتخاب وأشجع كل من أعرفهم على هذه الخطوة الإيجابية بغض النظر عن نتائجها أو مدى إمكانية التغيير بهذه الطريقة التى يشوبها الكثير من التلاعب. بل وأكثر من ذلك فأنا فى الأغلب سأنتخبهم لأننى كما قلت مقتنع بكثير من توجهاتهم ولا أرى حاليا بدائل سياسية أخرى لها وجاهتها. بل وسأقول لك ما هو أبعد من ذلك وهو أن الحركة ستنمى بالتأكيد الروح الإيجابية لدى كل المؤمنين بها، وبالقطع سينعكس هذا على إصرارهم على الذهاب لصناديق الاقتراع للاختيار، وهذا قطعا سيفيدهم بصورة أو بأخرى. لكن ما علاقة هذا بالإصرار على تسييس الحركة والزج بها فى معارك خاسرة؟! معارك تستنفذ الجهد والموارد الضعيفة التى نحاول الاستفادة منها دون التقيد بتوجه سياسى قد يثبت خطؤه بمرور الوقت.

أنا أحلم بأن يتقرب الجميع من الله لا أن يفرض التقرب من الله من خلال نظام يديره حزب سياسى له مرجعية دينية. هذا مستحيل عمليا فى وقتنا الحاضر بسبب لعبة السياسة القذرة وما تفرضه من تغيير مستمر للمواقف والتحالفات والمواءمات، الأمر الذى لا يتناسب بأى صورة مع الثوابت الدينية.

- صدقنى هدفكم واحد، وهم سيساعدونك على تحقيق هدفك.

- على المدى القصير سيساهمون بالقطع فى نشر الحركة أسرع مما أستطيع بسبب تنظيمهم العريق ولكن على المدى البعيد فهم يهددون قيمة أقدسها.

- وما هى؟

- الحرية. أنا أحلم باليوم الذى يختار فيه كل إنسان بملء إرادته وكامل حريته أن تسيطر مبادىء الدين وأخلاقه على كافة مناحى علاقاتنا الإنسانية فى هذا الوطن. وعندما أقول كامل حرية الإنسان فأنا أتحدث عن بناء وعيه وتعليمه بحيث تترك له حرية تكوين إرادته المتفردة التى خلقه الله بها. وعندما أذكر المبادئ الدينية فأنا أقصد المبادئ السمحة التى تستوعب كل البشر بمختلف معتقداتهم. أنا أحلم باليوم الذى لا يجبر فيه الإنسان على فعل شىء حتى لو كان الصواب من وجهة نظر فهم وتفسير البعض للدين.
فعندما تجبر الناس على فعل الصواب من وجهة نظرك فإنك تقيم نفسك وصيا عليهم بدون وجه حق، وتتجاهل نيتهم فى فعل ذلك الصواب، وبالتالى تسقط الحسنات التى ترتبط بنية العمل.

أنا أحلم باليوم الذى يصبح فيه كل المصريين متساوين، لا فرق بين أحدهم والآخر إلا بعمله. ولعلمك فكثيرون ممن لا يحملون بطاقات بها خانة دين إسلامى يتحلون بأخلاق الإسلام أكثر بكثير ممن هم منسوبون للإسلام بحكم ميلادهم دون اختيار.

وأنا قد أختار أن يمثلنى من هو ليس مسلما إذا كان يعمل بأخلاق الإسلام أكثر ممن يدعون بأنهم مسلمون. فلنضع دستورا لا يفرق بين المواطنين وليختار الناس من يريدون ويجربوا، وإذا لم يعجبهم أداء من اختاروهم فليغيروهم. أما أنا عن نفسى فعندما يأتى اليوم الذى نختار فيه كمواطنين من يحكموننا فبالقطع حكمى عليهم سيكون مبنيا على أداء وأرقام إحصائية ومدى التزامهم بتحقيق برامجهم التى تعتمد على معلومات دقيقة وسليمة. وقطعا لن يكون لخانة الديانة أى تأثير على قرارى فى انتخابهم وذلك لصعوبة حكمى على علاقة أناس بالله أنا لا أعرفهم شخصيا.
- ماذا تعنى؟ أتقبل أن يحكمك من هو غير مسلم؟

ولماذا عندما يتم ذكر هذا الموضوع يتراءى لى سلبية غالبية المصريين الذين يحملون بطاقات ذات خانة إسلامية جالسين مثل قابلة السلطان لا يذهبون لصناديق الاقتراع! فهم واثقون أن أى مواطن لا يحمل "بطاقة مسلم" سيعجز عن الترشح بسبب دستور عقيم. وعلى الصعيد الآخر يبادر أصحاب الديانة الأخرى بالذهاب بكثافة إلى صناديق الاقتراع لاختيار أى بديل سيئ وظالم طالما أنه يبطش بأى توجه سياسى له شعار إسلامى.
فليرشح من يشاء نفسه، واذا كان غالبية المصريين المسلمين لديهم حساسية تجاه هذا الموضوع فليذهبوا للاقتراع للتأكد من أنه لن يتم اختيار مرشح من ديانة أخرى. على الأقل سيحرص الجميع على الذهاب للاختيار.

ولكن كل هذه افتراضات نظرية لأنه ما زالت نسبة الذين يذهبون للانتخاب أقلية، لا يستطيع أحد أن يجزم بأرقام دقيقة نسبة تزوير إرادتها الغير مؤثرة. كذلك لا توجد حرية فى الترشح وبالتالى لا توجد بدائل. صدقينى ليست هذه هى البداية.

البداية كما أؤمن هى ما نفعله فى الحركة. ومن يدرى فقد يخطو الجيل الثانى أو الثالث خطوة أبعد ويبدأ فى التحرك السياسى، ولكن بعد أن يكون الوعى والحرية قد انتشرا بين كافة الطبقات. صدقينى كل هذه مهاترات لا معنى لها فى هذه المرحلة التى نمر بها.
- حسنا، يبدو أنك مصمم على موقفك ونحن نتفرع إلى موضوعات لا علاقة لها بطلبى البسيط. أرجو منك فقط أن تعدنى بالتفكير فى موضوع التصويت هذا. أرجوك.
رددت متنهدا باستسلام لأتخلص من عنادها:
- حسنا،... سأفكر ولكننى لا أعدك بشيء.
- هذا يكفينى.

- حسنا، فقط عدينى بأن لا تنغمسى فى هذه الموضوعات وأن تأخذى حذرك وتهتمى بحياتك الشخصية.
- أن آخذ حذرى نعم... ولكن ألا تستغرقنى هذه الأمور فهذه هى حياتى الآن، وهذا هو الأمل الذى يحركنى ويجعلنى أتخطى ما مررت به... من يدرى قد أنجح فى هذا فى يوم من الأيام.
- أنا واثق من أنك ستنجحين فقد كنت دوما محبة للحياة.
نظرت إلىَّ طويلا دون أن ترد ثم وكأنها تذكرت شيئا نظرت فجأة فى ساعتها وهى تمسك بحقيبتها:
- لقد تأخرت. نصار ما زال بالحضانة ويجب أن أمر عليه لأصطحبه.
- يا خبر، أتتركينه حتى الآن؟ وتقولين لى إنه يصيبك بالجنون بسبب تصرفاته. أسرعى حتى لا يستقبلك بالعصا.
- حسنا، سأذهب الآن.

حاولت أن تخرج نقودا من حقيبتها ونحن ننهض فأمسكت بيدها واقتربت منها لأقبلها على وجنتها وأنا أهمس لها:
- خلى بالك من نفسك، أنت غالية جدا علينا.
طرفت بعينيها عدة مرات تأثرا ثم أسرعت نحو الخارج دون أن تلتفت وراءها.

بعد عدة أسابيع من التردد والحيرة الشديدة غلبت قيمة الحرية على قناعاتى الشخصية وقررت أن أطرح الموضوع للتصويت.

"هل يقبل أعضاء الحركة أى مادة مكتوبة تشير إلى هوية الأعضاء العقائدية أم لا؟!"

وبالرغم من تأكدى من نتيجة التصويت بالقبول فإنه لعجبى الشديد فضّل أكثر من ٦٠% من المصوتين أن لا نغير أى مبدأ من

مبادىء التأسيس. وقد كان المنطق الذى ساقوه هو نجاح المبادئ الأصلية فى تحقيق أهداف الحركة التنموية طوال هذه السنوات الخمس بواسطة ومن أجل أى فئة من المصريين بغض النظر عن انتماءاتها العقائدية.

شعرت بارتياح شديد إلى هذه النتيجة وتصورت عندئذ أن هذه هى نهاية محاولات الزج بـ"الحركة" فى السياسة. تصورت يومها أننى لن أشهد مطلقا فى حياتى المساس بهذا المبدأ الذى تمسك بـه غالبيـة الأعضاء فى هذا اليوم. ولكن للأسف، كما تعلمون جميعا، تحطم حلمى الساذج عام ٢٠٤٤. هذا العام الذى شهد الكثير من الأحداث الصاخبة فى البلاد، والتى لم تكن لتمثل لى الكثير من الأهمية لولا أنها كانت بداية نهاية حلمى الساذج، والذى شهد بدء القضاء على "الحركة" التى حلمت بها.

كم ثمن الممسحة؟

كما ذكرت من قبل بدأ اليأس يتسرب إلى نفسى تدريجيا ويتمكن منى دون أن أشعر. والغريب أن حادثة غاية فى التفاهة هى التى جعلتنى أدرك كم الإحباط الذى عدت لأعانى منه وذلك بسبب عدم سير الأمور كما كنت أتمنى.

فبالرغم من تأخر موسم المطر هذا العام فإنه خلال ذلك اليوم أمطرت السماء بغزارة شديدة كما لم تفعلها من قبل. كنت عائدا إلى المنزل مديرا المساحات على أقصى سرعة وأنا أتبين الطريق بصعوبة شديدة.

وفى طريق مصر إسكندرية الصحراوى كانت تسير أمامى عربة نقل ضخمة تتمايل يمينا ويسارا. خفضت من سرعتى لأتفادى الاقتراب منها خوفا من أن تصدمنى. لوهلة ظننت أنها تنزلق بسبب الطريق الذى لم تكن المياه تصرف منه. ولمدة ثوان أخذت أرقب عن بعد منتظرا أن تنقلب العربة فى أى لحظة. وبعد دقيقة تبينت أن العربة تنحرف يمينا ويسارا بصورة منتظمة وكأن السائق هو الذى يتعمد فعل ذلك! ظللت مدة أسير خلفه ببطء شديد محتفظا بمسافة كافية تحسبا لأى طارئ، محاولا فهم ما يجرى دون جدوى بسبب غزارة المطر التى كانت تمنع الرؤية الواضحة. وفى لحظة محددة قررت المغامرة حيث إن انحراف العربة أصبح أكثر انتظاما متيحا لى المجال كى أمر بجواره. كنت أراقب الموقف بصعوبة شديدة عندما أذهلنى المشهد الذى أخذت أتابعه فاغرا فاهى فى الكاميرا الخلفية.

فقد كان السائق، الذى كان يرتدى كيسا بلاستيكيا لحماية ملابسه من البلل، يخرج كامل ذراعه من الزجاج الجانبى ممسكا بعصا مقشة مثبت فيها بإحكام ممسحة جلد بيد قصيرة. وكان الرجل يلصق وجهه فى الزجاج الأمامى من الداخل ليتمكن من فرد كامل طول ذراعه اليسرى على الزجاج من الخارج ليمسح المطر حتى يتمكن من رؤية الطريق. فالعربة طبعا لم تكن بها مساحات تعمل. ونتيجة لبعد الزجاج الخارجى عنه فقد اضطر السائق للنهوض من مقعده كل ثانية ليمسح مسحة ثم يترك نفسه يسقط جالسا على المقعد ثم يعاود الكرة بعد ثوان. وفى كل مرة كان ينهض فيها كانت العربة تنحرف بشدة أثناء اتكائه على المقود بيده اليمنى. وخمنت أنه بتكرار الحركة المستمر تدرب بمعجزة على أن يحافظ على اتزان العربة فيمنع انحرافها الشديد الخطورة كما كان يحدث فى البداية. لفترة لم أستطع الابتعاد عنه، أراقبه فى الكاميرا الخلفية بواسطة الزووم محتفظا بمسافة آمنة تفصلنا حتى وصلت إلى شارع منزلى فقمت بالانحراف ببطء حتى يتسنى لى مراقبته مرة أخيرة وهو يمر خلفى مستمرا فى طريقه.

عندما وصلت أمام جراج المنزل أحسست بكآبة شديدة، ضاعف من الإحساس بها الغيوم التى كانت تلبد السماء. وجدت نفسى عاجزا عن الترجل من السيارة مستسلما لمشاعر متضاربة ويتملكنى اليأس الشديد. لماذا تأثرت هكذا بهذا الموقف التافه؟ لا أدرى ولكننى وجدت نفسى عاجزا عن التخلص من الإحساس بالعبث والفشل.

أوقفت المساحات دون أن أدخل الجراج فوجدت المياه المنهمرة تمنعنى من رؤية أى شىء خارج السيارة. لم يحدث أن أمطرت الدنيا من قبل بهذا الشكل.

يا ترى إلى أين يذهب هذا الرجل، وما المسافة التى يجب أن يقطعها حتى يصل إلى **وجهته الأخيرة؟!**

هل يا ترى فاجأه المطر وهو فى الطريق لا يحمل مساحات فقرر التصرف على هذا النحو؟! ولكنه كان يستطيع أن يوقف العربة حتى انتهاء المطر، لماذا لم يفعل ذلك؟ ولكن هل يملك حقا أن يتوقف؟! كيف؟! كيف يتوقف ويضيّع وقت نقلة قد تكون مصدره الوحيد لقوت يومه هو وأسرته؟! هل كان يستطيع أن يعود إلى منزله خالى الوفاض هذا اليوم بسبب أن الدنيا تمطر؟! قطعا لا... كان يجب أن يتصرف بأى طريقة!

لكن هل فاجأه المطر فعلا؟! وإذا كان هذا هو ما حدث فعلا، فمن أين له بالكيس البلاستيك الضخم الذى يرتديه لحمايته من المطر والذى بدا لى أنه قصه بدقة ليخرج منه رأسه؟! كذلك من أين له بالعصا التى أطال بها الممسحة؟ وهل كان يستطيع تثبيت هذه الأشياء بهذه الدقة وضبط طولها ووزنها بحيث يستطيع استخدامها طوال الطريق بهذه الصورة؟! هل ما رأيته شيئا تم التخطيط له وتدبيره بعناية لاستخدام مواد متاحة لا تكلف شيئا بدلا من شراء مساحة للعربة؟! هل هو فعلا لا يملك ثمن المساحة أم أنه يحجم عن دفع النقود فى شىء يستطيع أن "يتصرف؟ بدونه؟ كم ثمن الممسحة بأى حال؟! ما ثمن حياته؟! ما ثمن حياة الآخرين الذين يهددهم على الطريق؟ كم ثمن المساحة؟... كم ثمن الممسحة؟

لم أستطع التركيز فى شىء خلال هذا اليوم المقبض الذى تخلله صياح رعد مخيف. وتعجبت من عدم قدرتى على التحكم بعقلى للفظ هذا المشهد التافه للسائق وهو يقفز على مقعده ليلتصق وجهه بالزجاج الأمامى.

أمن الجائز أن تكون هناك أمور غير قابلة للتغيير؟ من أين لى بهذه الثقة العمياء فى أن وجهة نظرى للإصلاح هى وجهة نظر عملية؟!

قد يكون كل ما أحاول تحقيقه لا يعدو أكثر من مجرد الحياة فى وهم جميل... وهم إمكانية جعل هذا العالم أفضل. ولكن لماذا أتصور دائما أن الأفضل من وجهة نظرى هو الصواب؟!

قد يكون حال الدنيا هكذا منذ بدءالخليقة وغير قابل للتغيير لأنه ببساطة قابل للتعايش معه وقابل للاستمرار! قد أكون أحارب طواحين الهواء؟! قد لا نكون محتاجين بالفعل للتغيير؟!

هل هذا السائق الذى يفكر بهذا المنطق الذى لا أستطيع فهمه على حق وأنا على خطأ؟! ما المرجع للصواب والخطأ؟

ما ثمن المساحة؟ قد تكون بالنسبة له أكثر بكثير مما أستطيع تصوره! جائز أنها ليست المساحة فقط. ففى الغالب هو يتعامل مع أمور أكثر خطورة بكثير من هذه كل يوم و"يتصرف" ليعيش. كم مرة تمطر فيها السماء بهذا الشكل خلال العام؟ هل هناك جدوى اقتصادية لشراء مساحة كهربائية لن تستخدم إلا بضعة أيام فى العام؟!

هل أنا ساذج عندما أتصور أنه بالإمكان تغيير الأمور؟ هل هناك شيء يتغير؟ هل الإنسان يتغير؟... هل الإنسان يتغير! هل يستطيع أن يتغير حتى لو أراد؟! هو بالتأكيد " يتصرف" ويصبح شديد المرونة ليحيا، ولكن هل يتغير؟

لم أستطع أن أتحكم فى ألا يتمكن منى اليأس. وحتى أثناء الصلاة كان ذهنى لا يزال مشتتا بهذا المشهد التافه. وكالعادة أثناء سجودى تخللنى هذا الاحساس المريح. الإحساس بأنه ينبغى علىَّ محاولة الإصلاح فى حدود قدراتى دون أن أكون مسئولا عن النتائج.

ولكن مرة أخرى يداهمنى محدد الزمن اللعين ليحبطنى ويجعلنى متيقنا من أننى لن أشهد أبدا نتاج ما أفعله فى حياتى. ثم عصف بى السؤال المفجع. ولكن هل سيكون لما أفعله أى تأثير على أى شىء حتى فى المستقبل البعيد؟... فى الأغلب لا... إذا كان الأمر هكذا فلماذا أرهق نفسى إذن بفعله؟! ألأننى إنسان حالم باحث عن السعادة، يريد أن يستمتع بالإحساس بأن له دورا مؤثرا فى هذه الحياة العبثية؟!

ولكن هل هذا هو دورى فعلا؟ أضيع وقتى فى أشياء لن تؤثر فى شىء... هذا بافتراض أن التغيير الذى أرغب فيه هو إصلاح حقيقى. ولكن هل هو إصلاح فعلا؟ هل لدى أى إنسان القدرة على إصلاح الأمور من حوله؟! فقط إذا كان هذا هو ما قدّره الله له.

ولكن هل أنا أفعل ما يتوجب علىَّ فعله؟ أرجوك يا رب، أعطنى أى إشارة على أننى أعمل ما تريده منى وأننى أفعل الصواب. أى إشارة مهما كانت تافهة سأفهمها وأتعلق بها وأتيقن أننى على الطريق الصحيح... أرجوك يا رب، فقد بدأت أتشكك فيما أفعله. أرجوك يا إلهى أى إشارة مهما كانت صغيرة. أرجوك اجعل لحياتى معنى وجدوى. أى إشارة ستكفينى ولن أطلب منك شيئا مطلقا ما حييت.

فى نفس ذلك اليوم وقبل أن أغفو ذهبت لأتفقد موقع الحركة. وجدت أحدهم قد أرسل وصلات لبعض المواقع الغريبة. بعد قراءتى لعناوين هذه المواقع وتفقدها سريعا قررت محو هذه الرسالة ومنعها من النشر وإرسال تحذير إلى راسلها حتى لا يتم استبعاده من المنتدى. وبالرغم من ذلك فقد عدت لأتفقد إحداها سريعا وكانت بعنوان **"هل تعلم أين تنفق أموالك؟"**. وللأسف فبعد تدمير هذا الموقع أصبحت عاجزا عن إيجاد هذا الملف الذى لم أحفظه فى حينها، ولذلك فسأقوم بتلخيص الأفكار التى أتذكرها منه فى الصفحة التالية.

(ما لم أقم بالتصريح ببثه على موقع الحركة من قبل)

هل تعلم أين تنفق أموالك؟

كان الموقع يتحدث عن شخصية تعمل بالبنك المركزي، وطبقا لمؤسس الموقع فإن هذه الشخصية كان لديها تصريح طبقا لطبيعة عملها المحاسبى بالاطلاع على كل الاعتمادات المستندية التى تقوم مؤسسة الرئاسة بطلب فتحها، سواء بصورة رسمية أو بصورة شخصية. ويدعى صاحب هذا الموقع أن هذه الشخصية قد أعطته مفتاح خزينة فى أحد البنوك الخاصة وطلب منه ألا يفتحها إلا اذا توفى بطريقة غير طبيعية، وهو ما حدث بالفعل عندما طعنه مختل وهو يتوجه إلى سيارته.

ويحكى هذا المؤسس الذى بالطبع يحافظ على هويته السرية أنه عندما فتح الخزينة وجد بها نسخة إليكترونية من كل القوائم المحاسبية والاعتمادات المستندية، مع تعليمات بنشرها على الشبكة. وحرصا على أداء الوصية فقد ادعى مؤسس الموقع أنه قام بنشر ما وجده كما هو دون تغيير.

أخذت أطالع هذه القوائم المحاسبية التى بدت لى واقعية للغاية بالرغم من عدم اقتناعى بهذه الرواية الخيالية. ولكن الغريب أننى عندما راجعت بعض هذه الاعتمادات وجدت صيغتها وبياناتها وتفاصيلها الدقيقة مطابقة للاعتمادات الحقيقية. أخذنى الفضول فأخذت أقلب آلاف الصفحات التى كانت تحوى كل ما يمكن أن يتخيله المرء، بدءا من قفازات ومقصات حدائق الرئاسة التى تكلف ملايين الدولارات وحتى العربات المصفحة التى تتعدى تكلفتها تكلفة الطائرة الخاصة. أثار انتباهى رقم الإجمالى السنوى لهذه الاعتمادات التى فاقت ميزانية التعليم والبحث العلمى

مجتمعين. جمعت أرقام السنوات المختلفة فذهلت من الرقم الذى بدا لى خياليا وغير قابل للتصديق... لقد كان من الممكن بناء هرم رابع بهذا المبلغ، قطعا الموضوع به مبالغة شديدة؟!

وأثناء تفحصى لشريط الأنباء الذى كان يجرى أسفل الشاشة أخذت أقرأ أخبار حوادث الطرق المروعة نتيجة للمطر الشديد. لم أستطع منع نفسى من التساؤل عما إذا كانت العربة التى شاهدتها اليوم كانت إحدى عربات النقل التى انقلبت لتتسبب فى مقتل العشرات من الضحايا. ثم بدأ يلح على السؤال التافه بصيغة مختلفة.

" يا ترى ما هى حقيقة الرقم الذى ينفقه المواطنون على معيشة الأسرة الحاكمة وأمنها؟!.. **يا ترى كم ثمن الممسحة؟! "**

الكرامة الإنسانية

جلست على مقهى مكتظ قريبا من بضعة نقاط ساخنة على شبكات مختلفة، وكانت هذه أول مرة منذ إسبوعين أفتح موقع الحركة. أثناء تفقدى الجزء الخاص بطلبات المساعدات الإضافية لفت انتباهى احتدام النقاش بين أحد المسئولين عن أحد قروض الحضانات التكنولوجية ومستشارة مالية تدلى برأيها فى منح المقترض قروضا إضافية. أخذت أقرأ بسرعة بداية المناقشة لأتابع ما يجرى.

- ما زلت مصرة على ضرورة معرفة رقم عائد التشغيل.
- من غير المعقول أن نطلب من رجل حداد بسيط احتساب مثل هذا الرقم!
- أرجوك، لا تتهرب من السؤال. أنت المسئول عن دراسة هذه الحالة ولديك كل البيانات لتجيبنى على مثل هذا السؤال.
- ولكننى أعطيتك كل الأرقام التى لدى.
- نعم ولكن لا يوجد حد فاصل محاسبى بين القرض القديم والجديد. فحسابات القرض القديم لا يوجد بها أى تسديدات حتى الآن وبالتالى لا نعرف بالضبط ما إذا كان ربح أم خسر، وهو يطلب قرضا أكبر مدعيا أن العائد من المشروع الصغير لا يكفى احتياجاته، وهو يحتاج لأن يتوسع ليستطيع تحقيق عائد مناسب.
- ولكن هذا صحيح.
- كيف تؤكد صحته وأنت لا تستطيع تقييم أدائه فى المشروع الأول. فعجزه عن رد أصل رأس المال لا يعنى بالنسبة لى أنه أنفقه فى غير موضعه وذلك لأحد سببين: السبب الأول هو إدارته لمشروع غير ذى جدوى اقتصادية، لا يحقق أرباحا بل يحقق خسائر لا يشعر بها لأنه يعتبر القرض المبدئى منحة لا ترد. والثانى أنه ينفق من أصل القرض على احتياجاته الشخصية

وليس على المشروع نفسه، وعندما اقتربت ساعة الحساب ابتكر هذه الفكرة الجهنمية للخروج من هذا المأزق عن طريق طلب قرض أكبر لتتوه المسائل.

- فى الواقع أنت صعبة جدا، وقد أخطأت عندما طلبت مشورتك المتخصصة للمساعدة.

عندها استشعرت وأنا أقرأ العبارات المكتوبة أننى أتعرف على منطق هذه المحللة المالية صعبة المراس.

- أنت لا تريد المساعدة. فأنت مقتنع أساسا بإعطاء مقترض سيىء قروضا إضافية، وتريد من يوافقك على ذلك بالرغم من أن هذا يتنافى مع مبادىء الحركة الأساسية.

- أنت لا تفهمين! إذا رأيت ابن هذا المقترض فستفهمين. إنه ليس فقط طالب نابغة ولكنه أيضا تلميذ مثالى، والمساعدات التى نقدمها لأهله هى التى تتيح لهم أن يكملوا تعليمه. إذا توقفنا عن مساعدتهم سنكون قد قضينا على مستقبل هذا الولد المليء بالإمكانات.

- أنا لا أرى أنك تساعد أهله بل تضرهم ضررا بالغا بجعلهم عالة على الآخرين. أين كرامة الإنسان وإطلاق الطاقة الكامنة بذاته التى تمكنه من الاعتماد على نفسه. لن أكرر مرة أخرى مبادئ الحركة الأساسية التى يبدو أنك لست مقتنعا بها.

- ولكنك لم تتعرفى على ابنهم. إذا قابلتيه ستفعلى أى شيء ليكمل تعليمه.

- وما علاقة هذا بطلب القرض الجديد؟!

- ماذا تعنين؟ هذا هو الهدف الأساسى من مساعدة هذه الأسرة.

- إذا أردت حقا مساعدة هذا الأسرة يجب أن تبذل مجهودا أكبر فى دراسة حالتهم وتحليل الخطأ الذى قاموا به أثناء دراسة مشروعهم البسيط، وتنبيههم حتى لا يكرروه مرة ثانية وثالثة.

- بصراحة، لقد حاولت، وأعجز عن اقتراح شيء ذى جدوى اقتصادية فى هذا المكان. فيبدو أن الأب ليس ماهرا فى حرفة الحدادة كما هو مفترض به.

- هذه ليست مسئوليتك، أن تفكر وتقرر لهم. كل إنسان فى هذه الدنيا خلقه الله مميزا فى شىء ما، ولديه القدرة على اكتساب الرزق. على الإنسان فقط أن تكون لديه النية والإرادة على اكتشاف ما يجيد فعله ليعيش بكرامة. ما أراه هنا هو أناس لا يخجلون من اعتبار قرض يأخذونه هبة لا ترد وكرامتهم لا تؤلمهم لطلب هبات أكبر لمداراة فشلهم ودون أى رغبة حقيقية فى الحياة بكرامة واستقلالية.

- ولكنك لم تر ابنهم!

- ابنهم سيصير مثلهم إذا واصلت التعامل مع قدوته الوحيدة بهذا المنطق.

- وما الحل إذن؟

- لا أدرى فأنا لم أدرس الحالة منذ البداية، ولكننى لن أستطيع مساعدتك دون أن تقدم لى كل البيانات كاملة أو تواجه المقترضين ليعطوك كل البيانات كاملة دون تلفيق. ولكن يجب أن تتيقن أنه لو لم يتغير المفهوم الذى يتعامل به هؤلاء المقترضون مع الحركة على أنها جمعية خيرية تقدم نقودا أو مساعدات مجانية، فإن مشكلتك ستصبح فى غاية التعقيد. إذا أردت أن تحافظ فعلا على هذا الابن المميز الذى تتحدث عنه فيجب أن تكون أكثر صرامة مع أهله، هذا أيضا لمصلحتهم.

تقديرى أن عاطفتك تغلبت على وضوح الرؤية الذى يجب أن يتوافر لديك أثناء تقديم العون. من الجائز أن أستطيع مساعدتك إذا كنت واضحا معى وإذا كان لديهم فعلا رغبة حقيقية فى حياة إنسانية كريمة.

ودون أن أشعر، وبدون سبب منطقى يدعو إلى الغضب، وجدت نفسى أصب جام إحباطى المكتوم عليها. نهضت من مكانى، وقررت التحرك أثناء التدخل فى النقاش وأنا أبعث جملا

صوتية سريعة، مستخدما شبكات مختلفة لمنع أجهزة تحديد الموقع من اكتشاف مكانى بسهولة.

- أرجو المعذرة لأننى أتدخل فى الحديث، ولكننى لا أرى أى داع لهذا التعقيد. ستظلون تتناقشون هكذا، وفى النهاية لن يفعل أحد شيئا لهذا الطفل الذى لا ذنب له سوى أنه ولد فى هذه البيئة الموبوءة بالفساد والجهل والاستسلام المذرى.

- كيف استطعت الولوج دون تصريح؟

- لا يهم كيف، ولكن الأهم الآن هو أن تتوقفوا عن التقيّد بهذه المبادئ الغبية لتساعدوا الناس بأى طريقة كانت.

- أتشكك فى مبادئ الحركة؟

- إذا كانت هذه المبادئ تعوق التغيير الحقيقى ومساعدة الناس فسحقا لهذه القوانين الغبية.

- ولكن الحركة لم تنم أو تصل إلى ما وصلت إليه إلا بسبب احترام الجميع لهذه المبادئ. وبالمناسبة هذا الاحترام منبعه إيمان واقتناع الجميع بهذه الأفكار، وإلا لما قرر أحد تكبد عناء ومشقة التطوع والعمل طبقا لآليتها.

- جائز أن ما تقولينه صحيح، ولكن كم حالة حقيقية ساعدتها الحركة حتى الآن؟! بضعة مشاريع متعثرة هنا وهناك تواجه صعوبة شديدة فى النمو وتحقيق تأثير ملموس.

- التأثير سيحدث لا محالة لأن كل من يعمل فى الحركة يؤمن بفكرتها إيمانا عميقا وهذا هو المطلوب. تخيل أن لديك فقط عشرة أشخاص مؤمنين بفكرة ما، وفى يوم قرروا أن يقنع كل واحد منهم عشرة آخرين. فى اليوم التالى قرر كل واحد من العشرة الجدد اقناع عشرة آخرين وهكذا. أتدرى كم يوما يستلزم للانتهاء من إقناع مئة مليون شخص؟

- ذهنى غير حاضر الآن لحساب هذه المتوالية. ما علاقة هذا بموضوعنا على أى حال؟

- حسنا، الإجابة أنه بعد إسبوع فقط ستكون هذه الفكرة قد وصلت إلى مئة مليون.
- إذا كان ما تقولينه صحيحا، فكيف أنه بعد مرور ستة أعوام على إطلاق الحركة لا تزال بهذا الضعف والتأثير المحدود الذى لن يغير شيئا؟!
- هذا يتوقف على تعريف كلمة محدود.
- أعنى مئات المشاريع الفاشلة فى تحقيق الهدف منها.
- ولكن هذا ليس صحيحا.
- ماذا تعنين..؟ هذا هو عدد المشاريع على الموقع.
- ولكن هذا لا يعبر عن عدد المشاريع على أرض الواقع.
- لماذا؟
- لأننى قمت بعدة دراسات حول هذا الموضوع عندما وجدت أعدادا ضخمة تشترك فى الحركة دون أن تسجل بياناتها على الموقع خوفا من بطش الأمن. وهؤلاء الأشخاص يجدون حلولا بديلة فى الاتصال فيما بينهم من خلال العديد من المواقع بأسماء مختلفة.
- عم تتحدثين؟
- أتحدث، على أقل تقدير، عن سبعمائة ألف ناشط، معظمهم يساهم فى تنمية مشروعات صغيرة بنفس مبادئ وآليات الحركة.
- سبعمائة...ألف... هذا مستحيل. هذا رقم غير واقعى.
- ولماذا تظن أن الأمن أصبح نشطا إلى هذه الدرجة ويضيق على الحركة إذا كانوا كما تقول لا يتعدون المئات.
- لا أدرى، ولكننى متأكد مما أقول.
- ولماذا أنت غاضب هكذا، ومن أين لك هذه الثقة العمياء عندما تتحدث عن الحركة وكأنك تملكها؟!
- ... لأننى أنا الذى أطلقتها.
- ...

- لماذا لا تردين؟ أنت تعلمين أنه يجب علينا إنهاء هذا الحديث فى غضون ثوان من أجل تفادى التتبع.

- ... أتذكرنى؟

بهت من هول المفاجأة، ولثانية ترددت قبل أن أقطع الاتصال وأنا أقرأ:

- ... قابلنى الساعة السادسة اليوم إن أمكن...

أغلقت الحاسب بسرعة وأنا أبتعد عن المكان بأقصى سرعة متوجها إلى سيارتى التى ركنتها بعيدا وعدت إلى المنزل، تتلاقفنى الهواجس والمشاعر المتضاربة وأنا أسأل نفسى:

" هل هذا ممكن؟ هل ممكن أن تكون هى؟"

لماذا أتيت؟

جلست فى نفس المكان على السور المطل على النيل. تعجبت من أنه بالرغم من مرور سنوات عدة فإنه حتى ذلك اليوم لم تسيج هذه البقعة التى أصبحت الوحيدة التى تطل على النيل مباشرة دون حواجز. بدا لى وكأن هناك قوى خارقة مقدسة تحمى هذه البقعة بالذات لتتركها كما هى لا يمسها مخلوق. والغريب أننى منذ آخر لقاء لم أحاول قط العودة إليها مرة أخرى.

طالعتنى من جديد صفحة النيل الساكنة التى لم أزل عاجزا عن فك طلاسمها فى هذا المكان المحدد. وللمرة الثانية أحاول تحديد اتجاه سريان المياه فأفشل. ثم بدأت أتأمل المياه مرة أخرى من منظور مختلف. فقد كنت دوما أحاول معرفة الاتجاه وكأنه بالضرورة اتجاه أوحد لا يتعارض معه شيء. فكنت أنظر للصفحة المنبسطة أمامى حتى الضفة الأخرى متوقعا أن أراها بكامل عرضها تسير فى نفس اتجاه سريان النيل نحو الشمال. ولكننى عندما بدأت فى تقبل فكرة وجود دوامات كثيرة قد تتسبب فى تغيير الاتجاهات فى بعض البقع بدأت أرى المياه أمامى بصورة أوضح دون تشويش. نجحت بصعوبة شديدة فى تحديد أماكن الدوامات الدائرية لأكتشف الحقيقة التى غابت عنى فى الماضى. حقيقة أن انسياب المياه أمامى ليس بالبساطة التى يبدو بها بالرغم من ثبات وجهته منذ ملايين السنين.

ثم قفز إلى ذهنى سؤال غريب:" هل يا ترى سيتغير مسار النيل فى يوم من الأيام؟". ثم أدركت مدى سذاجة هذا السؤال عندما تذكرت أن الدلتا بأكملها كانت تغرق وقت الفيضان قبل إنشاء السد العالى.

بدأت أتخيل كيف تراءى فيضان النيل لأناس جلسوا فى نفس هذا المكان منذ مئة عام يتأملون هذه الصفحة الهادئة التى تخفى تحتها ملايين من الأسرار الغارقة التى ابتلعتها الدوامات على مدار قرون. وفجأة قطع تأملاتى صوت خفيض مفعم بالحيوية يأتى من خلفى:

- محمد؟!

التفت سريعا لأتأملها بعد كل هذه السنوات لأجدها كما هى لم تتغير البتة بالرغم من تحولها من فتاة صغيرة إلى شابة ناضجة.

- ... فريدة... أنت لم تتغيرى.

- ولكنك تغيرت.

- هذا غير صحيح... أنا مازلت كما تركتينى آخر مرة... فوق هذا السور... لم يتغيّر فىَّ شىء.

- هذا ما تظنه.

- كيف تعرفت علىَّ بهذه السهولة أثناء حديثنا على الموقع؟

- أنا الذى يجب أن أسألك هذا السؤال.

- لا، فعلا... قولى لى كيف عرفت!

- أنا لم أفعل ذلك اليوم... فالحقيقة أننى اكتشفت هويتك منذ أن بدأت تأسيس الحركة.

- كيف؟

- لم يكن صعبا أن أخمن، فهناك أفكار وعبارات فى موقع "الحركة" سمعتها منك من قبل بصورة يصعب تكرارها بهذا التماثل. وزاد من يقينى أننى كنت متأكدة أن لك علاقة وثيقة بموقع "إنليتمنت".

- كيف تأكدت من ذلك؟

- ألا تذكر؟ لقد كانت المرة الوحيدة التى حاولت أن تكذب فيها علىّ... ألا تذكر ذلك اليوم عندما نفيت علمك به ونحن نشاهد معرض الـ"موشن جرافيك"... لقد كان من السهل أن أتبيّن ذلك، فأنت كاذب غير بارع... ألا تذكر؟

- بلى أذكر جيدا.
- يجب أن أعترف لك أنك أذهلتنى عندما أطلقت كل هذه المشروعات.
- فى الواقع أنا صادق عندما أقول لك إننى فى المرحلة الأخيرة أصبحت متشككا فى كل ما فعلته وجدواه، وإذا كان بالفعل يساوى هذه التضحيات التى قام بها هؤلاء الذين ينكل بهم الأمن... ولكن قولى لى لماذا اهتممت بتتبع نشاط الحركة؟ هل كونك تعرفت علىَّ له علاقة بذلك؟!
- أكذب عليك إن قلت إن كونك أنت بالذات مؤسس الحركة لم يكن له دور فى حث حماسى لمعرفة المزيد عنها و... وخاصة بعد أن أدركت... أنك... تغيرت.
- ولكننى لم أتغير... أنت التى لم تكتشفى حقيقتى من قبل.
- لا أدرى... ولكن الأكيد أنه عند انضمامى للحركة اكتشفت معنى جديد لوجودى فى هذا الزمن الصعب.
- أنت تبالغين! أنا لم أفعل شيئا يذكر.
- ماذا تعنى؟ أقسم لك بكل ما هو غال أن ما تفعله هو الشىء الحقيقى الوحيد الإيجابى فى هذا البلد. أنا مؤمنة بما تفعله وواثقة أن أفكارك ستحدث تغييرا للأفضل، حتى لو لم تدرك أنت نفسك ذلك أو تخجل من الاعتراف به بسبب تواضعك.
- لا، أنا صادق عندما أقول لك إننى بدأت أتشكك فى جدوى نشر هذه الأفكار التى بت على يقين من أنها لن تغير شيئا.
- وأنا أؤكد لك أن التضحية الوحيدة من أجل إصلاح هذا العالم هى التى يقوم بها أفراد الحركة التى لا يعرف أحد من هم. فهم بالفعل لا يسعون لتحقيق أية مكاسب أو أهداف شخصية. هم فقط يريدون مساعدة الناس لإعادة اكتشاف أنفسهم دون أى غرض آخر. أما فيما يخص التأثير، فكونك لا تدرى عنه شيئا فهذا لا ينفى حدوثه.
- بالمناسبة، هل أنت واثقة من الأرقام التى كنت تحدثيننى بها؟

- كنت واثقة أنك ستريد معرفة كل التفاصيل لذلك جهزت لك نسخة من الدراسة التى قمت بها وفهرسا لكل المواقع المنبثقة من الحركة التى يبدو أنك لا تدرى عنها شيئا.
قالتها وهى تمد لى من محفظتها الصغيرة " حبة ذاكرة" لتسلمها لى فتلمس أناملها الدقيقة يدى مما أثار بداخلى اضطراب لمشاعر متأججة كنت أظنها اختفت للأبد.
- حسنا، أنا أتحدث دون انقطاع... كيف عرفتنى أنت؟
- ... لا أدرى ولكننى كنت متيقنا من أنه أنت... لماذا طلبت مقابلتى؟
- ...
- أعنى لماذا الآن بعد كل هذه السنين؟
- لماذا أتيت أنت؟
- لا أدرى، من الجائز أننى كنت أريد... معرفة معلومات أكثر... عما... عما قلتيه بخصوص "الحركة".
- ألهذا السبب فقط أتيت؟!
- ... لا ولكن... ولكن... هذا هو أوضح سبب فى ذهنى الآن.
- ... حسنا، لا تقل شيئا إذا كنت لا تشعر برغبة فى الحديث.
- لا ليس هذا ولكننى أريد أن أعرف المزيد عنك. أريد أن تحدثينى أكثر عن نفسك.
- حدثنى أنت أولا.
- أنا، لا يوجد جديد فى حياتى. فباطلاعك على مشروعات التنمية تكونين قد تعرفت على كل ما فعلته خلال السنوات الماضية، بالإضافة إلى بعض الأنشطة الجديدة فى عملى الخاص. على مستوى الأسرة تزوجت فرح من طبيب ورزقت بولد. أما والدتى فأنا أعيش معها وهى لا تزال تدرّس بالجامعة، بالإضافة لأنشطتها الأكاديمية الأخرى. وأنت؟!

- أنا واصلت الدراسة الأكاديمية حتى حصلت على الدكتوراة ولدى عمل خاص، ... شركة صغيرة للاستشارات المالية والتسويقية على الشبكة...
ثم استطردت وهى مرتبكة عندما لاحظت أننى أنظر ليدها:
- وأقيم بمفردى فى شقة صغيرة.

بعد لحظات ثقيلة من الصمت التفت إليها فجأة محاولا النظر إلى عينيها مباشرة.
- ... منذ سنوات... ذلك اليوم... لماذا نهضت من جانبى وتركتينى وحيدا؟
- لقد قلت لك من قبل.
- أريد أن تكررى قولك لأننى ما زلت لا أفهمه حتى الآن.
- لم يكن ما بيننا يصلح لإقامة علاقة بهذه القوة.
- أنا ما زلت عاجزا عن الاقتناع أن هذا كان هو السبب الوحيد.
- أرجوك دعنا لا نتحدث فى هذا الموضوع.
- حسنا، ولكننى ما زلت لا أفهم لماذا طلبت مقابلتى... لماذا الآن بعد كل هذه السنين؟! وخاصة أنك تعرفت علىَّ كما تقولين منذ أن أسست الحركة!
- لقد تغيّرت كثيرا يا محمد.
- هذا غير صحيح.
- بلى، لقد تغيّرت كثيرا. صدقنى لا أحد يعرفك أكثر منى.
- وأنت لم تتغيرى.
- جائز.
- حسنا، ماذا الآن؟!
- لا شىء، أنا سعيدة أننى رأيتك مجددا. لقد تأخرت ويجب أن أذهب الآن.
- ...

أخذت أرقبها صامتا وهى تشيح بنظرها مرتبكة وتلوح بيدها فى حركة مباغتة، وكأنها تلقى علىَّ تحية وداع. وجدت نفسى لا إراديا أناديها بتوسل دون أن أدرى كيف تغيّرت نبرة صوتى الحادة بهذه السرعة.
- انتظرى...
- ...
نهضت وأمسكت بيدها لأجلسها بجوارى وأنا أشعر بدفء يدها يصهر جبالا بداخلى تجثم على صدرى.
- أود أن أعترف لك أنه بمرور الوقت، عندما كنت أراجع ما حدث خلال السنوات الماضية، اكتشفت أننى بالفعل كنت متسرعا عندما ضغطت عليك لتعطينى موافقتك على الارتباط. فأنا بالفعل لم أمهلك لتتعرفى علىَّ أكثر وتتأكدى من أننى كنت أعنى كل كلمة قلتها.
- دعنا لا نخوض فى هذا الموضوع مرة أخرى.
- انتظرى، أنا لم أنه كلامى. يجب أن تعلمى أننى كنت مقتنعا أننى الوحيد فى هذه الدنيا القادر على حبك وإسعادك.
- لماذا تقول ذلك؟!
- لأننى اعتقدت أننى أفهمك تماما كما أفهم نفسى.
- ...
- ولكن يجب أن أعترف لك بأنه فى تلك المرحلة أنا نفسى لم أكن أفهم نفسى... لم أكن أعلم بالضبط ما أريده... فكيف لى أن أرتبط بك وأنا نفسى لم أكن أدرى إلى أين أريد الذهاب؟!
- والآن هل تعرف ماذا تريد؟
- لا أستطيع أن أكون متيقنا من وجهتى النهائية، ولكننى بالتأكيد توصلت إلى منهج أحيا به حياتى.
- وهل أنت راض؟
- فى معظم الأحيان... وإن كنت بين الحين والآخر أتشكك فيما إذا كنت أفعل الصواب أم لا، فأمر بأزمة نفسية تجعلنى أصحح

مسارى إذا كان الأمر يحتاج لهذا... تماما كما يحدث لى خلال هذه الفترة.

- وهل مازلت تتساءل الآن عما إذا كنت تفعل الصواب أم لا؟

- قبل اليوم كنت بالفعل متشككا فى جدوى ما أفعله بحياتى ولكننى الآن أعتقد أننى أفضل... فأخيرا قابلتك مجددا .

- أنا مسرورة أننى استطعت مساعدتك.

تأملت عينيها وأنا أستمع لنبرة صوتها الخافتة التى كانت تحاول إخفاء مسحة حزن دفين فرددت بهدوء وأنا أقترب منها لألمس كتفها:

- انتظرى... هناك شىء آخر. إحساس كان يراودنى منذ زمن وأصبح الآن يسيطر علىَّ، يمنعنى من النوم بسلام. فكرة أخذت أقلبها فى ذهنى منذ أن طلبت مقابلتى وحتى هذه اللحظة التى أحدثك فيها...

- ... وما هى؟

- أننى لن أستطيع المضى قدما فى حياتى... وحيدا... لا أستطيع أن أسعد أبدا بمفردى... لا أستطيع.

- ...

- أعتذر لأننى كنت قد قررت قبل أن آتى ألا أفتح معك هذا الموضوع ولكننى لم أستطع منع نفسى.

- ...

- فريدة... لا أريد أن أفرض عليك شيئا مرة أخرى ولكن هل نستطيع أن نعود كما كنا لتستمرى فى التعرف علىَّ مرة أخرى، وأعدك أننى لن أفتح هذا الموضوع القديم مطلقا... إلا إذا تيقنت بعد فترة أنك مستعدة لذلك... أقسم لك بأننى سأفعل ذلك حتى لو ظل يكتشف أحدنا الآخر حتى نهاية هذه الحياة.

- حسنا.

- أنا آسف، ولكننى معك لا أستطيع إلا أن أخرج كل ما يجيش به صدرى.

- ... لقد تأخرت... أتستطيع اصطحابى للمنزل؟
- حسنا ولكن هناك شىء أخير قبل أن نركب السيارة.
- ما هو؟
- لقد نسيت أن أسألك قبل أن نبدأ حديثنا عما إذا كنت تحملين أية وسيلة للاتصال.
- نعم ولكنها مغلقة تماما.
- أمتأكدة؟
- طبعا.
- حسنا... أنت تعلمين أننا لن نستطيع مطلقا التحدث عن الحركة سوى من خلال الشبكة وباستخدام نفس إجراءات الأمان المتبعة ودون أن نشير بأى صورة من الصور إلى علاقتنا. كذلك يجب أن تتخلصى بصورة آمنة من كل الأجهزة التى استخدمتيها اليوم أثناء حديثنا.
- لقد فعلت ذلك بالفعل.
- حسنا... سأقوم بدراسة إمكانية توفير إجراءات أمان لنتحدث بحرية فى هذا الموضوع. ولكن إلى ذلك الحين لن نستطيع أن نتحدث حتى فى سيارتى.
- لماذا؟ هل تشك فى أنك مراقب؟
- لا أعتقد ذلك، ولكن نتيجة لموضوع قديم سأحكيه لك فى وقت آخر قد أكون مراقبا... السيارة والمكتب والمنزل... لا أدرى، لست متأكدا.
- ...
- يجب أن تعلمى ما أنت مقدمة عليه معى، ولذلك وجب علىَّ أن أحذرك... إذن أتقبلين صداقة مثل هذا الشخص المشبوه؟!
- نعم...
- ألا تخشين شيئا؟
- أنت الوحيد الذى أطمئن وأنا بجواره.
ساعدتها كى تنهض دون أن أفلت يدها حتى وصلنا إلى السيارة.

فى ذلك اليوم أحسست بشمس جديدة تشرق لتنير جزءً مظلما بداخلى كنت أتفادى النبش فيه منذ مدة طويلة.

٢٠٣٣ إلى ٢٠٣٤

تزوجت من فريدة بعد ما يقرب من عامين من لقائى بها فى حفل عائلى بسيط دون صخب. قصر الاحتفال على مأدبة غذاء بسيطة ضمت أقارب الدرجة الأولى، وذلك عكس رغبة والدتى التى كانت ترغب فى إقامة حفل ضخم تدعى إليه كل من نعرفهم. انتقلت للإقامة فى الفيلا المجاورة لوالدتى، وبسبب سفرى المتكرر للمحافظات المختلفة كانت فريدة تذهب كثيرا لتبيت مع والدتى فى الفيلا الملاصقة.

خلال تلك الفترة كنا نتقابل كثيرا مع فرح بسبب قدومها المتكرر لترك ابنها مع والدتى، وذلك بسبب انشغالها الشديد هى وزوجها بعملهم وأنشطتهم التى كنت أتفادى الاستفسار عنها.

وبالرغم من تبرم والدتى وعصبيتها بسبب تعطيل " نصار الصغير" لها عن العمل فإنها لم تكن تستطيع تحمّل فكرة أن يمر يوم أو اثنان دون أن تراه. فكانت تتذرع بأى حجة لتذهب لزيارة فرح إذا ما توقفت عن إحضار نصار لها لأى سبب من الأسباب. فكنت أسمع كثيرا عبارات من قبيل.
" سامر على فرح ... يبدو أن نصار مريض... سأذهب لأطمئن عليه"
" سأذهب لأجلس مع نصار لحين عودة فرح وزوجها من العمل فالمربية لم تأت واليوم أجازة فى الحضانة."
" يبدو أننى وحشت نصار فاتصل بى ويريدنى أن أمر عليهم"
ولم أدر قط ما إذا كان هذا الارتباط الشديد بنصار له علاقة باسمه أم بالشبه الشديد لجده أم لكونه الحفيد الوحيد لبضع سنوات.

أما بالنسبة لى فبالرغم من حبى الشديد لنصار الصغير فإنه جلب علىَّ الكثير من إلحاح والدتى الممل حول مسألة الإنجاب. فقد كنت قد اتفقت مع فريدة أن نرجئ هذا الموضوع لفترة غير محددة ولا نعاود المناقشة فيه إلا بعد مرور عامين على الأقل من استقرارنا سويا. وتدريجيا انتقلت عدوى الإلحاح إلى جميع من أحاطوا بى. ولا أعنى هنا فقط فرح وزوجها اللذين تحدثا من منطلق دينى بحت، بل أيضا حسن وبعض المقربين منى فى العمل من الأكبر سنا.

وفى إحدى المرات بعد عام ونصف، ولإنهاء اللغط فى هذا الموضوع، قررت مفاتحة فريدة فيه ونحن ممددون فى الفراش قبل أن نخلد للنوم.

- ما رأيك أنت يا حبيبى؟
- أريد أن أسمع رأيك أنت أولا.
- ولكننى لا أملك خبرة كافية لتصور هذا الموضوع. والحق يقال أننى أشعر بخوف شديد.
مسحت بيدى على شعرها واستطردت بلهجة مطمئنة:
- اذا تناسينا الخوف قليلا أتعتقدين أنه من المناسب أن ننجب الآن؟
- ماذا تعنى؟
- أعنى هذه الظروف المقلقة، وهذا المستقبل الغامض وحالة البلد وحالة الناس من حولنا.
- ولكن هذا أيضا يعتبر نوعا من أنواع الخوف.
اعتدلت قليلا ورفعت الوسادة لأسند ظهرى على صدر الفراش.
- لا، هذا ليس خوفا... أنا فقط أنظر للأمور بواقعية. أتتصورين إمكانية أن ننجب أطفالا الآن فى هذا المجتمع الغريب، حيث أصبح

كل شيء ضبابيا رماديا، تعجزين فيه عن التفرقة بين الصواب والخطأ.
- كيف تقول هذا وأنت تفعل ما تفعله بهذه الحماسة؟
- أنا أفعل ما أفعله لأنه ليس لدى اختيارات أخرى. لقد ولدت فى هذا المكان، ولسبب غامض وغير عقلانى لا أستطيع تركه، وبالتالى لا أملك سوى المحاولة. ولكننى أعى تماما أننى غير مسئول عن النتائج ومسئول فقط عن نيتى فى الاصلاح. فإذا فشلت فيما أفعله الآن فقد يكون مقدرا أن ينجح فيه أناس آخرون من بعدى استفادوا من تجربتى البسيطة. أما أن نقرر الإنجاب الآن فى هذا البلد فنحن نأخذ قرارا بالنيابة عن أولادنا فى تنشئتهم فى هذا المكان. ماذا لو كان تأثير المناخ حولهم أقوى من تأثيرنا وبدأوا فى التنازل عن قيم نتصور نحن أنها مقدسة؟! ماذا سنفعل حينئذ؟ أو أن يحدث العكس فيتأثرون بنا كثيرا وينعزلون عن المجتمع ليتجرعوا مرارة الوحدة والإحباط.
شعرت بانفعالى فرفعت رأسها قليلا واستندت إلى صدرى هامسة:
- ولكن هذا هو وضعنا الآن ونحن الحمد لله راضون سعداء بحياتنا. صحيح أننا نشعر بعزلة ولكن بالقطع مشاريع الحركة تعوض لنا ذلك. هذا بالإضافة إلى أنه حتى اليوم نقابل من هم مثلنا ولديهم رغبة وإرادة فى تحقيق حياة أفضل. الأمور ليست بهذا السوء.
- ما تقولينه صحيح، ولكننا قد نكون ضمن القلة الأخيرة التى ما زالت تحاول، والتى قد تنقرض فى يوم ما.
- إذا كان ما تقوله صحيحا، لماذا تحاول إذن؟
- لأننى لا أملك سوى المحاولة، ولأننى لست متأكدا من شيء. فقد تتغير الأمور للأفضل أو للأسوأ. اختيارنا للاستمرار فى الحياة فى هذا المكان يحوى مخاطرة عالية ولكننا قررنا أن نجازف ونحن مستعدون لتحمل تبعات اختيارنا. ولكن أن نأخذ قرار المجازفة بالنيابة عن أولادنا بأن ننجبهم وننشئهم فى هذا المكان فهذه

مجازفة لا أقوى عليها الآن. لا أستطيع... لا أستطيع أن أتحمل فكرة الذنب والندم فى المستقبل فى حال ما إذا كان هذا قرارا خاطئا. ثم أنت تعرفين ما قد يتعرضون له، فقط لأنهم سيولدون فى مكان قيمه ودستوره وقوانينه فاسدة تمكن الباطشين من فعل ما يريدون لأى شخص يحلم بالتغيير. يكفى قانون مكافحة الإرهاب وحده، وأنت تعلمين ما تعرضت له أنا وأسرتى فى ظله.

- عموما لا داعى لأن نتسرع و نأخذ قرارا الآن، فما زال أمامنا وقت طويل ونحن لا نزال فى البداية.

- أواثقة أن هذا هو رأيك؟

- طبعا يا حبيبى، أنت تعلم جيدا أننى لا أقول أبدا شيئا أنا غير مقتنعة به أو نتيجة لضغط ما. حتى الآن لم يذكر لنا أحد سببا مقنعا يدفعنا إلى الإسراع بالإنجاب. بل إن كل ما نسمعه من الذين أنجبوا هو الشكوى المستمرة. أنت الذى فتحت الموضوع وأنا أشعر أننا غير مستعدين له الآن، ثم هل تشعر بأننا نحتاج لأن ننجب الآن كى نصبح أسعد؟!

نظرت إليها وهى ترفع رأسها إلى أعلى، تتطلع إلىَّ، وعندما التقت عيوننا هدأ اضطرابى فى ثوان فضممتها بشدة إلى وأنا أنتظر الكلمة التى كنت متأكدا أننى سأسمعها فى هذه اللحظة:

- أتحبنى؟!

لم نضطر إلى فتح هذا الموضوع مرة أخرى إلا بعد عامين. لم نشعر بأننا نحتاج لذلك لأن الإحساس الذى كنا نشعر به عند تمكننا من مساعدة أى مستفيد من المشاريع كان يعوضنا عن الإحساس بأى نقص. وخاصة إذا كان هذا التأثير ينعكس بصورة مباشرة على أطفال نتعرف عليهم ونرتبط بهم مدة طويلة.

وعند سن محددة بدأت فريدة تخشى أن يفوت الوقت المناسب للحمل. وبالرغم من عدم وجود أى تغير حقيقى فى السبب الذى

كان يجعلنا نخشى الإنجاب فإننى وجدت نفسى دون تفكير عميق أوافق.

وبعد عدة محاولات فاشلة ذهبنا للطبيب وأجرينا تحاليل وفحوصات فاكتشفت عقمى وعجزى عن الإنجاب بصورة طبيعية. وبالرغم من الصدمة التى أحبطتنى حينذاك فإننى لم أتوقع قط أن أرى يوما ما فريدة تبكى بهذه الحرقة. وفى تلك الليلة اقترحت عليها بدائل ناقشها معنا الطبيب من قبل إلا أنها أبت بشدة تجربة أيا منها وهى تقول:

- أنا راضية وسعيدة بما قسمه الله لنا، ولن أعترض أبدا. أنا لدى كل شىء ولا أحتاج إلى شىء. أعطانا الله الفرصة ليكون لدينا عشرات من الأطفال هم جميعا بمثابة أبناء لنا يحبوننا ونحبهم. لا... لا يجب أن يصل بنا الجحود إلى هذه الدرجة. فقط لا أدرى ما الذى أصابنى... ربما تكون غريزة ما هى التى تجعلنى أبكى هكذا ولكنى والله راضية ولا أحتاج إلى أبناء آخرين. أشكرك يا رب، فقط بارك لى فيما منحته لى.

ومنذ ذلك اليوم لم نتحدث فى هذا الموضوع مطلقا مرة أخرى. وبالرغم من خوفى الشديد أن يؤثر ذلك على علاقتنا فإننا شعرنا بالحب بيننا ينمو يوما بعد يوم. ولكننى فى نفس الوقت لا أستطيع الجزم بأن فريدة استطاعت تجاوز هذا الموضوع تماما، وخاصة عندما كان يطرأ شىء يذكرنا بعدم قدرتنا على الإنجاب. كانت فى هذه اللحظة تتفادى دوما النظر إلىَّ.

على المستوى الشخصى تميزت حياتى الأسرية أنا وفريدة بالاستقرار والثبات. وبالقطع فإن نمو الحركة المحسوس واشتراكنا فى دراسة العديد من المشاريع وطرح كثير من الأفكار الجديدة، خلق كيانا راسخا اشتركنا فى تنميته والتفاعل معه، مما جعل دماء متجددة تسرى دوما فى مجرى علاقتنا.

وأثناء عملنا فى هذه الأماكن النائية كنا نتعلم كل يوم آلاف الأشياء الجديدة، ونما لدينا إدراك وحس يصعب اكتسابه داخل أسوار مجتمعاتنا المنعزلة. ولا أبالغ عندما أقول إننى استفدت من كل من تطوعت لمساعدتهم أكثر بكثير مما استفادوا هم منى. والأكيد أن هذا قربنا من الله أكثر، وجعلنا نشعر دوما بقوة عظيمة تحمينا دوما وتدفعنا للمزيد من العمل والحماسة المتجددة.

أما أختى فرح فقد بدأ زوجها خلال هذه السنوات يعتقل من قبل جهات أمنية مختلفة لنشاطه ضمن جماعة سياسية غير معترف بها. وبالرغم من الصدمة التى أصابتنا جميعا فى البداية فإننا بعد فترة اعتاد جميعنا ذلك وأصبحنا نتقبله دون انزعاج شديد. وقد ساعد على اعتيادنا هذا الأمر رد فعل فرح الغير متوقع.

ففى أول مرة قبض عليه فيها من منزله ارتدت ملابسها بسرعة وهى تتصل بى لتخبرنى فى هدوء بأنها ستتعقب العربة التى يركبها لتعرف أين يأخذونه. وقد تصرفت بثبات غير عادى ونجحت بالفعل فى تحديد مكان اعتقاله أثناء محاولتى اللحاق بها. وقد كنت مندهشا كيف تحولت فرح الطفلة الشقية التى لم أكن أتصور أن تكبر فى يوم من الأيام إلى فتاة تتصرف بثبات الرجال دون أن تهتز فى أحلك المواقف. وكان يبدو لى أنها ليست فقط

تساند زوجها وتؤمن بما يحاول تحقيقه ولكنها هى أيضا كان لديها أنشطة تحاول أن تبقيها سرية بقدر الإمكان.

وبسبب هذه المرحلة المضطربة فقد أصبحنا نرى جميعا لسار الصغير وأخته فاطمة معظم الأوقات. وكانت فريدة، فى سعادة بالغة، تسعى كثيرا لاستضافتهما لدينا فى المنزل إذا كانت والدتى مشغولة لأى سبب من الأسباب.

وخلال تلك الفترة التحق عمرو ووليد أولاد حسن بالجامعة. وأتذكر جيدا يوم أن طلب منى حسن أن يأتى مع ابنه عمرو لاستشارتى فى الجامعة التى يرغب فى الالتحاق بها. وقد كنت أتابع بصورة خاصة تعليم أولاد حسن من الصغر وأعطى حسن رأيى فى كثير من التفاصيل وخاصة بالنسبة لعمرو. وكان حسن لا يناقش أبدا ما أقترحه وينفذه على الفور لثقته الشديدة فىَّ وفى التعليم الجيد الذى تصوّر أننى أنا نفسى حظيت به.

وكان عمرو من جانبه، لسبب لم أكتشفه قط، يلجأ إلىَّ فى النصح أكثر بكثير مما يفعل مع والده. وكان يفعل ذلك بتلقائية شديدة ودون أدنى إحساس بالحرج. فكان إصراره الشديد على الارتباط بى والتعامل معى على أساس أن هذا حقه الطبيعى يشعرنى فى كثير من الأحيان بأنه يضعنى فى مرتبة الأب. ولسبب مجهول فقد كنت، منذ نظرته لى يوم ميلاده، أشعر تجاهه بمشاعر الأبوة التى حرمت منها. وكنت أعتقد أن عمرو سيكون له مستقبل باهر لاثباته ذكاء متقدا أثناء فترات تدريبه فى الشركة معى أنا شخصيا. كذلك فقد توقعت دوما أن يتخطى أقرانه لنضجه الشديد وجديته بالرغم من صغر سنه.

وفوجئت عندما أتى لى حسن ذات يوم يشكو من ابنه الذى كان يصر على الالتحاق بكلية الشرطة، وهو أمر كان يعارضه حسن بشدة. وعندما حاولت مناقشة عمرو ذهلت من إصراره الشديد بالرغم من عدم إبدائه أسباب مقنعة لهذا الاختيار. وقد استطعت، بصعوبة شديدة، فى ذلك اليوم إقناعه بالتخلى عن حلمه والالتحاق بكلية الهندسة ليتخصص بعد ذلك فى علوم الكمبيوتر.

أما وليد الابن الثانى فقد لحق بعمرو فى كلية الهندسة ليتخصص فى الهندسة المدنية وإدارة المشاريع الإنشائية الخاصة.

٢٠٤٤

بداية النهاية

حتى هذا العام كانت الأمور تسير بصورة شبه مستقرة إلى أن سمحت، وبناء على تصويت أغلبية أعضاء الحركة، أن أنشر الدعوة التى قامت بصياغتها إحدى المجموعات المتطوعة.

وحتى الآن لا أدرى كيف تخليت عن حذرى وسمحت بنشر مثل هذا الكلام على موقع الحركة قبيل عام من انتخابات مجلس الشعب! ولكن هل كان ذلك ليغير شيئا لو كنت قد منعت نشرها حينذاك؟! الإجابة بالقطع لا. ولذلك فأنا لا أشعر بندم حقيقى على هذا القرار الذى لم يغير من مسار الأمور فى شىء. فقد وصلنا فى ذلك العام إلى مرحلة أصبح من المستحيل على شخص أو حتى جهة ما التحكم فى مسار الطوفان الذى لم يكن يدرى أحد بتكونه على مدار سنوات عدة.

وما يلى هو النص الأصلى لهذه الدعوة كما ورد وقبل إعادة صياغته وتنقيحه عدة مرات ليصبح بالشكل الذى تجدونه فى أرشيف المواقع المختلفة. وكما تلاحظون فقد تم حذف كثير من الفقرات والعبارات التى تشير إلى فساد النظام السياسى.

(نسخة الدعوة الأصلية قبل تنقيحها)

التمسك بحق الاختيار

" حتى هذا التاريخ لم يكن لأعضاء الحركة أى توجه سياسى. ودون العودة للأسباب التى ساقها مؤسس الحركة للبعد التام عن التحرك السياسى فنحن نؤكد أن معظمنا مقتنع تماما بهذه الأسباب وإلا لما انضممنا للحركة فى المقام الأول. ولهذا فنحن نؤكد أن هذا الاقتراح لا يتعارض بأى صورة من الصور مع لائحة الحركة التنظيمية.

نحن نرى أن عدم ممارسة الحق الدستورى فى اختيار من يمثلنا ومن يحكمنا هو الذى أعطى للنظام القوة والسلطة للبطش بنا، والزج بكثير منا فى السجون دون محاكمات استنادا إلى قانون الإرهاب الذى أصبح قانونا دستوريا مائة بالمائة. ونحن نعتقد أن سلبية المواطنين طبقا لأرقام التصويت الهزيلة المعلنة هى التى أدت إلى تفاقم هذا الوضع بصورة أصبح يستحيل معها القيام بأى مبادرة إصلاحية طالما هى لا تخرج من عباءة النظام وتدين بالولاء له.

ونحن نؤمن أنه على المدى القريب لا يوجد حل لهذه المشكلة التى تهدد استمرار الحركة وباقى تنظيمات المجتمع المدنى سوى الصبر. ولكن على المدى البعيد فيجب أن نضيف للحركة هدفا جديدا بالإضافة إلى التعليم ومحاربة الإفقار.

ونقترح أن يكون هذا الهدف هو السعى من أجل ممارسة "حق الاختيار". ولسنا هنا نروج لأى فكر سياسى أو اتجاه بعينه،

ولكننا نروج فقط لفكرة تنمية روح المشاركة فى الاختيار وتقرير مصير هذا البلد.

ونقترح ضمن هذا الصدد الآتى:

١- تحفيز أعضاء الحركة من أجل التعرف على كودهم الانتخابى الإليكترونى والتأكد من تسجيلهم فى الكشوف الانتخابية.

٢- تحفيز كل المستفيدين من مشروعات الحركة لعمل نفس الشيء.

٣- حث الجميع على ممارسة حقهم الدستورى فى انتخاب من يمثلهم ومن يحكمهم.

ومن أجل عدم الحياد عن أهداف الحركة يجب عدم التعرض بأى صورة من الصور أثناء تنفيذ المشاريع التنموية إلى أى توجهات سياسية. المهم فقط هو البدء بممارسة هذا الحق الذى عزف عنه المصريون منذ عدة عقود إلا فيما ندر.

برجاء ملاحظة أن هذه المرحلة يجب أن تركز فقط على تحفيز الناس لأن تكون إيجابية دون التعرض لفكرة النتائج والتغيير الذى سيحدث من جراء ممارسة هذا الفعل. فلكى نكون واقعيين فإن التزوير بكل صوره لا يزال هو المسيطر الأساسى على النتائج وتفضحه المشاركة الهزيلة للمواطنين. هذه المرحلة ليس الهدف منها إحداث تغيير واقعى ملموس ولكن فقط تدريب الناس على أن تؤدى واجباتها كمواطنين يمارسون حقهم فى

الاختيار. مجرد الإعداد لمرحلة قد تأتى فى يوم من الأيام تمكن الشعب من الاختيار الحر النزيه.

وفى النهاية فهذا بالقطع سيكون أفضل من انضمام أعضاء الحركة إلى " ثورة ٢٠٥٣".

استوقفتنى العبارة الأخيرة، والتى لم أفهم منها شيئا فى ذلك الوقت. بحثت على الشبكة عن أى شىء له علاقة بـ "ثورة ٢٠٥٣" فلم أجد حرفا واحدا. فى ذلك اليوم تخيلت أن هذا اسم حركة وهمية ليس لها وجود أصلا، أو أنها موجودة ولكنها غير ممثلة على الشبكة، أو أن أعضاءها يتبعون نظاما غاية فى السرية يمنع أى مخلوق غير مدعو للانضمام من الولوج إلى ملفاتهم.

وفجأة قفز إلى ذهنى من الماضى السحيق تاريخ ملفات ٢٠٥٣. ما يقرب من عشرين عاما مضت على تخزين عقلى - دون أن أعى- لهذا التاريخ أثناء تفحصى لأول مرة ملفات الصندوق الأسود لموقع غريب! هل هذا ممكن؟! قمت بسرعة باستخراج الصندوق والبحث سريعا عن هذا التاريخ حتى وجدت مجموعة ضخمة من الملفات المشفرة. لا أدرى كيف قفز إلى ذهنى فى تلك اللحظة الفكرة الجنونية ولكننى بدأت استعمل عبارة " ثورة٢٠٥٣" ككلمة سر. وفى ذهول بدأت أتفحص ملفات الصور والأفلام التخيلية التى بدأت تفتح الواحد تلو الآخر. لم أفهم شيئا، أو بالأحرى لفظ عقلى فكرة إمكانية حدوث مثل هذه المشاهد الصادمة فى بلدنا. ولأول مرة أشعر بالراحة الشديدة من كون كثير من الملفات لا يزال مشفرا. قمت بإعادة الصندوق إلى مكانه الأمين وحاولت فى خلال الأيام اللاحقة تناسى الأمر برمته. ولكن للأسف الشديد فقد تبينت من خلال تصاعد أحداث السنوات التالية أننى لم ولن أنس أبدا ما رأيته فى ذلك اليوم.

مجلس الشعب

شهدت هذه الأعوام أكبر نسبة إقبال فى تاريخ البلاد على استخراج البطاقات الانتخابية الإليكترونية. ومع حلول ٢٠٤٥ ، عام انتخابات مجلس الشعب المشؤوم، بدأت حملة اعتقالات دون سبب واضح أو حتى معلن لبعض المتطوعين بالحركة. وبدا أن النظام بدافع الخوف، وحرصا على مرور هذا العام بسلام، قد قرر التخلص من باب الحيطة من كل ما هو مختلف ويشكل بأى صورة من الصور تجمعا ما، حتى لو كان مجرد فكرة. وتعرّض الموقع الإليكترونى مثله مثل باقى المواقع الغير رسمية للتدمير أكثر من مرة.

وقد ظهرت مجموعات من المتخصصين المنضمين للحركة، أخذت على عاتقها إعادة تشغيل المواقع الهامة وحمايتها بل وفى بعض الأحيان، بالرغم من اعتراضى الشديد، مهاجمة مواقع الجهات التى تقود هذه الحرب. ومع تزايد حركات الاعتقال تزايدت بقوة حدة الأصوات التى تطالب بأن يكون للحركة دور سياسى إيجابى بدعوى أن هذا هو السبيل الوحيد للمحافظة عليها وبقائها. وقد استطعت بصعوبة شديدة بحكم سلطتى الرقابية على ما ينشر مخالفا لمبادئ الحركة منع معظم هذه الدعاوى من الظهور للنور. وقد ساعدنى فى هذا إحكام إجراءات الأمن الوقائية بين أفراد الحركة، والتى جعلت فى النهاية عدد المعتقلين محدودا للغاية. فقد كان من المستحيل على الجهات الأمنية اختراق شبكة أمان الحركة بسبب تصميمها المحكم من مجموعة ضخمة من المتطوعين المتخصصين. كذلك اعتقال أى من المتطوعين لم يكن

يؤدى للكشف عن أى فرد آخر وذلك لعدم ارتباط أى متطوع بالآخر ولسرية الهويات.

وبالرغم من كل المحاولات الجادة فى جعل عام ٢٠٤٥ يشهد أكبر نسبة تصويت ويشهد لأول مرة تعبيرا حقيقيا عن إرادة الناخبين فإن النتائج جاءت مخيبة للآمال. فقد جاءت النتائج عكس كل استطلاعات الرأى والتصويت الإليكترونى الموازى الذى قام بالإعداد له وإجرائه على مدار عام كامل مجموعة متطوعة لا تعبر عن أى انتماء سياسى. وجاءت النتائج كالعادة تعبر عن سيطرة الحزب الحاكم بأغلبية شبه مطلقة مع نسبة ضئيلة من معارضة صورية. وقد بات واضحا للجميع أن التزوير الفج أصبح مكتوبا على هذا الشعب حتى انقراضه.

الحلم
(انتخابات دون تزوير!)

خلال تلك المرحلة لم تكن تستوقفنى كل هذه النداءات والاحتجاجات لشعورى الدائم بأن الأولوية فى هذه المرحلة يجب أن تكون دوما نحو نشر التعليم والوعى. فقد كنت أشعر أنه ما زال أمامنا عشرات السنين قبل أن نصل إلى مرحلة النضج الكافى الذى يسمح بالتحرك السياسى السليم.

ولكننى فى إحدى الأيام ذهلت وأنا أقرأ على الشبكة إحدى المطالبات بتطبيق نظام الـ "EVM" فى الانتخابات متوازيا مع اقتراح تفصيلى بتعديل الدستور وقانون الانتخابات لعودة نظام الإشراف القضائى على كل العملية الانتخابية داخل وخارج اللجان. وكان ذهولى نابعا من أن طريقة العرض بدت لى مألوفة للغاية هى وكل تفاصيلها الفنية.
(لمن يهمه الأمر، تفاصيل هذا النظام الفنية موجودة بالملحق (٢) المرفق بالمذكرات ص ٤٠٧)

أخذت أدقق مرة أخرى فى كل كلمة، وبعد بحث سريع عن هذا النظام على الشبكة قررت الاتصال بمدير شركة "سابو للبرمجيات" لأسأله عن هذا الأمر. لم أستطع إخفاء دهشتى عندما أفادنى أن هذا النظام مصمم فى الهند وبدأ تطبيقه بنجاح عام ١٩٨٩ ليعمم بعد ذلك فى كل الانتخابات الهندية. وكان عبارة عن اختراع متطور، الغرض منه ضمان عدم تزوير نتائج الانتخابات وفرز النتائج بمنتهى الشفافية. ذهلت عندما أخبرنى أن فد حفيد سابو هو المدير التسويقى لهذ النظام وأول من صدره لخارج الهند. أخذت أحاول استجماع شتات أفكارى ثم قررت الاتصال بـفد

بالرغم من فارق التوقيت. وجدته يجلس فى غرفة المعيشة بمنزل جده المتوفى أسفل صورة ضخمة للفيل.

- كيف حالك فد؟!
- بخير، كيف حالك أنت مستر نصار؟!
- جيد، كنت فقط سأطلب منك خدمة. أرجو أن تبعث لى مرة أخرى بآخر ملف أرسلته بخصوص نظام التصويت الإليكترونى "EVM" . فقد أصابنا فيروس أفقدنا الملف.
- أمتأكد حضرتك أن خالد لا يحتفظ بنسخة منه، فنظام الـ "Back-up" (النسخ الاحتياطى) الذى يعتمده فى الشركة كفاءته عالية ولا يمكن أن يضيع منه شيء.
- ...
- أستاذ نصار أرى صورتك مجمدة لا أسمع ردك، هل هناك خطب ما فى الإرسال؟
أفقت من ذهولى لأرد بسرعة محاولا مداراة ارتباكى:
- لا، لا يوجد شيء. حسنا انس ما قلته ولا داعى لإرسال الملف. سأراجع خالد مرة أخرى. ولكن...
- ولكن ماذا مستر نصار؟!
تراجعت عما أريد قوله ثم نظرت بسرعة إلى اللوحة أعلاه محاولا إيجاد أى شيء بديل أقوله:
- ولكن هذه ليست المرة الأولى التى أشاهد فيها صورة الفيل ذى الرأس الآدمى. هل تسمح أن تشرح لى إلى ماذا ترمز؟
ابتسم فد وهو ينظر فوقه قائلا ببساطة شديدة:
- أتقصد جنيشا! إنه الأقرب إلينا ولكن لا يمكن اختزاله فى مفهوم واحد، ولهذا فهو يتم تصويره فى أشكال عدة لأنه يمثل كل واحد منها وفى نفس الوقت هو كلها مجتمعة. هو إله البدايات الجديدة والوحيد القادر على إزالة العقبات ولذلك تجد الهنود يتباركون به قبل أى عمل روحانى أو دنيوى.

- ولماذا لا يوجد لديه أنياب؟
- لأنه ليس فقط إله الحكمة بل هو أيضا الكاتب الذى ضحى بنابه فكسره ليستعمله كريشة لنسخ قصة ماهابهارتا من الحكيم فيازا. بدونه لم تكن الباهجفاد جيتا لتكتب.
- ولماذا لديه وجه إنسان وعدة أذرع ويمسك بحلوى فى يده؟
- لديه وجه إنسان ليتواصل مع البشر ويكون قريبا منهم. أما الأذرع الأربعة فهى رمز لقدرته العظيمة على مساعدة الإنسانية. ضخامة بطنه تشير إلى تسامحه وأن كل الأشياء، بل الكون بأكمله بداخله. أما الحلوى أو المصاصة فهى رمز الجنانة، مانحة السعادة.
- وهل هو يمتطى فأرا بالفعل؟
- هو يمتطى زبابة وهو حيوان يشبه الفأر. هذا الكائن الصغير الوضيع يرمز إلى الذاتية أو الـ"أنا" التى يجب ترويضها والتحكم فيها خلال رحلتنا على الأرض. فديانتنا تدعو إلى الزهد كما تعلم، وإذا أطلقنا العنان لرغباتنا الدنيوية فسوف تتحكم فينا وتسجننا داخل سلسلة من الطموحات التى لا سقف لها حتى تدمر حياتنا. فالإنسان لا يكتشف الحياة إلا عندما يلغى من داخله الـ"أنا".
- ...
- هل هناك شىء آخر سيد نصار؟
- لا شكرا يا فد، وآسف على إزعاجك بهذه الأسئلة فى هذا الوقت المتأخر.

(قصة قصيرة انتشرت عام ٢٠٤٦ و لم أقم بالتصريح ببثها على موقع الحركة من قبل)

المقامر

دخل مقامر محترف صالة للقمار ليتفحص الموجودين بالقاعة فوجدهم جميعا مسنين بطيئى الحركة. توجه بثقة شديدة إلى اللعبة الوحيدة الموجودة وهى عبارة عن هرم من أوراق اللعب (كوتشينة). تساءل عما إذا كان يستطيع اللعب بدلا من الرجل المسن الذى يقف حائرا أمامها. جاءه الرد بأنها لعبة عتيقة تمارس منذ آلاف السنين وقواعدها معقدة تحتاج إلى مراقبتها مدة طويلة بحكمة أثناء لعبها حتى يتسنى له فهمها واكتساب مهاراتها. رد بسرعة وقد أوشك صبره على النفاد بأنه جاهزوسبق وقد فاز فى كل الألعاب التى لعبها من قبل ويستطيع البدء فورا دون تردد.

أزاح الرجل المسن المنهك جانبا وبدأ بالسؤال: ماذا أفعل الآن؟ جاءه الرد بأن الهدف من اللعبة هو أن يرص الأوراق بحيث يعلو بناء الهرم إلى أقصى ارتفاع ممكن.

سأل عن أوراق اللعب المتاحة. جاءته الإجابة بأنه يجب أن يبحث عنها فى أرجاء القاعة المترامية الأطراف.

بدأ فى البحث بسرعة، وكان كلما عثر على ورقة وجد أحد أصدقائه الذين ساعدوه ليصل إلى هذه اللعبة يحتفظ بها لنفسه ويرفض التخلى عنها.

سمع صفيرا يصم الآذان قادما من اللعبة فعاد ليستفسر عن الأمر. فقيل له إن أمامه دقيقة واحدة حتى يلعب وإلا خسر كل شىء.

تعلل بأنه لم يجد أوراقا بعد ولا يدرى ماذا كان يفعل العجوز الذى كان يلعب قبله. جاءت الإجابة بأن الرجل المسن كان يسحب أوراقا من قاعدة الهرم ليقوم بتعلية القمة. نظر جيدا إلى قاعدة الهرم فوجدها مهترئة تهتز وقد تم سحب معظم أوراقها ومع ذلك فالهرم لم يسقط بعد نتيجة لمعجزة ما.

قال لنفسه فى ثقة شديدة وهو يسحب ورقة من القاعدة:
" غير معقول أن يكون هذا المسن ذو العقلية المتحجرة أبرع منى فى اللعب."

وقبل أن ينتهى من سحب أول ورقة **انهار الهرم كله** فى لحظة.

نظر فى أسى إلى الهرم المنهار وهو يقول:
" ماذا أفعل الآن؟ هل أستطيع اللعب مرة أخرى؟"
أتاه الرد بأن اللعبة لم تنته بعد وأن الجزء الثانى منها يبدأ مع انهيار الهرم قبل معاودة الكرة ومحاولة بنائه من جديد.

تنفس الصعداء وهو يقول:
- ولماذا لم تقل لى هذا من قبل؟
جاءه الرد من الخلف:
- أنت لم تسأل، لقد كنت متعجلا لأن تبدأ، و لم ترد أن تعرف قواعد اللعبة حتى النهاية.
ثم سمع صوتا مخيفا يستطرد قائلا:
- الجزء الثانى من اللعبة هو الروليت الروسى.

التفت خلفه مرعوبا فوجد فوهة مسدس ضخم موجه إلى رأسه...

مأزق نظام لا يعرف كيف ينهار

خلال تلك الأعوام شهدت البلد موجة من الاعتراضات والاحتجاجات فى كل القطاعات. وكانت هذه الفترة تشهد نهاية هذا النظام الضعيف، حيث بات من الصعب الترشح مرة أخرى لبلوغ الرئيس عامه الرابع والثمانين أثناء انتخابات عام ٤٧. وبدأت إشاعات قوية تؤيد فكرة ترشيح ابنه خليفة له بالرغم من صغر سنه الذى لم يتجاوز منتصف الثلاثينات.

وأكاد أجزم أن عدم وجود سيناريو محكم وآمن هو الذى أدى إلى عدم ترشح الابن كما كان مخططا له عام ٤٧ وإعادة ترشيح الأب للمرة الأخيرة بالرغم من سنه الطاعن. لقد كان جليا أن الخوف من إحداث أى تغيير فى كل هذه المنظومات المهترئة قد يؤدى إلى انهيار شامل وخروج الأمور عن السيطرة. نعم لقد تسرب الخوف والفزع إلى قلوبهم بصورة استشعر معها الناس أن الوقت قد حان لإحداث التغيير. وللأسف فإن هذا الخوف الذى كان يدفع المواطنين البسطاء إلى السلبية طوال هذه القرون هو الذى دفع الآخرين فى السنوات اللاحقة إلى التمادى فى قمعهم وبطشهم خشية التغيير الذى أصبح من المستحيل أن يتم وهم محتفظون بنفوذهم.

٢٠٤٧ عام الانتخابات الأخيرة

فى ذلك العام أذهل عمرو والده حسن بترشحه لوظيفة وكيل نيابة. فقد أنهى عمرو فى نفس عام حصوله على بكالوريوس الهندسة، ودون إعلام أحد من أسرته، دراسته للحقوق بنفس التفوق. وأكثر ما أثار دهشتى هو أنه بعد عدة سنوات كان عمرو أصغر ملتحق بوحدات التحقيق الخاصة. والأعجب أن ذلك لم يكن بسبب تفوقه فى دراسة القانون بل بسبب تفوقه فى علوم البرمجيات.

وقد شهدت الانتخابات المعروف نتيجتها مسبقا دعاوى جديدة مثل " **اللى عايزين ننتخبهم إنتم مش قابلين ترشيحهم.**" وكالعادة قمت بمنع نشر معظم المواد التى وردت لى بهذا الشأن. وكانت الفكرة الرئيسية من هذه الدعاوى هى حشد أكبر عدد من الناخبين لإبطال أصواتهم احتجاجا على الإصرار على عقد الانتخابات بهذه الصورة السخيفة. فقد تصوّر البعض أنه إذا كان عدد المحتجين أكبر بكثير من عدد مؤيدى المرشح الوحيد فهذا سيعطى حافزا للمطالبة بتعديل الدستور لإطلاق حرية الترشح فى المستقبل.

وفى اليوم المحدد تجمهر الملايين أمام مراكز الاقتراع حاملين شعارات تدل على إبطالهم لأصواتهم. وقد مكن هذا الناشطين من عمل تقدير فعلى لعددهم، وهو شىء كان شديد الأهمية لعدم وجود أى إحصاءات منشورة موثوق فى صحتها لاستبيان الرأى.

وكانوا قد قسموا أنفسهم إلى مجموعات بعدد الدوائر الانتخابية لتصوير بث حى رقمى على الشبكة لجموع المتجمهرين الذين يمثلون وجهة نظرهم. ومن خلال برامج بسيطة طوروها بأنفسهم تمكنوا من إعلان أعداد الذين أبطلوا أصواتهم فى كل دائرة انتخابية.

وبالطبع جاءت النتيجة الرسمية مغايرة تماما لهذه الإحصائية. وتعمد النظام عدم الكشف عن عدد الأصوات الباطلة والتى كانت تحوى ببساطة رسالة عدم الاقتناع بأى من المرشحين الذين ينتمون جميعا للنظام، والذين لا يوجد بينهم سوى مرشح وحيد من أسرة أبدية ضج منها الناس.

وبعد الإعلان الرسمى بأيام نظمت المظاهرات من أجل تعديل الدستور ووقف أعمال التزوير. وقد تعامل الأمن مع هذه الاحتجاجات بمنتهى الغلظة والقسوة، لدرجة أنه تم فرض فترة حظر تجول أثناء هذه الأحداث العنيفة والتى اعتقد الجميع حينها أنها انتهت بانتهاء الأزمة.

ولا أدرى ما إذا كنت على صواب أم خطأ عندما اضطررت نتيجة لتفاقم أعمال العنف ضد الحركة فى بداية هذا العام، ورضوخا لمطالبات الأعضاء، أن سمحت بنشر بعض هذه النداءات التى يعرفها معظمكم. ولكن الأكيد أن الاعتقالات تصاعدت حدتها، وخاصة بعد توارد إشاعات قوية تفيد بأن الاضطرابات التى حدثت بعد ظهور نتيجة الانتخابات كان المحرض الأساسى لها مجموعات ليس لديها انتماءات سياسية، ولكنها تضم العديد من المتطوعين بـ"الحركة" بالإضافة إلى عدد محدود من التنظيمات السياسية الغير معترف بها.

أسرتى الصغيرة

أكثر ما ميز هذه الفترة بالنسبة لى كان الاستمرار المنهجى من قبل الأمن للقضاء على الحركة، وإن كانت هناك بعض الأحداث الهامة الأخرى التى أذكر منها ما يلى:

بعد اتهام الدكتور على بالمشاركة فى التنظيم لأحداث عام الانتخابات تم اعتقاله لفترات طويلة. وخلال تلك الفترة انتقلت فرح مع أولادها إلى منزل والدتى التى كانت لا تزال تعمل بنشاط لا يتناسب مع بلوغها الخامسة والسبعين.

وكان نصار الذى تم الثمانية عشر عاما فى نفس العام، وبالرغم من كل الظروف الصعبة التى يمر بها والداه، يبدو لى بصورة ما منفصلا عن كل ما يحدث حوله. فكنت أجده دوما مبتسما يشيع البهجة فى المنزل وخاصة لدى جدته التى أصبحت مرتبطة به ارتباطا خاصا. وكان يمضى معظم وقته فى الرسم مما جعلنا لا نعجب عندما تم قبوله فى أعرق الجامعات لدراسة الفنون الجميلة بفرنسا.

ولم أفهم مطلقا كيف يمكن لفتى مثله فى كل هذه الظروف الغير مستقرة أن يحدد هدفا بهذه الغرابة لنفسه لا علاقة له بأى شىء. فكنت أسمعه فى بعض اللحظات النادرة التى يتحدث فيها بجدية شديدة يقول لنا:
"أنا سأصبح أول مبتكر مصرى وعربى لسلسلة قصص مصورة للأطفال، تكتب للأطفال المصريين من سن ١٢-١٥ عاما وتترجم إلى كل لغات العالم."

وبالرغم من عجزنا جميعا عن فهم منبع هذه الفكرة الغريبة فإن والدتى كانت تتأثر بشدة عندما يتحدث بجدية فى هذا الموضوع قائلة:

- انظروا كيف يقطب جبينه! تماما مثل جده الخالق الناطق.

أما فرح فكانت دوما تستاء من المقارنة وتؤنب والدتى قائلة:

- لو كان بابا عايش كان لا يمكن يوافق على هذا الكلام الفارغ، وكان قال عليه مجنون عايش فى الوهم. هل معقول فى الظروف التى نعيش فيها والبلد بهذه الصورة يحلم إنسان بهذا الكلام الفارغ الذى لا يمت لواقعنا بأى صلة. هل هذا هو ما ينقصنا ونحتاجه الآن والبلد على شفا الانهيار؟!

أما أنا فكنت أيضا أندهش من هذه المقارنة، وخاصة لمعرفتى برأى نصار الكبير السلبى فى أفكار نصار الصغير الخيالية إذا كان قد قدر لهما أن يقابل أحدهما الآخر.

وبدا لى وكأن نصار لا يشغل باله بالنقاش ومحاولة الإقناع، فهو لم يكن يلقى بالا لما يعتقده أى مخلوق فى شخصه، بل أعتقد أنه كان يستمتع كثيرا بصدمتنا بكثير من تصرفاته الغريبة وهيأته العجيبة، والتى كانت تؤلم والدته كثيرا فى ظل غياب والده معظم الوقت.

أما أغرب ما فى الموضوع، وبالرغم من استهزائنا جميعا به، فإن نصار استطاع بالفعل بعد خمس سنوات ، وبعد عودته من فرنسا بعام إنتاج أول عمل روائى مصور للأطفال المصريين والفوز بجائزة عالمية متخصصة فيتم ترجمة قصته إلى عشرات اللغات.

أما فاطمة أخته الصغرى فكانت منذ نعومة أظافرها تصر على أن تصبح طبيبة مثل والدها. إلا أنه بمرور الوقت و بعد سفر أخيها بثلاث سنوات التحقت بإحدى الجامعات الخاصة

لتدرس العلوم السياسية. وقد جعلت عمرو بن حسن يساعدها فى توجيهها لعمل دراسات حرة فى القانون بناء على رغبتها. وبالرغم من تخليها عن حلمها بأن تكون طبيبة مثل والدها فإنها انضمت دون علم والديها أثناء دراستها إلى نفس تنظيم والدها السياسى.

وفى أحد الأيام عند ذهاب على ليفتح الباب، ومعه حقيبته ليسلم نفسه إلى القوة التى أتت لتعتقله كما اعتاد، فوجئت فرح بالضابط يقول لهم:

- نحن لم نأت من أجلك يا دكتور هذه المرة، ولكننا أتينا لاصطحاب الأستاذة فاطمة ابنتك.

وقد نجح عمرو بمعجزة فى مساعدتنا للإفراج عنها اليوم التالى، مع تأكيده لنا أنه لن يستطع مخلوق التدخل إذا قبض عليها مرة أخرى فى حالة استمرار نشاطها بهذا التنظيم السياسى الذى لن يُعترف به أبدا طبقا لمعلوماته الموثوق بها.

وبالرغم من هذا فقد استشعرت أن فرح التى كانت مشاعر الأمومة تمزقها لم تضغط بالشكل الكافى على ابنتها لتترك هذا العبث من وجهة نظرى. هل لأنها كانت تعلم أنها صعبة المراس وأنها لن تستمع لكلام أحد وستفعل فى النهاية ما هى مقتنعة به؟! هل لأنها كانت بصورة ما موافقة على ما تفعله وترى فيه صوابا ما؟! لم أدر قط كنه الأحاسيس المعقدة التى كانت تجتاح صدر كل من على وفرح، ولكنهما فى النهاية تركا ابنتهما تستمر فيما تفعله لتعتقل بعد ذلك فترات طويلة عام ٢٠٥٣ هى ووالدها بالرغم من محاولات فرح اليائسة الاستعانة بكل المعارف للحيلولة دون حدوث هذا.

هجرة وليد

فى أحد الأيام أتى حسن مع ابنه لأخذ رأيى بشأن عرض تلقاه وليد للعمل فى شركة متعددة الجنسيات فى أستراليا تمهيدا لهجرته النهائية إلى هناك.

- حسنا، تفضل يا وليد، كلى آذان صاغية.
- أكيد بابا حكى لحضرتك.
- نعم، ولكننى أريد أن أسمع منك أنت.
- لا شىء، لدى فرصة للعمل بشركة "أرشى الأسترالية" لمدة عامين، وإذا سارت الأمور جيدا فقد أستطيع الحصول على جنسية لأن تخصصى من التخصصات المطلوبة هناك.
- ولكن هل قررت الهجرة نهائيا أم لا؟
- لا،... لا أدرى حتى الآن، لن أستطيع اتخاذ قرار قبل أن أذهب وأجرب العيشة هناك لأكتشف الوضع على الطبيعة.
تدخل حسن فى عصبية:
- لا تصدقه. هو لا ينفك يتحدث عن الهجرة منذ فترة. أنت لا تدرى كم المجهود والسعى المثابر لكى يحصل على هذه الفرصة. أؤكد لك أنه منذ أن تخرج وهو يسعى إلى ذلك.
- هل هذا صحيح؟! هل اتخذت قرارك بالفعل؟!
- سأكون صريحا مع حضرتك. نعم، سأفعل كل ما بوسعى لأحصل على الجنسية ولكن المشكلة أن كل هذا فى علم الغيب، وقد لا يتم قبولى لعشرات الأسباب.
- ولماذا يبدو لى من كلامك أنك تحاول الهرب من البلد بأى طريقة.
- لأن هذه هى الحقيقة. أعطنى سببا واحدا منطقيا يدفعنى للبقاء، باستثناء طبعا الغربة عن أهلى وهو أمر لا أستطيع الحكم عليه دون تجربته وقد يكون قاسيا إلى حد يدفعنى للعودة.

- ...

وجدت نفسى عاجزا عن الرد وأشعر لأول مرة بالضعف أمام حسن الذى كان ينظر لى يائسا منتظرا منى إجابة مقنعة.

- أتدرى أن حضرتك الذى شجعتنى على الهجرة!

- أنا؟! كيف؟

- اتذكر حضرتك عندما أتيت من قبل لأخذ نصيحتك عندما كنت اريد ترك شركتى السابقة لألتحق بالعمل الذى أنا فيه الآن. وعندها أنت وقفت فى صفى ضد رغبة والدى عندما فهمت أسبابى. حينذاك كانت مشكلتى أننى لا أستطيع أن أعمل فى مكان يتوجه القائمون عليه وجهة خاطئة فى رأيى، ويطلبون منى فقط أن أنفذ ما هو مطلوب منى كموظف دون التفكير فى سياسات الشركة العليا التى لست مسئولا عنها. أتذكر حضرتك القصة التى رويتها لى فى ذلك اليوم؟ سأقصها على والدى مرة أخرى لأنه لم يكن معى حينها.

" مجموعة من الناس على مركب فى وسط المحيط تسير دون وجهة ما. بعد مدة طويلة للغاية من الإنهاك ونقص شديد لكافة موارد الحياة شعر الركاب باليأس من وصولهم أحياء إلى أرض النجاة.

بدأوا يراقبون النجوم لتحديد وجهة مسارهم واكتشفوا أنهم يدورون فى حلقات دائرية دون وجهة محددة وأنهم بالعكس يبتعدون أكثر فأكثر عن أقرب شاطئ لهم.

ذهبوا يتحدثون مع الربان وطاقم الضباط ليبلغوهم بأنهم بالقطع لن يصلوا لأى مكان لأنهم لا يتوجهون تجاه شاطئ ما.

فاجأهم الربان بقوله إنه يعلم ذلك تماما وأن السبب فى دورانهم العبثى هو أن الوقود والمؤن التى لديهم لا تكفى للوصول أحياء للبر. وكان كل ما يشغله هو التوجه نحو المخلفات القريبة التى

تتركها السفن الأخرى الملقاة فى عرض البحر، والتى يجد فيها دوما فضلات تصلح للأكل وذلك للإبقاء على حياتهم حتى لا يموتوا جوعا.
حاول البعض الاعتراض دون جدوى إلا أن الربان أصر على موقفه بدعوى أن الوقت قد فات للتوجه إلى بر الأمان وبأنه لا يوجد لديه حل آخر.

انقسم الناس قسمين: القسم الأكبر قرر بحكم العادة تعليق حياته فى رقبة الربان، والقسم الأصغر قرر ترك المركب مستعينا بزوارق النجاة الخفيفة للاتجاه نحو أقرب شاطئ بالرغم من بعده الشديد".

قاطعت وليد بسرعة قائلا فى حدة:
- أرجوك لا تخلط الأمور بعضها ببعض. هذه القصة لها علاقة بالحاجز النفسى الذى يقف حائلا أمام معظم المصريين لأخذ مبادرة تغيير عملهم حتى عندما يكتشفون عبث ما يفعلونه.
فلسبب ما، ربما يرتبط بالشخصية المصرية، يميل الجميع لفكرة الاستقرار ورفض التغيير حتى لو اضطرهم هذا إلى تحميل صاحب العمل مسئولية أكبر بكثير مما يستطيع.
وهذا الخوف من التغيير والرغبة المحمومة فى التخلص من المسئولية وإلقائها على عاتق الآخرين هو بالضبط ما أوصلنا إلى المأساة التى نعيشها اليوم. فأنا دوما ضد فكرة أن يستمر الإنسان فى عمل عبثى بدعوى أن صاحب العمل هو من يتحمل المسئولية.

ولكن هذه القصة لا تنطبق إطلاقا على ما تنوى فعله والهجرة تاركا المركب بحثا عن أمانك الشخصى.

- لماذا؟! لا يوجد فرق حضرتك، هى نفس الحالة بالضبط.

- هذا غير صحيح. ففى حالة الشركة لا يمتلك الركاب المركب بل يملكها هى ومواردها شخص آخر له مطلق الحرية فى إدارتها وتعيين رئيسها، ولا يمكن إرغامه بأى طريقة على فعل شىء لا يريده.

أما فى حالة البلد فالوضع مختلف تماما. فالركاب هم المالكون الحقيقيون، لذلك فهم بالضرورة شركاء فى مسئولية اتخاذ القرار. وأصل الموضوع أن القبطان هو من يعمل لدى الركاب وليس العكس.
ولذلك فليس من سلطته، هو ومن حوله من ضباط، إخفاء أى حقيقة عن الركاب كوضع المخزون الموجود وكيفية التصرف فيه. فمن حق الركاب أن يعرفوا كل شىء لكى يشتركوا فى اتخاذ القرار فيما يملكون. ومن حقهم أيضا أن يستفسروا عن الموارد الموجودة والتى استولى عليها القبطان وضباطه لأنفسهم والتى هى فى حقيقة الأمر ملك لكل المواطنين.

أيضا فى هذه الحالة القبطان لا يمتلك أى سلطات فوقية بل إن الركاب هم من يعطونه السلطة، وباستطاعتهم أن يستردونها منه وقتما يشاءون.

- كل هذا كلام نظرى وحضرتك تعلم تمام العلم استحالة انتزاع السلطة لا بالإقناع ولا بالقوة... ثم أن هذا فوق قدرتى. أنا أريد فقط... أريد أن أفيد الناس بما تعلمته ودون أن أتخلى عن مبادئى، وأنا أجد استحالة عملية فى تحقيق هذا فى هذا البلد.
إذا كنت تعرف طريقة مضمونة لتحقيق حلمى البسيط هنا فى بلدى، فقط دلنى عليها.

- أنا لا أستطيع أن أفكر بالنيابة عنك ولا أستطيع أن أطلب منك أن تتخلى عن أحلامك ولا عن مبادئك. كل ما أستطيع قوله أن كل ما أنت عليه الآن حققته هنا فى هذا البلد. وأنت وأمثالك مفترض أن تكونوا القوة المحركة لهذا المجتمع، وأنا أحزن عندما أرى مجهود ربع قرن وموارد هائلة مستثمرة لتكوين أناس مثلك يتم إهدارها بهذه الطريقة وتركها لتهاجر وتبنى فى مكان آخر.

- أقسم لك إنك إذا قلت لى على أى طريقة منطقية مضمونة للاستفادة منى هنا فإننى سأبقى.
- للأسف لا يوجد شيء مضمون ولا أستطيع أن أعدك بشيء، فقد تبقى هنا وتحاول ثم تفشل وتحملنى عبء فشلك. أنت حر فى الاختيار، إذا كان هناك طريقة فالوحيد القادر على اكتشافها هو أنت، وأنا أعتقد أنك لم تبحث بما فيه الكفاية. قد أكون مخطئا، من يدرى؟!

وفجأة تدخل حسن منفعلا:
- ما هذا الكلام يابشمهندس، أنا جايبه هنا علشان تعقله تقول له "إنت حر". لأ مش حر، لو سافرت دون موافقتى فلن أحدثك مطلقا بعد ذلك، لا انت ابنى ولا أنا أعرفك.

تأملت وليد وهو ينظر إلى والده نظرة زجاجية دون انفعال كنت أعرفها جيدا فتيقنت أنه قد أخذ قراره قبل أن يأتى اليوم فحاولت أن أهدئ حسن:
- يا حسن، لن تستطيع إرغامه على شيء بهذه الطريقة. هو ليس طفلا، إنه رجل عمره الآن ثلاثة وعشرون عاما.
- يا بشمهندس لن تفهم أبدا، أنا لا أستطيع أن أتركه هكذا يتغرب...أنت لن تفهم... إنه ابنى...

لم أرد ونظرت إلى حسن مليا فاستطرد بسرعة محاولا الاعتذار وقد طغى تأثره بفشلنا اليوم فى اقناع ابنه على ارتباكه:
- أنا آسف يابشمهندس، لا أقصد شيئا، ولكننى لا أستطيع تقبل فقدانه هكذا بهذه السهولة.

أمسكت بيده وخرجت معه إلى خارج الغرفة وأنا أهمس له:
- لا تعتذر يا حسن، أنا أتحدث هكذا لأننى أعتبر وليد مثل ابنى أنا أيضا، ولكنك إذا سلبته حريته ونجحت فى إرغامه على البقاء بدافع الذنب فستخسره. اتركه وادعو له أن يجد سعادته فى يوم من الأيام، فهو بالقطع ليس سعيدا هنا.
- لا أستطيع، أنا واثق أنه لن يرتاح فى الغربة... أنا أعرفه جيدا.
- إذا شعر أنك موافق على سفره وسافر بهدوء دون مشاكل ولم يجد راحته سيعود. أما إذا شعر بأنك غير موافق واصطدم بك فسيظل طوال حياته يحاول أن يثبت لك أنه اتخذ القرار السليم بسفره. صدقنى هو عنيد ولديه فكر مستقل منذ صغره ويرغب بشدة أن يشعر أنه حر فى اختياراته ويفعل الصواب بملء إرادته وليس من أجل إرضاء شخص آخر حتى لو كان أغلى شخص عنده. اتركه ليتعلم بنفسه.
نظر إلىَّ حسن مليا وشعر بأن هذا هو آخر كلام لدى فأشار لى لنعود داخل الغرفة فى صمت مطبق.

كان وليد ينتظرنا فى قلق، وبدا مندهشا عندما ختمنا اللقاء بسرعة بعبارات مقتضبة لا معنى لها وسط مشاعر حزن صامتة نجح حسن فى بثها لنا قبل أن يغادر الاثنان سويا مطأطئى الرأس.

الاغتيال

أعتقد أن هذا حدث فى نهاية عام ٢٠٥٢. ففى هذا العام وصلت أحداث قمع الحركة إلى ذروتها، وخاصة بعد أن نمت شائعات قوية بتخصيص وحدة سرية للقضاء على الحركة تحت رئاسة شاب صغير مشهود له بالذكاء فى علوم الاتصالات. وقد أتت هذه الشائعات بعد نجاح الوحدات الخاصة فى اختراق أمن موقع الحركة والكشف عن الشفرات السرية للولوج. ثم بدأ مسلسل الكشف عن هوية الأعضاء والقبض على الكثيرين من خلال تحديد أماكن اتصالهم، أو مداهمتهم فى الأماكن التى يقومون بتنفيذ المشاريع فيها.

وقد حمدت ربى على تمسكى بفكرة سرية الهويات طوال هذه الفترة، لأن من كان يسقط كان لا يؤدى إلى كشف هوية الآخرين لأنه هو نفسه لا يعرفهم. ولكن فى نهاية العام تلقى الجميع الخبر المفجع بوفاة أحد الأعضاء أثناء هروبه. وقد ذكر بيان مقتضب أن الشاب القتيل قد سقط من فوق سطح أحد المبانى أثناء مطاردته فى إحدى القرى. وقد أثار هذا الحدث كل الأعضاء وبدأت تسرى موجة عنيفة من الغضب والرغبة فى التخلى عن سياسة المضى قدما فى العمل التطوعى السلمى وتجاهل العنف.

وكانت هذه هى أول مرة فى حياتى أفكر فيها بشكل مغاير، فالحق يقال أننى اعتبرت نفسى مسئولا بصورة مباشرة عن مقتل هذا الشاب.

مطارَد أم مطارِد؟

أخذت أراجع كل شيء بدقة مرة أخيرة، ثم أخذت نفسا طويلا وأنا أحدث نفسي بصوت حماسي عال لأتشجع.

" لتبدأ اللعبة."

قمت بالولوج لموقع الحركة وبدأت في الحديث على المنتدى من خلال جهاز تغيير بصمة الصوت:

- من فضلكم أنا مؤسس الحركة وأود التحدث إلى الضابط المسئول الذي يقوم بمباشرة ملفنا. سأقطع الاتصال الآن و لن أرد إلا عند سماع صوته، هو نفسه وليس أحدا سواه.

أخذت أنقر المكتب أمامي وأنا أتطلع إلى الساعة في قلق مدة طويلة والعقرب يرفض التحرك قيد أنملة.

" قطعا لن يفوت فرصة مثل هذه. احتمال أن يحدثه مؤسس الحركة من مكان ثابت يسهل تحديده."

وبعد ربع ساعة مرت كالدهر أتاني صوت هادئ كان من الواضح أنه هو أيضا تم معالجته:

- أفندم. أنا المسئول عن ملفكم.
- وكيف لي أن أتأكد؟
- لا يوجد وسيلة للتأكد سوى إنه بالقطع يهمني التحدث إليك.

أخذت أرقب أنا أيضا جهاز الاقتفاء الخاص بي فوجدت الجهاز الذي يتحدث منه الضابط يتحرك، مما جعل هناك صعوبة شديدة في تحديد المنطقة التي يتحدث منها.

- حسنا، ماذا تريدون منا بالضبط؟!
- أن تلتزموا بالقانون.

- ولكننا نحترم القانون.
- هذا ليس صحيحا، فأنتم تخالفون مادتين من قانون مكافحة الإرهاب.
- هذا ليس صحيحا.
- بل صحيح. فالمادة خمسة وثلاثون تنص على أنه لا يجوز لأكثر من خمسة أفراد الالتقاء على الشبكة دون الحصول على إذن مسبق من وحدة تنظيم الشبكة بالوزارة ومن قسم الجرائم الإليكترونية. والمادة ستة وثلاثون تمنع الولوج إلى الشبكة والتحدث مع أى شخص دون استيفاء استمارة التعريف الإليكترونى التى توضح هوية الشخص المتحدث.

شعرت أثناء حديثه بأنه يتعمد التحدث بهدوء شديد وببطء اصطناعى." قطعا يريدنى أن أظل أطول فترة ممكنة أتحدث من مكان ثابت حتى يعطى لوحدته الفرصة الكافية لتحديد مكانى بدقة والوصول إلىّ."
- أنا أعلم هذا جيدا، ولكن دعنى أذكرك بأن كثيرا من مواد هذا القانون تتعارض مع روح الدستور، مما يجعله فى نظرى باطلا. كذلك غالبية ممثلى الشعب الذين وافقوا عليه أتوا فى ظل فقدان الشعب الثقة التامة فى جدوى ونزاهة الانتخابات وعزوفهم التام عن تضييع وقتهم والذهاب إلى صناديق الاقتراع. وبالرغم من ذلك، فحتى إذا سلمت بأن قانون الإرهاب دستورى، فنحن نحترمه ولا نخالفه.
- كيف؟
- نحن سنكون خالفنا القانون إذا تعرف أحدنا على الآخر وبدأنا فى تنظيم أعمال تجمعنا. ولكنك تعلم علم اليقين بعد استجواب الذين قبضت عليهم أنه لا أحد يشترك فى الحركة يعرف الآخر، كما أننا نقوم بأعمال فردية لا يشترك فيها سوى شخص واحد. ولذلك فنحن لا نحتاج لإذن أو التعريف بأنفسنا لأننا فى واقع

الأمر لا يتعرف أحدنا على الآخر، ولا نشترك في أي عمل أو تنظيم جماعي.
- بلى، أنتم تشتركون في أخطر شيء يمكن أن يهدد أمن أي نظام.
- وما هو؟
- فكرة واحدة تجمعكم وتؤمنون بها جميعا.
- أأنت مريض، أم ماذا؟
قلتها وأنا أثبت كاميرا جوجول على سيارته وربطها بتردد جهاز إرساله بعد أن حددت مكانه. لاحظت أنه بدأ يزيد من سرعته عند سماعه تعليقي الأخير. ثم سمعت صوته الحانق وقد بدأ يتخلى عن مسحة الهدوء التي كان يغلف بها حديثه.
- أنا مريض أيها المعتوه، أيها المختل الذي يضحك على عقول الشباب الساذج ويجيشهم لخدمة أغراضه الوضيعة.
- هل أنت ساذج أم ماذا؟ كيف أجند مخلوقا دون أن يعرفني أحد؟
- هم لا يعرفونك لأنك لا تريد أن يقبض عليك.
- إذا سلمنا جدلا بما تقول، منذ متى يكون إثارة فطرة الرغبة في الإصلاح وعمل الخير ومحاولات جادة للتنمية البشرية أغراض وضيعة؟!
- هذا هو ما تقولونه جميعا في البداية.
- ولكن هذه هي النهاية فأنا لا أريد أكثر من ذلك، وكل شخص في الحركة في النهاية مسئول عن نفسه وعن تطبيق أفكاره ولا يخضع لسلطة أحد. فكما تعلم لا يوجد حتى هيكل تنظيمي ثابت. فمن يكون الرئيس التنظيمي للحركة خلال شهر يصبح عضوا عاديا في الشهر التالي. لا يوجد احتكار للسلطة أو أي رغبة فيها بأي صورة من الصور.
- هكذا تبدأون جميعا حتى تكونوا قاعدة لجيشكم السري ثم تنتهون بإظهار نواياكم الإرهابية.
- أنت بالتأكيد مجنون. أي نوا...

قاطعنى وهو يصرخ من الغضب:
- لا تقل "مجنون" مرة أخرى.
لاحظت وهو يرد بعصبية شديدة أن سيارته أصبحت تزيد من سرعتها فى اتجاه منطقة الجهاز الذى أتحدث منه.
- حسنا، لن أقول إنك مجنون أو معتوه مرة أخرى.
- أتتعمد إغاظتى؟
- لا، أبدا ولكن أى نوايا خفية تتحدث عنها. لا يوجد سوى ما تراه. رغبة حقيقية فى المشاركة فى التنمية دون أى مطامع سياسية خفية. فنحن كما ترى لا نتعرض لأى أمور سياسية أو عقائدية فى الحركة.
- هو إحنا سننتظر حتى تبدأون فى التعرض لأمور سياسية. هذه هى مهمتنا، منع المشكلات قبل حدوثها.
- أقول لك أن هذا ضد مبادئ الحركة و يستحيل أن...
قاطعنى وهو يحاول استعادة هدوئه:
- هذا هو ما تقوله حتى الآن ولكن من يضمن لنا أنه فى يوم من الأيام لن يبدأ هذا التنظيم فى التفكير فى العمل السياسى؟! من يضمن لنا؟... لا أحد. فكما قلت أنت. لا يوجد رئيس دائم ومعلن للحركة نستطيع التعامل معه وهذه هى الخطورة. أنتم فكرة تنتشر.
- فكرة إصلاحية.
- هذا ما تعتقده أنت، وإذا كنتم كما تقولون لماذا لا تعملون فى العلن؟!
- ألا تعتقد أننى درست هذا قبل أن أبدأ وتيقنت أنكم لا تسمحون لنا بهذا، بل وستحاولون تدمير فكرتنا بكل الوسائل كما تفعلون الآن. وبدلا من أن نركز على مشاريع إيجابية كنا سنركز على كيفية رد الضربات والدفاع عن أنفسنا. ناهيك عن أسباب أخرى أنت لن تفهمها.

- ولكنك وصلت إلى نفس النتيجة الآن وهى مواجهتنا الحتمية لكن بصورة عنيفة لأنك تعمل فى الخفاء.
- حسنا، اذكر لى أى طريقة لنقل هذا النشاط إلى العلن واستمراره وستتبعها فورا. كيف يمكن أن يتأتى لنا هذا فى إطار حظر تشكيل جمعيات أهلية جديدة، حظر...
- لا تكمل... هذه ليست مسئوليتى.
- إذا ما مسئوليتك؟
- مسئوليتى منع الفوضى قبل حدوثها وحماية أمن البلد من أى خطر يحيق بها.
- ولكن ما الخطر الذى نهدد به البلد أو حتى النظام؟
- نحن لن ننتظر حتى تشكلون خطرا. نحن نمنع الخطر قبل حدوثه.
- أتدرى شيئا؟
- ماذا؟
- أنا لم أدرك أنكم بهذا الضعف إلا اليوم.
- ماذا تعنى؟
- أعنى أن نظاما يخشى من أى شىء يحدث خارجه ويحاول تدميره هو نظام ينهار دون أن يدرك هذا.
- ما هذه التخاريف التى تقولها! نحن نسيطر على كل شىء ولن نسمح بدبيب نملة أن تعكر صفو استقرار هذا البلد.
- هذا ما تعتقده أنت ولكن دعنى أقول لك شيئا أخيرا. أنا لا أخاف منك وأنت لا تستطيع إرهابى.
- ...
كنت أتحدث وأنا أرقبه من أعلى وهو يدخل راكضا المول التجارى من أقرب بوابة.
- أتدرى شيئا، أعتقد أنكم تخافون منا أكثر بكثير مما نخاف منكم.
- ...

هناك شيء أخير أريد أن أقوله لك. أنت جبان تخشى أن تقترب مني.

- أنا الجبان يا أفاق. يا... يا... يا...

كان يتحدث بصعوبة وهو ينهج أثناء الجرى.

- تستطيع أن تسبني كما تريد، ولكنك في النهاية جبان. تخشى مواجهتي وترسل في أعقابي كلابك ليمسكوا بي. أنت جبان لا تستطيع مواجهتي.

- سآتي إليك بنفسي أيها الحقير، وأعدك أيها الكلب بأنك لن ترى النور بعد ذلك حيا.

وفي هذه اللحظة أحاط بالمقهى عدد ضخم من القوات الخاصة في ثياب مدنية استطعت تمييزهم بوضوح. أصدر أحدهم إشارة بيده فتوقف الجميع، وبدأ يتقدم بمفرده بهدوء فأدركت أنه هو، وإن كنت لا أستطيع تبين وجهه بوضوح حتى اقترب من الجهاز وبدأ ينظر إليه في بلاهة شديدة وأنا أصيح فيه هازئا وشاعرا بأنني أتعرف على وجهه المألوف:

- اضحك يا غبي حتى تضحك لك الصورة...

ثم قطعت الإرسال وهو ينظر ببلاهة للحاسب الآلي وبجواره جهاز الاتصال الذي كنت أتحكم به من منزلي.

كان قلبي يدق سريعا وأنا أشعر بنشوة غامرة وإحساس بالانتصار العارم. وقررت إمعانا في الاحتفال قبل بث التسجيل على الشبكة وصورته بعد تنقيحها، أن أتأمل الجزء الأخير وأكبّر وجهه لأميز في تلذذ تعبيرات دهشته البلهاء.

"آخر يوم لك في وظيفتك السرية أيها الأحمق. يا ترى، ماذا سيكون رأي رؤسائك عندما يرون هويتك السرية مفضوحة على الشبكة في تسجيل يدل على حمقك وسذاجتك الشديدين."

لم أدر أننى أستطيع استفزازه بهذه السهولة ليتخلى عن احتياطاته الأمنية. ولكن يبدو أن صغر سنه هو السبب فى رعونته الغبية. هناك أيضا عامل المفاجأة، حيث أعتقد أنها المرة الأولى التى يقوم فيها مطارد مطلوب بتعقب أحد الضباط السريين من أجل فضح هويته السرية.

أخذت أنقر على الحاسب سريعا لأكبر الصورة وأنقحها، فصدمت من هول المفاجأة وأنا أتأملها عدة دقائق فاغرا فاهى ورافضا التصديق. دفنت رأسى بين راحتى يدى، تحول إحساسى بالانتصار فى لحظة إلى ندم عميق بالفشل مع تزايد دقات قلبى المضطرب. أخذت أحاول أن أصل لقرار ما دون جدوى. لقد كنت متأهبا منذ دقائق للإطاحة بهذا الأحمق الطاغية المتسلط، وها أنا الآن أقف عاجزا تجاه آخر شخص فى الدنيا أرغب فى إيذائه... ابنى الذى لم أنجبه... عمرو بن حسن. لماذا تفعل بى هذا يا عمرو؟ لماذا؟ لماذا؟

ثورة العطشى

بعد أيام طويلة من التردد والتفكير المضنى أرسلت رسالة إلى عمرو أتعهد فيها، بصفتى الوحيد القادر على منع النشر على موقع الحركة، بعدم السماح بالترويج لأى دعاوى سياسية من أى نوع، مع الالتزام التام بالاستمرار فى الأعمال التنموية للحركة. وفى المقابل طالبته باتخاذ تدابير للتأكد من عدم تكرار حادث مقتل الشاب. وختمت الرسالة بتهديده بصورة مبطنة غير/مباشرة فى حال تكرار هذا الحادث مرة أخرى. والحق يقال إنه بالرغم من تزايد حملات الاعتقال فإنه لم يحدث حتى يومنا هذا حادث وفاة واحد لأى من المتطوعين.

وخلال تلك الفترة مرت البلاد باضطرابات وأحداث دامية، أشارت جميعها إلى تفاقم المجاعة المائية فى مصر. وكانت المشكلة مركبة، لأنه بالإضافة إلى كارثة الندرة فقد كان هناك أيضا مصيبة جودة المياه وصلاحيتها للاستهلاك الآدمى. فقد تزايدت حدة وباء الحمى القلاعية واللسان الأزرق فى الريف، وزادت نسب أمراض التيفود والفشل الكلوى وأمراض الكبد بسبب عدم وجود مياه صالحة للاستهلاك الآدمى. وأثناء صراع المزارعين الدامى على مياه الرى انتشرت شركات خاصة لتوفير المياه النظيفة ومياه لرى حدائق وملاعب جولف مختلف المنتجعات بأسعار خيالية لا يستطيع تحمل كلفتها ٩٥٪ من المواطنين.

وقد بدأ اندلاع الأحداث العنيفة عندما حاولت شركات صينية تسويق منتجاتها من أجهزة تنقية المياه المتطورة. ومن أجل الترويج لهذه الأجهزة فقد قامت بالتوزيع المجانى فى كافة المحافظات لمحاليل كيميائية معبأة فى أكياس صغيرة، من أجل

اختبار جودة المياه وتقدير مدى صلاحيتها للاستخدام الآدمى. فكانت هذه المواد توضع فى عينة المياه فينتج عنها لون محدد تقارنه ببيان ملون. وفى حالة عدم صلاحية المياه يشير اللون إلى أمراض محددة تصيب الإنسان فى حالة استخدامه لهذه النوعية من المياه.
وقد ادعت الحكومة حينها بأن أعداء الوطن هم من نشروا هذا الاختراع الفاشل الذى لا يمكن اعتماد نتائجه. وبسبب غياب الإحصاءات السليمة كانت هذه هى المرة الأولى التى يكتشف فيها الناس أن الأمراض التى أصابت نسبة هائلة غير معلنة من المصريين بالعقم أساسها نوعية مياه الشرب التى يستهلكونها. وبسبب عدم وجود بدائل اقتصادية، فقد شهدت عدة محافظات أحداث عنف قوبلت بقمع دموى أثناء مطالبتهم بمياه نظيفة.

وخلال تلك الفترة العصيبة تبادل جميع المسئولين الاتهامات محليا وإقليميا لكى ينفوا مسئوليتهم عن هذا الوضع الكارثى الذى استحال معه أية حلول سريعة عاجلة. وكان أكثر ما أثار الناس هو اتهامهم بأنهم كشعب مسئولون عن هذه المشكلة لتزايدهم بصورة مطردة مع بقاء حصة مصر من المياه ثابتة. والحقيقة أنه منذ أكثر من ستين عاما فإن الجميع تلقوا تقارير من مختلف الجهات تحذر من هذه المصيبة دون أن يحرك أحد ساكنا. فهذه المشكلة تحديدا كانت تتطلب تخطيطا استراتيجيا طويل المدى، وهو ما لم يكن من أولويات **مسئولى النظام الذين ركزوا دوما على القضايا الملحة المرتبطة ببقائهم، دون الأخذ فى الاعتبار ما سيحل بمستقبل البلد بعد رحيلهم .**

النظرة الميتة

مرت عدة أشهر حتى حلت تلك الليلة المشئومة. كنت عائدا أنا وحسن من ميناء السويس بسبب مشكلة خاصة بشحنة استيرادية كانت تستدعى تواجدى الشخصى فى الجمرك. قمت فى ذلك اليوم بعمل توكيل لحسن لمتابعة الإجراءات الفنية وإنهاء هذا الموضوع فيما بعد بالتعاون مع إدارة المشتريات.

كانت السيارة تتقدم ببطء فى منطقة مقفرة ومظلمة من الطريق بالقرب من السور الشاهق لـ "مدينتى" عندما لمحنا نارا بجوار عربة قديمة. توقفت ببطء عندما لمحت خيالا طويلا لرجل يلوح إلينا كى نخفض من سرعتنا. أطل حسن من زجاج السيارة مستفسرا:

- خير؟! فيه حاجة؟!

رد عليه فى توسل شاب، يميل إلى القصر والنحافة فى أواخر العشرينيات، تبدو عليه الرزانة:

- العربة تعطلت منى.... ممكن زقة أو وصلة كهربائية...

تفحصت بسرعة ملابسه المتوسطة المظهر، ثم نظرت إلى عربته وغطائها المرفوع. وجدت مفتاح كهربائى رفيع فى يده المتسخة ثم نظرت إلى حسن قائلا:

- إيه رأيك؟! ننزل نديله زقة بسرعة.

رد حسن بدون تردد:

- طبعا، شكله مزنوق فى هذه المنطقة المقطوعة.

ركنت السيارة بجانب الطريق تاركا إشارة الانتظار وترجلت قائلا فى حماسة:

- سنجرب إعطاءك دفعة فى الأول وإن شاء الله تدور.

توجه الشاب ليغلق غطاء العربة وأنا أسأله:

- ماذا تفعل هنا فى هذه المنطقة المقطوعة فى مثل هذه الساعة؟

رد فى هدوء شديد وهو يقترب منى حتى كاد يلتصق بى:
- عندما كنت أعمل كنت كهربائيا... أما الآن فأنت ستفرغ كل ما فى جيوبك وتلقيه على الأرض وإلا غرست هذا المفك فى عنقك.
وفى أقل من ثانية كان يمسك بياقة قميصى بيده اليسرى ملوحا بقبضته اليمنى المشدودة على المفك المدبب فى اتجاه رقبتى.
شلتنى المفاجأة تماما فتسمرت فى مكانى.
بعد لحظات من التردد انقض حسن بسرعة على الرجل بعنف محاولا تخليصى وهو يصرخ فيه بصوت جهورى:
- سيب ياد، إنت فاكرنا إيه ده إحـ...
وفى لمح البصر راقبت الشاب ببطء شديد وفى ذهول وهو يغمد المفك فى عنق حسن ويخرجه فى لحظة استغرقت الدهر كله.
تسمرت وأنا أشاهد سيل من الدماء الغزيرة تتدفق من رقبة حسن بصورة متقطعة وأنا أستمع إلى صوت هادئ خال من أى انفعال:
- لن أكررها مرة أخرى. أفرغ ما فى جيوبك بسرعة وإلا لحقت بصاحبك.
فقدت النطق وأنا أشاهد حسن وقد تيبست يده على جانب عنقه، فتجمد تعبير الهلع على وجهه ممزوجا بالدهشة وعدم التصديق.
لا أدرى كم مر من الوقت قبل أن يسقط على ركبتيه وهو يصدر صوتا متحشرجا:
- إن..قذ.. نى...
وبالرغم من هول الصدمة والظلام فإننى شعرت بنظرات الشاب فالتفت لا إراديا إلى وجهه الذى صدمنى بهذه النظرة الميتة الخالية من أى انفعال. تلاقت أعيننا فأدركت أن نهايتى باتت وشيكة، وبالرغم من ذلك عجزت عن التحرك أو إشاحة بصرى عنه. مرت ثوان كالدهر ونحن ثابتون فى أماكننا يحدق أحدنا فى الآخر فى صمت بليغ. وفجأة أشاح بنظره عنى وأحسست بقبضته قد ارتخت وهو يلوح بالمفك واقفا أمام النار ويقول فى هدوء:

- لا تضيع وقتى... أعطنى كل النقود التى تحملها والقيها أمامى الآن هى وكل أجهزة الاتصال التى بحوزتك.

شلنى الرعب، ومثل المنوَّم مغناطيسيا وجدت نفسى أخرج حافظتى من جيبى الخلفى وأرميها له ثم أخرج كل ما هو داخل جيوبى بسرعة.
التقط الحافظة بسرعة وأخرج منها النقود وبدأ فى عدها سريعا.
بدأت أفيق من ذهولى، ولكننى عندما بدأت فى التحرك تجاه حسن لوح لى بالمفك مهددا:
- اتركه ولا تتحرك...ألا تملك هاتفا أو أى وسيلة اتصال؟
صرخت وأنا أراقب حسن وهو جالس على ركبتيه وقد مالت رأسه إلى اليسار فثبتت وضع يده المتشنجة، التى كانت لا تزال تضغط على عنقه.
- لا أحمل معى شيئا آخر...

بدا عليه عدم التصديق فاستدار متوجها إلى عربتى وأخذ يفتش بعصبية شديدة بداخلها حتى وجد هاتف حسن. التفت إلى يسألنى وهو يدهسه بقدمه ليحطمه:
- أين كارت السيارة؟
- لا يوجد، فهى تعمل ببصمة الصوت.
ترجل من السيارة ثم أخرج مطواة من جيبه الخلفى، محاولا بعنف وفى صعوبة شديدة ثقب الإطار الأمامى حتى اطمئن إلى أنه قد اخترق الطبقة الخارجية للعجلتين الأماميتين ثم استدار ليركب سيارته وهو يحذرنى بهدوء قبل أن يقلع بها سريعا:
- إذا حاولت أن تقتفى أثرى أو الإبلاغ عنى سأقتلك، أنا معى محفظتك وأعرف عنوانك.

مرت ثوان قبل أن أفيق من ذهولى على حشرجة حسن الذى كان يترنح جالسا على ركبتيه وقد ارتخت يداه فانكفأ على جانبه الأيسر.

جلست بجواره ثم رفعته لأحمله على الجلوس مرة أخرى. ضغطت بكفى على رقبته لأكتم الدماء وأخذت أكرر المحاولة حتى خف النزيف. أمسكت بيده ووضعتها على الجرح ثم تركت رأسه تسقط عليها لتمنعها من السقوط وأنا أهمس له:

- أرجوك ساعدنى. سنقوم سويا لنذهب للعربة، ولكن أهم شىء ألا ترفع رأسك أو تسقط يدك من فوق الجرح.

وعلى عكس ما ظننت استطعت بسهولة أن أرفع جسمه الثقيل وأنهض لأسير به وكأننى شاب صغير يمتلك قوة هائلة مكنتنى من حمله محافظا على اتزانه دون أن تسقط يده التى تحجرت على الجرح.

أجلسته فى المقعد الأمامى وربطت الحزام جيدا وطلبت منه ألا يغير وضع يده على رأسه المائل ثم أسرعت إلى هاتفه المحطم بجوار العربة حتى استخرجت الشريحة بصعوبة بسبب الظلام. أعطيت أمر السير والوجهة المبدئية وأنا أرجو أن يكون عجل السيارة المحقون غير قابل للتلف كما تدعى الشركة المصنعة.

أخرجت الحاسب الآلى من الخزنة السرية أسفل مقعدى، وقمت بتشغيله، ووضعت به الشريحة ورميته على المقعد الخلفى. ضغطت على دواسة البنزين بعنف وأنا أحول العربة إلى القيادة اليدوية. صرخت فى "الشارت بلوتر" للبحث عن أقرب مستشفى طوارئ. وعندما حصلت على الإجابة قمت بالتفكير لمدة ثوان فى وسيلة للاتصال من حاسب الحركة دون أن يتم تعقبه ففشلت.

" بـالقطع سيتم رصد أى إشارة تنبعث من هذا الحاسب وسيتم ربطها بالشريحة التى بـالقطع ستكون بداية الخيط الذى سيقودهم إلىّ أو ربما لا...لا أستطيع أن أجزم... من الجائز أن يستغرقوا وقتا قبل أن يبدأوا التتبع... هراء... سيرصدوننا فى نفس الثانية التى سأقوم فيها بالاتصال... يا رب ألهمنى فعل الصواب. من الجائز أن الاتصال غير ضرورى والأهم أن أصل بسرعة".

ضغطت بعنف على دواسة البنزين حتى آخر مشوارها.

"ولكن الدقيقة قد تفرق الآن ومن الجائز أن يكون هناك شىء يجب عمله حتى أصل؟ فى الأغلب لا... ولكن هل أنا متيقن من وجود استعدادات فى المستشفى الذى أقصده؟ هل هناك وقت لدخول المستشفى ثم أكتشف أنه لابد من نقله إلى مكان آخر؟ ماذا أفعل؟ لأركز فى الطريق وأحاول الوصول فى أسرع وقت."

وعندئذ مال حسن وقد سقطت يده فشعرت بقشعريرة من ملمسه البارد ومن قميصه المبلل بالدم..." ليكن ما يكون"... بلعت ريقى وأنا آمر بصوت متحشرج الحاسب الآلى بأن يتصل بأجهزة العربة من خلال البلوتوث ثم أعطيت أمر الاتصال بالمستشفى من خلال برنامج تغيير الصوت.

- الطوارىء بسرعة, معى شخص يحتضر.
- ...
- ألو... معى شخص ينزف بغزارة من رقبته بعد تعرضه للطعن بآلة حادة. ماذا أفعل؟
- أتملك أى خلفية طبية؟

- لا، ولكنى أخذت كورس إسعافات طبية فى عملى السابق، أعتقد أن الطعنة أصابت أحد الأوردة وأنا أحاول أن أضغط عليه حتى يخف النزيف.
- منذ متى وهو ينزف؟ هل فقد كمية دم كبيرة؟
- أعتقد هذا. هو ينزف منذ عشرة دقائق أو ربع ساعة، لا أدرى...
- كم تبعد عن المستشفى؟
- لحظة واحدة لأراجع الحاسب... حوالى عشر دقائق.
- حسنا، حاول وقف النزيف بأى طريقة... استعن بأى قطعة قماش أو أى شيء تحت يديك وأحضره إلينا بأسرع ما يمكنك.
- سأحاول.
قلتها وأنا أتناول فوطة من التابلوه لأضعها على الجرح حتى خف سيلان الدماء.
- أما زلت معنا على الخط؟
- نعم ولكننى أعجز عن إيقاف هذا النزيف اللعين.
- أتعرف فصيلة دمه؟
- أتمزح؟ قطعا لا...
- أرجوك اهدأ قليلا... هل تستطيع أن تعرف رقم تأمينه الصحى؟
- لا، كيف لى وأنا فى هذا الوضع أن أعـ... انتظر قليلا أعتقد أننى أستطيع.
قمت بالولوج لملفات الشركة من خلال أوامر صوتية سريعة للحاسب حتى وجدت الرقم المطلوب، ثم طلبت من الحاسب أن يمليه بصوت عال حتى يسمعه معى رجل الطوارئ.
- حسنا، انتظر معى لحظات حتى أراجع رقمه على الحاسب... آه... "O negative" (أو سالب) ... للأسف لدينا مشكلة فى فصيلة الدم... هل أنت قريبه؟
- لا، ولكننى سأفعل له أى شيء، وأستطيع أن أتحمل أى تكلفة إضافية ايا كانت لإنقاذه، فهو بمثابة أخى.

- ليس من المفترض أن أشى لك بذلك ولكننى سأفعل بشرط ألا تذكر لمخلوق أننى قلت لك أى شىء.
- حسنا... أعدك بشرفى.
- لدينا فصيلة دمه، ولكن للأسف محظور استخدامها، فقد نحتاجها بعد يومين مع شخصية هامة ستقوم بإجراء عملية. إذا كان لحضرتك نفوذ أو وسيلة للضغط على مدير المستشفى فقد تتمكن من إقناعه. وخاصة إذا اصطحبت معك أثناء وصول المصاب متبرعين آخرين "Universal donors" (متبرعين لديهم نفس الفصيلة النادرة والتى تصلح لأى مريض أيا كانت فصيلته) لتعويض ما سيأخذه. هل حضرتك حد مهم أو تعرف حد مهم؟
- ... فى الواقع لا.
- هل للمصاب أبناء؟ قطعا سيتصرفون لإنقاذ حياة والدهم. أتستطيع الاتصال بهم وطلب حضورهم؟!
- ...
- أتسمعنى؟
- نعم... نعم... أأستطيع إعطاءك رقم ابنه لتتصل به أنت؟ هو شخصية مهمة، ويستطيع بالتأكيد الضغط على مدير المستشفى.
- للأسف لا، اللوائح تمنع ذلك.
- هذه حالة طارئة كما ترى و...
- لا أستطيع، فالمريض لم يصل بعد... يجب أن تتصل أنت به أو تنتظر حتى تصل للمستشفى، وإن كنت لا أنصحك بهذا فالدقيقة الواحدة فى مثل هذه الأحوال قد تعنى حياته، ونحن قطعا سنحتاج لكمية ضخمة من الدم فور وصوله.
- حسنا، سأغلق الخط الآن لأتصل به.
- سنكون فى انتظارك عند مدخل الطوارىء، وحاول أن تستمر فى كتم النزيف بأى وسيلة حتى تصل... وأهم شىء أن تحل مشكلة الدم حتى لا نتعطل.

- سأحاول مع السلامة.
- انتظر... ألا تستطيع أن تؤمن الدفعة المقدمة الآن حتى لا نتأخر فى الد...
- ... حسنا حسنا، سيصلك رقم الفيزا الآن... انتظر قليلا... لا أستطيع... سأجعل ابنه يفعل ذلك.
- إذن، اتصل به سريعا.
- سأفعل، ولكن أرجوك جهزوا كل شيء عند باب الطوارئ، سأصل فى أى وقت.

نظرت إلى حسن أتفقده ففزعت من شحوب وجهه لدرجة جعلتنى للحظة أبحث عن أى إشارة تدل على بقائه حيا. تخلصت من هذا الهاجس سريعا ثم أخذت نفسا عميقا واتصلت بعمرو من خلال برنامج تغيير الصوت.

- عمرو والدك حسن معى، طعن فى رقبته وينزف بغزارة وأنا أصطحبه إلى مستشفى "مدينتى" التى سيصلك هاتفها وعنوانها الآن. يجب أن تتصل بمدير المستشفى ليصرح لهم باستهلاك أكياس دم تتطابق مع فصيلة دم والدك النادرة. أرجوك احضر بأسرع ما يمكنك واصطحب معك أى أشخاص مستعدين للتبرع بنفس الفصيلة"O negative" (أو سالب) لتعويض المستشفى، فهذا هو الحل الوحيد حتى يوافق المدير.
- ...
- تحرك الآن واتصل بالمستشفى أثناء قدومك لتعطيهم رقم الفيزا الخاص بك.
- ...
- أتسمعنى؟
- من يتحدث ..؟ من أنت؟

- أفق من ذهولك ولا تجزع هكذا، تحرك الآن بسرعة... أنا أوشكت على الوصول.

أغلقت الخط والتفت إلى حسن الذى لم يعد يصدر أى إشارة تدل على بقائه حيا، وأحسست بقلبى ينسحب من بين ضلوعى عندما راودنى خاطر أننى قد أكون أجريت هذا الاتصال دون جدوى.

فور وصولى وجدت المسعفين بالسرير النقال ينتظروننى فقمت بمساعدتهم فى نقله سريعا وأنا أسأل فى لهفة الطبيب الذى يجس نبض حسن مقطبا:
- هل ما زال حيا؟
لم يرد الطبيب قبل أن يفتح عين حسن ويسلط عليها قلم ضوئى ليقول:
- نعم، ولكننى لا أشعر بنبض...بسرعة، بسرعة لا يوجد لدينا وقت نضيعه!
تنفست الصعداء وإن لم يتوقف قلبى عن الدق بعنف.
للحظة ورد علىَّ خاطر أننى إذا هربت الآن فربما أنجو دون أن يكتشف أحد هويتى السرية، ولكننى وجدت أرجلى مدفوعة بقوة خفية تجرى بجوار السرير النقال فدخلت معهم حتى اختفوا جميعا فى المصعد.

عجزت عن التفكير وأنا أنظر ببلاهة للباب المغلق حتى بدأ يصيبنى الدوار. جلست منهكا على أقرب مقعد وأحسست كما لو أن الأرض تتحرك تحت قدمى بسرعة فائقة. أثنيت جزعى وأرحت جبينى على يدى ناظرا للأرض وهى تلف بين أرجلى، وشعرت لأول مرة فى حياتى بوطأة تقدم سنى. وبعد مرور فترة عجزت عن تحديدها أتى لى موظف الاستقبال يربت على كتفى:

- أنا آسف، لكنني أنادى على حضرتك منذ فترة طويلة وحضرتك لا ترد. يجب أن تتفضل معى لاستكمال بعض الإجراءات.
- ... أية إجراءات؟
- اجراءات الدخول، فحضرتك أحضرت شخصا مطعونا فى رقبته بآلة حادة. يجب أن نحصل على بيانات حضرتك وإفادتك عن الحادث.
- أتستطيع منحى بضع دقائق، أرجوك فأنا أشعر بأنه سيغشى علىَّ، وأشعر بألم حاد فى ظهرى. انتظر قليلا حتى يحضر ابنه...
- أتريد حضرتك أن ترى طبيبا؟
- لا، شكرا... فقط امنحنى دقائق وسـ...
فى هذه اللحظة فتح الباب فجأة ودخل عمرو جريا ثم أبطأ خطواته مصدوما من رؤيتى. توقف أمامى لحظات مشدوها ثم بادرنى وهو ينهج ذاهلا:
- بشمهندس محمد؟!... حضرتك هنا؟!... أين والدى؟
رد الموظف بسرعة:
- هو بالداخل حضرتك و...
- أرجوك اذهب أنت بسرعة، واستفسر عن الطبيب المسئول، فقد تحدثت إلى مدير المستشفى الذى اشترط لسحب الدم النادر الموجود لديكم أن يتبرع آخرون بنفس الفصيلة. سيصل أشخاص الآن من أقاربنا ولدينا جميعا نفس فصيلة الدم.
غادر الرجل بسرعة فشعرت بنظرات عمرو تلسعنى وقد عدت لوضع رأسى على كفى أحدق بالأرض.
- ماذا حدث يا بشمهندس محمد؟
رددت دون أن أرفع رأسى:
- كنا عائدين من السويس وقابلنا فى الطريق فتى أوقفنا، مدعيا أنه يحتاج إلى مساعدة فى إدارة سيارته، وفى لحظة هجم علىَّ

بمفك يهددنى، فحاول والدك تخليصى منه فطعنه فى رقبته وسرق نقودنا وهرب.
- حضرتك الذى أجريت المكالمة.. لم أتعرف على صوتك.
- ...
- من أين حصلت حضرتك على الجهاز الذى حدثتنى منه؟
- ...
لم أرفع رأسى عاجزا عن النطق، وأغمضت عينى لأتخلص من إحساس الدوار الفظيع الذى كان يتملكنى حتى انتبهت على صوت موظف الاستقبال يحدثنا:
- الممرض سيأتى حالا ليصطحبك أنت والمتبرعين... وأرجو من حضرتك إنك تتفضل معنا للإدلاء بإفادة.
- ...
- لا، أتركه أنا الذى سأقرر ما الذى يكتب فى تأشيرة الدخول.
- ولكن حضرتك الـ...
أخرج عمرو الكارنيه الخاص به بسرعة للرجل ثم شدد على كلامه:
- المصاب والدى وأنا الذى سأقرر ما الذى يكتب لاحقا، وإذا اعترض أحد أرسله لى.
- حسنا، كما تريد سعادتك.
غادر الرجل وتوجه بسرعة نحو الهاتف.
أحسست بنظراته تلسعنى وهو يخاطبنى بنبرة لم أعهدها منه من قبل:
- سأطمئن على والدى أولا ثم أتصل بحضرتك لاحقا لتقابلنى ومعك الحاسب النقال الذى استخدمته. أما الآن فيجب أن تغادر المستشفى قبل أن تصل وحدة مكافحة الإرهاب. لا تكلم أحدا فى الأمر، ولا تتصل بى أو تستخدم الجهاز حتى تقابلنى.

التفت إليه، ولأول مرة فى حياتى لا ألمح نظرة التقديس الأبوى التى كنت دوما أستمتع بها عندما أنظر إليه. لم أستطع النفاذ إلى عينيه فعجزت عن تحديد كنه المشاعر التى كانت تجتاحه فى هذه اللحظة. الانفعال الوحيد الذى بدا واضحا كان جزعه الشديد على حياة والده.

- أرجوك... حضرتك يجب أن تغادر الآن وفورا.

نهضت، لا تحملنى قدماى، وعند مرورى بموظف الاستقبال همّ بأن ينادى علىّ فنهره عمرو بلهجة صارمة:

- اترك البيه يذهب واستعجل لنا هذا الممرض.

قطب الموظف جبينه، ولكنه لم يستطع الاعتراض، وقبل أن يمسك بالهاتف ظهر الممرض مسرعا وهو يصيح:

- حضرتك عمرو بيه ابن الأستاذ حسن.

- نعم، وها هم المتبرعون الآخرون كما طلبتم.

قالها وهو يشير إلى الباب أمامى، والذى قد فتح فجأة ليدخل منه أقاربه يهرولون تجاهه.

- حسنا، تفضلوا جميعا معى.

حاولت أن أسرع الخطا بقدر الإمكان، وأثناء المغادرة لمحت فى المرآة الخلفية سيارات مسرعة تتجه نحو بوابة المستشفى.

كنت أعانى من دوار شديد وحموضة باعثة على القىء وآلام شديدة فى الظهر، لدرجة أننى اعتمدت على المقود الآلى بصورة تامة أثناء عودتى إلى المنزل وقد تلاقفتنى الهواجس بحيث أصبحت عاجزا عن التفكير بوضوح فى أى شىء.

الفكرة الوحيدة الواضحة التى راودتنى من حين لآخر كانت محاولة الاطمئنان على حسن ولكنى سرعان ما أتذكر تحذير عمرو لى بألا أتصل به أو أستخدم حاسبى.

دخلت المنزل أجر قدميّ فتلقفتنى فريدة بالصراخ فور رؤيتى.
- محمد؟!... ماذا حدث؟ أجب بسرعة، ما كل هذا الدم على قميصك.

ولأول مرة أدرك هول منظرى، فقد كانت كل ثيابى ويدى ملطخة بالدم المتجلط. أمسكت بيديها التى كانت تهزنى فى عنف أربت عليها وأنا أرد بنبرة هادئة ولكن منهكة:

- اطمئنى، لا تخشى شيئا... لا يوجد بى شىء. أنا بخير.
- وما كل هذا الدم؟ ما الذى حدث؟ قل لى بسرعة.
- إنه دم حسن الذى يعمل معى بالشركة. لقد أصيب فى حادثة وهو الآن يرقد فى المستشفى.
- هل أصبت أنت أيضا؟
- لا، أقسم لك أنه لا يوجد بى خدش. لقد اتسخت هكذا وأنا أنقل حسن للمستشفى.
- ولكنك لا تبدو بخير! ماذا بك؟! بماذا تشعر؟! لقد أصبت ولا تريد أن تخبرنى. شكلك تتألم. هل فحصك طبيب؟
- صدقينى. أنا كويس، فقط بعض الإرهاق وشد عصبى من جراء الصدمة.
- ماذا حدث؟ هل كنت معه فى السيارة أثناء الحادثة؟
- لا، هو لم يصب فى حادث سيارة...
- إذا ماذا حدث؟
- ...
- رد على، لا تتركنى هكذا.
- حسنا اهدئى فقط، ولا تصرخى فى وجهى هكذا. لقد هجم علينا لص فى الطريق وطعن حسن بآلة حادة وهرب.
- وأنت؟ هل هجم عليك أنت أيضا؟
- لم يمسنى بسوء.
- احلف... احلف إنه لم يصبك أنت أيضا.

- وحياتك عندى لم يصبنى بخدش. ولكنى مرهق وأشعر بحموضة شديدة... هل تستطيعين أن تحضرى لى كوب ماء من فضلك ريثما أذهب للحمام لأغتسل.
- حسنا، اصعد غيّر ملابسك وسآتى إليك فورا.

صعدت السلم وأنا أشعر بألم نصل سكين حاد يطعن ظهرى عند كل درجة أصعدها. انتبهت إلى صوت حذائى الذى نسيت خلعه أمام المدخل كما كنت معتادا وهو يتساقط منه تراب متجلط غالبا من جراء اختلاطه بالدم. خلعت الحذاء والجوارب أعلى السلم ودخلت الغرفة حافيا شاعرا ببرودة شديدة على غير المعتاد عند ملامستى الأرضية الخشبية. التفت إلى اليسار لأتأمل هيأتى المزرية فى المرآة فاكتشف لأول مرة كم أصبحت مسنا ومنهكا. التفت لحظة إلى الفراش النظيف المرتب بعناية ثم تركت نفسى لأقع على الأرض وأتمدد على ظهرى فاردا ذراعى ورجلى إلى أقصى حد وأنا أتأمل سقف الغرفة الناصع البياض.

لم أدر كم مر علىَّ من وقت، ولكننى انتبهت فجأة على صرخة فريدة:
- ماذا حدث؟ هل سقطت؟
- لا، ولكننى أحتاج لأن أتمدد قليلا قبل دخول الحمام، ولم أستطع الاستلقاء على الفراش بملابسى المتسخة.
اعتدلت فى وضع الجلوس لآخذ منها كوب المياه وقد جلست بجوارى على الأرض.
- أتحتاج لرؤية طبيب؟
- لماذا؟ ليقول لى إننى تقدمت فى السن ولم أعد شابا.
- لا، لكى نطمئن، فأنت لا ترى نفسك مثلما أراك... تبدو لى منهكا بصورة مخيفة. هناك هالات سوداء حول عينيك وكأنها ظهرت فجأة اليوم.

- لا تقلقى. سأستحم وأنام جيدا لأستعيد نشاطى.
- ضمنى إليك... أرجوك.
- انتظرى ... ستتسخين... انتظرى.
- أرجوك...
وجدت نفسى بعد تردد أضمها إلى وقد وضعت رأسها على كتفى، فشعرت بدموعها تبلل قميصى وهى تهمس فى أذنى:
- أرجوك... لا تفعل بى هذا مرة أخرى... لن أتحمل فكرة أن يصيبك مكروه... أرجوك... أنا ليس لدى سواك فى هذه الدنيا... أرجوك ارحمنى.
أخذت أربت عليها وقد أغمضت عينى مستسلما مدة طويلة قبل أن أبعدها عنى قليلا فى رفق قائلا:
- سأذهب لأستحم ثم أوافيك فى الفراش.
- حسنا، أتحتاج إلى مساعدة؟!
- لا، أنا بخير الآن.
- سأجهز لك الأكل فى الفراش.
- لا، شكرا... لقد تناولت ساندوتشات فى السويس، وغالبا هى التى تسببت فى هذه الحموضة الفظيعة . فقط اجلسى معى عندما أخرج.
- حسنا سأعد لك بعض الأعشاب.

أثناء استحمامى اختفت آلام الظهر، ولكننى بت أشعر بإنهاك أكثر بكثير عن ذى قبل. أخذت أحاول تجميع أفكارى فتوصلت إلى أن الشىء الوحيد الذى أود فعله هو الاطمئنان على حسن أيا كانت العواقب. وبعد أن انتهيت بحثت عن هاتف فريدة وقمت بإرسال رسالة إلى هاتف عمرو.

جلست مع فريدة أستمع إليها عاجزا عن الكلام من فرط الإنهاك، وإن كنت قد بدأت أشعر بالتحسن أثناء تناولى الشراب. وبالرغم

من صمتى فإننى شعرت وهى تحدثنى أنها تفهم ما أريد قوله، فكانت كل فترة تتوقف قليلا وكأنها تستمع إلى نظراتى ثم تسترسل فى الحديث.
وكنت من حين لآخر أنظر للهاتف خوفا من أن تكون هناك رسالة قد وصلت دون أن أنتبه إلى رنينها. وبعد فترة من القلق قررت أن أتصل من هاتفها.
لم يرد عمرو ولكن بعد قليل وصلتنى رسالة:
" والدى اجتاز مرحلة الخطر، وسيظل فى العناية المركزة حتى يتحسن. شكرا على اهتمامكم."

أمسكت بيد فريدة واصطحبتها إلى الفراش ثم دلفت تحت الغطاء وقد أعطيتها ظهرى وتكورت وأنا أمسك بيدها، فاحتضنتنى من الخلف لتحتوينى مثل طفل صغير حتى نمت فى غضون دقائق نوما عميقا.

المواجهة

- ألا ترى أن هذا مكان غريب لنتقابل فيه؟
- أنا آسف، ولكنني مضطر لذلك حتى نتحدث دون إزعاج. فحضرتك كما اكتشفت مؤخرا، لديك ملف قديم وقد تكون مراقبا من قبل جهات أمنية أخرى.
- وهل أنت الذى رتبت إغلاق هذه المراحيض فى هذا المول المزدحم؟
- هذا غير مهم. هل حضرتك تحمل أى وسيلة اتصال؟
- لا، لا أحمل أى جهاز معى سوى الحاسب النقال الذى طلبته، وبطاريته مفصولة كما طلبت.
قلتها وأنا أناوله الحقيبة ففتحها وأخرج منها الجهاز الصغير ووضعه فى حقيبة يحملها على كتفه ثم أعاد لى حقيبتى فارغة مرة أخرى.
- حسنا، أهناك شيء تود إخبارى به؟
- نعم، أريد أن اطمئن على صحة والدك. فأنت منعتنى من زيارته لحين إتمام هذه المقابلة.
- الحمد لله، لقد استرد وعيه، وهو أفضل بكثير وبدأ يستعيد عافيته.
- ماذا يقول الأطباء؟
- يقولون إن ما حدث كان معجزة، وأنها أول مرة يصل مريض لديه قطع بالوريد حيا إلى هذه المستشفى. أضف إلى هذا أنك لو كنت تأخرت فى الاتصال بى لما تمكنا من توفير الدم اللازم فى التوقيت السليم. لقد كان الله بجانبه وأنقذه من موت محقق... شكرا.
- لا تشكرنى، لقد كان من المفترض أن تصيبنى أنا تلك الطعنة وليس هو.
- ...
- تفضل، لقد كنت تريد محادثتى.

- ألا يوجد شيء تود حضرتك إخبارى به؟!
- لا،... لا أعتقد.
- ...
- أنا أنتظر سماعك يا عمرو.
- سأكون كاذبا لو قلت لحضرتك أننى متيقن مما أريد فعله أو قوله... لقد عشت فى حيرة قاتلة الأيام الماضية وبقائى بجوار والدى وهو فى هذه الحالة لم يساعدنى البتة. طوال حياتى وأنا واثق من نفسى ومما أريد تحقيقه. أحدد أهدافى وأصل إليها. أقدس عملى وأبذل فيه قصارى جهدى وكلى إيمان برسالتى المقدسة. كنت دوما مؤمنا بأن البلد لا ينقصها اضطرابات مقلقة وأن أى تنظيمات لا يتم التعامل معها بحكمة قد تؤدى إلى انسياق الجموع، التى ما زالت تفتقر للوعى السليم، وراء كارثة مدمرة للجميع... أما الآن فلم أعد أدرى شيئا... لقد سمعت منى هذا الكلام من قبل... أليس كذلك؟!
- ...
- سأعتبر صمتك ردا بالإيجاب.
- ...
- لماذا أنت؟ لقد كنت أعتبرك مثل والدى... بل أكثر من والدى.
- ...
- لمدة طويلة كنت فى حيرة من أمرى يأكلنى الشك، أنتظر فى أى لحظة أن تكشف هويتى السرية. وأنت تعلم طبعا أنه إذا كان هذا قد تم بواسطة الشخص الذى أطارده فإن إقصائى عن عملى كان سيتم بصورة قاطعة. لم أكن أفهم يوم أن سخرت منى والتقطت صورتى لماذا لم تستخدم هذا السلاح أبدا ضدى؟! أخذت أسأل نفسى هذا السؤال عدة أشهر دون جدوى.

يوم شاهدتك فى المستشفى أصبح كل شيء منطقيا. ياليتك كنت تسببت فى فصلى هذا اليوم... لكان الأمر أهون على الآن... لماذا

فعلت بى هذا؟ لماذا تقوض بناء معتقداتى الراسخة بهذه البساطة... البناء الذى عشت حياتى أشيده. لقد أحلت حياتى إلى جحيم... لو لم تكن أنت من مكن والدى من تعليمى أفضل تعليم متاح... لو لم تكن أنت من أنقذت والدى... لو لم تكن أنت...أنت.

- سأسهل الأمر عليك... أنت لا تدين لى بشىء... افعل ما تراه صوابا... فأنا لم أفعل كل ما ذكرت من أجل أن أقيد حريتك... بل إذا كنت تريد الصراحة، أنا لم أفعل أى من هذه الأشياء من أجل والدك أو من أجلك.

- من أجل من إذن؟

- من أجلى.

- ...

- لك كل الحق فى ألا تصدقنى، ولكن هذه هى الحقيقة. أنا لم أفعل شيئا فى حياتى سوى من أجل أن أشعر بالرضا والسعادة. لم أشعر مطلقا بأى واجب تجاه أى شخص سوى نفسى... ولم أبذل أى شىء مهما كان صغيرا لمخلوق بوازع أننى أساعده، بل فقط لأن هذا كان ببساطة شديدة يريحنى ويشعرنى بأننى أفعل ما يمليه على ربى... وهذا كان الشىء الوحيد الذى يحافظ على سلامتى العقلية فى هذه الدنيا التى أصبح كل شىء فيها مختلا.

- ماذا تريدنى أن أفعل الآن!؟

- ما يمليه عليك ضميرك، فأنا تعبت من الجرى طوال هذه السنوات وأعتقد أنه آن الأوان لأن أستريح. لقد كان الخطر الذى يحيق بى وأنا أحاول تحقيق أهدافى يشعرنى بأننى حى، أما الآن فلم أعد أدرى؟.. لم أعد أدرى!.. هل ما قضيت فيه عمرى حقيقى أم وهم نسجه خيالى المريض بمثاليات لا وجود لها؟!.. لم أعد أدرى شيئا! الشىء الوحيد الذى أنا متيقن منه الآن هو أننى تعبت، وأصبحت لا أقوى على المضى قدما، وليس لدى أى همة للاستمرار فى درب أنا على يقين من أننى لن أرى إلى أين

سيؤدى... افعل ما تراه صحيحا وسأكون شاكرا لك فى كل الأحوال.

- ...

- إذن؟!

- ... والدى طعنه لص فى الطريق وضربك حتى فقدت وعيك. شخص مجهول هو الذى أجرى الاتصال وأوصله إلى المستشفى بعربته وهرب قبل أن أصل أنا. الشخص الذى كان موظف الاستقبال يريد منه إفادة هو أحد الأقرباء الذين استنجدت بهم ودخل قبلى بدقائق ولا يدرى شيئا عن الحادث. هذه ستكون إفادة الجميع بمن فيهم والدى ولن يتم ذكر اسمك أو أوصافك فى أى تحقيق.

- أنت لست مضطرا لفعل هذا.

- هذا غير صحيح. أنا أيضا أنانى، ولا أفعل ذلك من أجلك بل من أجلى أنا.

- وما هو المطلوب منى؟

- لا شيء.

- أأستطيع زيارة والدك؟

- قطعا، ولكن يفضل بعد أن يغادر المستشفى.

- وأنت ماذا ستفعل؟

- سيجد أحدهم هذا الحاسب بطريقة تجعلنا نعتقد أن مؤسس الحركة اعتزل قبل أن نقبض عليه. وسنستمر فى التضييق على باقى المتطوعين. وفى حالة عودة مؤسس الحركة للعمل فسنقبض عليه.

- ولكننى لا أستطيع أن أعدك بأننى سأتوقف عن فعل ما أفعله.

- لا يهم، حضرتك حر.

- حسنا، أهناك شيء آخر؟!

- نعم هذا اللقاء لن يتكرر بهذه الطريقة مرة أخرى.

- ماذا تعنى؟

- حضرتك تفهم ما أعنيه تماما.

- ...

- تستطيع أن تغادر الآن إذا أردت... أنا سأنتظر قليلا بعد خروجك... تفضل.

غادرت دون أن أنظر خلفى، وإن كنت شعرت بنظراته تتبعنى حتى أغلقت الباب.

وبالرغم من اضطرابى الشديد فإننى أحسست بارتياح خفى وكأننى لم أكن أتوقع مثل هذه النهاية. ولكن هل ما حدث كان بالفعل أفضل مما توقعت؟ لم أكن متيقنا... هل كنت أتمنى لو يريحنى ويقبض علىّ لينهى ركضى المنهك الذى استنفذنى؟ شعرت بتشويش غير عادى أثناء سيرى، جعلنى أتشكك فى الإحساس بالارتياح الذى كان يراودنى من حين لآخر. ولأول مرة منذ فترة طويلة عجزت عن رؤية الأمور بوضوح، ولم أعد على يقين من شىء.

٢٠٥٣

(ما لم أقم بالتصريح ببثه على موقع الحركة من قبل)

نداء عام

لا يخفى على الجميع الشائعات التى تفيد تصاعد حركات الاختطاف والقمع لكل المشاركين فى مسيرة التغيير العام الماضى، مما يثير الخوف فى نفوس كل المشاركين ويهدد بعزوف البعض عن الاستمرار فى كافة الأعمال التطوعية.

ويتبقى فى النهاية حقيقة واحدة مؤكدة وهى الاختفاء التام من الشبكة المعلوماتية لما يقرب من عشرين بالمائة من المتطوعين العام الماضى فقط. ولا يعرف على وجه الدقة نسبة الذين تم منعهم واعتقالهم إلى الذين خافوا من الاستمرار.

نرجو منكم جميعا المساهمة بالأفكار والمقترحات لحل هذه المشكلة التى قد تهدد، فى حالة تجاهلها، بتوقف كافة الأعمال الإصلاحية التنموية. وأقترح أن يتم بث الاقتراحات على هذا المنتدى والتصويت عليها حتى يتم اختيار أفضل حل مقدم.

(ملحوظة: تم بث هذا النداء إلى كل الحركات والجمعيات والنقابات الرسمية والموازية، وأى تجمع على الشبكة وكان موقع "الحركة" هو الموقع الوحيد الذى منع نشره ونشر الردود عليه.)

الجمهورية

هذا العام، عام ٢٠٥٣، هو عام الانتخابات الرئاسية التى ستشهد بالقطع رئيسا جديدا للبلاد بعد جمود دام أكثر من ثلاثين عاما. وبهذه المناسبة يجرى أيضا الترتيب المتزامن لاحتفالات ضخمة بمناسبة مرور ١٠٠عام على إعلان مصر جمهورية فى عام ١٩٥٣.

ونحن، بعض المواطنين المتفقين حول إسلوب التنمية الأفضل، وبعد فترة طويلة من المشاورات الديمقراطية، ومن خلال تصويتنا النزيه، قررنا أن نشارك فى هذه الاحتفالية ولكن من وجهة نظر مغايرة.

لقد اتفقت الغالبية العظمى منا هذا العام على أن نبدأ لأول مرة فى التاريخ **تطبيق مفهوم "الجمهورية"** الذى للأسف لم يتم العمل به منذ تسمية مصر به.

لقد كنا **كجمهور "الجمهورية" نتفرج**، مستسلمين طوال مائة عام، يقودنا كل من سيطروا على الحكم إلى الوجهة التى تتراءى لهم. وانتهى بنا الأمر الآن إلى جيل ثالث من أسرة حاكمة أبدية، بعد أن ظن البعض أنه بالقضاء على الملكية قد ولى نظام الحكم الوراثى دون رجعة.

ولكننا نعتقد الآن أنه حان الوقت، وبعد سنوات من العمل التنظيمى الشاق، لكى تكون إرادة غالبية جمهور سكان هذا البلد لها تأثير على من يحكمونها. تماما كما هو مفترض من مفهوم مصطلح "الجمهورية" المترجم عن المصطلح اللاتينى

"res publica" الذى يعنى " شأن الشعب". هذا المفهوم الذى طبقا لتعريفه البسيط يمنع احتكار السلطات وتوارثها من قبل أى شخص أو جهة.

ونحن، كمواطنين مسالمين حريصين على تنمية هذا البلد دون أى غرض، نقترح تأجيل انتخابات ٢٠٥٣ الصورية والتى لن يخوضها سوى مرشح واحد سليل نفس العائلة التى تحكم مصر منذ سبعين عاما. هذا المرشح الذى سينافسه مرشحون صوريون يدينون بالولاء لنفس الحزب الحاكم الأزلى.

هذا التأجيل يكون لحين الانتهاء من تنفيذ المطالب الآتية:

١- إجراء استفتاء شعبى من أجل تنقية مواد الدستور الحالى من كل العورات الدستورية الحالية.

هذه المواد التى تقيّد كل الحريات السياسية والمدنية التى يكفلها الدستور نفسه فى بنود منمقة زائفة مشروطة بقوانين وموافقات أمنية تخضع جميعها للحزب الحاكم.
هذه المواد التى أدت إلى احتكار الحكم وجعلت السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية والرقابية تحت سيطرة جهة واحدة.
هذه المواد التى سلبت حق المصريين الأكفاء من الترشح والوصول إلى كافة المناصب الحيوية فى الدولة.
هذه المواد التى تمنع أى حركة سياسية لها قاعدة شعبية تدعو إلى التغيير من الظهور بصورة قانونية. فالسماح بالتواجد يقترن بموافقات جهات تتبع جميعها الحزب الحاكم.

(الملحق رقم (١): التعديلات المقترحة من قبل كافة أساتذة القانون الدستورى المستقلين وبيان بكافة القوانين المطلوب مراجعتها أو إلغاؤها.)

٢- إعادة كل الانتخابات التى تم إثبات تزويرها أو التى حكم ببطلانها، وخاصة انتخابات المجالس التشريعية الأخيرة.

(الملحق رقم (٢): شهادات مكتوبة ومرئية تثبت تزوير/ كافة الانتخابات المذكورة بالقائمة.)

(الملحق رقم (٣): التعديلات المقترحة لقانون الانتخابات وجهات الإشراف لضمان وقف التزوير وتدخل الجهات الأمنية فى العملية الانتخابية.)

(الملحق رقم (٤): تفاصيل نظام إليكترونى للتصويت "EVM" سبق وأن طالبنا به أكثر من مرة لضمان استحالة التزوير داخل اللجان.)

٣- الوقف الفورى لكل أعمال الاعتقالات التى تتم تحت مظلة قانون الإرهاب، والإفراج الفورى عن كل المعتقلين فى قضايا مدنية والذين لم يحظوا بالحق فى محاكمات عادلة أمام قضاء مدنى طبيعى.

٤- التوقف الفورى عن إهدار كل موارد الدولة بسبب الفساد ومحاولة رتق المنظومة المهترئة، وتوجيه هذه الموارد نحو التعليم والبحث العلمى.

(ملحق رقم (٥): قائمة بكل البنود المبهمة والسرية فى ميزانية الدولة المطلوب إيضاح لتحليلها والإفصاح العلنى عن مرفقاتها حتى تكون معلومة لجميع المواطنين.)

٥- حسم كل ملفات قضايا الفساد التى ظلت معلقة دون توجيه اتهام للمسئولين الحقيقيين.

(ملحق رقم (٦): قائمة مبوبة بهذه القضايا التى راح ضحيتها ملايين الشهداء واستنزفت موارد هذا البلد لصالح أقلية محتكرة للثروات والمعلومات والعمولات.)

٦- عزل كل مسئول أصدر بيانات كاذبة ومضللة، وشارك فى ترسيخ الفساد المستشرى فى كل القطاعات وأجهزة الدولة.

(ملحق رقم (٧): قائمة بكل المسئولين الذين تعمدوا الكذب أو إخفاء الحقائق والمعلومات التى تعتبر ملكا للمواطنين جميعا دون تفرقة.)

برجاء الإحاطة بأننا سنمارس حقنا الدستورى، والذى للأسف يتعارض مع قانون الإرهاب. وسنقوم بالعصيان العلنى والسلمى مضربين ومعتصمين فى المكان والوقت والمدة وبالعدد الذى نراه مناسبا. وستكون هذه "ساعة التوقف" التى لن تتقدم حتى نلمس تغييرا مؤثرا على أرض الواقع لتنفيذ هذه الاقتراحات.

ففى النهاية الأمر هو أمر الناس جميعا وليس أمركم وحدكم فى جمهوريتنا الحبيبة مصر.

تعليقى الذى لم أنشره من قبل

يجب أن أنوه هنا أن هذا كان الاقتراح الأولى لصيغة الدعوى النهائية التى تلقيتموها جميعا بصورة أو بأخرى، سواء من خلال الشبكة أو من خلال المنشورات الورقية.

طبعا يتضح لكم الفرق الشاسع بين الدعوة التى انتشرت فيما بعد وتلك الدعوة التى قمت ببثها للتو.
ويجب أن أعترف أنه بالرغم من منعى نشرها على موقع الحركة فإننى لم أر فى حياتى دعوة يتم تداولها بهذه السرعة بين أعضاء الحركة وكل التجمعات التخيلية الأخرى. فقد بادر الجميع بالمشاركة بالتعليق للوصول إلى صيغة نهائية تم الموافقة عليها من خلال تصويت تخيلى على الشبكة.

خلال تلك الفترة، وعلى مدار أسابيع، قمت بكتابة مجموعة من التعليقات التى تدور كلها حول عدم وضوح الهدف من هذه الاقتراحات. وتعمدت إبراز أهمية الدور العظيم التأثير للتنمية البسيطة البطيئة التى كنا نمارسها فى تلك المرحلة. نوهت أيضا عن عدم وجود بدائل أخرى جاهزة متكاملة. وحذرت مما ستخلقه هذه الفوضى من تشتيت للجهود الفردية التى بدأ الجميع يؤمنون بأهميتها. كل ذلك كان سيتعرض لخطر الانهيار إذا زج بالجميع فى مغامرة فوضوية غير محسوبة العواقب.

ولكن لعجبى الشديد بادر أحد محركى هذه الدعاوى فى الرد على كل تعليق من تعليقاتى بصورة تفصيلية أذهلتنى. فكنت كلما ذكرت أى ملحوظة، وجه هو دعوة لمجموعات فكرية مختلفة لإيجاد حل للمعضلة التى أثيرها. فكان الجميع، والذين أتوا من مختلف التخصصات، يعملون بدأب وحماسة حتى يتوصلوا إلى

حلول عملية مدروسة لكل تحفظ أثيره. وكانت هذه الحلول مدروسة بصورة متكاملة جعلتني عاجزا في النهاية عن إثارة المزيد من النقاط السلبية.

وفي النهاية وجدت نفسي مشاركا بصورة غير مباشرة في إحكام هذا المخطط الجهنمي الذي كان يتبلور يوما بعد يوم بتفاصيل تغطي كل الأوجه الفكرية والقانونية والتسويقية والتنظيمية والإدارية والتمويلية... إلخ.

أدركت في تلك اللحظة أنه من العبث محاولة إثنائهم عن هدفهم، فقررت أن أتوقف عن إثارة أي تحفظات أخرى.

وبدا لي حينذاك أن مواجهة محرك الدعوة بصورة مباشرة هو السبيل الوحيد المتبقي لإيقاف كرة الثلج هذه من تدمير كل شيء أثناء انحدارها من أعلى جبل الغضب المكتوم.

ثورة ٢٠٥٣؟!

- خالد، أريد أن أحدثك دقيقة اذا سمحت.
قطب جبينه دون أن يتوقف عن التخطيط على اللوحة أمامه بقلم ليزر ثم رد علىَّ ببطء ونظره مثبت على الشاشة أمامه دون أن يرفع رأسه:
- أمهلنى ثوان حضرتك حتى أحفظ ما أفعله... أهناك خطب ما؟!
- لا، لا أبدا أريد أن أحدثك فى موضوع على انفراد.
بدا عليه الانزعاج قليلا من لهجتى الحادة وأنا أقول له مشيرا إلى الباب:
- أرجوك اتبعنى.
- إلى أين؟!
- فقط تعال معى، أريد أن أريك شيئا بالخارج... لا لا، اترك هاتفك أو أى أداة اتصال. لا أريد أن يقاطعنا أحد.
خرجنا من المبنى بسرعة وهو يسرع الخطى حتى يلحق بى ثم التفت إليه فجأة عندما وصلنا إلى ناصية الشارع المزدحم.
- يجب أن تتوقف عما تخطط له فورا.
- أنا آسف حضرتك... ولكننى... لا أدرى عن ماذا تتحدث!
- أنت تعلم جيدا عمّ أتحدث، "الجمهورية".

كنت أثبت نظراتى عليه فلمحت تعبيرا عن صدمة ممزوجا بدهشة حاول أن يداريها بسرعة دون أن يحيد نظره عنى. دفع نظارته لأعلى وهو يهز بعصبية أكتافه التى أصبحت أكثر انحناء بفعل الزمن. رشف رشفة من زجاجته أعقبها بتعبير الألم المعتاد ثم ابتسم بعد دقيقة من الصمت. نظر إلىَّ مباشرة نظرة توحى بثقة بالنفس مشوبة بتحد مستتر.
- أتعتقد حضرتك أن هذا مكان مناسب لمناقشة هذا الموضوع؟

- نعم هذا أنسب مكان، فضوضاء الشارع العالية تمنع من أن نكون معرضين للتنصت بأى صورة.

أشار كى نبدأ السير مبتعدين عن المبنى حتى نتفادى التحدث فى مكان ثابت.
- حسنا، كيف عرفت حضرتك؟
- لا يهم.
- لا، هذا مهم للغاية بالنسبة لى.
- بدأ الموضوع منذ بضع سنوات عندما تعرفت على هويتك السرية على الشبكة. أتذكر عندما اقترحت نظام التصويت الإليكترونى "EVM"؟!
- ولماذا تصورت أننى أنا من اقترحه؟!
- لأنك استخدمت نفس صيغة العروض التى تصدرها شركتنا. قمت حينها بالاتصال بفد الذى أكد لى علاقتك به. فبحكم كونك المسئول عن توكيلاتنا الهندية كنت تقابل فد بصورة شخصية. كان يمكنك بسهولة الحصول على هذه المعلومات الدقيقة من المصدر الأصلى دون مراسلات يمكن تتبعها.

شعر بنهجانى الشديد أثناء الحديث فتوقف عن السير يخاطبنى:
- حسنا، ماذا تريد حضرتك منى الآن؟
- أريدك أن تتوقف فورا عن هذه السخافات التى تقوم بنشرها وإقناع أفراد الحركة بها.
- لماذا؟
- لأنه لا معنى لها على الإطلاق. هل تتوقع مثلا أن يكون لهذا أى نتيجة؟ هل أنت ساذج لتتصور أنه سيتم الاستجابة لأى مطلب، أقله إقالة الحكومة؟
بدأ يحدق بى محتفظا بابتسامته الهادئة دون أن يرد.
- رد علىّ... لماذا تستخف بكلامى هكذا؟ أتهزأ بى؟

- العفو حضرتك، أنت تعلم مكانتك عندى.
- إذن ماذا؟! النتيجة الوحيدة التى ستتسبب فيها هى أن تطلق آلة غضب أمنية تستعمل القوة المفرطة للقضاء على الحركة وكل حركات التنمية الأخرى للأبد.
- ...
- لماذا تبتسم هكذا؟ ... يا نهار اسود... أنت على يقين أنهم لن يستجيبوا... أليس كذلك؟ رد علىّ...
- قطعا... أنا على يقين أنهم لن يستجيبوا.
- إذن لماذا تستفزهم بهذه الطريقة؟ لماذا تريد تدمير الحركة؟
- تدمير...؟! بل على العكس أنا أريد إنقاذ الحركة... أريدها أن تحدث التغيير المفترض أن تحدثه.
- كيف؟ عن طريق إراقة دماء أفرادها والتسبب فى التنكيل بهم.
- **لا يمكن إحداث تغيير دون إراقة الدماء. فالسجن الذى نعيش بداخله أساسه أفكار بالية، ترسخ مفهوم عدم قدرة هذا الشعب البسيط على إحداث تغيير.**
ولكى تتغلب الشعوب على قهر هذه الفكرة الجهنمية تحتاج إلى رفع مستوى الإدراك. الحركة بدأت فى تحطيم هذا الصنم عندما بدأ الناس يستعيدون ثقتهم المفقودة فى آدميتهم فتفاعلوا معها سواء ناشطين أو مستفيدين.
المرحلة الأخيرة من انتفاضة الوعى ستكون نتيجة لألم التضحية بالأرواح والدماء الغالية.
بعدها لن تتمكن أى قوة مهما بلغ بطشها من أن توقف فيضان التغيير.

فوجئت بذهنى يتشتت تماما وبدا لى وكأننى أجريت نفس المناقشة من قبل! نفس الشريط يتكرر بحذافيره، وكأننى حلمت

به منذ عشرات السنين! حاولت التخلص من هذا الهاجس وأنا أرد:
- ... ولكن ماذا سيحدث عندما ينكل الأمن بكل أفراد الحركة، كيف ستقاومون وأنتم بهذا الضعف؟
- نحن لسنا بهذا الضعف... نحن أقوى بكثير مما تظن.
- كيف؟
- لقد كسرت غالبية الناس حاجز الخوف، وعندما ستبدأ أحداث القمع والبطش لن يكون أمامنا بديل للحياة إلا الانتصار عليهم. العكس تماما هو الصحيح، هم الضعفاء لأنهم هم الذين بدأوا يخشوننا.

لاحظنا فجأة التفات المارة إلينا فأشار لي لنعاود السير وأنا أسأله:
- ولكن كيف تنتصر حفنة قليلة من الناس المسالمين على الأسلحة؟
- حقا نحن مسالمون ولكننا لسنا حفنة. نحن بضعة ملايين وسينضم إلينا الباقون.
- أية باقون؟
- غالبية هذا الشعب.
- أأنت معتوه؟ أنت تطالب بتعديلات دستورية وتفاصيل موازنة وأشياء لا علاقة لها بهؤلاء البسطاء الذين ما زال أكثر من نصفهم لا يتعامل مع أي حاسب آلي. فما بالك بأن تطلب منهم مساندتك في قضية بهذا التعقيد؟
كيف تتوقع أن ينضم اليك أحد؟! أنت لا تستطيع أن تعدهم بحلول فورية لتحسين وضعهم وهذا ما يحتاجونه الآن حتى يساندوا قضيتك.
- أولا، دعوتنا وصلت لكل الحركات والجمعيات والنقابات المجمدة والعاملة وكل تجمع على الشبكة سواء القانوني أو

المحظور. أنا لدى إحصائية بعددهم وعدد المنضمين إليهم ستذهل من الرقم!

بمرور الوقت أدرك الجميع أن مطالبهم يجب أن لا تكون مفصلة على حالاتهم الخاصة. صدقنى هناك اتجاه عام الآن بضرورة السعى نحو تغيير شامل فى المنظومة.
- نعم ولكن المهم هو كيف ستضمن أنه عند ساعة التنفيذ لن يجبنون؟ فى الأغلب سيلتزم الجميع منازلهم آمنين يشاهدون المسلسلات، ومن حين إلى آخر سيتابعون النشرة الرسمية ليشاهدوا أخبار القبض على الذين غامروا بحياتهم من أجلهم.

فهؤلاء الذين تعتمد عليهم يختلفون تماما عن كل القوى الداخلية والخارجية المتأهبة والمستعدة دوما لإنقاذ النظام الذى يخدم مصالحها. هذه القوى المسيطرة التى لم تقم معها حتى الآن أى اتصال أو تحالف. هؤلاء المسالمون الذين تتحدث عنهم ويمثلون بالنسبة لك قوة ما فى العالم التخيلى قد لا يكون لهم أى وجود مؤثر فى العالم الواقعى.

- جائز أن ما تقوله صحيح، ولكن لمعلوماتك فحتى الآن أبدت الغالبية العظمى حماسة شديدة.
فقط العاملون بالسياسة هم من تحفظوا على الاستجابة العلنية لمبادرتنا خوفا على مكاسبهم السياسية فى حال فشلنا. وهذا لن يشكل أى فارق بل ويخدم هدفنا. ففى النهاية نحن لا نريد الزج بالسياسيين الموجودين حاليا على الساحة فى مشروعنا حتى لا يسعون لاستغلاله لصالحهم. فمعظمهم متورط فى كثير من التنازلات الغير مقبولة، والتى فرضت عليهم نتيجة لنظامنا السياسى العقيم.

لا تنس أيضا الملايين الذين ساعدتهم الحركة، والذين سيتعاطفون مع أى مبادرة نطلقها، وخاصة بعد تحفيز وعى المشاركة لديهم على مدار العشرين سنة الماضية.

أهم شىء هو أن الأغلبية التى ليست لديها أية انتماءات ليست راضية ووصلت إلى طريق مسدود من اليأس. الغالبية تحتاج حتى لا تموت إلى استنشاق نسمة من العدالة والحرية.

أنت بنفسك شهدت فقر المياه يتحول إلى مجاعة خلال السنوات الماضية. أنت ترى فى كل مكان تذهب إليه أن هناك أعدادا هائلة أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة.

صدقنى لا بديل للناس الآن عن السعى نحو التغيير إذا أرادوا ألا ينقرضوا. لا بديل للأمل فى الحياة سوى الرهان على المستقبل حتى لو كان بعيدا، لا شىء يتبقى ليخسروه.

هل تعلم كم أسرة فى مصر فقدت قريبا من الدرجة الأولى بسبب الإهمال والفساد؟! صدقنى حوادث الفساد المرتبطة بالموصلات فقط طالت كل بيت فى مصر... كل بيت... بطش الفساد أقوى من كل الجيوش التى حاربت مصر على مدار عمرها كله.

لقد فقد الناس أى أمل فى التحسن فى ظل النظام القائم. وهؤلاء يمثلون أغلبية ستنضم إلينا دون تردد، وخاصة بعد عجز الدولة منذ سنوات عن الاستجابة لأى مطالب فئوية لمتظاهرين يمثلون شرائح ومشاكل شديدة التحديد. الغالبية ضجت إلى حد لا تتخيله.
فأنت لا ترى سوى الجانب المضىء فى كل شىء.
- أنت مغامر متهور... أنت تسعى لعصيان مدنى بهدف قلب النظام، وسيتم سحقك من جراء هذه الفكرة المجنونة.

- أنا لا أسعى لقلب النظام بل أسعى لعدله، فهو فى الحقيقة مقلوب دون أن ينتبه أحد. فئة قليلة محتكرة للحكم تفرض فسادها على غالبية ساحقة. والأنكى من هذا أنهم عدلوا الدستور لتصبح لديهم شرعية قانونية لسحق أى معارضة حقيقية أو إمكانية التغيير السلمى.
أنت نفسك قلت لى مرارا وتكرارا أثناء عملنا أنه بغض النظر عن علاقتنا الطيبة بأى شركة يجب أن نوثق علاقاتنا دوما من خلال تعاقد قانونى يراجعه محامى الشركة.
أنا فعلت نفس الشيء وعرضت هذه الوثيقة التى تدار بموجبها الدولة على أساتذة قانون دستورى. وتبين لى أن هذا الدستور الذى ينظم كل شيء فى حياتنا هو مجموعة من المواد المجحفة لبقاء الوضع على ما هو عليه للأبد دون إمكانية للتغيير. لا بديل عن إجراء هذه التعديلات حتى نبدأ على أساس سليم.
ولكن دعنى أقول لك إن هذا سيتحقق رغما عنهم لا محالة فى مرحلة لاحقة. يجب علينا أولا أن نكسب المواجهة.
- أى مواجهة؟! لا توجد مواجهة أصلا، أنت لا تملك شيئا تواجه به.
- صدقنى ستكون هناك مواجهة ثانية. لا تنس ما حدث فى الانتخابات الماضية، لقد كان هذا مجرد تدريب وأنت بنفسك رأيت الملايين فى الشارع. لقد مضت ست سنوات منذ هذا التاريخ ونحن نعمل بانتظام منذ ذلك الحين. صدقنى هذه المرة ستنتصر إرادة السعى من أجل الحرية والعدالة لا محالة.
- كيف تكون متأكدا هكذا بالرغم من عدم تحقق ما تقول منذ آلاف السنين؟
- هذا لا يعنى أن ما أقوله خطأ ولا يمكن تحقيقه.
- لماذا... لماذا أشعر بأننى سمعت هذا الكلام من قبل، وكأن هذا الحديث قد أجريته فى مرحلة سابقة من حياتى؟!
- أقرأت مشروع صلاح حربى؟!

وقع على الاسم كالصاعقة فتوقفت عن السير وقد أعجزتنى المفاجأة عن النطق.
- لماذا تبدو مندهشا هكذا؟
- ...
- ألا تعلم أنه أول من أطلق فكرة " ثورة ٢٠٥٣".
- ...
- نحن أخذنا على عاتقنا استكمال مشروعه تماما كما استكملت أنت دعوة غريب وبدأت بتأسيس الحركة.
أذهلتنى المفاجأة فسألته متلعثما:
- منذ متى تعلم هذا؟
- منذ البداية.
- كيف؟
- لم يكن صعبا اكتشاف مدى التطابق المذهل فى بنيان موقع "الحركة" و"إنليتمنت" المرتبطين مع إسلوب إدارتك للشركة.
المشكلة أنك لا ترى سوى جانب واحد من الصورة وتعطى كل حياتك لها.
لا تتصور أى شىء يمكن تحقيقه أكثر من هذه المشروعات التنموية التى دون إصلاح سياسى ستصل إلى طريق مسدود.
- أكثر من خمسة وعشرين عاما قضيتها فى الإيمان بفكرة ووهبت روحى لها وأنت ستأتى مع مجموعة من المعتوهين لنسفها لنعود مجددا إلى نقطة الصفر.
- هذا غير صحيح فأنت الذى بدأت كل شىء. فبدون إيمانك بهذا المواطن البسيط وبالقوة الكامنة بداخله لما ارتفع قط مستوى إدراك كل هؤلاء الناس. التعليم، القدرة على الاعتماد على الذات، الإيمان بقدرة كل إنسان بسيط على إحداث فرق وتغيير حياته للأفضل هى أساس كل شىء.
أنت أطلقت فكرة شيدت أساسا للتغيير، ولم تكن لتأخذ أقل من عشرين عاما لنشرها. هذا ما تصوره صلاح حربى، وقد كان

يعد له عندما اختفى فى السجن. أنت استكملت دعوة غريب، وأنا استكملت مخطط صلاح. أنت الأساس ونحن سننهى ما بدأته أنت فقط.

صدقنى هذا البلد لن ينهض إلا إذا وجهت كل موارده على مدار الخمسين عاما القادمة نحو التعليم بعد تعديل الدستور والقوانين الفاسدة لتصبح مصر "جمهورية" بعد طول انتظار.

وليس فقط أن النظام الحالى لا يضع فحسب هذا ضمن أولوياته، بل إنه يحارب أى محاولات تطوعية فى هذا الاتجاه طالما أنها قد تؤدى إلى التغيير. فأولوياتهم هى تجميد الوضع على ما هو عليه. هناك رفض تام لكل ما يحدث خارج فلكهم تطبيقا لمبدأ "من هو ليس معنا فهو قطعا ضدنا يجب القضاء عليه."

هناك استحالة فى إنهاء المشوار الذى بدأته أنت فى ظل النظام الحالى. الناس قد تتحمل الجوع والمعاناة إذا استشعروا رغبة صادقة فى النهضة بهذا البلد. المشكلة أنهم فقدوا الثقة فى رجال الدولة فاحشى الثراء. هؤلاء الذين يديرون مقدرات البلد فى الخفاء وكأنها أموالهم الخاصة، يتصرفون فيها دون حساب، بالرغم من أنها فى النهاية ملك لهؤلاء البسطاء الذين لا يطلبون شيئا. وينفقون فى سفه على أولويات عبثية فتموت لدى الجميع كل رغبة فى التضحية والتحمل.

صدقنى هذا النظام يبث روح الفساد واللامبالاة فى هذا الشعب... يجب أن يرحل فلا سبيل لإصلاحه.

كذلك لا يوجد أى تصور ليرحل طواعية من تلقاء نفسه. هو يخشى عند ابتعاده عن السلطة أن ينكل به ويخسر كل ما حققه.

هم الذين تسببوا فى هذا المأزق وأوصلونا جميعا لهذا الطريق المسدود. صدقنى المشوار الذى بدأته أنت لا يمكن إنهاؤه بطريقة مختلفة.
- عندك حق ستنهون كل شىء فعلا، هذا مما لا شك فيه.
- لا تكن متشائما هكذا. يجب أن تؤمن بما حققته وتفخر به. لاحظ أننى فى النهاية لا آخذ قرارا بالنيابة عن أحد، وكل شخص مسئول عن نفسه وحر فى اختياراته.

توقف برهة ثم استطرد شاردا وكأنه يحدث نفسه:
قد يأتى هذا اليوم، ولا أجد أحدا سواى فى الشارع. قد يتملك الخوف من الناس. قد لا تكون الغالبية كما أظنها وأكتشف أنها تتكلم أكثر مما تفعل. قد يكونون أكثر قدرة على احتمال الأوضاع المزرية. لن نعرف هذا إلا عند التجربة العملية.
لا أدرى... قد أكون أخطأت التقدير والناس أجبن مما أعتقد... قد لا يشاركنى تصوراتى أحد... سنرى!
- ستدمر الفكرة التى عشت أنا من أجلها.
- هذا غير صحيح. كل إنسان فى هذه الدنيا خلقه الله وأعطى لروحه قوة كامنة قادرة على تغيير الدنيا من حوله للأفضل. فالتغيير المنتظر منا إحداثه لابد أن يكون على قدر النعم التى يهبنا الله إياها. المشكلة كلها تكمن فى اكتشاف طريق التغيير والإصلاح الذى يتناسب مع قدرات نفوسنا وإمكاناتنا. أنت اكتشفت طريقك وتسير فيه للنهاية، وأنا اكتشفت طريقى وسأسير فيه للنهاية. نحن فى النهاية يكمل أحدنا الآخر من أجل تحقيق نفس الهدف.

- هذا غير صحيح. فأنت هدفك غير واضح. هل تستطيع أن تذكر لى البديل الذى تقدمه؟ أنت تسعى لإسقاط النظام ولا تقدم أى بديل. ستفرغ الساحة دون أن تكون جاهزا بشىء.
- أنت تنسى ما تردده دوما. نحن لسنا ولن نكون أبدا حركة سياسية.
- إذن ماذا تسمى ما تريد فعله؟!
- تحفيز الناس لممارسة حريتها فى حق الاختيار والتغيير.
- التغيير إلى ماذا؟ أنتم غير جاهزين ببدائل!
- هذا ليس صحيحا، وأنت تعلم ذلك. فطوال الفترة الماضية وأنت تمطرنى على الموقع بوابل من الملاحظات التهكمية. وفى كل مرة عندما ندرس هذه الانتقادات ونرد عليها تمطرنا بوابل آخر. صدقنى هناك بديل انتقالى ومعظم أفراد "ثورة ٢٠٥٣" هويتهم ليست سرية ويعرف بعضهم بعضا. وثق أنه فى المستقبل، عندما يتم إعطاء الفرص المتساوية للجميع للظهور والتقدم والترشح، ستفرز الناس الصالح من الطالح. فقط حرر النقابات المجمدة، أطلق حرية تكوين الأحزاب، حق المواطنين فى الترشح لأى منصب، افرض نظاما يضمن نزاهة الانتخابات، عدّل الدستور... عدّل الدستور.

المهم أن يبدأ الناس فى ممارسة حقهم فى الاختيار. فلا يعقل أننا منذ إعلان الجمهورية لم نختر حاكما واحدا، ولم يترك أحدهم الحكم وهو على قيد الحياة لأن الدستور أصبح يتيح لهم هذا.

ليس هذا فقط بل إننا ارتددنا إلى الخلف مرة أخرى لعصور الأسر الحاكمة. أى إنهم أصبحوا يستخسرون فينا حتى القدر ليأتى إلينا بمن يشاء.

من الجنون أن يولد الناس ويموتوا وكل شيء في هذا البلد قابل لأن يتغير إلا كرسى الحكم وكل ما تفرضه بطانته من حكومات ومراكز قوى، ثم يخرجون لنا ألسنتهم قائلين إنه لا يوجد من يصلح لهذه المناصب المقدسة. وكيف سيحدث هذا إذا كان كل من له شعبية وقد يصلح للكرسى إما يسجن أو ينفى أو يمنع من العمل العام أو يحطم بأى صورة. كيف سيحدث هذا إذا كان هناك قيود مهولة حتى لا يحدث أى شيء خارج إرادتهم، وأن تزور كل الانتخابات منذ ظهور هذه الجمهورية الكاذبة. أنت شاهدت بنفسك ما يفعلونه بالحركة وهى لا علاقة لها بالسياسة.

صدقنى الله فقط هو من له الحق فى هذا التصور المطلق الملزم للناس، وأى شخص يتصور إمكانية فرض إرادته على الناس الآخرين بهذه الطريقة المستبدة فإنه يضع نفسه فى هذا المصاف، وأنا أؤكد لك أنهم بالفعل يؤمنون يقينا بأنهم مختلفون عن هذا الشعب.

هذا الصنم يجب تحطيمه والبداية ستأتى من عند الناس، عندما يستعيدون الإيمان بأن الله خلقنا جميعا سواسية أحرارا، ولا يوجد أحد مهما بلغت قوته يستطيع أن يخالف هذه الإرادة.

- ... أنت تعلم أننى سأحاربك وسأحاول أن أوقفك بكل الطرق.
- أرجو ألا تفعل ذلك.
- هل هذا سيوقفك لو فعلت؟! حسنا ماذا لو توسلت اليك ألا تمضى فى هذا الطريق؟! أرجوك، أنا لم أطلب منك طلبا من قبل وأعطيتك الفرصة الكاملة لتحقق الكثير. أرجوك.
- لا أستطيع، إلا هذا. أنت تطلب منى التخلى عن حياتى.
- يا لسذاجتى. حسنا، دعنا ننهى هذا الحديث العبثى. أرجو أن تحكم عقلك وتعود لصوابك وتساعدنى فى الاستمرار فى

طريقى وتصبر فالمشوار ما زال فى البداية. صدقنى سيأتى اليوم الذى يحدث فيه التغيير بصورة طبيعية ودون مواجهات. اصبر فقط وتخلص من فكرة أن تشهد بنفسك التغيير. ادع الله أن يجنى أولادك ثمار ما تفعله، لا داعى لاستباق الأحداث.

- أنا كنت مقتنعا بما تقول وهذا ما كنت أحلم به، ولكن هؤلاء الأغبياء هم من أصروا على تدميرنا وإيقافنا. والله العظيم لو لم يبدأوا محاربتنا لما كان أحد منا فكر فى هذه المواجهة، وكنا تخلينا عن فكرة "ثورة ٢٠٥٣". أقسم لك أن هذه هى الحقيقة. هم من جعلوا الأمر يصل إلى ذلك "إما نحن وإما أنتم".

لو كانوا يتمتعون بالحد الأدنى من الحنكة لما صعّدوا الموقف بهذه الطريقة. ماذا كان سيضيرهم من بضعة أناس يقومون فرادى بعمل تنموى؟! ماذا كان سيضيرهم؟!

نحن كنا نخدمهم. إذ أن ما كنا نحققه كان بإمكانهم نسب فضله إلى أنفسهم، ولكن ماذا تقول! عقليات متخلفة لا تقبل فكرة حدوث أى شيء خارج سياقها.

- فكر فى أولادك وفى الخراب الذى يمكن أن تسببه لهم الآن.

- أنا أفعل ذلك لأولادى وأؤمن أن الوقت أصبح مناسبا. ثلاثون عاما، عمر مشروع صلاح حربى، فترة أكثر من كافية لإحداث التغيير المطلوب لدى الناس. أنا آمنت بك وأعتقد أنك نجحت فى تحقيق هذا بالفعل.

- هذا غير صحيح، أتذكر كلام سابو عندما قال إن الهند استغرقت أكثر من مئة عام من الكفاح المستمر للتخلص من استعمار استمر آلاف السنين.

- عشرون عاما فى هذا القرن توازى مئتى عام من القرن الماضى. صدقنى لقد صبرنا بما فيه الكفاية والتغيير سيحدث لا محالة، سواء شاركنا فيه أم لم نشارك. فبالرغم من محاولاتك لن يمكنك تحقيق أكثر مما حققته والوضع لا يزال سيئا.

- حسناً، أعتقد أنه لا فائدة من الكلام، لنعود أدراجنا، ولكننى أؤكد لك أنك لن تنجح وستلقى نفس مصير صلاح حربى.

توقفنا وقد بدأت أنهج بشدة وأنا أشعر بدقات قلبى المتسارعة، فأخذ يحدق أحدنا فى الآخر بضعة دقائق. بدا لى كما لو أنه ينتظر منى أن أقول شيئا ولكننى كنت عاجزا ومتعبا. وبعد فترة استدرت عائدا للمكتب وأنا أسمع صوته ينادينى من الخلف.

- أرجوك، هذا رغما عنى. لا أستطيع ترك هذا الأمر قبل إنهائه. لا أستطيع، أرجوك ساعدنا ولا تحاول منعنا، أقسم لك أن هذا من أجلنا جميعا، نحن ومن يأتى بعدنا.

الديكتاتور

كنت جالسا أتأمل الشاشة، وأحرك كاميرا جوجل ببطء شديد أثناء تجولى فى الشارع الرئيسى عندما دخلت فريدة وأحاطت صدرى بيديها من الخلف.

- ما الذى يستغرقك هكذا؟ ماذا تشاهد؟
- أتأمل البلينا والتغيرات التى حدثت بها.
- ياه، أمازلت تذكر؟
- نعم، وكيف أنسى! أول مكان ذهبت إليه.
- ولكن لقد مر على هذا أكثر... أكثر من ربع قرن..! يا إلهى كيف نطقتها هكذا؟! أشعر بأننى أصبحت مسنة للغاية.

أمسكت بيدها التى كانت تسندها على كتفى وهى تتأمل معى هذه القرية الصغيرة التى أصبحت كبيرة. طبعت على يديها قبلة وأنا لا أحيد بنظرى عن الكاميرا التى كنت أتحكم فيها بهدوء.

- فريدة، أحتاج لأن أعود إلى هناك مرة أخرى.
- ماذا؟ لقد كبرت على هذا النوع من الرحلات. أرجوك أجّل هذا الموضوع حتى تهدأ الأمور. أنت ترى بنفسك أحداث العنف والاعتقالات التى نشهدها كل يوم. أرجوك لنهدأ قليلا.
- أنا لن أذهب إلى هناك كما تعتقدين للعمل. أنا فقط أريد أن أرى ما آلت إليه الأمور. لقد مضى زمن طويل ولم أذهب إلى هناك لأتابع ما يجرى. ومنذ بضعة سنوات يتولى هذا المكان متطوعون آخرون. أريد أن أرى بنفسى...
- لماذا تريد هذا بشدة؟
- لا أدرى بالضبط، ولكننى أحتاج لهذا. فمنذ فترة وأنا يساورنى شعور بالفشل وبعدم تمكنى من التأثير على شىء مما يحدث حولى. أحتاج لأن أتجول بنفسى فى هذا المكان. أحتاج أن أستعيد إحساسا معينا أشعر أننى فقدته.

- ولكن كيف تقول هذا! أنت تعلم جيدا التأثيرات التى أحدثتها. أرجوك لا تقل هذا مرة أخرى. كونك لا تستطيع التحكم فى مجريات الأمور الآن لا يعنى فشلك فى إنجاز شيء عظيم.
- أرجوك، دعينا لا نعود إلى هذه المناقشة. أنا مسئول بصورة ما عما يحدث الآن ولا أستطيع التنصل من ذلك. أشعر بالعجز الشديد وأنا أرقب ما يحدث دون أن أجد القوة للتدخل لمنع حدوثه.
- أتدرى شيئا أكتشفه لأول مرة؟!، أنت أيضا ديكتاتور مثل كل الذين كنت تعيب عليهم جمودهم ورفضهم للتغيير!
- أنا؟! لا يمكن أن أصدق أننى أسمع هذا منك!
- حسنا، قل لى بالضبط ما هو الفرق بينكم؟! أنت أيضا ترفض التغيير إلا إذا تم وفق تصورك الشخصى وترفض كل وجهات النظر الأخرى. أنت الآن تحارب الأغلبية التى تحاول التغيير طبقا لمفهومها، وتصر على فرض وجهة نظرك عليهم والسيطرة على ما يفعلونه. كنت دوما تنادى بحرية الاختيار وعندما بدأ الجميع يمارسونها بديمقراطية شديدة تعترض وتريد أن توقفهم. أنت أيضا جامد مثل الذين كنت تعيب عليهم، لا تتمتع بأى مرونة.
- أرجوك لا تكملى! هذا غير منصف.
- بالعكس، أنت تستميت وتحارب الجميع لوقفهم، وتعتقد أنها نهاية الكون حينما لا ينصاعون لآرائك أنت،... أنت مؤسس الحركة كما لو كنت أنت نفسك مسئولا عن اختياراتهم. تنسى دوما أنهم قد يكونون على صواب وأنت على خطأ.
- ماذا تعنين؟
- ... أليس من الجائز أنك مخطئ وخالد على حق؟!
- فريدة... كيف تقولين هذا؟
- من الجائز أن الوقت مهيأ الآن للتغيير أكثر من أى وقت مضى. من الجائز أيضا أنه لديهم فرصة الآن لن تتكرر. خطر واحد يتحدون جميعا ضده. من الجائز أن هذا هو الطريق الوحيد ولا بديل آخر.

- ولكنك تشاهدين بنفسك ما يحدث. تماما كما توقعت، فالأمن يتخذ هذا ذريعة للقضاء علينا وإجهاض محاولات كل من له رؤية إصلاحية مغايرة.
- ولكننى أشعر هذه المرة أنه كلما أفرط الأمن فى استخدام القوة، زاد إصرارهم وعنادهم وعددهم. يبدو لى وكأن هذا لا يؤثر فيهم على الإطلاق وكأنهم... وكأنهم لا يخشون شيئا ولا حتى الموت. كما لو أن اختفاء بعضهم يحفزهم أكثر ويحمسهم. وإذا كان هذا هو فعلا الحال وعدد الذين سيستجيبون سيزداد مثلما يتوقع خالد،/فمن الجائز أن يكون لديهم فرصة حقيقية هذه المرة... لا أدرى؟
- لا تكررى هذا على مسامعى مرة أخرى، أرجوك. أنا أريد أن أشعر أننى على صواب. أنت الوحيدة التى تعلم كل شىء، وأريدك أن تقفى بجانبى حتى نحاول منع هذه الكارثة.
- ألنت متيقن من أنها كارثة؟!

كانت هذه أول مرة فى حياتى أختلف معها إلى هذا الحد. أحسست لحظتها باليأس والوحدة والضعف الشديد، فها هو آخر ملاذ لى يتصدع، ولن يتبقى لى سوى مراقبة ما عشت من أجله ينهار.

- سأذهب إلى البلينا غدا.
صمتت مدة طويلة وهى تتأمل وجهى العابس ثم تنهدت وكأنها أدركت عدم جدوى المناقشة.
- خذ بالك من نفسك، ولا تقدم على شىء أحمق.
- لا تخشى شيئا، لقد كبرت على هذا، وحتى إذا أردت ارتكاب حماقة فسنى يمنعنى.
- لا أريد أن أسمع هذه النبرة مرة أخرى فأنت لا تزال شابا.
قالتها وهى تطبع على خدى قبلة وتحتضنى بشدة وكأنها تحاول انتشالى من الهوة السحيقة التى ألقتنى فيها وحيدا. ولأول مرة لا

أشعر بدفء حضنها كما تعودت، فأمسكت بيدها أخفضها لأقبلها على جبينها وأغادر الحجرة.

في المساء أخذت أبحث في ملفاتي الإليكترونية القديمة حتى وجدت تعريف نجاة التي كنت قد نسيت اسمها لضعف ذاكرتي الشديد. بحثت على موقع الحركة حتى وجدت تحديثا لبياناتها، ولا أدري لماذا لم أفكر في اتخاذ أي تدابير وقائية عند الاتصال بها، فأرسلت لها رسالة قصيرة.

جلست أتصفح هذه الملفات فاكتشفت مندهشا كيف تطورت الحركة من بدايتها حتى آلت إلى ما آلت إليه. أكثر ما أذهلني كان ضخامة كم العمل خلال هذه السنوات. أحسست كأنني أتصفح موضوعات لا علاقة لي بها، ولم يسبق أن سمعت عنها من قبل. وبعد مدة انتبهت إلى رسالة قصيرة من نجاة ترد عليّ.

- كيف حالك؟ أتذكرينني؟
- معقوله أنساك يا بشمهندس.
- أريد أن آتي إليكم في زيارة.
- طبعا سنكون سعداء للغاية. أنت تعلم معزتك لدينا ولكنني... لا أعتقد أنها فكرة جيدة.
- لماذا؟
- الظروف غير مواتية. لن تتخيل حجم الاعتقالات لكل من يظنون أن له علاقة بالحركة من قريب أو من بعيد. فما بالك إذا أتيت أنت!
- ولكنني سآتي فقط من أجل زيارة ودية.
- لا أدري...، أفضل أن تؤجل هذا الموضوع قليلا.
- حسنا، سأرى. كيف حالك أنت؟

- الحمد لله، أفضل ما يكون. يجب أن أقطع الاتصال الآن للأمان، فالموقع مراقب بصورة غير معتادة. سأعاود الاتصال بك عندما تكون الأمور أهدأ، فهناك الكثير والكثير من التغيرات التى أريد إطلاعك عليها. أود فعلا أن أريك كل شيء ولكن ليس الآن.
- حسنا، مع السلامة.

عدت لأتأمل الملفات وبداخلى شعور يتنامى بالعجز. بدا لى وكأن كل ما يحدث حولى يرتبط بصورة أو بأخرى بـ" ساعة التوقف" التى لا أستطيع منعها والتى يتصاعد الشعور باقترابها فيعيق كل ما أفعله.

" سحقا لكل شيء، سأذهب إلى هناك وليكن ما يكون! لا يعقل أننى لا أستطيع التحرك بسبب هذه اللعنة. سأذهب فقط لأتجول ولن أتصل بأى مخلوق أعرفه. ماذا سيحدث؟ لقد ضقت ذرعا بكل هذا الخناق."

وفجأة انتبهت إلى رسالة مقتضبة تومض أسفل الشاشة ترد من مجهول.
"لا تذهب."
سحقا، للجميع. لن أسمح لأحد بمصادرة حريتى بدعوى أنهم يقلقون على سلامتى. أنا أفعل ما أريده وقتما أريده. صحيح أننى أصبحت مسنا ولكننى لست عاجزا. رددت فى غضب شديد بسرعة.
" هذا ليس من شأنك. أنا حر وأرفض أن يملى علىّ أحد ما أفعله. أنا لا أخشى أحدا سواه."

البلينا مرة ثانية

وصلت إلى مطار الأقصر فى الصباح، وقمت باستئجار عربة بمبلغ باهظ لتقلنى. طلبت من السائق أن يقف قبل مدخل القرية بحوالى كيلومترين حتى لا أثير الريبة.

وجدت نفسى أنهج أثناء السير بسبب الحر الشديد. عرجت على مبنى الحكم المحلى الذى أصبح عتيقا للغاية ومهملا. وجدت الطريق بين المساكن وقد اختفت منه المطبات الهائلة وأكوام القمامة ليصبح مدقا ممهدا على جانبيه أشجار تظلله. ابتسمت عندما لم أجد أى أثر للصرف الصحى الذى كان دوما يغرق بعض المساكن فى كل مرة آتى فيها إلى هذا المكان. تذكرت مشروع عربات الصرف الصحى لأحد المتطوعين بالحركة والذى نجح نجاحا باهرا منذ عدة سنوات.

شعرت بأعين بعض المسنين الجالسين يحتسون الشاى تتفحصنى. ألقيت عليهم السلام فردوا فى دهشة وهم يدعوننى للجلوس معهم. تأملت ملابسهم النظيفة التى بدت جديدة نسبيا ثم تفحصت بسرعة أسقف المنازل خلفهم فلاحظت أن كل الأسقف أصبحت مصنوعة من النخل والجريد المصمم بطريقة بسيطة وإن كانت عملية ومحكمة للغاية .

توقف مجموعة من الصبية عن اللعب بالكرة فى ساحة ممهدة عندما شاهدوا هذا المسن الغريب الذى يحمل حقيبة رياضية على ظهره يقترب منهم.

ـ السلام عليكم.

ردوا فى نفس واحد:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أتستطيعون أن تدلونى على أقرب ورشة تدريب.
- أى ورشة؟ هناك عدة ورش، أى واحدة منها؟
- هل هناك مكان للتدريب على الحاسب الآلى؟
- تقصد مركز " أبلة نجاة"؟
- نعم.
- سر فى هذا الاتجاه ثم انعطف ثالث شارع يمين.

توجهت إلى هناك، وبالرغم من نهجانى الشديد وقيظ الصيف فإن حماستى لرؤية المكان على الأقل من الخارج كانت تجعلنى أسرع الخطى لا أطيق صبرا حتى أصل.

فور انعطافى شعرت بحركة غريبة من خلفى جعلتنى أتمهل لأخرج جهازى الصغير من حقيبة الظهر. شغلت الكاميرا وقد أمسكتها أمامى فى اتجاه ظهرى فلاحظت رجلا يسير خلفى بنفس سرعتى على بعد مائة متر. توقفت وكأننى أراجع شيئا فى الجهاز فوجدت الرجل قد توقف يرقبنى. اقتربت بالزووم لأجده يتحدث بهدوء دون أن أرى سماعة.

بدأ قلبى يدق بسرعة وأنا أشغل كاميرا جوجل فاكتشفت، وقد بدأ العرق يتصبب منى بغزارة، بعض الشوارع المحيطة بالقرية. بدأت ألمح عربات غريبة تقترب من نواصى الشوارع. اقتربت بالكاميرا أكثر فلاحظت أناسا يحملون أجهزة قد بدأوا ينزلون من العربات فى اتجاه الشارع الذى أسير به. تفحصت فى ثوان خريطة الطرق ووجدت طريقا واحدا على يسارى لا يأتى منه أحد.

أسرعت الخطى فى اتجاه النجاة وأنا أحدق فى الشاشة فوجدت كل من نزلوا من العربات قد بدأوا يركضون بما فيهم الرجل من خلفى. ودون أن أستدير بدأت فى العدو كما لم أفعل من قبل منذ

عشرات السنين. كان أمامى على الأقل ثلثمائة متر يجب أن أقطعها قبل أن أخرج إلى عرض الطريق الوحيد الخالى الملاصق لزراعات القصب. لو فقط أستطيع فى الثوانى المتبقية الإسراع قليلا.

أحسست بقلبى ينبض بسرعة حتى بدأت أسمع دقاته تزلزل كيانى. وعندما لمحت الشارع الخالى وأطراف الزراعات خلفه بدأ الألم القاسى ينغزنى فى ظهرى من الخلف مثل نصل سكين حاد.
وفجأة شعرت بهبوط مفاجئ، وبدأ كل شىء بداخلى يبطئ. نظرت خلفى فوجدت الرجل لم يصل بعد إلى بداية الشارع. تركت نفسى لأهوى على أول باب ملاصق لى فانفتح بعنف على مصراعيه وسقطت بالداخل.
زحفت بصعوبة سنتيمترات، وركلت الباب من خلفى وأنا ممدد على ظهرى أحدق بالجريد الذى يعلونى. شعرت بكل شىء من حولى يدور فى بطء شديد، والحموضة اللاذعة تتصاعد بداخلى كما لم أشعر بها من قبل. حرقان مخيف وكأننى أصعد جبل عال ثم أترنح فى هوة سحيقة. وضعت كفى على صدرى لأجد قلبى ينتفض بشدة، لدرجة أن يدى أصبحت تعلو وتنخفض فى عنف. حاولت أن أهدئ من روعى فلم أفلح.
سمعت صوتا حادا لصرير فرامل بالخارج وباب سيارة يفتح ويغلق فى عنف. بدأت أرى نقاطا سوداء متناثرة من حولى، وفجأة سمعت صوتا مألوفا بدا لى وكأنه يتحدث ببطء شديد.
"اذهب فى هذا الزقاق بسرعة، إنه يتجه للشارع الملاصق للزراعات. بسرعة كلكم توجهوا إلى هناك."

جلست أنتظر ممددا لا أقوى على الحركة، لأول مرة أشعر فيها بكل عضو داخلى فى جسمى وهو يبطئ. رئتى، معدتى، مخى، كل شىء. فقط قلبى كان يدق بسرعة جنونية.

" هى النهاية بلا شك، لماذا لا يأتون؟ لماذا؟"

مر دهر قبل أن يركل أحدهم الباب مزيحا بقوة أرجلى المسنودة عليه من الداخل. ثم هجم علىَّ ليحملنى ويخرجنى بسرعة لأجد باب سيارة مفتوحا. دفعنى بعنف لأجد نفسى ممدا على الكنبة الخلفية. ركب الرجل فى المقعد الأمامى وبدأ القيادة بسرعة جنونية. كان يصيح فى هيستيريا بكلام متناثر يعجز عقلى المبطئ عن استيعابه. كان كل شىء بطيئا... بطيئا إلى حد التوقف.

" لماذا؟... لماذا؟... لقد حذرتك من قبل. لماذا؟ لقد رجوتك ألا تأتى اليوم... ألم تصلك رسالتى؟!... لماذا هذا الحمق والعناد؟... لماذا؟ لماذا لم تستمع لنصحى؟! قلت لك إنك إذا لم تعتزل العمل فى الحركة فسنقبض عليك... سحقا لعنادك ومخك المتصلب... لماذا تفعل بى هذا؟! لماذا؟"

كان كل شىء من حولى يبطئ. حتى السحاب والشجر اللذان كانا يمضيان مثل الريح من النافذة الخلفية التى تعلونى بدآ فى التمهل بالرغم من السرعة الجنونية. يا إلهى ما أجمل هذا الشجر الذى لم ألحظه من قبل! ولكن كيف أراه بكل هذه التفاصيل والسيارة مسرعة؟!

وفجأة شعرت بالحموضة تملأ جوفى، وبدا وكأن شيئا ما على وشك الانفجار. ارتعدت أوصالى ليتوقف الشجر والسحاب والسيارة لا تزال مسرعة. تجمد كل شىء حتى الطيور المحلقة فى السماء.

ثم فى لحظة رأيت كل شىء...، كل شىء...، حقيقة حياتى حتى الآن. كل شىء مررت به منذ ميلادى وحتى صباح اليوم. رأيت

فريدة مرة أخرى لألحظ فى دهشة دمعة تنسال منها لم ألحظها عندما تركتها هذا الصباح. كيف لم ألحظ هذا وأنا أقبلها مودعا؟! كيف؟!

وفجأة اتسعت حدقتاى فى نفس اللحظة التى غمرنى فيها نور مضىء لم أشهد مثله من قبل واختفت كل آلامى. نور جميل غمر كل شىء حتى غلفه واحتواه. كل شىء... كل شىء حتى تلاشت السيارة والرجل والشجر والسماء. وحدى وسط النور أسبح فيه بهدوء وكأننى أعرف وجهتى دون تشكك. توقف كل شىء، كل شىء ما عداى أنا... ظللت أسبح لأعلى... لا أشعر بشىء.

" أشهد أن لا اله الا اللـ..."

البعث

فتحت عينى بصعوبة لأرى صورة شديدة التشويش من خلال أهدابى التى كنت أعجز عن رفعها. ظللت مدة طويلة أحدق أمامى أرى صورة ما لأوجه تتطلع فىَّ، تحدثنى بكلام لا أميزه. حاولت يائسا التركيز ولكن عقلى كان عاجزا عن استيعاب الصورة التى يراها أو تفسير الأصوات التى يسمعها حتى سمعت جملة انتشلتنى فجأة من غياهب عقلى العاجز.

" محمد حبيبى... إنت سامعنى؟!..."
وكأن شحنة كهربائية دبت فى عقلى لأميز فجأة وجه فريدة ووالدتى وفرح.

حاولت الكلام فعجزت، فقد كانت كل عضلة فى جسمى مخدلة تؤلمنى بفظاعة. انصب تركيزى الوحيد على محاولة تغيير هذا الوضع المؤلم. تبادر إلى ذهنى أن السبب فى هذا الألم البشع قد يكون عدم تغيير وضعى وأنا مستلق لفترة خمنت أنها طويلة.
ولكننى أحسست بالفزع عندما عجزت عضلاتى عن الاستجابة لإرادتى العقلية. لأول مرة فى حياتى أشعر بالانفصال عن جسمى وعجزى المطلق. لمحت بطرف عينى "الكانيولا" المثبتة فى ذراعى والمحاليل والأجهزة من حولى. حاولت مرة أخرى التحرك فعجزت. اختنقت العبارات فى حلقى وفشلت فى بذل مجهود للتفوه بكلمة فانهمرت دموعى مثل طفل صغير لا حيلة له.
ميّزت نحيب والدتى الهيستيرى و صوت فرح المختنق:
- الحمد لله، الحمد لله يا ماما، لقد أفاق أخيرا، اطمئنى الآن... الحمد لله، اهدئى... لا تفعلى بنفسك هذا، أرجوك... الصوت العال ممنوع هنا... الكل يرمقنا شذرا... تعالى نخرج حتى تهدئى ثم

نعود... هذا خطر على صحتك... أرجوك اطمئنى، هو بخير الحمد لله.
سمعت صوت فريدة الباكى يهمس لى:
" محمد، سلامتك... "
توقفت عن الكلام عندما شعرت بى أحاول الرد ولكننى لم أستطع وقف سيل دموعى المنهمرة.
" لا تجهد نفسك... لا تحاول الكلام الآن. اطمئن ستسترد صحتك بسرعة. محمد... اصمد أنت قوى... أنت قوى."
توقفت دموعى المنهمرة وهمست لها بصوت لا أسمعه أنا نفسى، وإن بدا لى أنها تفهمه:
" لقد رأيت الموت... وكان... جميلا."

اقتربت منى فالتقت أعيننا لأول مرة منذ أن فتحتها، وظللنا صامتين فترة طويلة وهى تشد على يدى بقوة، ثم همست فى أذنى بصوت خفيض:

" ولكن الله أرادك أن تعود إلينا، وأنت تعلم أنه يحبك... أرجوك لا تتركنى مرة أخرى... لا تتركنى فأنا ليس لدى أحد سواك."
تحاملت على نفسى حتى همست بصعوبة:
- هذا ليس صحيحا... مهما حدث يجب أن تتيقنى أنه هو وحده الذى لن يتركك وحدك أبدا... فهو بداخلك.

مذاق ملوحة البحر

بعد عدة أيام غادرت وحدة العناية المركزة وتم نقلى إلى غرفة عادية. لم يفهم الممرضون لماذا صممت على أن أغادر على قدمى، ولكنهم لم يمانعوا بعدما أذن لى الطبيب المعالج شريطة أن يمسكوا بى حتى لا أقع إذا خارت قواى.

وبالفعل وصلت غرفتى منهكا. فور دخولنا ابتسمت لفريدة التى كان يبدو عليها الانزعاج الشديد عندما وجدت السرير النقال يصل فارغا قبل دخولى. وبعد أن تم تركيب كل الأجهزة اللازمة والتأكد من أن فريدة حفظت استخدامات كل أزرار التحكم غادروا وتركونا وحيدين لأول مرة منذ أن قدمت للمستشفى.

تكلمنا كما لم نتكلم من قبل حتى مجىء والدتى مع فرح بدون زوجها الذى كان معتقلا منذ فترة.

وكانت هذه هى أول مرة ألحظ تجاعيد أمى المنهكة والهالات حول عينيها المرقرقة بالدموع. وكأن قلقها علىّ قد جعلنى أكتشف لأول مرة أنها أوشكت على بلوغ الثمانين. ولكن يبدو أن استمرارها فى البحث الأكاديمى الدؤوب وعملها الدائم فى حديقتها وترميم المنزل كل بضعة سنوات هو ما جعلنا جميعا لا نشعر بتقدم سنها. فكنا نراها دوما كما هى نشيطة تعشق الإنجاز. ولكن اليوم لأول مرة أشعر بأننى أنا نفسى قد أصبحت مسنا.

- أنا آسف على ما سببته لكم جميعا.
- لا تقل هذا يا محمد. فقط استرد صحتك بسرعة.
- أنا أحاول يا أمى ولكن الأمر ليس بيدى.

- لا تقل هذا، أنت دوما كنت قادرا على إخراجنا جميعا من الأزمات. نحن دوما نعتمد عليك. واليوم ستتجاوز هذه الأزمة كما تفعل دوما إن شاء الله.
- يا أمى، أنا لم أفعل لكم أى شىء فى الماضى.
- أنت تعلم أن ما أقوله صحيحا... ولكن إذا كنت مصرا فأنا الآن أطلب منك أن تفعل لى شيئا... أتوسل إليك أن تتحسن سريعا.

طرق أحدهم الباب فدخل الطبيب ثم حسن الذى هجم علىَّ يعانقنى ويقبلنى.
- والله يابشمهندس كل يوم أحاول القدوم إليك، ولكن مدام فريدة تمنعنى قائلة إنك لا تريد من أحد أن يزورك فى العناية المركزة.
- إنت عارف معزتك عندى يا حسن ولكن لوائح المستشفى تمنع الزيارة. حتى فريدة ووالدتى وفرح كنت أراهم لحظات خاطفة.

فى هذه اللحظة انتهى الدكتور من تصفح الملف الإليكترونى ومراجعة نتائج التحاليل الأخيرة. وقف مبتسما فسألته فرح ووالدتى فى نفس واحد:
- خير يا دكتور.
- كل خير، الحمد لله إحنا كويسين جدا اليوم. تجاوزنا الأزمة، وستبقى تحت الملاحظة الدقيقة حتى نطمئن وتستطيع أن تغادرنا بسلام.
- ولكن هل سأستطيع يوما ما العودة طبيعيا كما كنت؟!.. فأنا حتى الآن أمشى بصعوبة.
- لا تنس أن سنك ستون عاما. وكما قلت لك، فى هذا السن، الذبحات الصدرية المتكررة عادة ما تكون قاتلة. لأنك لم تكن تعلم بإصابتك بذبحات من قبل، وظللت تتحامل على نفسك لتزاول حياتك بنفس المجهود، فقد أدى ذلك إلى حدة الأزمة الأخيرة.

وبالرغم من أنك وصلت للمستشفى فى غيبوبة فإنك بمعجزة إلهية نجوت، لقد كتب لك عمر جديد ويجب أن تكون شاكرا على ذلك.

- أنا أدرك هذا يا دكتور ولكن هل سأعود إلى حياتى الطبيعية؟!

- لا يجب أن أقول لك هذا كطبيب. بحكم مسئوليتى يجب دوما أن أجهزك للأسوأ. ولكنك تتحسن بالفعل بسرعة وتستجيب للعلاج الطبيعى. يبدو أن شجاعتك تساعدك على هذا وأنا بالفعل معجب بإرادتك وإيمانك. نعم، إن شاء الله ستتمكن من العودة إلى حياة شبه طبيعية ولكنك قطعا لن تتمكن من الركض مرة أخرى.

- ربنا يطمئنك يا دكتور، ربنا يريح قلبك كما أرحتنا.

- شكرا يا هانم، أستأذنكم الآن وسأعود فى المساء لأطمئن عليك.

- الحمد لله يا بشمهندس، اطمأنينا عليك، إن شاء الله كل شىء سيصبح تمام.

- إن شاء الله.

- لماذا تبدو عابسا هكذا يا بشمهندس؟! كل هذا لأنه قال لك أنك لن تركض مرة أخرى، هو حضرتك خايف ألا تعود للعب الكرة مرة أخرى؟!

ضحكنا جميعا فاستطرد حسن الذى - كعادته- لا يستطيع أن يتوقف عن الكلام:

- ألم تعرف حضرتك حتى اليوم من الذى تركك فى هذه الحالة على باب الطوارئ؟! أكيد حد جبان خاف من المسئولية فتركك وحيدا.

- الحمد لله أنه تركنى.

- لولا المشكلة التى لدى عمرو لتقصى وعرف كل اللى حصل.

- عمرو، لديه مشكلة؟!

- نعم، لقد حدث كل شىء بسرعة وأنت مريض. قدم فجأة استقالته بعد مشادة غير عادية معى. هكذا بعد كل الذى حققه يترك العمل بدون مقدمات ودون إبداء أسباب. غلبت أحاول أفهم منه شيئا فلم

أتمكن. رفض أن يناقش الموضوع. أصل هوه شغله فيه أشياء كثيرة غير مصرح له بالإفصاح عنها.
- وكيف حاله الآن؟
- الحمد لله كويس ولكنه يرفض التحدث مع أحد. أتدرى أن رئيس رئيسه فى العمل أتى إلى منزلنا يزوره بنفسه؟ صدقنى الرجل كان يبدو عليه أنه مهم للغاية وأخذ يحاول إقناع عمرو بتأجيل تقديم استقالته إلى ما بعد الانتخابات ولكنه رفض بشدة. حتى فكرة الأجازة المفتوحة رفضها. عندما تسترد صحتك بإذن الله تستطيع أن تتحدث معه محاولا أن تفهم، فأنت تعلم أنه لا يستمع إلا لسواك.
- إن شاء الله ولكننى أريدك أن تبلغه شيئا...
- ماذا؟... أهناك خطب ما.
- لا... لا شيء... فقط قل له إننى أدعو له دوما أن يهديه الله إلى فعل الصواب، وأن يعطيه القدرة على فعل ما هو مقتنع بأنه صواب... قل له أيضا إنه لا يوجد إنسان فى هذه الدنيا يستحق التضحية بكل هذا من أجله، حتى لو كان أقرب الناس إليه.
- حسنا... سأبلغه بهذا ولكن...
- فقط أبلغه بهذا كما قلته.
- حسنا... حسنا... سأفعل.
- وكيف حال وليد؟!
- آه وليد... لن تصدق ما حدث. أتدرى أنه منذ حوالى شهرين وهو يسألنى بشغف عن الأحوال هنا فى مصر حتى فوجئت به ذات يوم يخبرنى أنه قرر العودة. بصراحة أنا نفسى دهشت للغاية. فكما تعلم يا بشمهندس لقد كانوا سعداء به للغاية فى هذه الشركة ويقدرونه تقديرا متميزا لدرجة جعلتنى أنا نفسى أقتنع بأنه قد اتخذ قرارا صائبا بالسفر. ولكنه مخالفا لكل التوقعات يقرر العودة. ومتى يقرر ذلك؟! عندما تكون البلد على كف عفريت. أنا نفسى قلت له أن يؤجل العودة إلى ما بعد الانتخابات لأن كل الأمور مقلقة، ولا توجد بشائر للاستقرار ولا أحد يستطيع التنبؤ بما

يحمله الغد... لا أحد، ولكنه كما تعلم عنيد للغاية وعندما يقرر أمرا فلا شيء يثنيه عن عزمه. بينى وبينك يا بشمهندس، وبالرغم من أنه لا يوجد منطق مقبول وراء رجوعه، فإننى سعيد جدا.

- الحمد لله... ربنا يوفقه ويهديه إلى الخير دوما. ولا تقلق يا حسن من أوضاع البلد فهى بالقطع الآن أفضل من الماضى، على الأقل هناك حراك ما وهذا أفضل من الركود المميت.

- لا أدرى يا بشمهندس، ربنا يستر!

فى هذه اللحظة سمعنا طرقا على الباب ليدخل خالد مطرقا رأسه وهو يتلعثم فى حرج:

- أنا آسف... لقد أتيت بدون ميعاد ولكننى علمت أن الزيارة مسموح بها اليوم.

- تفضل يا خالد. لا تقف هكذا على الباب.

وبعد أن تبادلا التحية استأذن حسن فى الانصراف بالرغم من إصرار خالد على بقائه بدعوى أنه لن يمكث أكثر من دقيقتين.

نظرت إلى فريدة نظرة لها معنى وأنا أطلب منها أن تصطحب والدتى وأختى لتناول الغذاء، وأن يتركونى معه حتى أطمئن على سير العمل فى الشركة خلال تغيبى.

- كيف حالك يا بشمهندس محمد؟

- الحمد لله، كما ترى.

- أرجوك يا بشمهندس... يجب أن تكف عن إجهاد نفسك بهذه الطريقة، فالكل يحتاجك. أنت تعلم مكانتك لدينا جميعا فأنت بمثابة أخ أكبر وأب روحى لنا جميعا...

- أرجوك لا داعى لهذا... أنا أشعر أننى قد أصبحت مسنا للغاية بدون هذا الكلام.

- ...

بعد ثوان من التردد رشف من زجاجة المياه بضع رشفات وهو يبلع ريقه.

- حسنا، ما الأخبار؟!

- الحمد لله، العمل يسير بانتظام ولا توجد أى مشاكل.

- أنا لا أتحدث عن العمل.

- آه... الحمد لله كل شيء يسير كما هو مخطط له.

- حسنا، أنت ذكرت منذ ثوان أننى بمثابة أخ أكبر وأنا كأخ أكبر أطلب منك لآخر مرة أن تنهى هذه المسألة.

- للأسف الموضوع الآن ليس بيدى ولا يمكن لأحد إيقافه حتى لو أراد. السلبية والخوف والجبن هى فقط الأمور التى قد تتسبب فى إجهاضه.

- ألا يوجد أى سبيل لإقناعك؟

- للأسف لا، هذا ليس بيدى كما قلت لك.

- أتدرى أننى أشتم رائحة الموت تقترب من هذا البلد!

- أرجوك يا بشمهندس لا تتحدث هكذا... فأنا أشتم رائحة الأمل.

- ولكنك لا تدرى ما أتحدث عنه، فأنت لم تواجهه.

- ماذا تقصد حضرتك؟

- أقصد أنك لم تقترب من الموت كما اقتربت أنا منه، ولذلك فلن تستطع استيعاب ما أحذرك منه. أنت تتحدث عنه بمنطق نظرى بحت وكأنه شيء بسيط دون أن تعى ما يعنيه.

- حضرتك مخطئ فى هذا، لقد اقتربت منه أكثر من أى شخص آخر... حتى أنت لم تمر بما مررت أنا به.

- ماذا تعنى؟

- أرجوك حضرتك. سأتركك لتستريح. لا داعى لإثارة هذه الموضوعات الآن.

- خالد، كن متيقنا أننى لن أسمح لك بمغادرة هذه الغرفة قبل أن أفهم كل شيء.

تردد كثيرا وقد أطرق برأسه ثم التفت إلى وعلى وجهه تعبير لم أعهده من قبل وهو يتحدث بصوت خفيض:
- أتدرى ما مذاق ملوحة مياه البحر؟
- ...
- أتدرى ماذا يعنى أن تحيا حياتك تشعر بطعم لاذع فى جوفك طوال الوقت؟! أن تستيقظ يوميا فزعا فى وسط الليل بعد أن تحلم بنفس الكابوس الذى يجعلك تشعر بأن حلقك يدمى من الملوحة؟
- أنا لا أفهم شيئا... لقد كنت تقول دوما للجميع أنك تشعر بطعم لاذع بسبب التلوث ولهذا ترتشف المياه بانتظام.
- هذه ليست الحقيقة. أتذكر غرق العبارة "السلام"؟
- نعم، هذه الحادثة الشهيرة التى راح ضحيتها منذ خمس سنوات ما يقرب من ستمائة شخص.
- كما توقعت. أنت لا تذكر شيئا مثل الباقين. هذه حادثة لعبارة أخرى تحمل اسما آخر. فـ"السلام ٩٨" غرقت منذ سبعة وأربعين عاما، أى أنك كنت مراهقا وواعيا عندما حدث هذا وبالرغم من ذلك فقد نسيت... نسيت. الكل نسى ما عداى. كانوا دوما يقولون لأبى "لا تقلق عليه فهو صغير وسينسى كل شىء بسرعة". ولكن الله أراد لحكمة ما ألا أنسى أبدا.

فى يوم الثانى من فبراير عام ٢٠٠٦ كان عمرى خمس سنوات. كنت عائدا مع والدتى وأختى الصغيرة وأخوى الشابين من السعودية. كنا ميسورى الحال ونملك كلفة الرجوع بالطائرة ولكن والدتى كان لديها فوبيا من ركوب الطائرات فكنا دوما نعود معها فى العبارة. الكل نسى ولكننى لن أنسى أبدا.

لقد شاهدت أخى يحمل أختى الصغيرة، يجرى بها محاولا إنقاذها فوقعت عليهما صناديق ضخمة أثناء تأرجح العبارة المميت. لن

أنسى صوت والدتى وهى تنادى على أخى الثانى وتحتضنى بقوة والدم يسيل من رأسها فوقى فيبللنى.
"اجرى يا سعيد، إلحق أخوك وأختك، إوعى تسيبهم يا سعيد، إنقذهم بسرعة، إنت الكبير"
لن أنسى آخر نظرة لأخى وهو يترك يدها مترددا ثم يتسلق الصناديق المحطمة ليقفز خلفهما. لن أنسى والدتى وهى تحتضننى ونحن فوق صندوق زورق نجاة، لم نعرف قط أن من الممكن فتحه. لن أنسى صراخ والدتى لأحد الشباب القريبين.
" حد يمسك ابنى مش قادره، حيغمى على."
لن أنسى تشبثى اليائس بها رافضا ترك جسمها الذى بدأ فى الانزلاق من فوق الصندوق. أمسكت بيدها وأنا أصرخ حتى بح صوتى وسقطنا سويا فى المياه حتى شعرت بيد تجذبنى لأعلى فى عنف وصرخة تدوى فى أذنى كل يوم حتى الآن:
" أترك يدها ستغرق معها."

لن أنسى الشخص الذى احتضننى فوق الصندوق عدة ساعات.
لن أنسى صوت الطائرات التى كانت تحوم حولنا لتؤكد أنها رأتنا وسط تهليل الجميع لأول مرة.
لن أنسى مرور الساعات بعد ظهور الطائرات والكل ينتظر النجدة دون جدوى. ولن أنسى وقع جملة أحدهم والتى لم أفهمها إلا بعد سنوات.
"لن يتحركوا بسرعة إلا إذا كان معنا ناس مهمة أو أجانب."
لا لن أنسى ما حييت.
لن أنسى طعم مياه البحر أبدا حتى أموت.
يوميا أحلم بنفس الكابوس.

لا لن أنسى بعد عودتى إلى المنزل بإسبوع عندما سمعت الجلبة فى الأسفل، وظننت أن الناس والدنيا كلها تثور لما حدث لنا

وتعترض. ولكن عندما ذهبنا إلى الشرفة وجدناهم يحتفلون...أي والله يحتفلون هم وكل مؤسسات الدولة فى الشوارع وفى كل مكان، يحتفلون من أجل الفوز ببطولة كرة قدم. كم كرهت الجميع.. الجميع... كل الناس. كم تمنيت لهم جميعا أن يتعذبوا كما أتعذب أنا. كلهم نسوا، كلهم نسوا ويرقصون فى الشوارع احتفالا بمباراة كرة. كيف أنسى؟! كيف أنسى؟!

كيف أنسى انهيار والدى فى اليوم الذى تم فيه تبرئة كل المتهمين لتظل هذه الحادثة للأبد دون مسئولين ودون جناة. كم كرهت ملاك العبارة، كنت أود لو قتلتهم بيدى. كم كرهتهم بسذاجتى الشديدة. الكل نسى وأنا لم أنس.

الكل مضى فى حياته وأنا عجزت.

ظل شبح هذا اليوم الذى لم أعرف سببه وحكمته يطاردنى وأنا صغير حتى كدت أجن.

ولكن عندما كبرت وأصبح لدى وعى، وبعد أن ظللت أقرأ يوميا كل ملفات القضية، رنّ فى أذنى صدى الجملة التى تطاردنى منذ أن كنت صغيرا. " لن يتحركوا بسرعة إلا إذا كان معنا ناس مهمة أو أجانب." أدركت أن المشكلة الحقيقية أن المسئول عما حدث لم يسائله أحد. فلا مالك العبارة ولا ابنه ولا أحد من كل هؤلاء يمتلكون أى قوارب إنقاذ، بل إنهم، حتى وإن قصروا فى معدات أمن وسلامة العبارة، غير مسئولين عن إنقاذنا. الجانى الحقيقى هو المسئول عن المؤسسات التى أعطت التصريح بالإبحار دون إجراء تفتيش دقيق، والأهم من ذلك مؤسسات الدولة المسئولة عن الإنقاذ، والتى تمتلك وسائل إنقاذ بحرية للتصرف ولم تتحرك بعد أن تم إعلامها فى الوقت المناسب.

ولكن للأسف لم يجرؤ أحد على تحريك دعوى فى هذا الاتجاه لأنه كان يستحيل رفع قضية رابحة فى هذا السياق.

كل هذه المؤسسات والجهات السيادية والتى من المفترض أن تكون فى خدمتنا نحن وتخشى أن تقصر فى حقنا، أصبحنا نحن كشعب نخشاها.

انقلبت الآية فأصبح خادم الشعب هو سيدهم الأوحد، يتعامل مع الجميع بفوقية وكأنهم حشرات.

ومنذ أن أدركت هذا حتى عقدت العزم على أن أفعل ما بوسعى حتى أوقف تكرار ذلك. ونتيجة لعدم محاسبة الجناة الحقيقيين حتى الآن فأنت تسمع كل بضع سنوات عن حوادث مشابهة. فالجانى الحقيقى حتى الآن فى كل مرة طليق لا يحاسبه أحد بل ولا يجرؤ على اتهامه أحد. ولكن كل هذا مصيره إلى زوال وستتغير الأمور. صدقنى ستتحطم هذه المنظومة عاجلا أم آجلا. ستشهد اليوم الذى عندما تسمع فيه عن حادث مشابه يصيب أفقر الناس، فإن كل مؤسسات الدولة وكل الجهات السيادية سوف تهب حتى تنقذ الجميع فى أسرع وقت وبأفضل صورة. **عندما يتكرر هذا فى المستقبل سينتفض الجميع من فراشهم الوثير ليسابقوا الزمن وقلبهم يدق بعنف من أجل تفادى موت مواطن واحد فقير خوفا من المساءلة.** صدقنى كل هؤلاء يجب أن يكونوا فى خدمتنا، ويخافوا من مساءلة الفقراء قبل الأغنياء لأنهم يمثلون غالبية هذا الشعب المسكين. صدقنى سنشهد سويا انقلاب الآية. صدقنى، أنا متأكد من ذلك.

أتدرى أنه منذ أن بدأت هذا المشروع توقفت الكوابيس التى كانت تنتابنى. ومازلت أحلم باليوم الذى سيختفى فيه المذاق المالح من جوفى.

اختنقت العبارات فى جوفه فبادرته سريعا لأوقف نهجانه المضطرب:

- أنا آسف، أنا لم أكن أدرى. ولكننى أخشى أن يكون هذا هو دافعك الوحيد "الانتقام."

- أنت الوحيد فى هذه الدنيا يا بشمهندس الذى لا أنتظر أسفه. أنا لم أذكر هذا لمخلوق من قبل سواك. أما عن موضوع "الانتقام" فهذا غير صحيح. فكل المسئولين عن هذه الحادثة توفاهم الله منذ سنوات عديدة. كل ما أتمنى أن تفهمه يا بشمهندس أن هذه المنظومة الفاسدة تغتالنا جميعا، وكل ما نملكه الآن هو الدفاع عن أنفسنا. إذا لم نفعل ذلك فسنموت.

ومهما كانت النتيجة فلن تكون أسوأ مما نحن فيه. صدقنى هذا ليس فقط موقفى الشخصى ولكنه موقف الكثيرين مثلى.

- ولكننى أخشى عليك وعلى كل هذه الطاقات القادرة على البناء أن تتعرضوا أنتم أنفسكم للاغتيال. فأنتم الأمل الأخير، ولا يوجد غيركم ينمى هذا البلد.

- ولكننى على الأقل سأموت وأنا أحاول أداء ما أنا على يقين من أنه واجبى فى هذه اللحظة تحديدا... محاولة المساهمة بهذا الدور الضئيل الذى قد لا يتذكره أحد فى المستقبل. الله تعمد جعل كثير من رموز الإنسانية تغتال دون أن يوقف تأثيرهم على البشرية الذى قدره لهم. المسيح، سيدنا عمر بن الخطاب، سيدنا على بن أبى طالب وحتى غريب صالح الذى عرفته أنت شخصيا. هذه رسالة للإنسانية جمعاء. **تفادى احتمالات الموت بأى ثمن ليس بالضرورة الصواب الذى يجب أن يقوم به الإنسان فى كل لحظة.** إذا كان هؤلاء العظماء لم يفعلوا ذلك فما بالك بنا نحن الأناس

العاديين الذين لم يميزهم الله بشيء. في بعض الأحيان يجب أن يتصرف الإنسان واضعا هذا الاحتمال نصب عينيه، دون أن يعيقه عن أداء دوره، ويترك الباقي على الله ليملي إرادته كيفما شاء.
- أنت تعلم أنني ما زلت لا أوافق على ما تقول.
- نعم، ولكن الوقت قد فات، وأنا لن أتمكن من إرجاع عجلة الزمن لتغيير شيء. الأمر ليس بيدي.

لبثنا دقائق لا نتحدث، ينظر أحدنا للآخر حتى بادرت بمصافحته أثناء نهوضه وأنا أشد على يده قائلا:
- ... حسنا، خذ بالك من نفسك.

يوليو ٢٠٥٣

البث الأخير

اليوم هو اليوم الأخير أو هكذا أشعر، فلا يوجد أنسب منه يوم. انتخابات مصيرية دون مرشحين حقيقيين ونتيجة معروفة مسبقا. ولهذا فقد قررت أن أبث بأقصى قدرة ممكنة كل أجزاء مذكراتي على الشبكة.

أتيت إلى هذه الغرفة المقفرة فى هذا المبنى الأثرى المتهالك الذي يبدو أنهم يمهدون لإزالته. اخترت هذا المكان تحديدا لأننى أعتقد أنه سيكون قريبا من قلب الأحداث إذا كان ميعاد "ساعة التوقف" هو اليوم فعلا كما يشاع بين الجميع. اتخذت من خلال مجيئى هنا كل التدابير اللازمة للبث بأمان بالرغم من تأكدى من أن كل الجهات الأمنية مشغولة بأولويات أخرى الآن.

بالإضافة إلى المذكرات قررت أن أبث كل ما يحتويه الصندوق الأسود بما فى ذلك الملفات التى استطعت فك شفرتها بكلمة "ثورة ٢٠٥٣". أما الملفات التى لم أستطع فك شفرتها حتى الآن فسأبثها كما هى لعل أحد يستطيع فى يوم ما أن يفك لغزها.

لا أدرى ما إذا كان هناك شىء آخر أريد إضافته أم أننى سأطلق البث فورا وأغادر الغرفة تاركا ورائى كل هذه الملفات لتصبح متداولة بين الجميع دون أية قيود. أسمع صوتا غريبا فى الشارع بأسفل. هل أضغط على زر البث الآن قبل أن أغادر أم أذهب لأتحقق من الأمر؟!

بعد دقيقة من التردد قررت أن أتحقق بهدوء من نافذتى الضيقة مما يحدث فى الشارع.
إلى ماذا ينظر الناس؟! لماذا يتجمع المارة يحدقون لأعلى وهم يشيرون إلى الشاشات الإليكترونية؟! حاولت أن أخرج بمنتصف جسمى خارج النافذة لألمح بصعوبة شاشة شركتى والتى كنت أعرف موقعها جيدا لأقرأ فى ذهول:

" ساعة التوقف الآن."

عدت بسرعة إلى أجهزتى. " يجب أن أبدأ البث فورا وأغادر بسرعة". وفى اللحظة التى قررت فيها الضغط على زر بدء البث تراجعت. وبالرغم من معرفتى بأن الوقت يداهمنى قررت المخاطرة. نقرت بسرعة " ساعة التوقف" ككلمة سر محاولا فك شفرة الملفات التى لم أستطع الولوج إليها من قبل. وفى ذهول أخذت أراقب الصور والأفلام تفتح الواحد تلو الآخر. أخذت أرقب الشاشة فاغرا فاهى وكأننى أشاهد ما هو مقدر حدوثه اليوم. لو لم أكن متأكدا من مرور عشرات السنين على هذه الملفات التى حفظتها بنفسى فى مكان سرى فى مكتبى لما صدقت ما أراه! يا الله هذا لا يمكن أن يكون حقيقيا... يا الله...

حسنا... يمكننى متابعة المشاهدة فى وقت لاحق بعد أن أبث كل شىء على الشبكة. ولكن هل فعلا سأبث كل شىء؟! هل من الصواب بث هذه الملفات الأخيرة؟! ظللت حائرا لمدة دقيقة ثم بدأ يلفت انتباهى اختفاء الأصوات من الشارع المزدحم بأسفل. لم أعهد هذه المنطقة فى حياتى بهذا الصمت. وكأننا يوم الجمعة صباحا قبل الصلاة. هل أذهب لأتفقد ما يحدث مرة أخرى؟! ولكن قد لا أتمكن من العودة. حسنا هذه المرة سأتخذ قرارى

وسأبدأ البث الفورى... البث الفورى لكل شىء... الحقيقة كاملة... نعم، ثم أغادر الغرفة للأبد.
ترددت مرة أخرى، وبدا كما لو أننى أبحث عن كلمات أنهى بها الصفحة الأخيرة فلا أجد شيئا.

حسنا... بما أنكم تقرأون آخر جملة الآن فى المستقبل فأنتم بالقطع تعلمون ما حدث فى هذا اليوم. وقطعا شاهدتم أيضا الملفات التى تحوى ما تصوّره غريب منذ ثلاثة عقود، وحتى الآن لا أستطيع الحكم على مدى التطابق.

وأنتم يا من تقرأون هذه الكلمات الأخيرة على ما أظن تنتمون إلى فئة من خمسة:

الفئة الأولى التى تتميز بصغر السن ولا يزال لديها الهمة والطاقة لكى تصنع الأحداث التى نمر بها الآن. وبالرغم من اختلافى مع كثيرين واتفاقى مع القليلين منكم فإنكم بالقطع ستغيرون بمساهمتكم، التى تبدو صغيرة وضئيلة، حياتنا جميعا للأبد فى هذا الوطن الذى لا أدرى لماذا مازلت حتى الآن أعشقه وأتمنى له الأفضل دوما.

الفئة الثانية هى الفئة القليلة المتحكمة المحتكرة للسلطة والتى تحارب هذا التغيير. ومن الجائز أن تكون قد نجحت هذه المرة بالفعل فى القضاء التام على الحركة وساعة التوقف. هذا بالطبع ما ستكونون قد اكتشفتم حقيقته فى المستقبل أثناء قراءتكم هذه المذكرات التى أبثها وأنا ما زلت أجهل حقيقة ما يحدث حولى فى هذه اللحظة.

الفئة الثالثة هى المتفرجون من كبار السن والعاجزون مثلى، الذين حاولوا دون جدوى أن يتم التغيير بصورة مختلفة تتفق مع رؤيتهم العتيقة التى تجنح لتجنب المواجهات. ويكفينى شرف المحاولة ونية الإصلاح التى وجهتنى فى كل لحظة من حياتى. أغفر لى يا رب أننى كنت بهذا الضعف ولم أستطع إحداث التأثير المطلوب كما كنت أتصور.

الفئة الرابعة هى جمهور المتفرجين السلبيين المنهزمين فى هذه الجمهورية الزائفة. هؤلاء الذين يرفضون عمل أى شىء إيجابى مهما كان صغيرا بدعوى اليأس والإحباط واستحالة التأثير. هؤلاء الذين لم يحاولوا اختيار أى شىء فى حياتهم وتركوا الجميع يقودونهم كيفما شاءوا دون اعتراض مثل الخرفان التى تقتاد إلى المذبح. هؤلاء الذين حتى اليوم يسخرون ممن ينادون بتغيير الدستور وممن يحاولون بث روح المشاركة الإيجابية فى هذا الشعب الذى ظلم نفسه.
أدعو من الله أن يصبح هؤلاء العبيد أقلية فى يوم من الأيام أو هكذا أحلم.

أما الفئة الخامسة فهى فئة المنعزلين المكتئبين، الذين مازالوا يظنون أن دورهم الصعب فى هذه الحياة القاسية أن يقدموا الحد الأدنى من التنازلات والمواءمات حتى يعبروا بأسرتهم الصغيرة إلى بر الأمان. يحاولون أثناء هذه الرحلة المستحيلة تفادى الفساد الذى يحيط بهم من كل جانب. وهم يؤمنون بأنهم إذا كانوا "فى حالهم"، متفادين الشأن العام، لا يحاولون تغيير شىء مما حولهم، فلن يتعرض إليهم أحد.

إلى هؤلاء أقول إنكم مخطئون لأن الفساد الآن لن يترك أحدا "فى حاله". المواجهة الآن ليست اختيارية ولكنها مفروضة

بقسوة علينا جميعا، وتحتم علينا أن نتخذ موقفا واضحا مما يحدث حولنا حتى لا يتم دهسنا دون شفقة أو رحمة.

وأنا لا أحرض هؤلاء لعمل أشياء خارقة ولكننى فقط أدعوهم للبدء بأبسط الأشياء الإيجابية التى قد تحدث تغييرا، المهم أن تكون موجهة لانتماء أوسع بقليل من أسرتك الصغيرة التى لن ترى مستقبل إذا لم تحاول المساهمة فى جعل المجتمع الذى تحيا بداخله أفضل.

أما مفهوم **"أننا أقلية وضعفاء لا يمكننا فعل شىء"** فهو غير صحيح بالمرة. وسأرد على هذا الادعاء المحبط بسؤال بديهى.

" لماذا خلقكم الله إذا؟!"

فالإحصاءات تؤكد أنكم فقط منعزلون ولكنكم فى الواقع تمثلون نسبة مؤثرة. كذلك فالفئة الأولى فى أمس الحاجة إلى القدوة من أمثالكم فأرجوكم خذوا بيدهم ولا تخذلوهم.

ها أنا ذا سوف أضغط أمر البث وأدعو الله أن يوفقكم جميعا لفعل الصواب، ففى النهاية هووحده سيحاسبكم على اختياراتكم لأنكم قد خلقتم أحرارا ولم تخلقوا ضعفاء جبناء أو على الأقل هذا ما أنا مؤمن به.

وداعا فهذه هى نهاية الطريق على الأقل بالنسبة لى. ولكن قد تكـــون هــــى تحديـــدا **بدايـــــة طـــريقكم أنـــــتم**.

الملحقات

(ما لم أصرح ببثه على موقع الحركة من قبل)

١) ما قبل تأسيس "الحركة"

بسبب رغبتى فى تناول هذا الموضوع بصورة منهجية، فقد حاولت أن أبدأ كما كنت أفعل دوما من حيث انتهى الآخرون. بحثت عن كل المشاريع التنموية المماثلة، وحاولت جمع أكبر قدر من البيانات عن المكان الذى سأبدأ به، بالإضافة إلى كل الإحصاءات المرتبطة بالموضوع، ولكن للأسف جابهتنى مشكلتان رئيسيتان:

الأولى أنه لا توجد جهة موثوق بها يمكن للمرء الاعتماد عليها للحصول على إحصاءات سليمة فى أى قطاع من القطاعات. فمعظم الأرقام التى وجدتها كانت غير دقيقة، وبها الكثير من المغالطات. وقد تأكدت من ذلك بصورة عملية عندما قمت بالبحث عن بعض البيانات الإحصائية التى أنا على دراية بها بحكم عملى. فوجدت بيانات قديمة غير مستحدثة وبعض الإحصاءات الغير سليمة، والتى يصل درجة الانحراف فيها أكثر من مائتين بالمئة.

المشكلة الثانية أننى اكتشفت أنه لا توجد تعريفات واضحة ثابتة ومعلنة من جانب الجهات الرسمية لقياس مؤشرات التنمية. **فمعدلات النمو، والتى يخلط الجميع بينها بقصد وبدون قصد وبين مفهوم التنمية**، يتم استخدامها من قبل جميع المسئولين وكأنها مؤشر حقيقى على تحسن حالة الغالبية العظمى من المواطنين.

وبالرغم من ذلك، فإن سخط الموطنين كان فى ازدياد مما يشير إلى ازدياد الفجوة بين الفقراء والأثرياء، أو هذا على الأقل ما تصورته دون وجود أرقام فعلية تعضد كلامى. هذا طبعا بخلاف عدم إجراء استبيان إحصائى عام للدخول، وعدم تعريف مفهوم الفقر بدقة أو على الأقل استخدام معادلات مضحكة وغير مقنعة.

وفى هذا السياق أود أن أضيف مجموعة من الملاحظات التى صدمتنى أثناء بحثى عن البيانات الإحصائية:

أولا: هناك أرقام تتعلق تحديدا بالنمو الاقتصادى تم تغيير التعريف الذى يتم احتسابها على أساسه مع استمرار المقارنة بالأرقام السابقة. فمثلا تأتى حكومة جديدة فتغير التعريف بصورة ينتج عنها معدل نمو أعلى دون حدوث تغير حقيقى ملموس، وتقارن الأرقام الجديدة بأرقام قديمة محسوبة بمعادلات مختلفة.

ثانيا: لا يوجد شرح واف من قبل المسئولين عن كيفية احتساب هذه المعدلات مما حول كل الأرقام المعلنة إلى مادة للتندر والفكاهة، بل وتجد إعلاميين بارزين ومثقفين يتحدثون عن هذه الأرقام، دون أن يستطيع أحد أن يجيب عن سؤال مباشر يتعلق بالتعريف الاقتصادى البسيط الذى يتم على أساسه احتساب هذه المعدلات.

ثالثا: بعد دراسة للتعريفات النظرية لمعدلات **النمو** الاقتصادى و**التنمية** الاقتصادية (لاحظ الفرق الشاسع فى المعنى بينهما) خلصت إلى أن كل دولة يجب أن تختار التعريفات التى تتناسب معها فى قياس مؤشرات الأداء الاقتصادى، وهو ما لا يحدث بالقطع فى بلدنا التى تنقل تعريفات اقتصادية خاصة بالدول الغنية لا تنطبق مطلقا على بلدنا الفقير.

رابعا: مؤشرات النمو التى يفخر بها جميع المسئولين طبقا لطريقة احتسابها، من وجهة نظرى، تعبر فى واقع الأمر عن معدلات نمو الاحتكارات، سواء المصرية أو الأجنبية، وذلك طبقا لواقع تطور البلد الاقتصادى. وهذه التسمية هى بالضبط ما تعبر عنه هذه

الأرقام وليس شيئا آخر، وبالتالى فلا قيمة لمؤشر النمو فى قياس مدى تقدمنا فى الطريق الصحيح إذا كان من المفترض أن نركز فى المقام الأول على مصلحة الغالبية العظمى من المواطنين. وبالتالى ففى بلد مثل مصر، وبعكس الدول الغنية، فإن **وجود نمو لا يعنى بالضرورة وجود تنمية، ففى كثير من الأحيان نجد أن ازدياد النمو يكون بقدر ازدياد الهوة بين الأغنياء والفقراء مما يؤدى إلى تراجع التنمية.** فالأموال الكثيرة تجتذب مزيدا من النقود والفقر يؤدى إلى مزيد من الإفقار.

وقد خلصت من هذا كله إلى أن تنمية القطاعات العريضة من المواطنين ليست موجودة على أجندة أى من المؤسسات الحكومية إلا بشكل صورى للسيطرة على المنح والمعونات المقدمة من الجهات الخارجية والدول المختلفة. أما بشكل عملى فلا توجد أى محاولات جادة للتنمية يمكن الارتكاز عليها لتكون نقطة للانطلاق.

ومعظم المساعدات المبذولة للفقراء تكون فى اتجاه إعطائهم صدقات كمتسولين، مثل الدعم وخلافه، وليس فى اتجاه مساعدتهم ليعتمدوا على أنفسهم. وفى النهاية يئست من البحث عن تجارب سابقة محلية موثقة بصورة جيدة فقررت أن أعتمد على نفسى وأبدأ من الصفر.

وقد كان لدى وقبل إطلاق "الحركة"، عكس ما قد يظنه البعض، فكرة تعميم المشروع الصغير الذى كنت أتمنى تنفيذه. ولكن يجب أن أعترف أننى لم أعتقد للحظة أننى سأشهد اليوم الذى أرى فيها الحركة تنمو وتتطور لتصل إلى ما وصلت إليه. فكما ذكرت سابقا احترمت عامل الزمن ومعدل التغيير البطىء، وقدرت أننى سوف أبدأ شيئا لن أرى نتائجه قد تظهر ثماره بعد عدة أجيال. ولذلك حرصت على تأسيس الحركة بفكر مؤسسى

يضمن استمرارها و نموها دون الاعتماد على أفراد بعينهم أو حتى الاعتماد عليَّ أنا شخصيا كمؤسس لها.

أما موضوع الإصرار عند تأسيس الحركة على عدم الإعلان عن هويتى كمؤسسها وإبقاء كل الناشطين بها مجهولى الهوية حتى بين بعضهم وبعض، فقد كان لدى أسباب متعددة ثبت بمرور الوقت حكمتها البالغة بالرغم من عدم إدراكى لها بوضوح فى البداية.

فقد كان اقتران أى فكرة فى مجتمعاتنا بشخص ما يجعل المؤمنين بها، لسبب له علاقة بموروث ثقافى، يؤمنون بهذا الشخص ليجسد لهم الفكرة. فإذا ما اختفى الشخص، أو ثبت لهم عدم أهليته للتقديس، أو تم تحطيمه بأى صورة من الصور يفقد الناس إيمانهم ليس فقط بالشخص بل أيضا بالفكرة الأصلية. ولذلك فقد حرصت حرصا شديدا أن يكون اقتناع كل فرد بفكر "الحركة" مبنيا على قناعة شخصية، لا تعتمد فى تطورها بداخله على أى تأثير من الآخرين.

بل إن فكرة الحركة نفسها اعتمدت على قدرة كل فرد- مستقلا- على ابتكار الحلول واقتراح مشاريع تنموية يقودها الشخص صاحب الفكرة دون توجيه أو رقابة من أحد. ولذلك فأنا لا أستطيع الادعاء بأننى توقعت ما كان سيحدث عندما أطلقتها. بل إن كثيرا مما حدث بعد بذلك كان ضد قناعاتى وإرادتى وحاولت منعه. ولكن نظرا لتأسيسى للحركة على مبادئ الحرية والديموقراطية فقد آلت فى النهاية إلى ما آلت إليه كما يعلم معظمكم.

أحد الأسباب الأخرى لسرية العمل التطوعى والذى ثبت بمرور الوقت وجاهته الشديدة كان تفادى الصدام مع الجانب الأمنى. فأنا لا أدعى أننى كنت على علم بما كان سيحدث أو أتصوره للحظة. ولكننى بسبب تجربتى السابقة فكرت أنه من الأفضل أن تعمل الحركة دون دعاية صاخبة. وقد قدرت أنه من الأسلم ألا يتعرف أفراد الحركة على بعضهم بعضا بصورة شخصية ليصبح كل فرد مسئولا عن متابعة مشروعه الخاص. فقد ظننت حينذاك أن الجهات الأمنية لن تعير التفاتا لمجموعة صغيرة تقوم بأعمال تنموية فردية متفرقة لا يجمعها أى تنظيم أو تكتل أو حتى شخص. هذا ما كنت أتصوره والذى ثبت بالطبع خطأه كما تعلمون من سياق الأحداث اللاحقة.

وبسذاجة شديدة تخيّلت أن قوانين الحركة التى وضعتها عند التأسيس والتى نصت على عدم التعرض لأى انتماءات سياسية أو عقائدية أو دينية خلال عمل الحركة سيجنب المنتمين لها أى صراع مع الأمن.

ولكن هل كان نمو الحركة السريع عاملا أساسيا فى وضعها فى بؤرة الاهتمام؟ لا أدرى بالضبط أين اختلت الأمور ولكن الأكيد أن الحركة ما كانت ستئول إلى ما آلت إليه لو أن الأمن ترك الأمور تسير بسلام. وتقديرى الشخصى، الذى قد يختلف معه كثيرون، أنه لولا الإجراءات الأمنية القمعية لما حدث الصدام ولما خرجت الأمور تماما عن السيطرة وحادت عن أهداف الحركة الأساسية.

وقد رأيت أن أفضل خطوة للبدء هى تنفيذ " مشروع رائد" (Pilot Project) يكون الهدف منه الوصول إلى دراسة سليمة لكيفية تعميم مثل هذه التجربة البسيطة على نطاق أوسع.

وقد قررت فى هذا اليوم، ونظرا للصعوبة الشديدة التى واجهتها فى زيارتى، أن يكون أول مشروع أقوم بتنفيذه فى مركز "البلينا". قدرت أنه إذا نجحت فى هذا المكان فبالقطع سأتمكن من النجاح فى أى مكان آخر.

الأهداف الأساسية التى سعيت لتحقيقها:

أولا: تمكين البشر الأقل حظا فى التعليم والموارد من إنتاج قيمة مضافة لخلق دخل يجعلهم يعتمدون على أنفسهم فى تحسين أحوالهم.

ثانيا: أن تكون وسائل الإنتاج المقترحة ذات جدوى اقتصادية، أى أنها يجب أن تحقق فائضا فى القيمة، يسمح باستمرارها وتحقيق استقلاليتها.

ثالثا: يجب أن تكون المساعدة المقدمة بمقابل. فحتى لو كانت المساعدة المطلوبة لا تتعدى الدراسة والتوجيه فإن المجهود المبذول يجب أن يترجم إلى عدد ساعات لها قيمة مادية رمزية، تحمّل على تكلفة المشروع، ويكون لمقدم المساعدة الحق فى إعادة استثمار هذا المقابل الرمزى أو إنفاقه فى تأسيس مشاريع أخرى.

رابعا: محاولة التركيز على النساء للاستفادة من المساعدات المقدمة وجعلهن مسئولات عن المشاريع التنموية. فالسيدات، فى الأغلب لا يدمنَّ عادات قد تؤدى إلى إهدار التنمية مثل شرب السجائر أوالمخدرات أوالشيشة. كذلك فأولوية السيدات فى العموم بخلاف الرجال تكون فى تحسين حياة الأسرة من تعليم ورعاية صحية وتحسين المنزل. وقد أدركت منذ البداية أنه بسبب مجتمعاتنا الشرقية سيكون من الصعوبة بمكان نمو الحركة بدون

أن تكون معتمدة اعتمادا أساسيا على فتيات متطوعات. كذلك سيستوجب هذا تأهيلهن للتعامل مع هذه المجتمعات الفقيرة.

خامسا: استمرار المساعدة إن كان هناك احتياج لتنمية المشروع يجب أن يرتبط بالتزام المستفيدين من المشروع بالأهداف الأساسية لتحسين الحياة ألا وهى:

١- التعليم بكل أنواعه: - التعليم الإلزامى للأطفال إن وجدوا ومحو أمية الكبار.
٢- التركيز على التعلم واكتساب المهارات بصورة مستمرة لتحسين قيمة الإنسان فى سوق العمل.
٣- إعطاء الأولوية للأفكار البسيطة المبتكرة التى تحمل فى طياتها ميزة تنافسية، ترتبط بالإمكانات البشرية أو إمكانات الموقع والخامات الأولية المتوفرة به.
٤- الاكتفاء الذاتى بقدر ما تسمح به موارد المكان المتاحة.
٥- تعظيم الكفاءة والنمو بقدر المستطاع أيا كان القطاع الذى ينتمى إليه أصحاب المشروع سواء زراعى، صناعى أو تجارى.
٦- فى حالة نجاح فكرة المشروع يجب عدم استغلال أى إنسان أو أطفال كعمالة رخيصة.
٧- تحسين إسلوب التغذية لكل أفراد العائلة وخاصة الأطفال للوصول للحد الأدنى للسعرات الحرارية المنصوص عليها فى ميثاق حقوق الإنسان.
٨- الابتعاد عن كل العادات التى تتسبب فى فاقد المنتجات، سواء أكانت غذائية أو غيرها.
٩- الابتعاد عن كل العادات السيئة المضرة بالصحة مثل تدخين السجائر أو الحشيش أو الشيشة. ويعتبر هذا شرطا أساسيا فى بدء التعاون فى أى مشروع.

١٠- الالتزام بمعدلات إنجاب تتناسب مع دخل الأسرة لتوفير حياة كريمة لكل أفرادها.

١١- تدوير كل مخلفات العملية الإنتاجية للاستفادة القصوى من الناتج، وتخفيف عبء التلوث البيئى الناتج من العملية الإنتاجية أيا كانت.

١٢- عدم التفرقة فى التعامل مع أى شخص طبقا لديانته، أو عقيدته أو انتماءاته.

١٣- عدم ربط أى من المشاريع التنموية بأى تيار سياسى، أو دينى أو مذهبى.

بعد أن توصلت لهذه النتائج بدأت البحث عن تجارب مماثلة حققت هذه الشروط. وقد لا يصدق البعض أن هذه المسودة كتبتها قبل اطلاعى على تجربة "محمد يونس" مؤسس بنك جرامين أو بنك الفقراء والذى تطابقت رؤيتى فى كثير من الأحيان مع رؤيته للعمل التنموى. ولكننى لا أنكر أننى فيما بعد استفدت بشدة من هذه التجربة الرائدة.

2) Electronic Voting Machine
ماكينات التصويت الإليكترونى

هذا الجهاز مكوّن من قطعتين:

١- وحدة تحكم.
٢- وحدة عد.

تتصل الوحدتان فيما بينهما بكابل طوله خمسة أمتار. تكون وحدة التحكم مع المشرف على اللجنة الانتخابية، وتكون وحدة العد موضوعة خلف الستار فى مكان تصويت الناخب. وبدلا من التصويت الورقى يقوم المشرف على اللجنة بضغط زر وحدة التحكم. هذا سيتيح للناخب خلف الستار بأن يدلى بصوته عن طريق ضغط زر أزرق فى وحدة العد أمام رمز المرشح المختار.

الميكروشيب المستخدم فى هذا النظام يتم تصنيعه فى اليابان ويتم تشميعه طوال مرحلة الاستيراد. والنظام مصمم بحيث لا يمكن فتحه سوى مرة واحدة يوم الانتخاب، ويتلف تماما فى حالة محاولة إعادة برمجته.

قبل بدء التصويت يقوم المشرف على اللجنة أمام كل ممثلى المرشحين بالضغط على زر " نتيجة التصويت" للتأكد من ظهور الرقم صفر كدليل على عدم وجود أصوات مخبأة فى الجهاز.

بعد ذلك يطلب من ممثلى المرشحين التصويت - على سبيل الاختبار- ثم يضغط على زر "نتيجة التصويت" ليتأكد الجميع من عمل الجهاز بصورة سليمة. بعد ذلك يقوم بالضغط على زر مسح

النتيجة ثم يضغط على زر " نتيجة التصويت" مرة أخيرة للتأكد من عودة العداد إلى رقم صفر.
كل وحدة تحكم محفور عليها بصورة دائمة رقم كودى فريد، يقوم مندوبو المرشحين بتسجيله لديهم ويقوم رئيس اللجنة أيضا بتسجيله فى دفتر خاص. عنوان وتعريف اللجنة يلصقان على كل وحدة تحكم ويكتب عليها نفس الرقم الكودى.

بمجرد ضغط الناخب للزر الأزرق أمام المرشح المختار خلف الستار تومض لمبة صغيرة على يسار رمز المرشح ويسمع صوت صفارة. وبالتالى تكون هناك إشارة صوتية ومرئية للناخب ليتأكد من إتمامه لعملية التصويت مرة واحدة فقط.

وعند إدلاء آخر ناخب بصوته يقوم المشرف على اللجنة بالضغط على زر "الإغلاق". بعد ذلك لن يستقبل الجهاز أى أصوات أخرى. ثم يتم فصل وحدة العد عن وحدة التحكم فيصبح من المستحيل فعل أى شىء بوحدة العد سوى قراءة عدد الأصوات لكل مرشح. بعد ذلك يقوم رئيس اللجنة بتقديم عدد الأصوات المسجلة لكل المندوبين الموجودين ليطلعوا عليها بأنفسهم وليقوموا بالاعتراض الفورى فى حالة وجود أى اختلاف عما هو مسجل بالجهاز.

خواص ومزايا هذا النظام:

- يعمل على بطاريات عادية صغيرة، وبالتالى يصلح للأماكن التى لا يوجد بها مصدر للكهرباء.
- لا يمكن للناخب الواحد التصويت أكثر من مرة عن طريق ضغط الزر عدة مرات. "شخص واحد خلف الستار ينتج عنه تصويت واحد فقط."
- بالرغم من تكلفته الأصلية العالية مقارنة بالورق فإنه على المدى الطويل أوفر بكثير من استخدام بطاقات التصويت. فهو يوفر انتاج الورق وطباعته. هذا الورق الذى لا يمكن استخدامه سوى مرة واحدة فقط. يوفر أيضا نقل وتخزين البطاقات وكذلك مرتبات العدد الضخم للأفراد المسئولين عن الفرز والعد.
- السرعة القياسية فى العد التى لا تتجاوز ساعتين مقارنة بالثلاثين أو الأربعين ساعة اللازمين فى حالة العد الورقى.
- استحالة تزوير الأصوات. فمن الممكن استبدال صناديق الأصوات الورقية بأخرى بها آلاف البطاقات المزورة المعدة مسبقا، أما فى حالة التصويت الإليكترونى فإن الوحدة مصممة بحيث لا تتلقى أكثر من خمسة أصوات فى الدقيقة وبالتالى يصعب على المزور إيجاد زمن كاف للتلاعب.
- وحدة التحكم تستطيع تخزين النتيجة لمدة تتعدى العشر سنوات دون بطارية، مع استحالة التلاعب في النتيجة المسجلة بها.
- لا توجد احتمالات وجود أصوات غير صحيحة.

قائمة بالملحقات:

١- التكاليف التفصيلية لتصميم وتنفيذ نظام التصويت الإليكتروني وعروض من مختلف الشركات.
٢- التعديلات المقترحة لقوانين الانتخابات.
٣- اللوائح التنفيذية المقترحة والعودة للإشراف القضائي الكامل داخل وخارج اللجان الانتخابية.
٤- الإجراءات الاحترازية لمنع أفراد من الداخلية وكل وحدات الأمن الخاصة من التدخل في سير العملية الانتخابية والعقوبات الرادعة لمن يخالف.

ملاحظة:

كافة هذه الملحقات تم مراجعتها بواسطة مجموعة متكاملة من أساتذة قانون عاصروا الانتخابات وتزويرها، ولديهم خبرة تنفيذية عملية في اقتراح آلية محكمة لمنع التزوير.

ثورة ٢٠٥٣ (الجزء الثانى)

البداية .. مرة أخرى

رواية

...

أقضى على الخوف بداخلنا، هذا الخوف الذى يجعلنا نخشى مواجهة أنفسنا لنرى حقيقتنا فى المرآة، لأننا قد نكره ما نراه.

الخوف من إظهار إنسانيتنا لأنها قد تكون بالضعف الذى يسمح للجميع بأن يدهسوها.

الخوف من التوقف عن تقديم التنازلات فقد نفقد هويتنا المادية التى أكسبنا المجتمع إياها عندما قبلنا أن نكون واقعيين.

الخوف من أن نكون مثاليين مؤمنين بالخير والعدل فنظلم ونقهر من قبل جميع الباطشين.

الخوف من فعل الصواب فيقضى علينا كل الخطائين.

الخوف من أن نفقد كل ما نلهث

الخوف من أن نتقن عملنا بنية

الخوف من الحلم بعالم أفضل ف اقع.

الخوف من التغيير لأنه يحمل م

الخوف من مواجهة الله فننفيه عائر مظهرية.

الخوف من... الحياة.

...